

المسلمون بين التحدي والمواجهة

مُقدِّمات

لِلْبَهْوَضِّ بِالْعَلَمِ الْأَعْوَيِّ



بقلم

أ.د. عبد الكريم بكار

دار الفاتح
دمشق

المسالِمُونَ بَيْنَ التَّحْدِيِّ وَالْمُوَاجَهَةِ

مُقَدِّسَاتٌ

لِلّٰهِ هُوَ حُضُورٌ بِالْحَمْدِ الْأَعْوَى

بِتَكْلِمْ

أ. د. عبد الله الكرييم بكار

دار الفتن

دمشق



﴿وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ

صَنْلِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾٣٣﴾

[سورة فصلت : ٣٣]

مُكَدِّمَاتٌ
لِلنَّبِيِّ هُوَ حَرَامُ الْعِبَادَةِ

أَسْسَاهَا:
مُحَمَّدَ إِلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ
وَدَارُ الْقَلْمَانِ | دَمْشَقُ
سَنَةُ ١٩٦٧ م

الطبعة الرابعة

م ٢٠١١ - هـ ١٤٣٢

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٢/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

ص.ب: ٦٦٥٧٦٢١ هاتف: ٢٨٩٥ ص.ب: ٦٦٠٨٩٠٤ فاكس:

لِيُفْكَار

وَالشَّبَابُ الْعَزِيزُ مِنْ الظَّرِيفِ سِعُونَ
لِيُحَمِّلُوا مَلَةَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَشَرْأَعِ الْمَدِينَ
لِيُطَهِّرُوا بَلِيهَ فِي الْعَالَمِينَ .

لِيُؤْلِفُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدَّمةُ الطَّبْعَةِ الْأُولَى

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على إمام الهدى ونبي الرحمة
وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد ..

فهذا هو الكتاب الثالث من سلسلة «المسلمون بين التحدى والمواجهة» وقد خصصناه لمعالجة بعض الجوانب الدعوية التي نرى أنها ما زالت بحاجة إلى العناية والشرح والتمحيص. وقد كان الأول من هذه السلسلة بعنوان: «نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي»، أما الثاني فكان عنوانه: «من أجل انطلاق حضارية شاملة».

إن قضية الدعوة إلى الله تعالى ليست شأنًا خاصًا لفئة محدودة من الناس ولكنها من القضايا المركزية لهذه الأمة؛ فتحن أمة رسالتها الأساسية في هذه الحياة هداية الخلق ونشر أعلام الحق والعدل والخير، وتعبيد الناس لقيوم السموات والأرض. كما أن إصلاح المجتمعات الإسلامية وتخلصها من حالة الوهن والغثاثية، من الهموم العامة لمعظم أبناء أمة الإسلام على اختلاف طبقاتهم وأوضاعهم.

وقد نشرت بحوث ودراسات وكتب كثيرة في قضايا الدعوة إلى الله تعالى - وهي على كثرتها وتنوعها لم تعط هذا الموضوع حقه من الدرس والبحث، وليس ذلك بسبب قصور تلك الدراسات، وإنما بسبب ضخامة الموضوع، وكونه الحقل العلمي الذي بإمكانه أن يُفيد من التقدم العلمي في العلوم كافة؛ ومن ثم فإننا نعتقد أن ميادين القول فيه ستظل رحبة وفسحة ما دام هناك ارتقاء معرفي على هذه الأرض.

إن كون كل مسلم يستطيع أن يكون (داعية) في ظرف ما وعلى مستوى من المستويات يوجب تنوع ألوان الخطاب بما ينمی الإحساس لدى جميع المسلمين بأهمية (الدعوة)، وبما يساعدهم على القيام بها بحسب أحوالهم وإمكاناتهم. وهذا يتطلب فيضاً من الكتب والرسائل ذات المستويات المتفاوتة والمناسبة للخاصة وال العامة.

وأظن أن جعل الدعوة إلى الإسلام (ثقافة) لدى كل مسلم يتطلب تياراً متواصلاً من الحملات التعليمية والثقافية والإعلامية بكل الوسائل المتاحة من أجل توسيع قاعدة المفاهيم والمبادئ والأداب الدعوية المشتركة بغية أداء الأمانة وتبلیغ الرسالة على أوسع مدى ممکن. وبما أننا نعيش في زمان صار فيه كل شيء معقداً فإننا أضجينا بحاجة ماسة إلى الارتقاء بالخطاب الدعوي بما يكافي لغة العصر التي تجمع بين الفلسفة والإحصاء والمعطيات التقنية والحضارية والتجريبية، والتي تتسم بالشمول والكلية. وإذا وصل الأمر بنا إلى هذا الحد فإننا نعتقد أن الساحة الدعوية ما زالت فقيرة في استخدام هذا اللون من الخطاب نظراً لأحادية الثقافة والانعزال المعرفي الذي ما زال يعني منه كثيراً؛ مما أفقد كثيراً من كتاباتنا الجاذبية والجدية والتأثير. وهذا الكتاب ليس موجهاً للعامة، ولا للذين أهمتهم أنفسهم، وشغلتهم مصالحهم الخاصة، وإنما لأولئك الذين سيطر عليهم هم البحث عن الطريق الأقصر وأسلوب الأنجع لنشر أنوار الإسلام في العالمين وإحالة قيمة ومثله إلى واقع كريم يتقيّل الناس أثياء، وينعمون بأمنه وسلامته وعافيتها.

إن مستوى (المعرفة الدعوية) المتوفر الآن لا يكفي لاستمرار قوافل الهدایة إلى غایاتها المنشودة؛ والدليل على ذلك النكسات والنكبات التي تصاب بها الجماعات والهيئات الإسلامية في كثير من بلاد الإسلام والعالم الخارجي؛ ومع أن جزءاً من ذلك شيء لا بد منه إلا أن بإمكان المعرفة الجيدة والخبرة المتراكمة أن توفر علينا الكثير الكثير من الوقت والجهد والمال والدم والعناء، وأن تحققنا الكثير الكثير من النجاحات والانتصارات الباهرة بعد توفيق الله - تعالى - وعونه.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أمزج بين الأفكار القريبة المألوفة
والأفكار والتأملات التي يهتم بها الخاصة من أجل تعميم الفائدة آملاً من الله
- جل وعلا - أن يجعله لي ذخراً يوم الدين، وأن يجعله سهماً في خدمة دينه
وإعلاء كلمته؛ وهو حسيبي ونعم الوكيل.

أ.د. عبد الله يحيى بكار



المقدمة الأولى
في فلسفه الدينيّة

- ١ - الفكر: طبيعته وأهميته.
- ٢ - شيء من قوانين الفكر.
- ٣ - بعض إصابات الفكر لدينا.

(١) الفكر: طبيعته وأهميته

صارت كلمة (الفكر) والتفكير والأفكار من الكلمات الشائعة جداً على ألسنة العامة والخاصة اليوم؛ وعند عودتنا إلى معاجم اللغة نجد أنها تعرف الفكر بأنه: «إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول».

ويقولون: فَكِرْ فِي مُشَكَّلَةٍ: أَعْمَلْ عَقْلَهُ فِيهَا لِيَتَوَصَّلْ إِلَى حَلَّهَا^(١).

ولعلنا نعرف التفكير بأنه: «إعمال الإنسان لإمكاناته العقلية في المحسوب الثقافي المتوفّر لديه بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء»^(٢).

ومن خلال هذا التعريف ندرك أن الفكر ليس شيئاً مطابقاً للأحكام والمبادئ، ولا مطابقاً للثقافة أو العقل أو العلم، وإنما هو استخدام نشط لكل ذلك بغية الوصول إلى المزيد من الصور الذهنية عما يحيط بنا من أشياء وأحداث ومعطيات حاضرة وماضية وتوسيع مجال الرؤية لآفاق المستقبل.

وببناء على هذا فإن العالم غير المفكر، فقد يكون المرء عالماً، ولا يكون مفكراً، وقد يكون مفكراً ولا يكون عالماً، وذلك لأن الميدان الأساسي للعلم هو الإلمام بالجزئيات؛ أما ميدان الفكر فهو إيصال (الكلمات) والاستغلال عليها؛ وقليل أولئك الذين يسمح لهم الاستغلال بالجزئيات بالتوجه إلى النظر الكلي، كما أن طبيعة الاستغلال بالقضايا الكبرى (ترهُد) المفكرين في الاهتمام بالمسائل الجزئية، حيث يرون أنها مندرجة في أنظمة أشمل تحكم فيها.

(١) المعجم الوسيط، مادة: فـكـر.

(٢) انظر تعريفاً آخر في: الأزمة الفكرية المعاصرة: ٢٧.

ومع افتراق الطبيعتين إلا أن هناك خطوطاً عريضة تجمع بينهما أهمها: أن كلاً من المعطيات الفكرية العامة والجزئيات العلمية الصغيرة يميل إلى الظن والتخيّن والبعد عن اليقين؛ وذلك بسبب أن الجزئيات هي مناط الاجتهاد؛ ونتائج الاجتهاد تكون في الغالب ظنية كما أن وفراً العناصر والمعطيات التي تساعده في تكوين الرؤى الكلية يجعلها بعيدة أيضاً عن الصلابة والجذم؛ لكن (الإحالات الثقافية) والخبرات المتراكمة تنقلها إلى حيز اليقين أو الرفض أو التعديل بعد مدة زمنية معينة.

لكن هذا لا يهون أبداً من شأن المعطيات الفكرية؛ فقد أثبتت التجربة التاريخية أنه (لا شيء يضيع)؛ فال فكرة مهما كانت، تترك انطباعاً معيناً سلبياً أو إيجابياً؛ فقد تشکك في مسلمة من المسلمين، وقد تعزز ظناً من الظنون، وقد تنبه إلى شيء منسي، وقد تقدّم أمة من كارثة محققة!!.

وكثيراً ما يحدث أن تأتي الفكرة قبل أوانها أو في غير محيطةها؛ فلا تحدث اضطراباً في الواقع العملي، وهي أيضاً لا تضيع لأنها ستتشكل الخمسة التي سوف تنبت يوماً ما أفكاراً أو حلولاً حين تجد المناخ المناسب^(١).

وهناك إلى جانب هذا سمة أخرى أساسية للأفكار، وهي أن الأفكار التي نستخدمها في حركتنا الاجتماعية تكون في العادة ملائمة للظروف والأحوال المحيطة بها، ومهمة الأفكار إحداث تغيير ناجح في تلك الظروف نحو الأفضل والأسمى، وهذا التغيير الذي يحدث يوجب علينا تغيير الأفكار التي نجحت، كما نغير الأفكار التي أخفقت، وذلك لأن تغيير الأفكار للظروف يوجدها في ظروف جديدة غير ملائمة لها، وهذا مشاهد في الأعمال الإصلاحية الكثيرة التي حدثت في العالم؛ فحين تُطرح أفكار وأساليب لتحقيق النظافة العامة - مثلاً - فإن تلك الأفكار تفقد وظيفتها وأهميتها حين تصبح النظافة عادة للناس، ويصبح الحث عليها غير ذي معنى. وحين تبلور

(١) كثير من أفكار ابن تيمية وابن خلدون جاء في غير أوانه وفي غير محيطة، وقد وجد الآن كثيراً مما افقده، وأصبح يؤتي أكله أشكالاً وألواناً.

أفكار في ضرورة إرسال الأولاد إلى التعليم الجامعي، ثم تنجح تلك في تحقيق مقصدها يصبح الحديث عن تلك الضرورة غير ذي مقتضي... وهذا يعني أن كثيراً من الأفكار تنتهي صلاحيتها ليس في حالة إخفاقه فقط وإنما في حالة نجاحه أيضاً. وهذا مغایر - بالطبع - لحقيقة المبادئ والقيم العليا التي تتأبى على التتحقق الكامل، ويظل بينها وبين التمثيل الواقعي هوة دائمة مما يصونها من الاستنفاد، ويجعل الحاجة إليها مستمرة. ويکمن مقتل النهضة الفكرية في كثير من الأحيان في التشتت بأفكار حفقت غایاتها، وفقدت وظيفتها، والزهدادة في مبادئ توجب طبيعتها الخاصة وجوب المحافظة عليها؛ لأنها تمثل محور الحياة الفكرية التي لا قوام لها بدونه.

أهمية الفكر :

صدق تأكيد كثير من مفكري المسلمين على أهمية الفكر كثيراً من الشيوخ والشباب عن الاهتمام بمناهج الفكر وقضاياهم ظناً منهم أن ذلك الاهتمام سيكون على حساب العمل والتربية والأخلاق والسلوك... وسبب هذا الظن أننا حين نتبني توجهاً معيناً في الإصلاح نلح عليه إلحاحاً يوهم الآخرين بأننا لا نرى سواه، وأننا نهمل ما عداه؛ ومن ثم فإنني أبادر إلى القول: إن استقامة الفكر ونقائه ليس بديلاً عن التربية ولا الأخلاق ولا أعمال الخير ولا الحركة الدعوية، ولكنه الشرط الأساسي لصوابها ورشدتها، فمهمة الفكر رسم مخطط الحركة وجعلها اقتصادية، بحيث تتكافأ نتائجها مع الجهد والوقت المبذول فيها، كما أنه يحيد كل الوسائل والأساليب التي ثبت قصورها ويكتف الخبرات والتجارب المكتسبة في بعض المقولات والمحكمات النهائية، ويساعد على طرح البديل والخيارات في كل حقل من حقول العمل. وهذا كله لا يتأتى عن غير طريق الفكر. ويمكننا إلى جانب هذا أن نستجلify مسوغات أخرى للاهتمام بالفكر في المفردات التالية:

١ - إن الحضارة الغربية ذات منظومات متكاملة في المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولها تصورها الخاص في جميع شؤون الحياة، وهي (الآخر) بالنسبة لنا، وملاحظاتنا على أنساقها المختلفة ستظل

محدودة الأهمية ما لم نبلغ البديل الأصلح والأنفع والأكمل في تلك المجالات كافة من منظورنا الخاص المستقى من المنهج الرباني القويم. وتلك الحضارة تمثل محنـة حقيقة لنا^(١)، ولا سيما أنها الأجهـر صوتاً والأكثر عتـاداً وعدـة. وإذا كـنا نـملك قـوة الحق فإنـهم يـمتلكـون حقـ القـوة، ويـطالـبون بـدفع استـحقـاقـاتـها... وبـامـكانـنا أنـنـكونـمحـنةـ وـتحـديـاًـ حـقـيقـاًـ لـهـمـ فـيـ حـالـةـ وـاحـدةـ،ـ هيـ أـنـ نـسـتـطـيعـ تـقـدـيمـ رـؤـيـتناـ الكـوـنـيـةـ بـشـكـلـ وـاضـعـ،ـ وـأـنـ نـطـرـحـ بـعـضـ الـحـلـولـ الـجـذـرـيـةـ الـمـتـمـيـزةـ لـبـعـضـ الـاختـنـاقـاتـ الـحـضـارـيـةـ التـيـ يـعـانـيـ مـنـهـاـ بـنـوـ الـبـشـرـ الـيـوـمـ.ـ وـهـذـاـ لـاـ يـتـمـ إـلاـ مـنـ خـلـالـ فـيـضـ مـنـ الـخـطـطـ وـالـدـرـاسـاتـ وـالـنـماـذـجـ الـمـتـقـنةـ؛ـ وـهـذـاـ كـلـهـ سـبـيلـهـ الرـؤـيـةـ الـفـكـرـيـةـ النـاضـجـةـ وـالـشـاملـةـ.

٢ - من الممكن لكل الأنشطة الحضارية أن تمضي في سبيلها إلى حد معين فالاقتصاد في أسرة والنشاط الزراعي في حقل ومساعدة ضعيف في مجتمع، كل ذلك من الأنشطة التي يتيسر القيام بها دون الحاجة إلى عناء التفكير، لكن عندما يصل الأمر إلى تنشيط اقتصاد دولة أو التخطيط لمجتمع كبير أو حل أزمات حركة أو جماعة في ظروف حاسمة، فإن التفكير المركّز والمعقد يكون هو الآلة التي ينبغي استخدامها.

واني أعتقد أن معاناة الأمة من بعض المشكلات لمدد تصل إلى قرون كانت بسبب إهمالها للفكر والنقد والمتابعة والمراجعة باعتبارها مبادئ أساسية في التغيير والإصلاح والارتقاء.

إن من المؤسف حقاً أن بعض الإسلاميين ينعت الحديث عن الفكر بالحديث البارد؛ حتى إذا طرحت مشكلة وطلبت حلـاً لها لم تجد إلا الوجوم أو الهروب !! .

٣ - إن العالم الإسلامي لا يعني من نقص في الإمكـانـاتـ وـلاـ الـوسـائـلـ فـمـاـ هـوـ مـتـوفـرـ لـدـيهـ إـلـاـ لـمـ يـكـنـ أـكـثـرـ مـاـ عـنـدـ كـثـيرـينـ لـمـ يـكـنـ أـقـلـ لـكـنـ مشـكـلـتـهـ

(١) ما تصادمت حضارـاتـ إـلـاـ كـانـتـ كـلـ مـنـهـاـ مـحـنةـ لـلـآـخـرـىـ.

تكمّن في أن فاعلية وسائله ونجاحتها مرتكزة على الأساليب والطرق التي تستخدم تلك الوسائل؛ والأساليب تظل محدودة الكفاءة ما لم تستند إلى قاعدة فكرية صحيحة، ترسم خطة واضحة للعلاج والاستطباب من خلال تشخيص الداء وتعيين الأسلوب الأمثل ومقدار التداخل الجراحي المطلوب إلى جانب تحديد أولويات العلاج وتكاليفه وإفرازاته. وفي هذا المقام نجد أن الأرضي التي تكفي لإشباع قارة لا تشبع بلدًا، وأن الطاقة البشرية الهائلة صارت عبئاً بدل أن تكون ميزة تماماً كجيش ضخم لم يلق التدريب، ولم يجد السلاح، ولا الخطة القتالية الناجعة فهو أ��ام من الكتل البشرية المستهدفة للعدو! .

إن قليلاً من الإمكانيات والوسائل مع كثير من الفكر والتخطيط والفاعلية التنظيمية والحركية أعود على الأمة بالخير والنفع من أكداس الأشياء الضائعة والمهملة .

٤ - عصرنا هذا هو عصر الاكتشاف، وقد اكتشف الإنسان من الحتميات والسنن ما لم يكتشفه في أي زمن من الأزمنة ولكنه إلى جانب ذلك اكتشف من الفرص والخيارات الشيء الكثير، وإن كثيراً مما كان يُفرض فرضاً صار اليوم موضع خيار. وإن وجود حتميات وضغوط وخيارات كثيرة يُلزمها باللجوء إلى التفكير الفعال؛ حتى لا نصل إلى طرق مسدودة، وحتى لا نضيّع فرصاً متاحة، إذ إن كل فرصة بحاجة إلى قرار. وصاحب ذلك ضعفٌ وضمورٌ ما كان يستخدم في الأصل بديلاً عن التفكير مثل العادات والتقاليد والمذاهب التي توفر في العادة استخدام العقل^(١) .

٥ - الاستقرار النسبي كان سيد الموقف في العصور الماضية، وبما أن الأشياء لا تتغير كثيراً فإن التكرار كان البديل الصالح عن التفكير، كما أن قلة قليلة من الصفة كانت تملك اتخاذ القرارات، وكانت تقوم بالتفكير عن الباقيين. وكان صنع القرارات الشخصية ميسوراً ومحدوداً لكن المجتمع اليوم

(١) انظر تعليم التفكير: ٢٨.

لا ينعم بالاستقرار بسبب معدل التغير الذي تغذيه (التكنولوجيا) والطموحات الاجتماعية^(١). مما يعني أن استخدام التفكير سيكون أكثر من قبل بكثير.

٦ - حينما تصاب أمة بدمار شديد أو زلزال ماحق فإنه يبقى لها بعد انهيار بنائها شيئاً: مبادئها السامية الكامنة في شخصيتها الاجتماعية، وأفكارها وخبراتها التاريخية والحضارية، وهي تستطيع من خلالهما استعادة كل ما فقدته عندما توفر إرادة تجاوز المحنّة؛ فقد دمرت الحرب كل شيء في ألمانيا، ولم يبق لديها إلا مخزون الأفكار وعزيمة الانتصار، فتمكنت من إعادة بناء مصانعها على ضوء الشموع بعد اندحار الهتلرية^(٢). وهكذا فإن أمة كأمتنا تستطيع بتوفيق الله أن تنجذب الكثير، وتستعيد الكثير إذا ما استطاعت صياغة أفكارها من جديد، وتلمّس سبل النجاة والفلاح.

وهكذا نستطيع القول بعد كل ما مضى: إن توسيع آفاق الفكر لدى المسلم سوف يؤدي إلى توسيع مجاله الحيوي، ويقلل من ضرورات حركته.



(١) السابق: ٢٨.

(٢) مشكلة الثقة: ٦١.

(٢) شيء من قوانين الفكر

لا نقصد من وراء الحديث عن فكر الداعية شرح شيء من متن الفكر الإسلامي ولا هوامشه وحواشيه؛ إذ إن الساحة تتعج بالكتب والرسائل التي تتحدث عن شتى القضايا والمسائل المتصلة بالفكر الإسلامي، وفيها خير كثير وعميم، لكننا نريد هنا أن نعرض إلى بعض المداخل والمحكّات الفكرية ذات الأثر البّيّن في حركة الداعية وجهوده الإصلاحية.

ولا نقصد بالقوانين هنا الحتميات التي تمليها آلية التفكير لدينا، وإنما النتائج والمقولات العامة التي جنتها الإنسانية من وراء المعطيات التاريخية والحضارية والثقافية والعلمية. وإنني لأرجو أن أكشف عن جديد - ولو بالنسبة لبعض القراء -، أو أن أشرح غامضاً، أو أن أجمع شتات متفرق، وذلك في المرتكزات التالية:

١ - المحن الكبرى تفرق ولا تجمع :

يرى كثير من الخيرين أن من شأن المصائب التي تحل بال المسلمين أن توحد صفوفهم، وال الصحيح أن المحن تجمع الناس في أوائلها، فإذا طال أمدها أدت إلى الفرقة، وصار كل واحد من أبناء الأمة يقول: اللهم نفسي نفسي.

وحين نُسف هيكل اليهود عام ٥٧٨ كثرت الخلافات المذهبية وكثرت المدارس وتشعب الجدل. وحين منيت بعض الجماعات الإسلامية بهزيمة كبيرة ساد بينها التلاوم وتحولت إلى جماعات تتبع اتجاهات مختلفة.

٢ - كثير منا يذكر الماضي بصورة جيدة لكنه يمر على دروسه بسرعة غريبة: لا يخفى أن علاقتنا بالماضي هي علاقة حفظ وتذكر، لا علاقة اعتبار

وتدبر؛ فالفتنة والملاحم التي ميزت تاريخنا السياسي لم تزل منا ما تستحقه من التحليل والتأمل، وكنا نردها باستمرار إلى اتباع الهوى أو قلة التقوى أو دسائس الأعداء أو حدوث فتنة، وهكذا اختصرنا أحدهما عظاماً في كلمات قليلة. وربما تملكتنا الدهشة من حصول ذلك في خير أمة أخرجت للناس، فصرنا إلى القول: إن ما ذكر من ذلك القبيل ليس ب صحيح، وبذلنا نكون كمن لا ماضي له ولا تاريخ!! ولعل ذلك يعود إلى أن من ضرائب التخلف فقد الحسن والحدس التاريخي.

٣ - ليس في هذه الدنيا نصر نهائي، وسيظل فهم متطلبات الحركة الاجتماعية أمراً ملحاً:

إن النجاح في أية معركة أياً كان نوعها يضعنا في مواجهة مع معركة جديدة، قد تختلف في متطلباتها لكنها على أي حال تستدعي جهداً جديداً. وهكذا فإن دخول الإسلام في معرك الحياة وتوجيهه لأنشطتها المختلفة لا يعني نهاية المعركة، بل يعني بدايتها بداية جديدة متميزة^(١) تستوجب ابتلاءات جديدة وتتطلب استجابات جديدة؛ وهكذا فلا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه. إن الحركة الاجتماعية عبارة عن حركة ترددية بين قيم المجتمع ومصالحه، وهذه الحركة تتطلب نوعاً من الرعاية والتوجيه والطرح والاستجابة بصورة دائمة من يجاهدون لبقاء المجتمع ضمن الإطار الشرعي والتوجيه الرباني.

٤ - الهوية اكتشاف دائم:

ليست الهوية شيئاً يستخرج من بطون الكتب، ولكنها عبارة عن اكتشاف دائم تتجه الفاعلية الحضارية للأمة في كل زمان ومكان. واكتشاف السلف للهوية الإسلامية مسطور في كتب التراث لكنه لم يدرأ عنا الاختلاف والشجار حول الحدود الثقافية لذاتيتنا؛ وذلك بسبب قدرة أذهاننا على تأويل بعض جوانب الهوية والحدف منها والإضافة إليها. وحركة الفكر المشفوعة بحركة

(١) الوعي الذاتي: ٨٢

اليد مما يبلور متن الهوية، وينفي عنه الزوائد والملحقات. إن الصراع بين الحضارات من العوامل الأساسية المساعدة على كشف الهوية. وقد كان يظن أن الانغلاق يؤدي إلى المحافظة عليها، ثم أفادتنا الخبرة أن الانفتاح الوعي والمتكافئ على الثقافات الأخرى هو الذي يحافظ على الهوية من خلال حركة التبادل وقبول التحدي ومواجهته.

٥ - ليس من السهل تحديد تأثير العقائد في الأحداث، ولكن تأثير الأحداث في العقائد والأفكار يبدو ضخماً^(١):

إن الحدث قد يكون بداعي مبدأ أو معتقد، كما أنه قد يكون بداعي حقد أو انتقام أو منفعة، ومن ثم لا يصح عزو الأحداث إلى العقائد دائمًا. لكن الذي لا شك فيه أن الأحداث حين تتوالى على وتيرة واحدة فإنها تؤثر في العقائد والأفكار؛ فالنجاح على أي صعيد يعزز من ثقة الأمة بمنطلقاتها الفكرية وأصولها النظرية، كما أن الانحطاط والتخلف يعود على تلك الأصول بأعظم الضرر، وهذا أحد الأسباب التي أدت إلى الشقاق بين الصفة عندنا في هذه الأيام. وقد عبر بعض السلف عن هذا المعنى تعبيرًا دقيقاً حين قال: «المعاصي بريد الكفر».

٦ - البحث عن مدى (عصيرية) إنجازاتنا باستمرار خطأ فادح:

ليس كل ما في عصرنا خيراً ولا صواباً، وتناسخ الأفكار والمقاييس المتتسارع يؤكد هذه الحقيقة؛ ومن ثم فإننا في قضايا كثيرة لا نلتفت إلى المعاصرة ومسايرة معطيات عصرنا؛ فالإسلام ليس موجة في (موضة) ولا شيئاً من هذا القبيل وإنه قادر على الانتظار والانتصار^(٢). وهذا هو شأن المبادئ العليا تتأبى على التبعية والانصهار مهما ساءت الظروف. ونحن إذ نطور وننمي نتحاكم إلى مبادئنا أولاً، وإلى مصالحنا ثانياً، ومحاولة إضفاء

(١) تاريخ الفكر السياسي: ٣٠١.

(٢) الإسلام كبديل: ٢٠٧.

المعاصرة على كل ما لدينا من منطلقات ذو ضرر بالغ - في المدى القريب والبعيد - على استحقاقنا الريادة، وعلى صفاء منظوماتنا وبنانا العميقه.

٧ - ثمة فرق بين طبيعة الأشياء ومنظتها:

إن السنن التي بثها الله - جلّ وعلا - في الكون عبارة عن حدود وأنظمة تعطي الأشياء طبيعتها؛ ولا حيلة لنا في تغيير طبائع الأشياء؛ فطبيعة المجتمعات قائمة على (التبادل)، ولا مجتمع بدون تبادل، ومن طبيعة الدولة الحاجة إلى الشرعية والإنجاز إلى جانب القسر والإكراه، ولن توجد دولة يرضى الجميع عن جميع سياساتها، كما أن شرعية الدولة لا تغنىها عن إنجازاتها وهكذا... وطبيعة المال البحث عن النمو، كما أن طبيعة التجارة اقتحام النظم الثقافية كافة. أما منطق الأشياء فهو القوانين التي تحكم تطور الأشياء والنظم والحضارات، وهذه القوانين يمكن إيقافها أو تأجيل عملها إلى أمد معين ولكن بتکاليف باهظة؛ فالظلم يعطي قوة في البداية للظلم لكن منطقه يقود إلى الخراب والانهيار في النهاية. والجسم الفاره يتحمل الأمراض إلى أجل لكنه ينهار في آخر الأمر. والنظام تسير نحو التعقيد كلما تراكمت الخبرة. وسوء التدبير يؤدي إلى الإفلاس ولو بعد حين، وهكذا...

إن المقصود من تحديد طبيعة الأشياء ومعرفة منطق الأشياء هو الاقتصاد في استخدام الجهد الإصلاحي وتحديد مجالات الإرادة الحرة والبعد عن التکلف والاعتساف، ومحاولة لوج البيوت من أبوابها.

٨ - استيعاب التراث شرط لاستيعاب العصر :

تولي الآخرين لقيادة العصر أوقع المعزولين عنها في محنـة مع ماضيهـم؛ فمنهم من رأى الاندماج في الحضارة، ومنهم من ذهب إلى التلـفـيق... وكل ذلك لا يؤدي إلى فهم العصر، كما لا يؤهـلـ للمشاركة في صناعتهـ؛ والطريق الأقوم والأقصر لذلك هو استيعاب التراث بصورة (لا انتقـائية) وإعمال المنهج الريـانيـ ومتطلـباتـهـ في الصورـ الـذهـنيةـ التيـ نـكـونـهاـ عنـهـ، ثمـ الخـلوـصـ إلىـ حـصـرـ معـطـيـاتـهـ العـامـةـ نـجـودـهاـ وـوهـادـهاـ، جـيدـهاـ وـردـيـتهاـ، وـتـكـوـينـ مـرـجـعـيةـ حـضـارـيةـ

خاصة، قوامها هدي الإسلام، ووشيعها الخبرة الحضارية والتاريخية، ثم يتم التعامل مع هذا العصر من منظورها بثقة وافتتاح وفاعلية.

٩ - مثالية المؤرخين شوشت رؤيتنا لتراثنا :

درج كثير من المؤرخين على الإطناب في المناقب والمحاسن عند التراجم والحديث عن الدول والممالك، فأعطوا الانطباع لمن جاء بعدهم بأن السابقين كانوا جميعاً من السابقين بالخيرات، وليس فيهم مقتضى ولا ظالم لنفسه، وكانت عاقبة ذلك احتقار الخالفين لأنفسهم، وتتصورهم أن أحوال السلف كانت استثناء في الخير والفضل، فحصل بذلك نوع من الشعور الباطني (غير المنظم) باستحالة تكرار تجربتنا الحضارية الفذة، فأساءوا إلى الأمة ودينها من حيث أرادوا الإحسان! ولو أنهم اتبعوا منهج المحدثين في الجرح والتعديل لكانوا أقرب إلى الإنصاف، ولساعدونا على فهم التداعيات المنطقية والستنية والتاريخية التي هبطت بالأمة من القمة إلى القاع.

١٠ - حين يصطدم فريقان يستخدم كل منهما أقصى ما لديه من قوة^(١) :

هذه حقيقة أبدية، فالحرص على البقاء والنجاح وحماية المصالح يدفع كل واحد من المتخاصمين إلى أن يستخدم كل ما في حوزته من إمكانات وأسلحة، وأن يخرج كل ما في جعبته من ألوان التآمر والخداع والاحتياط، كما أنه عند تهديد الوجود تتضاءل أو تنعدم مساحة المحرمات! هذا هو منطق الصدام في هذا العصر وكل عصر. وإذا علمنا هذا أدركنا أن اتهام الآخرين بالتأمر علينا أمر لا معنى له، وغير مفهوم.

إذا كان انهيار الحضارات عبارة عن خراب داخلي فإن من الصحيح أيضاً أن الأمم الرشيدة تواجه التحديات الخارجية بالانكفاء نحو الداخل لحل مشكلاته وحقنه بالمناعة وأسباب القوة التي تمكّنه من الصمود في وجه الخارج بكفاءة وفاعلية. إن التحديات الداخلية هي مشاكل الكبار، وإن

(١) المسلمين بين الماضي والحاضر والمستقبل: ١٤.

الانكفاء نحو استثمار رأس المال الداخلي هو أيضاً حيلة الكبار!

١١ - لا تنبثق الإنسانية إلا من خلال الفعل الوعي:

كثير من جوانب الإنسانية لا يورث وراثة لكنه يكتسب اكتساباً فالإنسان يكون عند مولده ناقص النضج، فلا تكشف إمكاناته - حتى وإن كانت مبرمجة على مستوى الجينات - إلا في بيئة ثقافية ومادية ملائمة ومقابل جهد متواصل. الإنسان من خلال اكتسابه الوعي يمتلك القدرة على تجاوز الدوافع الغريزية، ويستطيع أن يتجاوز من خلال نشاط العقل والفكر جمود الاحتماليات الجينية التي تحصر التصرفات المبرمجة في حدود صيقة.

أما الحيوان فإنه - على مستويات متفاوتة - يظل يعيش ضمن مساحات (المثير - الاستجابة) فهو عبد لغرائزه، وغير قادر على القيام بنشاط يتجاوز تلك الغرائز. وقد أجرى بعض العلماء تجربة على أحد الضفادع حين وجدوا بعض الضفادع تتغذى بدودة حمراء، حيث لاحظوا الشدة التي يُحدثها منظر هذه الفريسة لدى الضفدع، فعملوا إلى زجاج مسحوق مطلي باللون الأحمر، وأضافوا إليه طعمًا مصطنعاً، وقدموه للحيوان المسكين، وانطلت الخدعة عليه، فانكب على التهام الزجاج؛ حتى دمي فمه، ولكنه استمر بإصرار غير قادر على الرابط بين الألم ومصدره^(١).

الإنسان لا يقع في هذا لكنه على مستوى الأعمال الحضارية الكبيرة يسلك السلوك نفسه حيث تشاهد الأمم مجتمعاتها تذوب بين يديها، ومشكلاتها تتفاقم، وهي عاجزة عن الرابط بين الانهيار وأسبابه! لكن الإنسان المسلم قادر على تلافي ذلك إذا ما اعتمد بالمنهج، ووعى تجارب الحياة بحنكة ومهارة.

١٢ - في حالات التخلف تشتد النزعة إلى التماطل:

في حالات التقدم والإقبال يكون إدراك الناس لحدود ذاتيتهم الحضارية

(١) عودة الرفاق بين الإنسان والطبيعة: ٣٠٤، ٣٠٥.

أفضل، ويكون الشعور بالمسؤولية أعظم، وهذا وذاك يؤديان إلى الثقة بالنفس واستخدام الحرية المتاحة استخداماً مسؤولاً؛ وهذا ما نجده واضحاً في القرون الثلاثة الأولى حيث كان هناك مذاهب فقهية كثيرة ضمن إطار أهل السنة والجماعة، ولم يكن الناس يشعرون بأنها تشكل خطاً على التدين. وحين دخلت الأمة في نفق الجمود، ثم التراجع ساد خوف كبير من المجيء بقول جديد، وشعر الناس أن ما لديهم من الفقه كافٌ؛ مما أدى إلى انغلاق باب الاجتهاد - الذي لم يغلق بقرار ولا فتوى - واعتبار التجديد خروجاً على الألفة والجماعة وذرعاً لتمييع أحكام الدين. ولا بد من القول إن التدهور يولّد نوعاً من الانقسام في الوعي؛ مما يؤدي إلى تجديد غير منضبط واستخدام للحرية غير مسؤول. لكن دواء ذلك لا يكون أبداً في الخوف من كل جديد. إن الشراء لا يأتي في الفكر والطبيعة والثقافة من وراء التطابق، ولكن من خلال التنوع.

١٣ - لا يحل الإشكال بين العقل والنقل إلا من خلال الغلبة الحضارية:

لم يكن الناس يشعرون بأية مشكلة بين حكم العقل ومعطيات النص، حين كانت الإنجازات الحضارية متواالية، وكان الفارق بين الواقع والمثال محدوداً، وحين دخلت الأمة في أزمة الركود والتآزم صارت في محنّة متطاولة، ومن شأن المحن أن تسلط الوعي على المنظومات الثقافية والعقدية والفكرية المختلفة، وحين يتسلط الوعي على شيء فإنه ينظمـه، ويرسم حدوده وأبعاده، وليس مستغرباً آنذاك أن ينتهي كثير من الناس إلى وجود مفارقات وتقاطعات بين مكونات ذواتهم ومناهجهم. ولا يوجد - في نظري - حل حاسم لهذه المشكلة إلا من خلال تحقيق شيء من الغلبة والتميز الحضاري؛ فهناك أمم كثيرة لا تعرف شيئاً عن هويتها ولا عن ذاتيتها، لكنها لم تدخل - إلى الآن - في أزمة (العلاقة بالتراث) بسبب الناتج الحضاري والشعور بالغلبة والتآلق. وحين تحدث الغلبة سيشعر الناس أن اندماجاً حقيقياً بين النقل والعقل صار حقيقة واقعة، بل إنهم لن يشعروا أن هناك عقلأً ونقلأً.

١٤ - من الشعور بالمسؤولية تولد الشخصية :

بإمكان الطاقات والخصائص الفذة أن تظل كامنة في الفرد حتى الممات دون أن تكتشف، وسبب عدم اكتشافها هو أنه لم تتع الفرصة لبروزها، وكثير من الآباء يتعامل مع ولده الشاب على أنه طفل، ويظل طفلاً بالفعل بالنسبة لأمور كثيرة. ومن ثم فإن الواجب أن نمنع حرية الحركة لمن تحت أيدينا، وأن ندربهم على تحمل المسؤوليات والمهامات مع ممارسة الرقابة - عن بعد - عليهم، ولا ريب أن هناك أفراداً وجماعات وشعوبًا ليست أهلاً لتحمل المسؤوليات الخطيرة لكن ذلك ليس بسبب عيب خلقي ولا تشوه جيني، ولكنه بسبب قصور اجتماعي وثقافي، وبسبب الضغوط الرهيبة التي تقتل الإبداع، وتبعث على السكون وإيثار السلامة حتى فيما لا خطر فيه أصلاً. والتنتجة هي وجود أنواع من التسبيب والأخطاء الفادحة التي عليك أن تبحث عن المسؤول عنها، وقد صحت فيما سيارة: «مشاكلنا صنعتها الجيل السابق وسوف يحلها الجيل اللاحق»!! أما نحن ففي مقاعد النظارة والمتفرجين! إن من مصلحتنا أن نحمل المسؤوليات، ونسأل عن التبعات؛ فذاك هو البديل عن الهزال الشديد الذي طبعت به شخصية المسلم هذه الأيام.

١٥ - الرؤية تتشوه عند عزل الحالة الراهنة عن مساقها :

ماذا يستفيد من يجلس في غرفة لا يعرف في أي حي هي، ولا في أية مدينة، ولا في أية قارة؟ إن الشعور الذي سيسطر عليه حينئذ هو شعور الضياع والخوف والكلالة والانحسار.. وكيف يرى جمال بساط من وضع أنفه عليه كما يفعل الطوبيين؟ وكيف يرى مسار نهر من ينظر إليه عند مستوى؟ إن الذي يركب طائرة يتسع مجال رؤيته لأجزاء ومنحنيات عديدة من النهر، لكن رائد الفضاء يرى النهر من منبعه إلى مصبه في البحر^(١).

إن الذين ينظرون منا إلى حالتنا الحاضرة دون الرجوع إلى الوراء،

(١) عودة الوفاق: ٢٣٣

ودون البحث في الجذور ودون التخييل بأن هذه الحالة وليدة حالات سابقة وستلد حالات لاحقة. إن هؤلاء لا يصلحون لتشخيص أي معضلة فضلاً عن المساعدة في حلها! والقرآن الكريم أراد أن يوسع لدينا مجال النظر حتى لا تتشوه الرؤية، فأمرنا بالعودة إلى الوراء حين قال: «فَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنُنُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْتَّكَذِّيْنَ»^(١).

إن فهم الماضي شرط لفهم الحاضر وتوقع المستقبل؛ وفهم الماضي لا يتم وفق معادلات رياضية، ولا مقدمات ونتائج منطقية ولكنه يحتاج قبل هذا أو ذاك إلى الشفافية، وقبل ذلك إلى الخيال. وقد كان نابليون يقول: «إن عيب مؤسساتنا خلوها من أي شيء يتوجه إلى الخيال. ولا يمكن حكم الإنسان إلا بالخيال. لو لا الخيال لكان الإنسان بهيمة»^(٢)!

١٦ - الأوضاع الرديئة تكون عقيدة اجتماعية بعيدة عن الصحة والصفاء:

وظيفة العقائد تتعذر تكوين المجال النظري للإنسان إلى بناء الواقع المعاش على هديها ووفق متطلباتها. لكن العقائد لا تعمل في فراغ، وإنما في ظروف وأوضاع مواتية أو معاكسة. والناس في حركتهم اليومية، ومن خلال خبرتهم الحياتية يقيمون موازنات دائمة بين مبادئهم وعقائدهم وبين مصالحهم، ويتبين عن هذه الموازنات شيء نسميه (العقيدة الاجتماعية) والعقيدة الاجتماعية أقرب إلى أن تكون انعكاساً للواقع العملي من أن تكون أفقاً نظرياً.

العقيدة الإسلامية تحرم الكذب لكن حين يكون المجتمع مريضاً، ويكون الصدق فيه مجبلة للأذى، وحين يكون الحصول على الضرورات المعيشية لا يتأتى إلا عن طريق الرشوة أو اللصوصية والنهب، فإن الحس الاجتماعي يضعف تجاه هذه المحرمات، بل إن الأم تنهى ابنها عن صدق يسبب له الأذى، وتوصيه أن يكون [شاطراً وكَدُّعاً]، أي متخففاً من القيود الأخلاقية التي تحول دون الحصول على المنافع!

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.

(٢) تاريخ الفكر السياسي: ٣٦٧.

هذا كله يعني أن مدى تقارب أو تطابق العقيدة الاجتماعية مع القيم والمثل العليا يعد مقياساً دقيقاً لصحة المجتمع وصلاحه، ونجاعة الجهود الإصلاحية المبذولة فيه، كما أنه مقياس لحيوية العقيدة والمثل العليا ومقدرتها على صياغة السلوك الاجتماعي.

١٧ - التخلف يضعنا ضمن معادلة: [الاندماج أو التحلل الذاتي]:

في ظل التواصل العالمي الذي وفرته ثورة الاتصال توفرت خيارات كثيرة للحركة ولا ريب، لكن حددت مسارات عامة صارمة لتلك الحركة. وصارت الشعوب والدول والمجتمعات المستهلكة للحضارة والتي تعيش على هامش العصر بين متحارجتين، هما الاندماج أو التهميش ثم التحلل الذاتي. والحقيقة أنه لا يعادل السوء الذي يأتي به التحلل والتهميش سوى السوء الذي يفرزه الاندماج في ثقافة أجنبية مغایرة. وقد يظن البعض أن اندماج ثقافة في ثقافة أخرى هو سبب الانهيار، لكن الصحيح أن الاندماج هو نتيجة الانهيار، وبإمكان أمة عالة في الإنتاج المادي، والأدبي على غيرها أن تمنع على الاندماج لكنها ستدفع الثمن باهظاً، وهو آنذاك العيش خارج العصر وانقسام الوعي واهتزاء أبنيتها الثقافية والاجتماعية!! وأمة ذات ثقافة كبرى متميزة كأمة الإسلام بإمكانها أن تكسر هذه المعادلة من خلال الكفاح والمشاركة في إنتاج قيم العصر وألياته وفق نماذجها الخاصة ورؤيتها الكونية الشاملة بشرط أن تعرف قدر ما جبها الله إياه، وأن ترفع شعار العمل الدائب.

١٨ - دراسة تاريخ الأمة على أنه كتل ممزقة ضرر كبير:

تأثر كثير من كتابنا ومثقفينا (المنهج التفكيري) في دراسة تاريخ الإسلام وهذا المنهج - بطبيعة - يعطي الفرصة لانتقاء وتسوييف الضوء على حادثة دون غيرها، كما يعطي الفرصة لقطع الحوادث عن ظروفها ومساقاتها الخاصة؛ مما مكن الكثيرين من جعل التراث تكأة لتسويف مذاهبهم الخاصة. ولم يكتفوا بالبتر والعزل لكنهم بعد قراءة ناقصة لسير الأحداث عمموا النتائج التي حصلوا عليها على ما يرغبون من جوانب التراث وقضاياها، فكانت

النتيجة اللعب بالتراث وتوظيفه لمارب خاصة! والثمرة النهاية التي جنتها الأمة لم تكن معرفة الماضي، ولكن سيادة روح العدمية والتشاؤم والإحباط وكان المفروض أن تدرس الحوادث ضمن سياقاتها وظروفها، وعند تقويم مرحلة يتم عرض الجوانب الموجودة فيها على الصعد السياسية والثقافية والسلوكية والاقتصادية، حتى تكتمل الصورة في ذهن القارئ.

وقام فريق من حسني النيبة بالعمل نفسه، فانتزعوا بعض الصور المشرفة من ذلك الماضي، ثم عرضوها على أنها نماذج لعصور مزدهرة، وكانت النتيجة لعمل الفريقين انقساماً في الوعي وبلبلة في الفكر وتبعاً بين قطبي التنافي!

١٩ - صار المهم اليوم كيفية حدوث الأشياء، وليس أسباب حدوثها:

خطا الفكر البشري خطوات فساحاً على طريق التعامل مع الطبيعة والماهيات، ومن جملة ما خطوه في قضايا عديدة هو تجاوز السؤال عن الأسباب إلى التساؤل عن الكيفيات التي توصل إلى ولادة حدث ما؛ إذ لم يعد مهماً التساؤل عن الأسباب الداعية لأن يكون الناس أحراراً أو محفوظي الكرامة أو بعيدين عن الأخطار.. لكن السؤال الآن كيف يمكن إخراج إنسان من العبودية والإحساس بالمهانة إلى الكرامة والحرية...

وهذه الخطوة يجب أن نخطوها على طريق التمكين لهذا الدين في الأرض؛ حتى نصل إلى المحك النهائي، ونبداً العمل الجاد؛ وذلك بالقول: كيف يصبح الإسلام عقيدة لأهل القرن الحادي والعشرين أو أكثرهم، وكيف يمكن تلافي انقسام مجتمعاتنا على أنفسها، وكيف يمكن تأمين حركة تبادل اجتماعي نشط دون حدوث تسبيب أو فوضى، وكيف وكيف؟؟؟

ولأنه لمن المؤسف أن كثيراً من الدعاة وأهل الخير ما زالوا بعيدين عن ملامسة هذه الآفاق والشعور بأهميتها بسبب فقر الخيال أو العيش خارج الزمان! .

٢٠ - الإجمال في موضع التفصيل مضلل:

للهجمال مواضعه التي لا يحسن فيها غيره، كما أن للتفصيل مواضعه التي يكون للهجمال فيها مضلاً، وقد صرنا اليوم نرى - أكثر من أي وقت مضى - من يستخدم للهجمال من أجل ذر الرماد في العيون وتشویش الرؤية وتسويف ألوان القصور . . .

فإذا قيل عندنا بطالة قال قائل: وعند الغرب بطالة. وإذا قيل عندنا فقر قيل في ضواحي (نيويورك) فقراء، فلماذا العجب؟ وهكذا . . .

ويجب أن نعلم أن هذه المقارنة لا معنى لها إذ لا يخلو مجتمع من فقراء أو فوضويين أو مجرمين أو عملاء.. لكن المهم هو التعاريف والنسب؛ فالعاطل عن العمل في عالمنا الإسلامي يستدین أو يتسلّل أو يسرق، وفي أمريكا يتقادس قرابة (٢٠٠٠) دولار في الشهر؛ أي أفضل من الدخل السنوي لعشرة مواطنين في دولة إفريقية! والفقير في بعض المجتمعات الغربية هو الذي لا يستطيع شراء سيارة للنزهات! وعندنا الفقير هو الذي لا يجد حذاء يتعلّه، أو رغيفاً يسد رمقه!

وهكذا . . . ومن ثم فقبل الحديث عن أي شيء من هذا القبيل يجب تحديد المصطلحات، ثم بيان النسب، وإلا فالسکوت أولى.

٢١ - قليل من الناس يملك الشجاعة على مراجعة أفكاره:

إن النقد ملكة راقية جداً، والتقليل ملكة شائعة جداً، ولذلك نرى جمهور الناس يقبلون المبادئ كما تأثيرون على علاتها بمحض شيوغها، أو عن طريق التربية. ومن هنا اشتراك السواد الأعظم من كل أمة وفي كل زمان في حد وسط من التصورات والمعقولات؛ فأشبّه بعضهم بعضاً شبهاً قوياً كشبّه الماء بالماء^(١).

ونقد الآخرين يظل أسهل من نقد النفس؛ لأن الإنسان حين ينقد نفسه

(١) سر تطور الأمم: ١٢٣.

يقوم بدور الحجر والنحات في آن واحد! ولقلة ممارسة النقد والمراجعة لدينا فإن قليلاً من الأفكار لدينا يصمد إذا تناوله أي نقد سطحي. والغريب أن لدينا بعض المؤسسات والجماعات لا ترضى عن أي عمل أو فكر، وهي طول عمرها تنتقل من إخفاق إلى إخفاق دون أن يكون ذلك حافزاً لها نحو أية وقفة تأمل! إنها تملك مناعة خاصة ضد آلام التجربة!

٢٢ - العمل الدعويي أنظمة مفتوحة، ومن ثم يصعب تقدير نتائجه: تتفاعل مكونات الأنظمة المغلقة معزولة عن البيئة المحيطة بها، على نحو ما تتفاعل عناصر كيميائية داخل قارورة. أما الأنظمة المفتوحة فهي مرتبطة بكثير من التحولات والتغيرات المستمرة التي تحدث في البيئات التي حولها^(١).

وبما أن سيرورة البيئات خاضعة لمنطق غير المنطق الذي تتبعه الأنظمة المختلفة فإن النتائج التي ستحدث من وراء تطبيق الأنظمة المفتوحة تظل غائمة وظنية.

وبما أن البرامج الدعوية تستهدف تغيير البيئة المحيطة فإن النتائج المتواخدة منها متوقفة على استجابة البيئة والأوضاع التي تحكمها. ومن هنا فإن العجب لا ينقضي من بعض الجماعات التي وقفت (لنصرها النهائي!) ثلاثة عشرة سنة، هي مدة المرحلة المكية! ولما انقضت العدة، ولم يتحقق لها ما تريد كررت العدة مرتين وثلاثة، وما زالت... إن الموقف الصحيح في هذا الموضوع يكمن في تحديد أهداف بعيدة المدى وأخرى مرحلية في إطار رؤية شاملة، ثم مراجعة كل ذلك وفق منهجية محددة.

٢٣ - إن المهم هو التفوق على الذات:

بإمكان أكثر الناس عجزاً وأقلهم حيلة أن يجد من هو أضعف منه ليتغلب عليه ويقهره؛ لكن المهم دائماً هو التفوق على الذات، والشعور

(١) الاتصال والسلوك الإنساني: ١٢.

بالتحسن الدائم والارتقاء المطرد... ولا شيء يحول دون ذلك كالنرجسية والإعجاب بالنفس ونزع إنجازاتنا من طبيعتها الزمنية لنجعلها عملاً نهائياً؛ فتفصي بذلك عنها بعدها الإنساني الحي والمرحلي، وندخلها في نفق الجمود ثم الأضمحلال. إن قول الله - جل وعلا - : «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ»^(١) حث خفي لنا بدوام الاستزادة من العلم والشعور بالنقص، وأننا لم نصل إلى النهاية وأن الأفق أمامنا ما زال ممتدأ.

٢٤ - فقد الإطار المرجعي أربك العقل :

عندما أعلنت الحضارة الحديثة اتخاذ العلم ديناً، واستبدلت بملوكوت السموات ملوكوت المعرفة والفكر والإبداع شعر الإنسان أنه فقد مركزه في الكون، وعاد أشبه بباقي أنواع الحيوان دون إيمان يهديه في عالم يسمى على مداركه، وصار البائس المسكين يدور حول نفسه في يأس، ويحبس الفكر في فقاعة، لا يجد سبيلاً إلى الفرار منها، الأمر الذي يذكرنا بالزنبروك يتخطى بلا هدف على زجاج نافذة مغلقة^(٢).

في هذا الوقت بالذات يسعى أناس منبني جلدتنا إلى إطفاء الشعلة التي يبحث عنها العالم الضائع بتشويه الأصول وبذر الشكوك وختق الورود الممتفتحة والتعلق بأدبيات التائهةين كفراً بأنعم الله... ولسوف يدركون يوماً أنهم قاموا بأعظم جريمة في تاريخ البشرية حين منعوا شلالات الهدایة من الوصول إلى مصابها الطبيعية!

٢٥ - يجب بث روح التفاؤل باستمرار :

إن الشعور بالإحباط وانسداد الأفاق لا يحتاج إلى تحريض ولا تشريط؛ فهو يحتاج النفس البشرية بصورة آلية نتيجة سوء الأحوال والانكسارات اليومية التي تصادف المسلم هذه الأيام..

(١) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٢) عودة الوفاق: ٣٦.

لكن الذي يحتاج إلى معالجة وتوجيهه هو الشعور بالتفاؤل وتحسين الأوضاع؛ إذ إننا لن نكتب من وراء اليأس إلا انحسار الذات وخمود النشاط وارتباك الوعي... ومن المهم في الظروف الصعبة أن تستخرج الإيجابيات وخمائر الإصلاح والصلاح، أما تعداد السلبيات فهذا يستطيعه كل أحد. إن النقد ليس الكشف عن المعائب فحسب بل الكشف عن مساحات الخير والجمال أيضاً. إن جزءاً من انتصار الإسلام لن يكون بالجري وراء العالم لإصلاحه ولكن بعودة العالم إليه بعد انسداد السبل أمامه، وإن الوقت ي العمل لصالح هذا الدين؛ وإن علينا أن نتعلم فضيلة الانتظار؛ والله غالب على أمره. وبهذه الركيزة نختتم الحديث عن هذه المؤشرات التي أردنا منها رسم بعض الخطوط التي توجه حركة الفكر، وتشير المزيد من التساؤل حول وضوح أشد نشده، ورشد أعظم نسعى إليه.



(٣) بعض إصابات الفكر لدينا

لا يتمارى اثنان في أن أمة الإسلام تعيش أزمة تختلف حدتها من بلد إلى آخر، وهذه الأزمة شاملة للمجالات الحياتية كافة، وإن كنا نرى أن بعض التقدم يحدث الآن في بعض الصعد، لكن (التخلف) عن الركب الحضاري وضعف الإنتاج الأدبي والمادي ظاهرة لا تخفي على أحد. وقد سلطنا الضوء في الجزء الأول من هذه السلسلة على ظاهرة التخلف بما يكون صورة عامة لدى القارئ عن الحالة المنكورة التي تجتاح العالم الإسلامي. هذه الوضعية التي يعيش فيها المسلمون هي نتاج اضطراب فكري عميق عانى منه العالم الإسلامي منذ قرون عديدة.

والاضطراب ليس ناتجاً - بالتأكيد - عن تشوه خلقي أو قصور جيني في ملكة التفكير لدينا، وإنما هو ناتج عن تشوه ثقافي وتربيوي؛ فالثقافة التي تحبذ الاتكال والخمول والانطواء، وتتجاهل عن الفوضى والجهل والتسيب، وال التربية التي يتلقاها الفرد بعيداً عن هدي الإسلام ودروس التجربة الحضارية، مما اللتان تطبعان الفكر بالخطل، وتوجهانه الوجهة العقيمة؛ وحين يصاب التفكير بالعطب تتوجه آلة الحراك الاجتماعي وجهة منحرفة، وتتصبح معرفة قوارب النجاة ومراسيد الحق والصواب بعيدة عن التناول. ويزداد الفكر تازماً كلما تأزم الواقع وانحبست الحركة الاجتماعية والثقافية دون الوصول إلى آفاقها النهائية؛ إذ كثيراً ما تتأزم الحياة الفكرية نتيجة تأزم الحياة العملية المادية؛ لتدور الأمة في حلقة مفرغة لا ترجو منها خلاصاً ولا فكاكاً.

إذن ما سنسوقه من بعض الأمراض والأعراض التي ألمت بالفكر لدينا هو في جوهره تشوه ثقافي، لكن لا يستغني إصلاح الثقافة وترشيدها عن

العقل المبدع والفكر المستنير الذي يشخص مواضع الألم والإصابة، ثم يستخرج بطريقته الخاصة النماذج الصحية والصحيحة من بين المركوم الثقافي العليل.

ولعلنا نسوق في المفردات التالية بعض ما نظنه أزمة أو علة في حياتنا الفكرية على النحو الآتي:

١ - نمو في التفكير بشئون الفرد على حساب التفكير بشئون المجتمع:

لا يخفى على أحد أن (الجماعة) هي معقد ولاه المسلم أكثر من ولائه لدولة أو لوطنه، وقد ظل أهل السنة والجماعة مشدودين على مدار التاريخ نحو التوحد وفكرة الأمة وإلى يوم الناس هذا؛ فلا يرضي شعب من الشعوب الإسلامية أن يطلق عليه لفظ (أمة) خوفاً من الانعزal عن المحيط الإسلامي الواسع. لكن علينا في مقابل هذا أن نقول إن الفقه المتعلق بشئون الفرد وحركته وحقوقه وواجباته ظل على مدار التاريخ أكثر نمواً ورحابة من الفقه الذي ينظم شئون المجتمع - الجماعة -. كما أن النشاط الفكري لدينا نحا المنحى نفسه مع قوة الإحساس بأهمية الجماعة وضرورة الالتحام بها وحل مشكلاتها. ولعل السبب في ذلك هو أن الوعي المدني لم يتم تنظيمه بشكل كاف مما جعل الولاء في نطاق الأحساس والمشاعر؛ والوعي المدني لا يُنظم عادة إلا من خلال (المؤسسات) المختلفة، وعلينا أن نعترف مرة أخرى أن تاريخنا بمقدار ما هو حافل بالأعمال والمآثر الفردية - ضامر في الأعمال الجماعية، ومن ثم فإن كثيراً مما يتوقف إنجازه على الإرادة الجمعية والحركة الاجتماعية ظل معطلأً أو ضئيلاً، وأكبر مثال على ذلك قضية (الفروض العينية) فقد فُصلت تفصيلاً تماماً على حين ظلت مسألة الفروض الكفائية عائمة، مع تصريح الفقهاء بأن الفرض الكفائي إذا لم يقم به أحد صار عيناً في حق القادرين عليه. وما تمت بلونته منها كان في الناس في العادة دون السلام وتجهيز الميت ودفنه وما شاكل ذلك مما يقوم به الناس في العادة دون الحاجة إلى إلزام. أما القضايا الكبرى مثل اكتفاء الأمة من الغذاء والكساء والسلاح والعمال المهرة والأطباء... فظل تحقيقها متوقفاً عند حد

التوصيات بضرورة الكفاية فيها، وعلى المبادرات الفردية المحدودة التي لا يمكنها بحال من الأحوال أن تنهي مشكلة مجتمع ضخم.

وأقرب من هذه القضية مسألة (أهل الحل والعقد) - فمع الحديث عنهم في بعض كتب الأحكام السلطانية وبيان أهميتهم في تكوين مؤسسة وسيطة تمنع للمجتمع نوعاً من الاستقرار والرشد والأمان من فتن الاحتراب الداخلي مع ذلك لا نلحظ لهم دوراً يذكر في تاريخنا الإسلامي المديد، وما ينسب إلى بعضهم من أعمال مباركة كان جزئياً ومحدوداً وقليل الفاعلية لأنه كان يتسم دائماً بالانطلاق من روح فردية؛ والحجر لا يستمد صلابته وعمله إلا من اجتماعه وإلا فهو قبضة رمل!.

ولأننا نعتقد أن الفكر الدعوي والإصلاحي لم يحدث فيه تقدم كبير في هذا الصعيد - إلا إذا استثنينا أعمال البر والخدمات الاجتماعية - فما زالت هموم الجماعة مقدمة على هموم المجتمع الكبير، وما زال التفكير في انعكاسات الاقتصاد على التربية والسلوك الاجتماعي - مثلاً - وأثر البيئة في التفكير والمعتقد، ومدى أثر الرضا الاجتماعي في فاعلية الأفراد، ومدى انتشار الأممية في الالتزام، ما زال الاهتمام بكل ذلك هامشياً في المحيط الدعوي، وأية ذلك الدراسات والبحوث التي قام بها الدعاة في هذه المسائل الحيوية؛ فعلى حين لا نجد من البحوث فيها إلا الأحاديث الأفذاذ تجد مئات الرسائل المتعلقة بالصوم أو الصلاة أو الحج؛ مما يتصل بعبادات المسلم وسلوكه الفردي.

وآية أخرى على ضمور التفكير الجماعي لدينا أن الدراسات التي تتناول أبنية المجتمعات الإسلامية التاريخية ومشكلاتها وأطوارها أيضاً محدودة أو معدومة، وما هو متوفر لدينا عنها عبارة عن نتف لا ينظمها نظام فضلاً عن افتقارها للتوثيق؛ وأدى هذا كله إلى أن تكون خبرتنا بالحركة الاجتماعية التاريخية ضعيفة، وجعل أحکامنا عليها مبتسرة أو متعرجة.

بل إن مما يدهش حقاً أن يكون هناك نوع من القطعية بين الدعاة وبين العلوم الاجتماعية؛ فقد يقضي الواحد منا عمراً مديدةً في الدعوة دون أن يقرأ

كتاباً واحداً في الاجتماع بحجة أن هذه العلوم غربية، ولا تخلو من دخل، مع أن سنن الله - تبارك وتعالى - في الاجتماع كستنه في الفيزياء والفلك، يجدها من يبحث عنها، ولا نستطيع أن نزعم أنها أكثر من القوم جدية في البحث عنها. وهذا كله مع أن عمل الدعوة كله عبارة عن تغيير المجتمع وتوجيهه الوجهة النافعة.

إن علينا أن نعلم جيداً أن الفرد - أيًّا كان مستواه - لا يستطيع أن يتجاوز كثيراً السقف الذي يحدده مجتمعه، وأن الكل يساوي الجزء، وأن الجزء يساوي الكل، وأن التركيز على إصلاح الأفراد دون الاهتمام بإصلاح المناخ لن يأتي بكثير فائدة.

٢ - نحن لا نفكِّر إلا عند وجود أزمة:

من طبيعة الفكر أنه لا يستطيع أن يسبق الواقع إلا على وجه الحدس والتخمين بل إنه في بعض الأحيان يكون عاجزاً عن ملاحظته^(١)، وهو حين يحاول القبض عليه لا يفهمه إلا عبر (إشكالية). خاصة لا يُشترط أن تكون ذات كفاءة بالإلمام بالواقع، لكن مع هذا فإن المبادئ المنطقية وما ألمَ المرء به من ثقافة سنتية، وما يجمعه حول الواقع المحاطة به من معلومات، كل ذلك يساعده على أن يتلمس آفاق المستقبل بشيء من الوضوح، كما يمكنه من الوعي الحسن.

إن البطء هو قانون التغيير، وإن أية حالة يكون بظهورها متناسباً طرداً مع حجمها؛ فشيخوخة جسم تحتاج إلى زمن أطول بكثير من تلف سن، وهكذا أحوال الرخاء والشدة والتقدم والتخلف تتكون ببطء شديد، وإن العالم الحق والمفكر الأصيل هو الذي يستطيع الإحساس بالأزمة ويتخيّل بعض تداعياتها قبل أن تصبح كابوساً جاثماً على صدر الأمة.

(١) لو أنا نقلنا ساعة الحائط من الجدار الذي هي فيه إلى جدار آخر لوجدنا أن نظرنا يظل يتجه إلى مكانها القديم أيامًأ عدّة.

إن عملية التفكير عملية شاقة جداً في الأصل، وإن المؤهلين للقيام بها قلائل دائماً، ويزيد الطين بلة عندنا قلة المعلومات التي تساعد الفكر على الحركة، ويؤدي ذلك كله إلى بطء عمليات التفكير لدينا، كما يؤدي إلى المجيء دائماً بعد الحدث وبعد فوات الأوان.

وحين تستحكم الأزمة، وتمس حياتنا بصورة مزعجة تتحرك لتطويقها، لكننا نجد أنفسنا في موقف غير بعيد عن موقف الطب في حالة التهاب (السرطان) للدماغ، حيث يكون بين متحارجتين أيسرهما الموت المحقق، فإما أن يموت المريض بسبب السرطان وإما بسبب استئصال ما عطبه السرطان، وهكذا نلاحظ في حالات عديدة أننا بين خيارين أحلاهما مر؛ فإما أن تفجع الأمة بسبب الاستسلام للأزمة، وإما أن تُفجع بسبب محاولة الخلاص منها !!.

ويكون السؤال الذي يتتردد على كل شفة ما العمل، وقد حصل ما حصل، ونحن أبناء الساعة... وهكذا نتصرف دائماً كمن لم يعرف أي شيء عن أيام الله وستة الماضية في الأمم السالفة !.

٣ - التczم الطوعي :

إذا قلنا: إن لدى العالم الإسلامي من المشكلات ما يشغله عن أن يفكر في أي شأن آخر لا تكون بعيدين عن الحقيقة، إلا أن هناك حقيقة أخرى مائلة، هي أن بإمكان أي فكر ناضج أن يستثمر قليلاً من الحركة عن طريق توسيع المجال الحيوي بصورة مدهشة، بشرط أن توجد عزيمة مقاومة الانحسار. والذي يحاول أن يقف على بعض اهتماماتنا يجد أنها دائماً محدودة وجزئية، وقلما رأينا داعية يتكلم في شأن عالمي، أو يبحث في مسألة تأرق العالم. وذلك لأن تربتنا الفكرية كانت تركز دائماً على ما هو محلي أو إسلامي بعيداً عن الهموم العالمية، مع أن العقلية التي يصوغها المنهج القرآني لا يمكن أن تكون متقوقة ولا حسيرة، وكيف يكون ذلك وقد حدثنا عن تاريخ الأمم المختلفة، وطلب منا أن نحمل كلمته للعالمين؟!

لكن واقع الحال يدل على أننا لسنا على مستوى الرسالة، وبدل أن نبادر للتأثير في الآخرين فإن جل أنشطتنا الإعلامية يتمحور حول اتهام الآخرين، أو دفع تهمة أصقوها بنا، أو نشكو من ظلمهم، أو نتحدث عن حفرة في شارع قصرت البلدية في ردمها!

أما مسائل التلوث البيئي ونضوب الموارد الطبيعية وتجارة المخدرات وانتشار السلاح النووي وانتهاك حقوق الإنسان ونهب موارد الشعوب المستضعفة... فتلك أمور أكبر من أن يتحدث عنها أمثالنا، وتركنا الحديث عنها، وكسب العالمية من وراء الاهتمام بها للأمم المتحدة والعالم الغربي! يتاجر بها، بل ويفرض من خلال الاهتمام بها نوعاً من الوصاية العالمية. إن أوائل سورة (الروم) تدل أن المسلمين ما كانوا معزولين عن الأحداث العالمية، فقد استبشروا بإخبار القرآن عن انتصار الروم في بضع سنين مع أن الحرب بين فارس والروم لم يكن شأنأً عالمياً كالشئون التي تحدثنا عنها. إن العالم الإسلامي ليس ق Zimmerman ولا ضئيلاً ولكن تربيته الفكرية القائمة على الانكماس والخوف على الهوية من الذوبان هي التي جعلته يتقلص كما يتقلص الكائن الحي عندما يداهمه الخطر! .

إن نظامنا العقدي هو أقوى من كل أنظمة الدنيا على ما فينا من ضعف في السياسة والاقتصاد، وإن لدينا من القيم والمناهج ما يمكننا من طرح رؤية متكاملة لإصلاح العالم، لكننا نحتاج إلى أن نغادر مرحلة الدفاع والانتقام إلى مرحلة بناء الخطوط المتقدمة وفتح المجالات الحيوية في أرض الآخرين من خلال المشاركة العالمية في هموم العالم وهواجسه... .

٤ - الانفصال بين الفكر والمنطق العملي :

لا أحد يستطيع أن يزعم أن الأمة لا تمتلك أي أفكار إبداعية اليوم لكن يمكن القول: إن لدينا جزءاً فكرية لا يربط بينها رابط؛ فالأفكار الإبداعية في مغرب العالم الإسلامي لا تصل إلى مشرقه، وهكذا أفكار المشرق، بل إن ضعف حركة النشر ووسائل الإعلام وإحجام الناس عن القراءة جعل انتشار

الفكرة في القطر الواحد محدوداً، ولم تكن النتيجة انحسار الأفكار وانكماسها فحسب، بل ترتب على ذلك أمر آخر هو عزلة المفكرين، والانفصال بين الفكر والعمل حتى صدق مقول أحد المفكرين: «لدينا أفكار كثيرة لا تجد سبيلاً إلى التطبيق، وأعمال كثيرة لم تُسبق بأي تفكير!».

فالمفكرون لا يملكون - في الغالب - أي أداة لتنفيذ أفكارهم وإحالتها إلى شيء واقع معيش، بل لا يملكون الوسائل الناجعة لإيصال أفكارهم. والذين يغلب عليهم حس العمل والحركة والدعوة ينظرون إلى مسائل الفكر والتخطيط على أنها من لهو الحديث وإضاعة العمر في كلام لا يقدم، ولا يؤخر! وما هو ملاحظ أن جماعات عديدة لها أنشطة محمودة في مجالات الدعوة، لكن لا تملك من بين الآلاف من أتباعها مفكراً أو منظراً واحداً على مستوى مرموق، وهي تعتقد أن أمورها على ما يرام، كما أن بعض الجماعات لا تسمح لأتباعها بالاستنارة الفكرية خوفاً من أن يُخಡش ولاؤه لها وخوفاً من تشوش جهاز الاستقبال لديه. أما عزلة المفكرين - أو كثير منهم على الأقل - فهي لا تحتاج إلى تدليل.

والنتيجة التي حصلنا عليها هي ضمور الفكر وانسداد آفاق العمل أمام ذوي المنطق العملي.

والعقل البشري لا يستطيع أن يعمل في فراغ، فهو حتى يتتج يحتاج إلى ثقافة، وحتى يوجد بأطروحته يحتاج إلى واقع (يستدرجه)، وحينما يتبعد عن الواقع فقد يحلق ويجمع لكنه يطرح أفكاراً غير عملية و يأتي بتقسيمات وفرض تحوي معرفة (شكلية).

أما الحركة فإنها عند حدود معينة تحتاج إلى الفكر والخيال وطرح البديل المتعددة، ولا سيما في أجواء التنافس وفي أزمان التعقيد. وهذا ليس في مجال الدعاة فقط وإنما في مجال التعليم والصناعة... فالدول التي لا تتفق على البحث لا تستطيع تطوير منتجاتها ولا دخول حلبات المنافسة الدولية.

وليس لدينا حل لهذه المعضلة إلا بإنشاء (وحدات فكرية) داخل المؤسسات الحكومية والجماعات والأحزاب والهيئات الخيرية.. تكون مهمتها إنتاج الأفكار المبدعة التي يتم تجربتها في الميادين العملية داخل تلك المؤسسات... ثم تعديلها عن طريق (التغذية المرتدة) فنكون بذلك قد أقمنا علاقة جدلية مفيدة للفكر والعمل معاً. وليس هذا بالأمر السهل لأن كثيرين منا لم يصلوا بعد إلى قناعة جيدة بحاجة الدعوات إلى الفكر الثاقب المستفيد من التجارب العالمية.

٥ - الفرق في الجزئيات:

العلم ميدانه بحث الجزئيات، فحين نقرأ في كتاب في علم الفقه أو أصوله أو في التاريخ أو الجغرافيا... فإننا نقف على مجموعة من المعلومات المتراصبة في ذلك العلم، وهي بطبيعة الحال مفصولة بعضها عن بعض بحكم التنظيم الشكلي.

أما الفكر فميدانه - كما ذكرنا - هو الكلمات والمعطيات المستخلصة من علوم شتى؛ وهناك في عالمنا الإسلامي ألف المدارس التي تدرس العلوم الشرعية والعربية المتعددة لكن لا يوجد مدرسة واحدة تعلم التفكير القويم، بل لا يوجد مادة واحدة لتعليم أصول التفكير إلا إذا استثنينا مادة (المنطق) المقررة في بعض المدارس، وهي مادة ما زالت تدرس المنطق اليوناني (الشكلي) الذي يكرس كمال الشكل في التفكير على مقدار ما يضيع من فاعلية التفكير ونوعية مطارحاته.

هذا الإهمال لـ(علم التفكير) جعل الاهتمام كله يتجه نحو العلوم المختلفة على حساب الرؤية العامة للتاريخ والواقع والمستقبل... وبما أن حالة التخلف لا تسمح في العادة بأفكار أو حلول جذرية فإن اشتغالنا بالعلوم المختلفة اتجه إلى الاشتغال والتحقيق في قضايا فرعية جداً في الصلاة والزكاة والحج وترجم الأشخاص وتحقيق المخطوطات التي لا تمثل أية إضافة إلى ما هو منشور، ومع أننا لا نهون من شأن الاشتغال بأية قضية فرعية مهما

كانت إلا أننا نرى أن السفينة حينما يهددنا خطر الغرق لا يكون المطلوب الأول هو طلاوتها أو تجديد أثاثها وإنما إنقاذها والوصول بها إلى بر الأمان، ولسنا نقول ما قلناه من باب إلقاء القول على عواهنه؛ فعند النظر في حال العمل الإسلامي نجد أن الأماني واسعة على حين أن الأهداف غامضة، ونجد أن المبادئ بارزة على حين أن البرامج غائبة، ونجد أن منهجية التعامل مع القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الملحة غائمة أو مفقودة. والسبب في كل ذلك أن هذه المفقودات لا تقرأ في كتاب أو في علم من العلوم وإنما هي خلاصة النضج الفكري والثقافة الموسوعية المزجية. والذي يدل على اهتمام جماعة أو مؤسسة بقضية ما هو إنتاجها الثقافي الذي يعالج تلك القضية، ويكشف عن مشكلاتها، ويحاول إضافتها وتقوية بصيرتها بها. وحيثند نجد أن الكتب التي تتولى المعالجات للقضايا الكلية ما زالت محدودة ومتدايرة في مستواها، مع أن لدينا كثيراً من الشباب الذين يمكن توجيههم وتدريتهم للقيام ببحوث ودراسات حول القضايا الكبرى.

٦ - الافتتان بالـ(الكم) :

في حديث القصعة سأله الصحابة - رضوان الله عليهم - النبي ﷺ عن أسباب تداعي الأمم: «أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟» وجاء الجواب: «أنتم يومئذ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل». فقد أوضح - عليه الصلاة والسلام - أن مشكلة المسلمين حين تتكالب عليهم الأمم لتقاسم خيراتهم ليست في قلة الأعداد، أي ليست في (الكم) وإنما في (الكيف) لذا قال: «ولكنكم غثاء كغثاء السيل». فالغثاء قد يغطي وجه الماء، ويظهر حضوره في كل مساحة منه، لكنه يفقد الترابط، ويفقد الوزن، ومن ثم فإنه عاجز عن تقرير مصيره، وإنما يقرر الماء ذو التيار المتدق!

وحين نستعرض القرآن الكريم نجد أنه لا يذكر الكثرة - في معظم الأحيان - إلا في سياق الذم؛ فأكثر الناس لا يؤمنون، ولا يشكون، ولا يعلمون، ولا يعقلون، وهم يجهلون...

وأثنى - سبحانه - على (الكيف) في بعض المواقع حين جعله سبحانه لتفوق المسلم على غيره في معركة الحرب إذ قال: «فَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مَا تَرَىٰ صَابِرًا يَقْلِبُوا مَا تَرَىٰ»^(١). فالصبر عند المسلم هو تميز على الكافر في (الكيف) لا في (الكم).

وذكر سبحانه وتعالى أن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة في العدد بسبب تميز نوعيتها، كما قال - سبحانه - : «كَمْ مِنْ فَتَحٌ قَلِيلٌ إِذَنَ اللَّهُ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الظَّاهِرِينَ»^(٢). ولو أننا نظرنا في تاريخ الفتوحات لوجدنا أن معظم المعارك التي انتصر فيها المسلمين لم تشهد زيادة في عدد أو عدة، وإنما هو الإيمان والصبر وحب الشهادة وطاعة القيادة وحسن النظام . . . وهذا كله يعود إلى النوع.

والدول التي تقود العالم في الصُّدُّ السياسية، والتي تُغْرِّق العالم بإنتاجها الصناعي والزراعي ليست هي الأكثر عدداً، كما أن الجامعات ذات الشهرة العريقة والمستوى العلمي الرفيع ليست هي الجامعات المكتظة بالطلاب. ونجد هذا واضحاً جداً في العلاقة اليوم بين أمريكا الآخذة في طريق التدهور واليابان الصاعدة؛ فالأراضي الأمريكية المخصصة لإنتاج السلع الزراعية التي تصدر إلى اليابان تزيد على مجموع مساحة اليابان! وفي المقابل فإن اليابان - التي يساوي عدد سكانها نصف عدد سكان أمريكا - تصدر لأمريكا أكثر من ثلث التقنيات الراقية الضرورية لتطوير الأسلحة الأمريكية، وسوف يكون من العسير على أمريكا أن تجد طريقاً آخر^(٣).

والميزان التجاري يميل لصالح اليابان - الفقيرة في الموارد الطبيعية - بأكثر من ٥٥ مليار دولار. وإن طلاب جامعة (كمبردج) يبلغ عددهم أحد عشر ألف طالب فقط مع أنها من أعرق الجامعات في العالم، وهم أقل من عدد طلاب كلية في جامعة من جامعاتنا.

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٣) آفاق المستقبل: ٩٨.

لو نظرنا في أوضاعنا الحالية لوجدنا أن حديثنا باستمرار عن الكم، وأن (وعينا) مفتون به، على حين لا تلقى النوعية أي اهتمام يذكر، وهذا الأمر ليس قاصراً على الدعاة، أو على قطاع عينه، وإنما هو مما عمت به البلوى؛ فالدول الإسلامية لم تدخل عالم التصنيع لا بشكل قوي ولا متوسط، كما أنه لا توجد دولة واحدة ولجت مجال الصناعات الدقيقة [الإلكترونيات] ولا نظم المعلومات ولا بحوث هندسة الجينات... من كل ما هو محدود الحجم عالي النوعية وغالي الثمن!

كما أن في العالم الإسلامي مئات الجامعات، ولا تكاد تجد منها ما هو على مستوى عالمي، بسبب ضعف إمكاناتها التي لا تتناسب أبداً مع عدد طلابها. كما أن الرسائل العلمية والبحوث (الأكاديمية) تتسم لدينا بتضخم عجيب؛ حيث يبلغ بعضها الآلاف من الصفحات أو أكثر؛ لكن الجديد لا يتجاوز منه! وحين تقوّم الدول والشعوب والجماعات فإنها تُقوّم من خلال عدد السكان واتساع المساحات والإمكانات الكامنة بقطع النظر عن السوية والنوعية لكل ذلك... .

وهكذا فقد انطبع في الحسّ الإسلامي أن كل ما هو كبير جميل مع أن منطق العصر يتوجه نحو القيمة الحقيقية والفاعلية والقدرة على التوظيف الحقيقي للإمكانات... إن وقفة مراجعة مطولة حول هذا الموضوع يجب أن تشغل تفكيرنا؛ لعلنا نعيد الأمور إلى نصابها.

٧ - لا نستطيع حماية أفكارنا في ظروف متدهورة:

هذه قضية مهمة في عالم الأفكار، وهي على أهميتها لم تلق منا العناية الكافية بسبب عدم استيعابنا لآلية تمكّن الأفكار ونموها وضمورها وتدهورها؛ ونحن ليس لدينا أدلى ريب في أن المرجعية الفكرية التي أكرمنا الله - جل وعلا - بها كافية لأن تمدنا بالأفكار النيرة التي تمكّننا من البناء والمراجعة والتصحيح؛ والصحوة التي تشهدها الأمة مع ما يصاحبها من إعادة فهم الماضي وصياغته دليل على ما نقول.

لكن علينا أن ندرك من وجه آخر الجانب البشري في فهم الأفكار والتعامل معها؛ إذ إن هناك اليوم رغبة جامحة لدى كثير من المسلمين في إحداث نوع من الاندماج مع الحضارة الحديثة وإنتاج قيمها واستهلاكها إلى جانب منتجاتها، وإزاء هذه الرغبة فإن المصلحين يقومون من جانبهم باجتهادات إصلاحية تحت ضغوط من كل جانب، وهذا يؤدي في الحقيقة إلى نوع من التلقيق الذي لا يحل إشكالاتنا مع الحضارة الحديثة إلا حلاً مظهرياً تطمينياً أكثر من أي شيء آخر، أو يؤدي إلى الجور على أصولنا ومنطلقاتنا الأساسية وتشويهها، وكلا الأمرين ضرر وخطر！

ويحدث أن يدير كثير من الدعاة ظهورهم لرغبة الشعوب الإسلامية تلك في التحديث، وتكون النتيجة أيضاً سيئة حيث يعيش المسلم أزمة داخلية عميقه بسبب فقده للإحساس بفاعلية النظم والمبادئ الإسلامية في تنظيم حياته اليومية وأدوات ثقافته المعيشية. والنتيجة هي ارتباط شكلي بالمبادئ والأفكار الإسلامية الجوهرية.

وعندما ننظر في واقع الأمة اليوم نجد أن عند بعض دعائنا ومصلحينا نوعاً من الشعور الغامض تجاه هذه المسألة، كما أن عند آخرين منا نوعاً من الإهمال التام لهذا الأمر.

ولست أرى من سهل للمحافظة على الهوية الإسلامية وعلى الفكر الإسلامي سوى تحقيق تقدم حضاري حيث يتمثل بصورة جوهرية في النقلة الصناعية ضمن إطار إسلامي وفاعلية روحية حية؛ حتى يشعر المسلم بالتألق والتميز، وحتى يستعيد احترامه لنفسه واحترام الآخرين أيضاً.

والخلاصة: أن التأكيد على عظمة العقيدة والفكر والمبادئ الإسلامية لن يأتي بطائل - إن لم يوجد إحباطاً - ما لم نعرف كيف نحسن من وضع الأمة الأخلاقي والإنساني والمادي، وعلينا أن نعلم أن الفكرة إذا آن أو انها صار من العسير تأخيرها أو تناسيها، وبالتالي فإن تجاهل تشوق المسلمين إلى أن يعيشوا عصرهم سيكون بمثابة دافع لهم للابتعاد عن دينهم؛ إن الفتنة

ليست شيئاً سوى عدم القدرة على التمييز، وإن سوء الأحوال أكبرُ غشاوة تشوّش رؤية البصيرة، وتؤدي إلى ضلال الأحكام.

٨ - خطورة التشوهات الجينية:

الإمكانات العقلية التي وهبنا الله - تعالى - إياها أشبه ما تكون بـ(طاحون)، والثقافة - بأوسع ما تحمله من معنى - هي الحبوب التي ندخلها إلى تلك الطاحون، وهي المادة التي يشكلها العقل، بطريقته الخاصة. لكن لا ينبغي أن يظن أن (الثقافة) هشة العلاقة بالآلة التفكير؛ لأن (التركيب العقلي) الذي هو ناتج عمل الإمكانات الذهنية في الثقافة، يدل على مدى م坦ة العلاقة الجدلية القائمة بين آلة التفكير وبين المدخلات الثقافية التي توسع آفاق عملها، وتمدها بالمادة التي ستدع في تشكيلها.

والمشكلة هنا أنها في بعض الأحيان نقتنع بطريقة معينة في الدعوة أو التغيير، أو نستخدم منهجهية معينة في فهم التاريخ وصياغته، ومن شدة ولعنا بذلك ومحاولتنا إثبات صحة اختيارنا ننسى أن ما تم توصلنا إليه لا يعدو أن يكون (خياراً) من خيارات عديدة أو ترجيحاً شخصياً لأسلوب رأينا أنه الأنسب لعملنا وحركتنا؛ ومن ثم فإنه يتشكل لدينا من خلال العمليات العقلية المكثفة وفق منهج فردي ورؤوية واحدة، تركيب عقلي خاص يلتوّن رؤيتنا للأشياء بلونه، بل يتحكم بطريقة امتصاصنا للثقافة، فلا تتفاعل إلا مع الألوان والمقولات الفكرية والعلمية والتاريخية التي تعزز من طبيعة ذلك التركيب، ويصبح وضعنا كمن يلبس نظارة خضراء، يرى كل شيء أخضر، ونكون بذلك قد فرضنا على أنفسنا عزلة رهيبة عن الآخرين، كما أنها سوف نصاب بمنع القطع لما هو ظني؛ مما يؤدي إلى التعصب المقيت وإماتة أية أرضية للتفاهم المشترك مع كل من لم يتكون تركيبه العقلي على نحو ما تكون التركيب العقلي لدينا. والفكر الإسلامي يعني من هذه المشكلة أشد المعاناة؛ على نحو ما نشاهد عند الذين يركزون على التربية - مثلاً - باعتبارها أسلوباً في الإصلاح؛ فهم يرون أن كل الأساليب الأخرى غير ذات جدوى! ونجد

مثل ذلك عند الذين يرون الإصلاح الفكري الطريق الأهم للنهوض بالأمة، فإن ذلك يسيطر عليهم سيطرة عجيبة يجعلهم ينظرون للأعمال الدعوية والتربية والاقتصادية على أنها غير ذات فائدة، لأن ما تعالجه من خلل لا يعود أن يكون أعراضاً للمرض وليس المرض نفسه؛ ناسين العلاقات الحميمة التي تربط بين جوانب الحياة كافة والمؤثرات التي تبادلها عبر تلك العلاقات والارتباطات.

وقد كان النابهون من فقهائنا يقولون: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب» إدراكاً منهم لطبيعة المنهجية الاجتهادية التي أفرزت اختيارتهم المذهبية. لكن التشوه الجنيني الذي أصاب بعض الأفراد وبعض الجماعات، جعلها غير قادرة على إدراك مثل هذا، وأضعف - بالتالي - الأمل في قدرتها على إصلاح تركيبها العقلي من جديد، ولم يبق هناك من أمل في التغيير إلا في آلام التجارب المريرة التي إن لم تقصم أفادت في منح فهم جديد!

٩ - المنهج الرباني لا النماذج التاريخية:

إن سلطان التاريخ على الإنسان قد لا يعدله سلطان آخر؛ فهو لا يقص علينا حكايات السابقين فحسب؛ بل إنه أحد المكونات الأساسية لوعينا بأنفسنا، وأحد المعايير الأساسية في تحديد أشياء كثيرة في هذه الحياة. وحين تفقد أية أمة من الأمم مرجعية عقدية وفكرية مطلقة (لا بشرية) فإنها تسمح للتاريخ أن يكون العامل الرئيسي في توجيه تطورها الذاتي.

ونحن اليوم الأمة الوحيدة - بحمد الله - التي تستطيع أن تتحرر من هيمنة التاريخ - ولو بشكل غير كامل - حيث إن الثوابت التي لدينا ليست من صناعة التاريخ، ومن ثم فإننا نحكم إليها ليس في توجيه الحركة الاجتماعية المعاصرة فحسب، وإنما في نقد التاريخ نفسه وفي تأويله وصياغته وفهمه.

إن التاريخ (هذا العلم المستحيل) لا يقيم بنيانه بمعزل عننا، ولا يستطيع أن يستقل بنفسه حيث إن قيمته الحقيقة لا تكمن في أحداثه وقضاياها وإنما

في الأهمية التي نصفها نحن عليه، ومن ثم نجد أن حادثة ما بالنسبة لشخص أو أمة تشكل منعطفاً مصرياً على حين تكون شيئاً تافهاً وعديم الفائدة بالنسبة لأمة أو لشخص آخر، بل إن الأمة الواحدة تنظر إلى حادثة معينة في مرحلة زمنية نظرة مغايرة لنظرتها لها في مرحلة أخرى بحسب تراكم خبرتها التاريخية ونضوج وعيها والتحديات التي تواجهها.

إن من العجيب حقاً أن التاريخ الذي يسهم في تكوين الوعي ودفع الحركة الاجتماعية والتحولات الحضارية يظل قابلاً للتغيير مقولاته وفروضه على يد الوعي الذي قام هو بتكونيه! فنحن نقرأ تاريخنا، ونعيد كتابته كلما حدثت نقلات نوعية في تشكيل وعينا.

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الإصابات الفكرية لدينا - فيما أزعم - الانكاء الكبير على التاريخ في الأعمال الإصلاحية، وفي تفسير النصوص وبلورة المنهج، بل صار بالنسبة إلى بعض مفكرينا بمثابة الجدار الذي يمشي إلى جانبه الكفيف، ويستعين به على تحسس الطريق!

لا يخفى أننا منذ حوالي نصف قرن قمنا باستخراج النماذج التاريخية الناصعة في جميع المجالات لنسعى بها على دفع الاستلالب وصد الهجوم الذي كان يهدد ثقافتنا الإسلامية بل كينونتنا المعنوية كلها، وقد استطعنا بحمد الله النجاح في ذلك إلى حد بعيد. وما دمنا قد تجاوزنا تلك المرحلة فإننا بدأنا نشعر بتغير بعض المواقف تجاه ما كنا نفاخر به في يوم من الأيام؛ وذلك بسبب نوع من التغير الذي طرأ على مركبنا الثقافي والعقلي؛ فقد كنا - مثلاً - نباهي بقول هارون الرشيد: «أمطري حيث شئت فسوف يأتييني خراجك»؛ حيث إن ذلك كان دليلاً على اتساع تخوم الإمبراطورية الإسلامية. وهذا ما زال استشهاداً واستدلالاً في محله؛ لكنه نسب إلى جانب ذلك فسيلة من فهم إضافي لتلك المقوله؛ حيث نستشف اليوم شيئاً من عدم العدل بين الأقاليم والمناطق؛ حيث كانت تنعم بغداد بأرגד عيش بسبب جبایة الأموال ونقلها إليها، على حين أن المؤس كان يخيم على بلدان كثيرة. وكنا معجبين بما كان عليه العمّران - رضوان الله عليهمما - من عدل وحدب على الرعية،

وذلك حق لا مرية فيه، ثم صار فينا من يقول ماذا لو خلا تاريخ الإسلام من هذين الرجلين؟! وكان ذلك لوناً من الشعور بالإحباط تجاه التاريخ السياسي لهذه الأمة الذي كان يميل إلى أن يكون رمادياً وهكذا... .

إذن موقف الوعي من التاريخ - ومن غيره - ليس ثابتاً، ومن ثم فإن المبالغة في الاستناد إلى الحوادث التاريخية قد تسيء إلى عصمة المنهج الرباني، وتحملنا على نوع من القسر له من أجل تكييفه مع الواقع التاريخية. وفضلاً عن ذلك فإن (الدين الحق) جاء ليسع الإنسان على اتساع أمداء الزمان والمكان، والتطبيقات التاريخية له هي لون من ألوان عطائه، وليس هي كل عطائه، فالنماذج إنتاج له وليس محددة لكتينونته، وإنما الذي يحدد كينونته مقاصده العامة وأحكامه القطعية، وما يمكن أن تستنبطه مما يوافق هذه أو تلك. ثم إن بعض الفتاوى وبعض الإجراءات والتنظيمات تمت تحت مطارق الضرورة ولتحقيق خير الخيرين ودفع شر الشررين، كما في نحو انعقاد الإمامة ولو بمباغعة اثنين قياساً على عقد النكاح، ولا ريب أن ذلك قياس مع الفارق الشاسع لكن هاجس (الفتنة) سيطر على حسّ الفقهاء، واستولى على أذهانهم - بسبب انعدام أو ضعف المؤسسات الوسيطة - مما دفع كثيراً من الفقهاء إلى إجراء ذلك القياس الواهي. ونحو من ذلك التشديد في شروط المجتهد فإنه كان - في جزء منه - رد فعل على ما حدث من تسبيب الفتوى ومحاولة بعضهم استخدامها لمصالح خاصة أو لخدمة بعض الجهات وهكذا... . والالتقاء بالمنهج هو الذي يعصم من أن تصبح السوابق التاريخية مصدراً للتشريع^(١).

ولعلنا بعد هذا وذاك نقول: إن التوظيف الواسع للتاريخ قد يؤدي بالجماعات والمؤسسات الدعوية إلى الشردمة والانقسام؛ لأنه يتم - في كثير من الأحيان - للهروب من الاجتهاد، ولتسويف التقليد وللرکون إلى بديل

(١) لا نعد الإجماع في جملة السوابق التاريخية لأنه لا ينعقد إلا بناء على وجود أدلة قوية.

جاهز؛ وأيضاً فإن التاريخ - بطبيعه - يقبل الجدل حول ثبوت الواقعية وتفسيرها وموقف العلماء السابقين منها، والأسباب والظروف التي أدت إليها، وأحاطت بها، وهذا كلّه يجعل من التاريخ والحوادث التاريخية محاور للجدل والنزاع. ولا ينبغي أن يفهم من هذا غض الطرف عن الواقعات التاريخية وترك الاستئناس بها؛ فذلك غير ممكن ولا مفيد، لكن المقصود هو أن نركز جهودنا الأساسية على الأدلة الشرعية المعتبرة، ونحاول التعمق في تمحيصها وفهمها، وأن نعطي أهمية أكبر لمقاصد الشريعة، وفقها حيث نلاحظ أن السابقين لم يثروا البحوث في (فقه القضايا العامة)، وهو فقه مقاصد نظراً لقلة النصوص فيها. أما التاريخ فهو نتائج تفاعل المنهج الرباني - عبر اجتهادات البشر - مع الواقع الإسلامي الفائق، وهو لهذا كسب بشري لا يلزمنا إلا بعد حصوله على تأشيرة قبول من الشريعة الغراء بوجه من الوجوه المعتبرة.

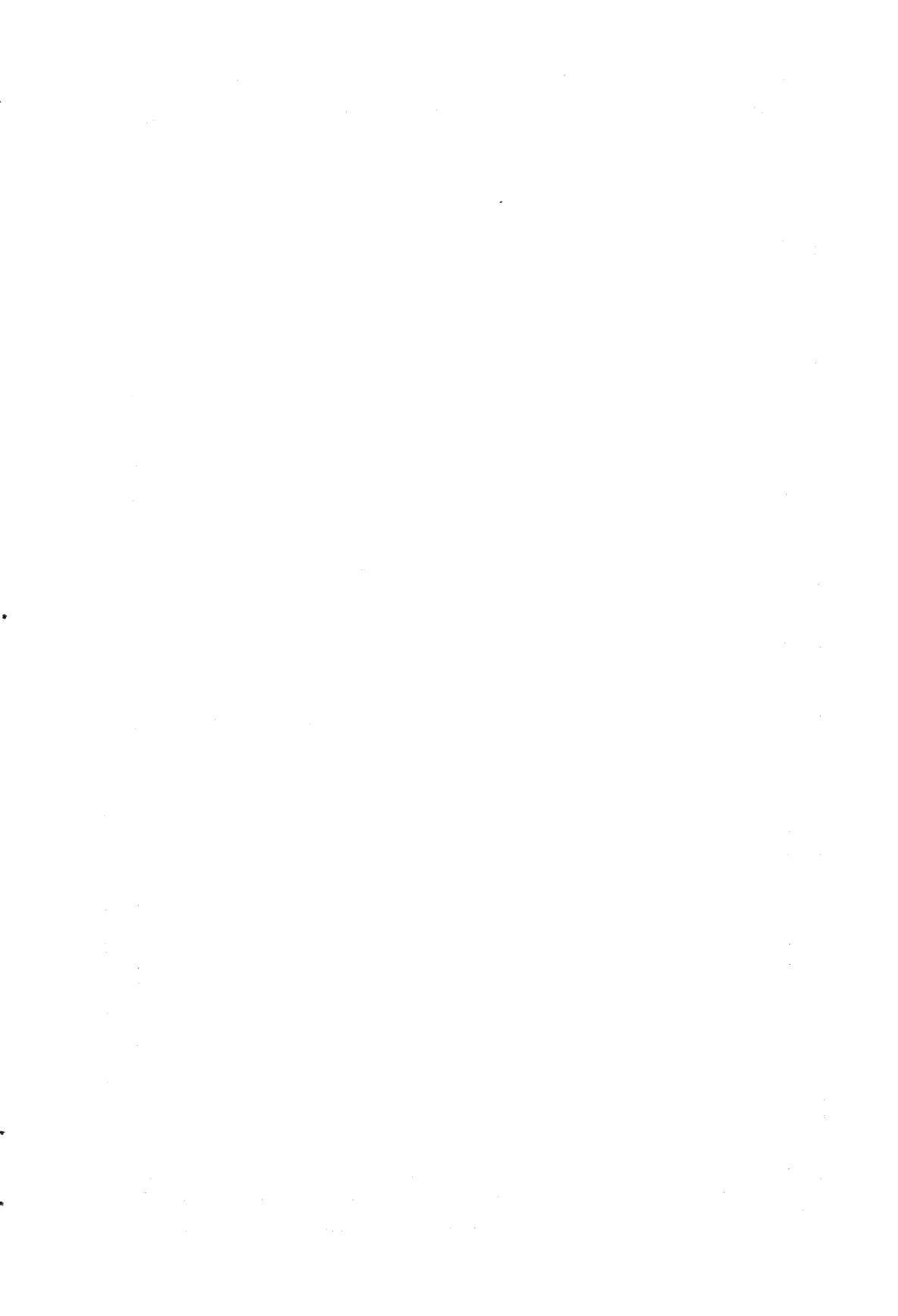
وبالإمكان أن نقول إن أعظم ما يمكن أن يستفيده من التاريخ على مستوى (الفكر) هو أن يساعدنا في تكوين (التفكير الاجتماعي)، وذلك من خلال النقد وال مقابلة وزن قيمة الأدلة وربط السبب بالنتيجة والتعليق بالحوادث وإرجاعها إلى دوافعها الأصلية ورؤية الحالة الراهنة على أنها نتيجة لعملية تطور تمت في زمن غابر^(١). وهذا كلّه حين يعمم بصورة كافية يوجد نوعاً من التوحد في مباديء التفكير ومستوياته وحدوده الفنية. وهناك إصابات فكرية لم ننشأ الحديث عنها لأن هناك كتابات كثيرة تغطيها من نحو الفكر الجبري والتقليدي والتأمري، كما أننا عالجنا بعضًا منها في الجزء الأول من هذه السلسلة وفي كتابنا (فصل في التفكير الموضوعي). ونسأل الله إحساناً وتوفيقاً.



(١) انظر مقدمة في التاريخ للتربية: ٦٥

المقدمة الثانية في ثقافة الداعية

- ١ - ثقافة الداعية .
- ٢ - مفاهيم أساسية في بنية الثقافة .
- ٣ - محاور أساسية في ثقافة عصرنا .
- ٤ - في الرأي العام .
- ٥ - ثقافة الإلقاء .



(١) ثقافة الداعية

قد نطلق كلمة (ثقافة) ونريد منها: «مجموع العناصر والمؤثرات التي تطبع سلوك الفرد وتوجهه بطريقة لاشورية».

والثقافة وفق هذا التعريف عبارة عن نتاج لعلاقة الفرد بالمجال الروحي والاجتماعي الذي ينميه فيه وجوده العقلي والنفسي. ومن العناصر الأساسية التي تكون الثقافة العقائد والأخلاق والفنون والمنطق العملي والصناعة والعادات والتقاليد والأفكار.

وبهذا التعريف، فكل إنسان يعيش في مجتمع مطبوع بثقافة ذلك المجتمع، وبهذا الاعتبار أيضاً، فإنه لا يخلو أي مجتمع من ثقافة.

ونطلق كلمة (ثقافة) ونريد بها: مجموعة المعرفات المتوفرة لدى فرد أو (مجتمع)، فنقول: ثقافة فلان ضحلة وثقافة فلان ممتازة، والمجتمع الفلاني ضحل الثقافة أو عالي الثقافة.

والمحقق الحق بهذا الاعتبار من يملك رؤية نقدية وإصلاحية خاصة ووعياً خاصاً بمجتمعه والعالم من حوله.

وحين نتحدث عن ثقافة الداعية نريد منها المعنى الثاني: أي مجموعة المعرفات التي ينبغي أن تتوفر لدى الداعية.

أهمية الثقافة في تكوين الداعية:

في عصمنا هذا غدا كل شيء معقداً ومتشاركاً، وصارت القنوات الثقافية والإعلامية أكثر من أن تحصر، وصار الذين يقومون بتشكيل الرأي العام

ينتمون إلى ملل ونحل ومذاهب شتى وهم يستخدمون طرقاً بارعة وأخاذة، وهذا كله جعل أصوات الدعاة غارقة في ضجيج إعلامي لم يسبق له مثيل؛ مما جعل المنافسة على إقناع الآخرين شديدة للغاية، وفي هذا الجو المحموم سوف يتتفوق من يفهم روح العصر وثقافته، ويمتلك إلى جانب ذلك الأسلوب الأمثل والوسيلة الناجعة في إقناع الآخرين وتوجيه الرأي لديهم.

كل هذا جعل حجم الزاد الثقافي المطلوب ونوعيته مختلفين اختلافاً بيناً عما كان مطلوباً في السابق لإنجاح مهمة الداعية، ويمكن القول اليوم: إن نوعية ثقافة الداعية وقدرتها على استيعاب مشكلات العصر وتطلعات أبنائه هي المفصل الرئيس في حجم تأثير الداعية في المدعوين وكسبهم لصالح القضايا المهمة بها.

هذه الثقافة هي التي ستكتشف عن الإمكانيات الإبداعية الكامنة في الداعية؛ إذ تمثل المجال الحيوي الذي تنمو فيه المواهب والعقريات، كما تمثل الأساليب والأدوات الفاعلة التي يرتكز عليها في أعماله الجليلة.

ولا يستطيع الدعاة إحداث تغيير أصيل - وليس احتجاجياً - في مجتمعاتهم إلا إذا أثبتوا تفوقاً ذهنياً وأدبياً وثقافياً على القوى الثقافية المنافسة، والتي يمتلك أفرادها - في معظم الأحوال - وسائل وتقنيات ليست في حوزة الدعاة إلى الله - تعالى - مما يجعل تفوقهم الثقافي هو نقطة التعادل بين الفريقين.

إن أهمية الثقافة في حياة الدعاة تُنبع من التأثير البالغ الذي تتركه (الصفوة) في سلوك المجتمعات و اختياراتها ومسارات حياتها كافة؛ حيث إن تأثير قادة الرأي كثيراً ما يكون أبلغ أثراً من تأثير الأنظمة والقوانين، حيث يعتمد تأثير الثقافة على جاذبيتها الخاصة، على حين تستمد القوانين هييتها من شيءٍ من الهيمنة وشيءٍ من الضرورة الاجتماعية، وشنان ما بين هذا وذاك.

إن مشكلة كثير من الدعاة تكمن في استهلاك الحركة اليومية لثقافتهم ومعلوماتهم؛ مما يحجم من تأثيرهم في الآخرين، ويدفعهم إلى الملل والسام

من مقولات مجرّة ذهبت جدتها، وفقدت إبداعها. إن التغيير الثقافي المتتسارع وترانيم المعلومات الخيالي جعل تقييم أي مثقف أمراً سهلاً وميسوراً بشرط أن يكُفَّ لمدة عن النمو المناسب والتفاعل الحي مع معطيات الثقافة المتتجددة.

والسبب في هذا أن (المنطق العملي) مسيطر على كثير من الدعاة إلى حد التورم المرضي، ظانين أن في كل حركة بركة، مهما تكون نوعيتها؛ مع أن جوهر التقدم الحضاري يعتمد يوماً بعد يوم على (الأشياء الدقيقة) وليس على الأشياء الكثيرة ولا الكبيرة، أي على الكيف وليس على الكم. فداعية واحد من نوعية عالية قد يحول بين جيل كامل وبين التدهور والانحراف، وداعية واحد قد يسد على المسلمين ثغرة لا تسدها المئات بل الآلوف من الدعاة الذين تم تكوينهم وإعدادهم على طريقة عمل (قدور الضغط) !.

هذا يقودنا إلى نقطة أخيرة وهامة، هي حاجتنا إلى الصبر والأناة والإتقان في تكوين الخلفية الثقافية أو ما كان يسمى قديماً بـ(الأهلية)، هذه الخلفية تحتاج إلى قراءة موسوعية مرجية في آن واحد على طريقة عمل النحلة التي تطير المسافات الشاسعة في سبيل الوقوع على أكبر عدد من أنواع الزهور، ومن ثم فإنها تخرج للناس شرابةً فريداً **«فيه شفاءٌ للناس»**. ومما يذكرون في ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلام أنه سلح من عمره قريباً من أربعين سنة، وهو يعمل، ويجود في إعداد كتابه (الغريب المصنف). وأمضى (أرنولد تويني) المؤرخ الإنجليزي نحواً من هذه العقود في إعداد كتابه «دراسة التاريخ». وحدثني أحد^(١) الدعاة في (مالزيا) أنهقرأ نحواً من مئتي كتاب حول الثقافة الصينية حتى يكون خلفية تمكّنه من دعوة الصينيين إلى الإسلام بنجاح. ويدركون أن (الإلإيادة) كتبت في ثلاثين سنة، ويدرك (جارثيا ماركيز) قاصُّ أمريكا الجنوبية الأول أنه كتب قصته (مائة عام من العزلة) في ستة عشر عاماً. ولقد ذكر أن (جوستان فلوبير) ت سنة ١٨٨٠ قرأ ألفي كتاب من

(١) هو الأستاذ فضل الله يلموت الموظف في الجامعة الإسلامية، في كوالالمبور.

المكتبة الوطنية بباريس لكي يدرس البيئة الاجتماعية والجغرافية لأحد أعماله الروائية^(١).

إن المهمة التي ندبنا أنفسنا لها تستحق المصايرة والعناء والبذل الذي لا يعرف الكلل ما دام المقصود رضوان الله - تعالى - وتبليغ كلمته.



(١) مجلة البيان العدد: ٢٩ ص. ٥٦ من مقال للدكتور مصطفى السيد.

(٢) مفاهيم أساسية في بنية الثقافة وانتشارها وتغيرها

يتسبّب المرء بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وتحول المفاهيم الثقافية إلى عادات ومسّمات يخضع لها الفرد دون كثير نقاش، وكثير منها يظل خارج منطقة الوعي؛ فلا يوجه إليها أي نقد أو تقويم. وإن غاية مطعم الدعاة والمصلحين هو جعل الإسلام بأحكامه وأخلاقه وأدابه ثقافة للناس يتّفَاعلون معه ويمثّلون له على أنه جزء من كينونتهم ومزاجهم وهو جسهم وأمالهم، وإن كثيراً من ذلك حاصل اليوم بحمد الله لدى كثير من الشباب الصالح الذي ربط مصيره - بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى - بمصير الإسلام؛ فهو يعيش له ويعيش همومه وألامه، ويفرح لظهوره واتساع سلطانه . . .

لكن العمل الثقافي والدعوي يستمد معايير نجاحه من قدرته على الاتساع الدائم والوصول إلى عقول وقلوب جديدة، وهذا يحتاج إلى جهاد مستمر لا يعرف الكلل ولا الملل. ويُمكّن بعض الأفكار والمفاهيم أن تساعدنا في تسهيل الانتشار الثقافي المأمول من خلال التعرّف على شيء من طبيعة الثقافة، والتعرّف على بعض الخبرات والمعلومات المستفادة في حقول امتدادات الثقافات، والمقاومة والمشكلات التي تواجهها؛ ولعلنا نلخص ما نرمي إلى الحديث عنه في نقاط محددة؛ حتى لا يطول بنا الحديث، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: في البنية الثقافية:

١- الثقافة ضمانة أساسية لاستمرار الأمة:

إن الثقافة من أكثر الجوانب الاجتماعية تجريداً وأقلها ملموسة، حيث

توجه السلوك بطريقة غير مرئية أو محددة بشكل واضح، ومن ثم فإنها تشكل الدائرة الأكثر ليونة في النسق الاجتماعي، وهي لهذا السبب تستمر لفترة طويلة، وتستعصي على محاولات السيطرة من أية جهة كانت داخلية أو خارجية؛ فمن السهل على المستعمر أن يغتصب أرض فلاح، أو أن يهدم جامعة، لكنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من التراتبية الاجتماعية أو رموز التواصل الألهي^(١).

ومن جهة ثانية فإن الأفكار التي لا يمكن تحويلها إلى سلوك، أو لا يسمح لها بأن تصبح كذلك تظل قليلة النفع إن كانت خيرة، وقليلة الخطر إن كانت شريرة؛ مما يعني أن المحك النهائي لنفوذ الأفكار هو قدرتها على الدخول إلى الرموز الثقافية للشعب وصيروتها جزءاً منها. وهذا وذاك يدفعان بنا إلى أمرين:

الأول: هو ضرورة إدخال الإصلاحات المطلوبة على الثقافة الشعبية بحيث تصبح موافقة للهدي الرياني، وذلك بإزالة البدع وأنواع الجنوح التي تراكمت عليها عبر عصور التقهر والغفلة، إلى جانب تقوية الصالح منها من كل ما يدل على المشاركة والتضامن الاجتماعي في الأفراح والأتراح والمناسبات المتعددة، وإرساء تقاليد وعادات جديدة في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ومساعدة الضعيف...

الثاني: يتمثل في محاصرة الأفكار الفاسدة والمنحرفة وإنجها إلى أضيق السبيل، وعدم إفساح المجال لها لتأخذ سبيلاً إلى الحياة اليومية؛ ومن هنا جاءت النصوص العديدة التي تحدث على ضرورة بقاء (الشارع) في بلاد المسلمين نظيفاً من المخالفات والموبيقات، حتى لا تتسلل المنكرات إلى الثقافة الشعبية، وتتصبح من النماذج التي تنشأ عليها الأجيال.

لكن هذا لا يجوز أن يدفعنا إلى الظن بأن التماسك والنقاء الثقافي يمكن أن يستمر بجهود معزولة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية للأمة،

(١) انظر الوعي الذاتي : ٩٦.

وإنما الصحيح أن ذلك يجب أن يكون من جملة ما ينبغي عمله على صعد الحياة كافة .

ب - الثقافة كلّ معقد متكامل:

تبعد الثقافة عشوائية بعيدة عن التنظيم والترابط ، وهذا يتبدى لنا بسبب ما ذكرناه من كون الثقافة النسق اللين والخفى الذي يعسر التعبير عنه . لكن الدراسات والتجارب في (الأنثروبولوجيا) الثقافية أثبتت أن ثقافة المجتمع في واقعها الشكلي والحركي هي كل معقد ترابط أجزاؤه وتتكامل إلى مدى لا يسمح بهم أي منها بمعزل عن الأجزاء الأخرى^(١) .

فالسلوك الاقتصادي للإنسان لا ينبغي أن يفسر على أساس المصالح والمنافع والرغبة في جني الثروة ، وإنما هو سلوك خاضع لكل الأنساق الثقافية السائدة من مثل معتقد الإنسان وحرصه على التقدير ، ومدى الصلات والارتباطات القرابية ، إلى جانب شدة خضوع الفرد للجماعة وشدة خضوع الجماعة لمبادئها ، كما يخضع للأنظمة والقوانين السائدة ، وبعد هذا وذاك إلى الخلفية المبرمجة في ذاكرته عن الرخاء والقطط والفرص والمحن

وهكذا السلوك السياسي والاجتماعي والأخلاقي ، كل ذلك لا يعتمد في حركته على مشخصاته ومقوماته الخاصة ، وإنما أيضاً على معطيات وأحكام باقي الأنساق الأخرى .

وببناء على هذا فإن أي تغيير يتم إدخاله على أي نسق من أساق الثقافة ينعكس على الأنساق الأخرى بحسب طبيعته من الصلاح والفساد ، فالأحوال الاقتصادية السيئة - مثلاً - ستترك لا محالة أثراًها في التربية والأخلاق والعمل والصلات بين الناس ، وإمكانات التحرك والتعلم ومسألة الوقت والفراغ إلخ .

ومن جهة أخرى فإن الثقافة حين يصاب أحد أساقها بالعطب فإنها تقوم

(١) مفاهيم علم الاجتماع الثقافي : ٩٦

بالاعتماد على الأنساق الأخرى؛ كي تحفظ توازنها، ففي حالات الكوارث والزلزال تعتمد على الجانب الأخلاقي والعقدي ورموز المعروف والإحسان المعتمدة لديها. وحين يحجر على جزء من أجزاء الثقافة الرئيسية، أو تضيّط بضوابط خارجة عن ذاتيتها فإن الثقافة تصاب آنذاك بما يمكن أن يسمى بـ(الحرwon) الثقافي، وذلك إظهاراً لتضامنها مع الجزء المحظوظ واحتياجاً على التعسف الذي يمارس ضدها.

والذي تستفيده من وراء هذا المفهوم هو ضرورة فهم القصور والخلل في أي جانب من جوانب الحياة ومدى انعكاسه على الجوانب الأخرى؛ كما أن من الضروري لأي عمل إصلاحي ودعوي أن يأخذ في حسبانه ضرورة الرؤية الإصلاحية الشاملة لكل أنساق الثقافة؛ حتى تصل الأمة إلى العافية المرجوة.

ج- تتكيس الثقافة كما يتکيس الكائن الحي:

يتمثل (التکيس) بالنسبة للكائن الحي في تقليل أو وقف علاقاته مع بيئته غير مواتية مع احتمال إعادتها عندما تتحسن الظروف. وذلك هو حال الإنسان البائس من مجتمعه والمحاط بالظروف السيئة، فإنه ينفض يديه من كل مشكلات العالم، ويلجأ إلى بيته يحصنه، كما يرفض الالتزام أو المشاركة في شيء. البذور عندما تعجز عن الهروب في الفضاء تتبدع (استراتيجية) تتيح لها التحرر من قيود البيئة بـ(التشرنق) في وسط محمي والإبقاء على المبادرات الخارجية عند أدنى حد ممكن. ويُعد ذلك في الواقع هرباً من الزمن. إن البذرة يمكنها على هذا النحو أن تنتظر سنين بل قرونًا إلى أن تحين ظروف مواتية للإنبات^(١).

هذا الوضع ينطبق على (الثقافة) فهي حين تتعرض إلى تهديدات خطيرة تعجز عن مقاومتها، أو تعجز عن فهمها واستيعابها، تقوم بالتکيس والانكماش على نفسها إلى أن تمر العاصفة، أو تتمكن من إعادة ترميز الأحداث الجديدة والاستعداد للتعامل معها.

(١) انظر عودة الرفاق: ١٥٣.

هذه الحالة وإن كانت رمزاً للقدرة على الاستمرار إلا أنها في الوقت نفسه دليل على سوء الأحوال؛ وحين دخل المسلمون في عصور الجمود والتقهقر انكمشت لديهم ملكات الإبداع والمبادرة والاجتهد والثقة بالنفس والمغامرة والإقدام، وساد فيهم حب التقليد والخوف من كل جديد، إلى جانب الشك والسلبية والرضا بما يقيم الأود، والبقاء على الحد الأدنى من الحياة.. وكان ذلك كله تعبيراً عن (تكيس) ثقافتنا وتعرضها للتدهور والضمور.

وحين جاءت الموجة الحضارية الجديدة الكاسحة كنا مخيرين بين أمرين، أحلاهما مر؛ فإما أن ننفتح ونقبل بالاندماج في حضارة غريبة عنا، وإما أن ننكمش إلى أن تجد ظروف أفضل، وفي المسلمين من أخذ بال الخيار الأول، فضاعوا، وفيهم من اختار الانتظار والانغلاق، فجمدوا، وتناول عليهم الأمد، فازدادوا عجزاً عن الفهم والاستيعاب والتكيف. وقد آن الأوان للعودة إلى ذاتيتنا؛ لنسurg خير ما فيها؛ فتطوره وننميه، ونواجه به العالم كله بثقة واطمئنان.

إن شيئاً من تحسن الأحوال سوف يخفف من سلبية كثير من المسلمين، وقد بدأنا نشعر بذلك بعد أن امتصصنا الصدمة، وبهت بريق الحداثة الخادع، وبعد أن اكتشفنا شيئاً من جوهرنا المخبأ.

د- التبادل يحمي الثقافة من الذبول:

البنية الثقافية تسعى بطبعها إلى شيء من الثبوت؛ حتى تتمكن من البقاء قاسماً مشتركاً يقوى من النسيج الاجتماعي، ويصوغ في الوقت نفسه المعايير الاجتماعية الخفية واللامكتوبية؛ لكن الثقافة لا تستطيع أن تثبت في أجواء سريعة التغير؛ لأن ذلك سيجعلها تبدو متخلفة وغير عملية؛ ومن ثم فإنها تسعى إلى أن تجمع بين الثبات والتغيير والتقليل والتجدد، والافتتاح والانغلاق في آن واحد، أي أنها تحدث نوعاً من التوازن الذاتي؛ كي تتمكن من القيام بوظائفها، والمحافظة على زخمها. وحتى تمتلك الثقافة القدرة على إحداث ذلك التوازن فإنها بحاجة إلى أن ندعمها من خلال توفير أطر

للممناقشة والحوار والنقد، والنقد المضاد؛ إلى جانب أطر للتجدد والتبادل الثقافي مع الثقافات الأخرى. في بعض الأحيان تتجلّى عظمة الثقافة وحيويتها في قدرتها على العطاء والتأثير في الثقافات الأخرى؛ لكن هذا ليس سوى وجه واحد للمسألة، والوجه الثاني يتمثل في قدرة الثقافة على امتصاص النافع والجديد من الثقافات الأخرى حتى لا تتعرض إلى التأسن الداخلي. وحيوية الجسم تقاس بقدرته على بذل الجهد وقدرته على امتصاص الغذاء، والتفاعل مع الدواء، في آن واحد، كذلك الثقافة تقاس حيويتها وعظمتها.

وإن مما شرطه عصر الاتصال الكوني أن الثقافة لا تستطيع أن تحافظ على هويتها وخصوصيتها إلا من خلال عمليات التبادل النشط الذي تقوم به؛ وذلك التبادل بالنسبة للثقافة أشبه ما يكون بالحركة بالنسبة للعضلة؛ فقوتها وفتوتها مرهونتان بمدى الحركة التي تقوم بها، وليس التبادل الثقافي ضروريًا لبقاء الثقافة حية نشطة فحسب، وإنما هو ضروري لامتصاص التوترات الاجتماعية والسياسية التي يوجدها اشتغال المجتمع على رؤى وطموحات ورغبات متفاوتة. ومن ثم فإن الانغلاق والتقليل هو الذي يعصف بالتضامن الاجتماعي وليس الاجتهد والافتتاح، كما قد يتوهم.

من خلال التبادل تكتشف الثقافة الأجزاء الخاملة والمعطوبة فيها، والتي صارت عبئاً عليها، فتتخلص منها، كما أنها تكتشف ما هي بحاجة إليه للإبقاء على بريقها وجاذبيتها؛ فتطرح من خلال التبادل والتفاعل الثقافي والاجتماعي كثيراً من الأفكار والعادات والسلوكيات التي لم تعد تتفق مع نسقها العام وبنيتها العميقة؛ كما أنها تكتسب مفاهيم ورموزاً جديدة هي بأمس الحاجة إليها.

فعلى سبيل المثال كان الناس قبل انتشار الوظائف وحياة المدن الدقيقة والمعقدة - يتزاورون دون مواعيد سابقة، وكان من المألوف أن يجلس الضيف أيامً عديدة دون أن يكون من اللائق سؤاله عن حاجته، أو إظهار شيء من البرم من طول إقامته، لكن الناس في المدن قد تخلصوا من هذا بشكل قاطع؛ فازدحام الواجبات ما عاد يسمح بالجلوس أيامًا في مواجهة

إنسان آخر، وكذلك طبيعة الارتباط الوظيفي، كما أن أكثر مساكن المدن لم تعد مهيئة لاستقبال الضيوف أياماً؛ وهكذا وفقت ثقافة المدن بين مختلف متطلبات انسجامها الضروري وتخلصت من كل ما يعكره؛ لكن الناس في البادية والعديد من القرى لم يستوعبوا بعد التنظيمات الثقافية الجديدة؛ ومن ثم فإن كثيرين منهم يبدون التذمر من هذا الذي وقع، ويتصرون أمامهم في شيئاً من ذلك لم يحدث فيسببون الحرج لإخوانهم، ويظهرون أمامهم في الوقت نفسه بمظهر الذي يعيش في غير زمانه. لكن التبادل الثقافي الحر والمفتوح سوف يوحد ثقافة القرية والبادية مع ثقافة المدينة، ويجعل كل واحد من سكانها يبدو لائقاً في نظر الآخر.

هـ- عجز الثقافة عن تلبية حاجات المجتمع:

ذكرنا أن الثقافة كل معقد وأن هناك ترابطاً حمياً بين أنساقها المختلفة، ونظراً لأن العلاقة بين الواقع الاجتماعي، وبين الثقافة علاقة جدلية، تعطي الثقافة من خلالها، وتأخذ، فإن انعكاسات الواقع على الأنساق الثقافية متفاوتة؛ ومن ثم فقد يتقدم أحد الأنساق على حين يظل نسق آخر جامداً أو متاخفاً؛ فقد تقدمت التقنية والأساليب الصناعية والمستويات المعرفية عامة في العالم كله تقدماً باهراً لكن التقدم على الصعيد الاجتماعي والسياسي كان محدوداً جداً، وهذا واضح إلى حد بعيد في دول ما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي. وحدوث تقدم في أحد الأنساق حين يكون سريعاً أو يُراد له أن يكون معزولاً، يؤدي إلى تفكك الثقافة وعجزها عن جعل نفسها مصدراً للرضا الاجتماعي وحافزاً على العمل المتجدد.

إن المشكلات التي يمكن أن تؤدي إلى تفكك الثقافة، وبالتالي تخلفها عديدة يمكن أن نذكر منها مشكلتين :

أ - افتتان الصفة بثقافة أجنبية حيث يسعى بعض المثقفين - باعتبارهم الممثلين لثقافة الأمة أمام الثقافات الأخرى - إلى نقل أفكار وأنماط ثقافية أجنبية يرونها ضرورية للنهوض بثقافتنا، والناس ينظرون إلى النخبة عادة نظرة ارتياخ، كما أن كل ثقافة تملك حساسيات ورموزاً داخلية تؤمن لها نوعاً من

الحصانة من كل أجنبي على نحو ما يصنع الجسم ضد الأجسام الغريبة؛ ومن ثم فإن الثقافة الشعبية ترفض الجديد الوارد - ولو مؤقتاً - لكن النخبة يصررون على فرض ما أعجبوا به من مفردات ثقافية أجنبية؛ مما يؤدي إلى نوع من الانقسام داخل الثقافة وانشغالها بحرب داخلية توهن الجميع.

ولطالما جفل الوعي الإسلامي من ثقافات الإلحاد والعربي والإباحية وتحقير الذات وتعظيم الكفر والقوانين العلمانية المختلفة... .

ب - التناقضات الثقافية الداخلية، وينبغي أن يقال أولاً: إن كل ثقافة من الثقافات تشتمل على عدد من التناقضات والتوترات، وهي ليست ظواهر مرضية إذ إن السكون موت بطيء، والتوتر الثقافي دليل على حيوية الثقافة وأهليتها للنمو والعطاء؛ لكن الذي يحدث أن التخلف الحضاري حين يكون واسعاً يؤدي إلى زرقة الثقافة في تناقضات يصعب عليها تجاوزها وحلها، على نحو ما نجده الآن من القطعية الثقافية بين الماضي والحاضر والذات والآخر والمبادئ والمصالح... .

عبارة أخرى تواجه الثقافة تناقضات حادة غير مؤطرة، وتفقد أية أرضية مشتركة أو مدخل توفيقي، وكيف يمكن إيجاد أرضية مشتركة بين الإيمان والكفر وبين من يرى الماضي عطاء زاهراً وبين من يراه سبةً وعاراً... .

وهذه التناقضات يزداد خطورها حين تكون الثقافة فاقدة للفاعالية التنظيمية التي هي أداتها الرئيسية في دمج عناصرها الثقافية وصبغها بصبغة واحدة. والفاعالية التنظيمية تتولد منوعي الثقافة بنفسها، وبمشكلاتها وطاقاتها، كما تتولد من المغامرة الحضارية التي تخوضها، ومدى ما يمكن أن تتحقق فيها من نجاح.

وهذا كله لا يتأتى إلا من خلال سير الأمة في طريق النهوض الحضاري، ومن خلال التبادل الثقافي الوعي.

ثانياً: الانتشار الثقافي:

أ - الأزمات تسهل عمليات النقل الثقافي:

حين تصاب أمة من الأمم بأزمة، أو تمر بأحوال طارئة فإن ذلك

ينعكس على ثقافتها، ولا سيما في حالات استمرارها فترات طويلة، ويصبح وضع الثقافة أشبه بوضع الجسم العليل الواهن في انخفاض مناعته وضعف مقاومته للفيروسات والأجسام الغريبة. إن وجود أزمات كبرى كأزمات الشقاق الاجتماعي أو التخلف الحضاري أو الركوع أمام مستعمر دخيل، تزرع في نفوس أفراد الأمة الإحساس بوجود قصور ما وأن أخطاء كبرى ارتكبت. وصحيح أن كثيراً من الناس يتوجهون إلى نقد المواقف أو يركزون على أثر قصور أو انحراف بعض الأشخاص لكن الصحيح أيضاً أن المفكرين ومثقفي النخبة سوف يتوجهون بالنقد واللوم إلى (الثقافة) السائدة التي تسببت في حصول أو استمرار الأزمات، وهذا يضع ضعف من مكانة الثقافة في نفوس أفراد المجتمع، كما أن استمرار الأزمة يوقع الثقافة نفسها في ارتباك، و يجعل حساسيتها تجاه الوافدات الأجنبية ضعيفة؛ وأيضاً فإن الناس يحاولون التماس حلول لمشاكلاتهم؛ فيتلفتون إلى كل صوب واتجاه؛ لعلهم يجدون الأفكار والنظم والأشياء التي تساعدهم في تحسين الأحوال.

وحيث يصاب نسق أو مجال من مجالات الثقافة بانحباس أو نوع من العطب، فإن الثقافة تأذن له بأن يجدد ذاته، ويوجد حلوله من خارجها حتى وإن كانت تلك الحلول غير متناسبة مع مزاجها العام وتوازناتها العميقية. فالأمريكان لا يجدون أدنى حاجة إلى الثقافات الأخرى في مجالات الفنون وأفكار الإنتاج ومراسم الطعام وللقاء... لأن بلادهم لا تعاني من أزمة في هذه القضايا؛ لكننا في مجالات العقائد حيث العدمية وال الحاجة الماسة إلى صلابة اليقين نجد انتشاراً واسعاً للمذاهب والعقائد الدينية التي لا يعدو أكثرها أن يكون ضرباً من الخرافية والشعودة.

ولا نجد في المقابل من المسلمين من يعتنق اليهودية أو النصرانية - إلا إذا استثنينا القراء والجهلة الذين يستغلون من قبل المبشرين - لأن المسلمين يحسنون بنقاء عقيدتهم وصدقها وصلاحها.. لكن في مجالات النظم والقوانين واللباس وعادات الطعام... نجد العكس حيث إن التخلف العام الذي تعشه الأمة يدفع إلى تقليد الآخرين والاستعارة منهم.

وهذا كله يعني أننا سنظل نشكو من الغزو الثقافي ما لم نحقق نوعاً من النقلة الحضارية الصناعية المناسبة.

ب - العناصر الثقافية الظاهرة تنتقل أولاً:

بما أن الثقافة تحاول باستمرار أن توجد نوعاً من التوازن الداخلي بين عناصرها المختلفة، فإن كل ما نراه من العادات والتقاليد والمصنوعات والأفكار والرموز... يخضع لفاعلية تنظيمية خفية تتحقق نوعاً من التناغم بينها، وهي إلى جانب ذلك ترتكز على مفاهيم ومعانٍ غير مرئية تمثل في مجتمعها التفس الأولية للثقافة. وحين تبدأ أمة أو مجتمع باستعارة بعض العناصر والأنمط الثقافية من مجتمع آخر فإنهما في البداية لا تستطيع أن تلمس ما تحت السطح من تلك الثقافة حيث إنه يكتسب خصوصية فريدة، ويعسر نقله إلا بعد مدة طويلة، ومن خلال شروط خاصة عديدة؛ ولذا فإن الأمم تستعيير من بعضها في البداية ما يمكن تصنيفه تحت (الفولكلور)، وما هو من قبيل الصناعات والآلات والأثاث، وما شابه ذلك، ثم لا تفتأ هذه المستورات أن توجد لها في الثقافة المستعيرة مجالها الروحي والفكري الخاص الذي يدخل في صراع مع المجالات الروحية الأصلية في الثقافة الشخصية الاجتماعية. والتطبيقات على هذا المفهوم أكثر من أن تحصى؛ فقد قلد كثير من دول العالم الثالث الغرب في التقاليد السياسية والحزبية؛ فنقلوا أشكالاً ومباني ظاهرية لكن روح الممارسة ظلت في بلادها!

وذهب كثير من أبنائنا إلى الغرب، ونقلوا أفكاراً وفنوناً، وتلقوا تدريباً فنياً وصناعياً عالياً لكن لم يستطعوا أن ينقلوا روح الشغف بالعلم ولا روح الصبر عليه ومعاناته؛ لأن ذلك لا يتم نقله بسهولة؛ وفي بعض الأحيان يكون مستحيلاً!. واستورتنا السيارات وفيها (أحزمة الأمان) لكننا لم نستخدم تلك الأحزمة - إلا ما ندر - لأن فلسفة التوقي من الأخطار الموجودة عندهم لم نعرفها، وربما ننكرها.

وهكذا يمكن القول إن روح الثقافة وماء حياتها شيء لا ينقل، وإنما علينا أن ندعه نحن من خلال فاعليتنا ورموزنا الخاصة.

جـ- الطبقات الدنيا تسارع إلى نقل العناصر المادية^(١):

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من مثقفين وعامة، والمثقفون درجات والعامة أيضاً درجات، وقد تبين أن الطبقات الدنيا في المجتمع من حظهم من الفكر والعلم محدود تسارع إلى نقل وقبول العناصر المادية من الثقافات الأخرى، كالسلع والمنتجات والأزياء والكلمات السوقية، وما شابه ذلك مما يbedo مبتوت الصلة بالعقائد والأفكار، ومما يbedo كذلك نافعاً وممتعاً وجميلاً . . .

أما الطبقات العليا - ولا سيما أهل الثقافة العليا - فإنهم عادة يتقبلون الأفكار والفنون وبعض التقاليد الدالة على السمو والرقي، ولا يبدون ولعاً بالسلع والمنتجات كما تفعل الشرائح الدنيا. والسبب في هذا أن (الثقافة الشعبية) هي من الليونة والغموض في وضع يجعل اختراقها عن طريق الفكر صعباً، ومن ثم فإن اختراقها عن طريق (التبادل التجاري) هو الطريق الأسهل والأقصر. أما الثقافة العليا فإنها تكونت بطريقة واعية ومنطقية وترانكيمية؛ مما يجعل اختراقها سهلاً بنفس الطريقة التي تكونت بها، أي عن طريق الإشعاع الفكري والرمزي.

وهذا ما يفسر لنا بوضوح استخدام منتجات الحضارة بكثافة هائلة، على حين أن الأفكار التي تبني الحضارة ما زالت لدينا محدودة؛ وذلك بسبب قلة المثقفين والمفكرين الأصلاء في ديار الإسلام إذا ما قيسوا إلى العامة وأشباههم وإلى المفتونين بثقافة الغرب وأفكاره.

ثالثاً: في التغير الثقافي:

أـ الثقافات في تغير مستمر:

لا تعرف الثقافات الجمود؛ إذ ليس من المألوف أن يكبر الإنسان، ويجد نفسه يعيش في عين الجو الثقافي الذي ولد فيه؛ حيث إن العناصر الثقافية المختلفة عبارة عن أنظمة مفتوحة تتأثر بالتغييرات البيئية، كما أنها تتأثر

(١) مفاهيم علم الاجتماع الثقافي: ١٦٤

بالوافدات الأجنبية، وما تملية ضرورات الحياة من صنوف التكيف التي لا حد لها؛ لكن ربما كانت بعض المجتمعات تطور ثقافتها بصورة أسرع مما هو موجود لدى مجتمعات أخرى؛ ويساق عادة المجتمع الأمريكي نموذجاً على التغير السريع، لكن لا توجد ثقافة لا تغير.

وبالتجدد تتمكن الثقافة من جلب النافع والتخلص من القديم الذي فقد وظيفته، أو بات غير مفيد؛ فكل المجتمعات تقريباً طرأ على ثقافتها في التعامل مع (الوقت) - مثلاً - تغير واسع بحسب تعقد مصالحها ودرجة تقدمها الصناعي، كما أن كل الثقافات قد حدث فيها تغير في مسائل (التضامن الاجتماعي) وفي مجال (العلاقة بالأشياء) حيث خفت درجة التلامم والتآزر بين الناس، كما أن علاقتهم بالمنتجات صارت علاقة استهلاك، وليس علاقة حفظ وصيانة. إن التغير الثقافي يظل محكوماً في سيرورته وشدة بمدى تقبل العقل الجمعي وتمثله له وتكييفه معه^(١). ويمكن القول إن من العوامل المؤثرة في شدة التغير الثقافي عاملين:

الأول: هو ضيق المجتمع واتساعه؛ فالتغير في المدن الكبرى أسرع منه في الهرج والقرى؛ حيث تكون الرقابة الاجتماعية أشد، ويكون الحرص على السمعة أكثر؛ مما يجعل أفكار التغير الثقافي لا تجد مجالات تتحققها في سلوك الناس. والثاني: هو مدى التنوع في النماذج والعناصر الثقافية الأساسية، حيث إن المجتمعات التي لا يعتنق أبناؤها إلا ديناً واحداً - مثلاً - أقل سرعة في تغيرها الثقافي من تلك التي تعيش فيها ديانات متعددة؛ إذ يستلزم عيشها مع بعضها كثيراً من ألوان التكيف. والتغير الثقافي تغير محابيد لا يحمل أي معنى معياري؛ فقد يكون نحو الأفضل، وقد يكون نحو الأسوأ.

بقي أن نقول: إن سرعة التغير الثقافي تجعل تكامل الثقافة أمراً نسبياً، كما أن سيطرة الناس عليها تصبح محدودة، وهذا ربما أدى إلى نوع من

(١) انظر السابق: ١٠٧ وما بعدها.

التمزق الاجتماعي؛ حيث يصبح إحساس الناس بهيمنة الثقافة وبيتها للتلاحم ضعيفاً؛ وهذا ما تعاني منه الدول المتقدمة.

بــ الشاب يتقبل التغير الثقافي أكثر من كبار السن:

كل تغير ثقافي يلقى نوعاً من المقاومة في بداية الأمر؛ فالثقافة حتى تؤدي وظائفها تسعى إلى نوع من الثبوت والاستقرار؛ وقد أثبتت الخبرة التاريخية والدراسات الحديثة أن الشباب يتقبلون التغير الثقافي والجديد من الأفكار والعادات أكثر من المتقدمين في السن؛ فقد كان أكثر الذين قبلوا دعوة النبي ﷺ شباباً، كما أن أكثر الذين تفاعلوا مع الصحوة الإسلامية المعاصرة هم أيضاً من الشباب. ويمكن أن نعيد هذه الظاهرة إلى أربعة عوامل:

١ - لا يكون التكوين الثقافي لدى الشباب مكتملاً مهما حصلوا من العلم؛ لأن بعض عناصر الثقافة لا تتم السيطرة عليه واستيعابه إلا من خلال شيء من نضج التربية الحياتية؛ وهذا يعني أن المسلمات الثقافية لدى الشباب ليست حادة ولا مكتملة؛ فهي لم تأخذ أبعادها النهائية؛ ومن ثم فإن الجديد يُستوعب لدى الشباب على أنه إضافة لما لديهم، وليس نسخاً أو تغييراً لما عندهم.

٢ - يتحلى الشباب بالمرونة الذهنية بسبب حداة السن؛ فالإنسان تتصلب آلية التفكير والاستيعاب والتكييف لديه على نحو يحاكي تصلب الجهاز الحركي عنده؛ ومن ثم فإنه كما يكتسب عادات صارمة في الأكل والمشي والكلام... يكتسب أيضاً عادات صارمة في الفهم والتمثيل والاقتناع؛ مما يصعب معه قبول الجديد.

٣ - عند تقدم السن يصيب النفس البشرية نوع من السامة والتكتل، كما أن الانفعال والتفاعل مع الجديد تنخفض درجته إلى حد بعيد، وكذلك التطلع إلى المستقبل يخف أو ينتهي بسبب الإحساس بأن ما بقي من العمر لم يعد كافياً للقيام بأية مشاريع. يضاف إلى هذا أن ضعف السمع والبصر لدى

الطاعن في السن يؤدي إلى عزلته عن المحيط والتبادل معه.

٤ - ليس للشاب - في العادة - مصالح ومنافع مرتبطة بالأوضاع القائمة، فهو ما زال هش الارتباط بالحياة كلها؛ ومن ثم فإن لا يرى في الجديد خطراً على ما استحوذ عليه من نفوذ أو متاع ضئيل. أما كبار السن ف شأنهم مختلف؛ ومن ثم فإن بعضهم لا يرفض الجديد للحفاظ على مكاسبه من الوضع الراهن فحسب، وإنما هو على استعداد لارتكاب جريمة إذا اقتضى الأمر؛ ف مجاله الخاص مرسوم بعناية، والعدوان عليه من أي جهة أو فكرة يقتضي الرد بصورة حاسمة.

ومن هنا فإن تركيز الدعاة والمصلحين على الشباب عمل منطقي وعلمي، فهم رمز المستقبل وأمل التجديد.

ج- عوامل التغيير الثقافي عديدة ومعقدة:

هناك حقيقة ليست موضع جدل، وهي أن الحتمية الثقافية أقل صرامة من الحتمية الجينية، ومن ثم فإن تفسير الظواهر الثقافية والتنبؤ بسيرورتها وتطورها يظل صعباً وقاصرأ؛ إذ إن كثيراً من العوامل المؤثرة في التغيير الثقافي هي أيضاً متغيرة ومتشاركة مع بعضها بعضاً، ويمكن أن نلاحظ من تعقيد عوامل التغيير ومظاهره ما يلي :

١ - لا يفسر تغير ما إلا في ضوء تغير آخر؛ فانتشار الجريمة في مجتمع لا يكون بسبب وجود نزعة عدوانية فحسب، فالنزعة موجودة من قديم لكنها لم تؤد إلى فشو الجرائم؛ إذن قد يكون هناك قصور اجتماعي أو ظلم أو تفكك أسري أو انهيار اقتصادي... أدى إلى أن تنشط النزعة إلى العداون، ولذا فإن علينا أن نبحث عن أكثر من عامل واحد.

٢ - استجابة الشعوب للتحدي وتطورها لثقافتها لا يقع نتيجة وجود خطر معين فالحافر الواحد يلقى استجابات عديدة؛ فالاليانيون يعللون الشاط المنقطع النظير في أداء أعمالهم بالخوف من الجوع؛ لأنهم إن لم يعملوا بهذه

الطريقة فلن يجدوا الطعام! . وهذا قد يكون صحيحاً . لكن في المقابل هناك شعوب أفريقية وأسيوية طحنها الجوع ، وخطف الموت بسببه مئات الألوف من أبنائها دون أن تتحرك للعمل بعشر الهمة التي يتحرك بها الشعب الياباني . ومن ثم فإن الإجابة على التحدي لا تحددها طبيعة التحدي ، وإنما الظروف التي يعيش فيها من توجه إليهم التحدي .

٣ - يتخذ التغيير الثقافي شكلاً خادعاً في أحيان كثيرة حيث يبدأ التغيير بشكل خفي من خلال التغيير في المضامين والمعاني وبقاء الأشكال الثقافية خاوية من أي مضمون . ويمكن القول: إن أكثر حالات التغيير الثقافي تكون بهذه الصورة؛ فالرقة الاجتماعية تنصب دائماً على الشكل، مما يجعل المضامين حرة في حركتها؛ ولذا فإن النمط الثقافي حين يفقد وظيفته أو القدرة على الإقناع بنفسه يظل محافظاً لمدة طويلة على وجوده، كما تحافظ الشجرة اليابسة على قوامها مع أن الحياة قد غادرتها!

وتكون المرحلة التالية التخلّي عن ذلك الشكل الذي يتحول إلى عباء؛ فكثير من أشكال التواصل الاجتماعي وزيارة الأرحام والأقرباء صار اليوم غير ذي معنى، كما أن كثيراً من ألفاظ السؤال عن الحال وعرض الخدمات على الآخرين لا يملك أي رصيد داخلي، أو ينم عن استعداد للبذل والتضحية، وهذا هو البداية لوقوع القطيعة الاجتماعية.

وهذا كلّه يعني أن من واجب الدعاة أن يفكروا مليأً في الأساليب والوسائل التي تساعد على بعث الروح من جديد في أنماط كثيرة من ثقافتنا فقدت معناها وحرارتها ووظيفتها بعد أن تسلط عليها الوعي، وكشف خداعها! .



(٣) محاور أساسية في ثقافة عصرنا

لا نريد أن نؤكد على الثقافة الشرعية للداعية؛ إذ إن ذلك شيء بدهي؛ حيث إنها تشكل العمود الفقري لمعلومات الداعية؛ فهي التي تشرّبها منذ نعومة أظفاره؛ وهي التي ما زال يعاود فيها النظر لأنها جوهر ما يدعو إليه؛ ولأنها تشكل (المرجعية) العامة له في دعوته وتأصيله للجديد وموقفه من الألوان الثقافية الأخرى.

ونحن نعتقد أن الكتابات التي نشرت حول ثقافة الداعية الشرعية كافية في التنبيه على أهميتها، كما أنها تقدم قسطاً جيداً منها لمن يتبعها أو تكميل خلفية ثقافية شرعية؛ لكن القصور الذي نلمسه في ثقافة كثير من الدعاة اليوم يعود إلى مدى المعرفة بالمحاور الثقافية التي تشكل ثقافة العصر الذي نعيشه، وهي محاور أملاها الفكر الغربي وزخم الحضارة الغربية الفلسفي والاجتماعي والاقتصادي؛ لأن الغرب هو الذي يقود العالم اليوم، ومن ثم فإنه استطاع أن يجعل من كثير من مفاصل ثقافته (المرأة) التي على جميع الأمم أن ترى صورتها فيها! ومهما كانت درجة خلافنا مع روح تلك الثقافة وطبيعتها، فإن التعرف على المحاور الأساسية فيها يظل أمراً حيوياً جداً؛ حيث إن ذلك سوف يساعدنا على تأسيس خطاب حي وفاعل يعرف مصادر الوعي الحديث وجوانب أفراده وأحزانه، كما يعرف المداخل للتأثير فيه وتغييره. وهذه المحاور تمثل العمود الفقري للثقافة الغربية، وهي موجودة بصورة أقل أهمية وانتشاراً في الثقافات الأخرى. ولعلنا نلخص أهم تلك المحاور في الحروف الصغيرة التالية:

١ - النسبية :

الشائع المقنن في النسبية هو نظرية (أشتاين) في الفيزياء الرياضية، وهذه النظرية لم تكن هي السبب في شيوخ النسبية في العقائد والأخلاق ومعايير الصواب والخطأ والحق والباطل، وإنما جاءت لتكميل ما كان من قبل أو لتربيده تعديلاً على المجالات المعرفية المختلفة؛ وإنما السبب هو فقد الإطار المرجعي (غير البشري) الذي يضع حدوداً فاصلة بين المتقابلات والمتضادات ونتيجة أيضاً «للراكم وجهات النظر وتضاريبها بحيث استوت جميعها أمام العقل، لا فرق بين حق وباطل وصواب وخطأ، وقد بدأت النسبية تسرى في الوعي الأوروبي حتى أصبحت جزءاً من نسيجه، نسبية الحقيقة وتغييرها ضد إطلاقها وثباتها، كل شيء متغير وكل شيء نسبي». ووجد الوعي الأوروبي في مصدره اليوناني ما يؤكد له نسبيته عند (هرقلطيس)، ثم عبر عن ذلك (هيجل) في أن «التغيير هو المطلق الوحيد وأن المطلق الوحيد هو التغيير..»^(١).

ويمكن القول أيضاً: إن إلغاء فكرة (الإله) وشطبها من الوعي الأوروبي كما هو الشأن عند (نيتشه) وغيره، أدى إلى جعل الإنسان مقياساً لكل شيء فالكون كله مرهون بالنظريات العلمية ذات الفكر والتطور المتتابع، وتلك النظريات اجتهادية أيضاً، والصواب والخطأ فيها نسبي أيضاً. وفي هذا يقول (جيمس بيرك): «إذا كانت هذه هي الحال فإننا نستطيع القول: إن جميع الأفكار في كل الأزمان أفكار سليمة على قدم المساواة، ولا توجد حقيقة ميتافيزيقية تتصف بأنها فوق عادية ونهائية ومطلقة، كما لا يوجد اتجاه خاص للأحداث. والكون - في نهاية الأمر - هو ما نقوله نحن عنه. وعندما تتغير النظريات يتغير معها الكون. أي أن الحقيقة نسبية»^(٢).

ويرى (بيرك) أن الغربيين استفادوا من النسبية في تحديد الأفكار

(١) مقدمة في علم الاستغراب: ٦٢٨.

(٢) عندما تغير العالم: ٤٣٣.

المتطرفة بكل أنواعها، كما تحفز النسبية أيضاً على جعل الحكم على الأشياء يتم من خلال الوعي بطبيعة سياق قيم الأحكام ذاتها^(١). وإذا كان هذا لا يخلو من شيء من الصحة فإن مشكلة النسبية أنها قد تؤدي إلى ترهل القيم والمعايير، وقد تؤدي إلى شعور بالجوع إلى شيء من صلابة اليقين؛ لأن العقل البشري يصعب عليه أن يعمل بدون إطار مرجعي يمنحه شيئاً من الثوابt والأسس الصارمة. وقد اخترقت نظرية النسبية الثقافة العربية الإسلامية لدى كثير من المثقفين وأنصاف المثقفين، وصرنا نسمع تعبير (الإسلام الشمولي) تتردد في كتب وصحف ومجلات تصدر في ديار الإسلام، وهي لا تذكر إلا في سياق الدم لأن الشمولية واليقين لا يتاسبان مع فكرة (النسبية).

وهذا مع أن الدعاة يفرقون بشكل جيد بين الأحكام القطعية المستمدة من أدلتها اليقينية في الثبوت والدلالة، وبين الأحكام الاجتهادية التي لا تخلو من كسب بشري، وهي وبالتالي قابلة للصواب والخطأ. وعلى كل حال فإن انتشار نظرية النسبية بهذا الشكل الهائل يعد تحدياً ليس بيسير في وجه نشر الأفكار والمبادئ الإسلامية التي تتمحور حول ضرورة إسلام الوجه لله في الأمر كله وفق منهجية إسلامية محددة.

٢ - النطور:

مع منتصف القرن التاسع عشر تغيرت النظرة إلى الكون؛ فوفقاً للنظرية الكونية المرتكزة إلى كتاب دارون «أصل الأنواع» كان الكون ديناميكياً ومتطولاً يحتوي على كائنات عضوية حية قادرة على التغيير من صورة إلى أخرى. وكان رأي بعض العلماء الذين يمثلون المدرسة «الداروينية» مثل العالم الألماني «إيرنست هايكل» أن صورة الحياة العضوية قد تطورت من مواد غير عضوية منذ الأزلمنة القديمة من تاريخ الكرة الأرضية^(٢). لم تكن نظرية (دارون) هي البداية في إخراج الوعي الأوروبي من أطر النظرة الكونية

(١) السابق....

(٢) عندما تغير العالم: ٣٩٧

إلى إطار النظر المتحول المتتطور للكون كله، وإنما كانت البداية الحقيقة لذلك ما تمَّ تمخُّض عنه الصراع بين العلم والكنيسة من ضرورة تنظيم شئون الإنسان بعيداً عن الدين وعن الغيب بصورة عامة، وتكتُف مفهوم التحرر العقلي في تخليص الناس من سلطة الكنيسة وكل المعيقات الذاتية وأشكال القمع الروحي الداخلية التي ارتبطت بها. وصار البديل عن فكرة (الخالق) (المخلوق) هو كشف وصياغة القوانين التي تحكم كل ظاهرة. وقد حدد (مونتسيكو) ت عام ١٧٥٥م منذ بداية القرن الثامن عشر معنى القوانين باعتبارها العلاقات الضرورية المستمدّة من طبيعة الأشياء. وكان هذا عبارة عن إيجاد مستند جديد للعقل غير مستند الغيب والدين. وهذا النظر الجديد فجر في الغرب كل أطر المعرفة القديمة وكل مفاهيمها، وهكذا بدأ الإنسان يفقد مكانته باعتباره مركزاً للعالَم، كما فقدت الأرض مكانتها باعتبارها مركزاً للكون^(١). وإذا كانت نظرية دارون ليست فاتحة النزعة التطورية لدى الغرب لكنها كانت الضربة الأقسى وال مباشرة لإنسانية الإنسان وكانت عبارة - كما عبر بعضهم - عن محِّرض لعملية «إعادة حيونة». وتركز في حُسْن الناس هناك انعدام الفواصل بين الإنسان والحيوان، فالكل أنواع في مغامرة الحياة الكبرى! وأخذ الناس يعوّضون عن فقدان (مركزهم الروحي) بالعودة إلى حيوانيتهم وسط جو من الصخب والابتهاج، وارتفع شأن الجسد، وأصبح العمل على استمراره عملاً مجزياً، وراجت سوق الصور العارية، وزاد استهلاك الأطعمة، وكل ما يؤدي إلى رفاهية الجسد وصحته^(٢).

وإذا كان المسلمين لم ينفعوا بنظرية دارون حول أصل الإنسان نظراً لعقيدتنا الصارمة في هذا إلا أنهم فتنوا بنظريات التطور في المجال الحضاري الصناعي خاصة، وصار (الثبوت) يدعى جموداً ورجعية، وأصابنا داء الملل

(١) الرعي الذاتي: ٢٦ وما بعدها.

(٢) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة: ٣٤، ٣٥. ومن الجدير بالذكر أن دارون أدرك عواقب نظرياته فأبدى بعض المخاوف من نتائجها في كتاب له بعنوان «نسل الإنسان والانتقاء الجنسي» والذي أصدره عام ١٨٧١م.

من كل شيء يصحبنا حتى الأثاث والمتاع الذي بذلنا فيه باهظ الأثمان، وافتتحت شهية لا تعرف الإرواء نحو الجديد مهما يكن نفعه وال الحاجة إليه!

وهكذا ونتيجة لتعيم نظرية دارون صارت (الأصولية) تفهم - عند بعضهم - على أنها عالم ما قبل دارون؛ إذ تعني الرفض القاطع لمفهوم التطور حيث تحرص على أن تكون مفاهيمها مطابقة لذاتها وسط بنية في تحول مستمر^(١).

ما سبق يحتاج من الدعاة إلى نوع من التفهم والاستيعاب والفرز لما لا يقبل الجمود عما لا يقبل التطوير؛ حتى نبني على الثوابت والركائز الأساسية مما كان العصر الذي نعيش فيه، وحتى لا نجمد ما ينبغي أن يستمر في التغير والتطور في الأساليب والوسائل والفروع؛ وكل ذلك حتى لا نعيش خارج العصر، ولا نفقد روحه. «إذا لم يكن للمرء روح عصره - كما قال فولتير - كان له كل أسباب شقاوئه».

٣ - عصر التعددية :

بانهيار الإطار المرجعي (الدين) الذي يهب الإنسان التصورات الكلية عن الحياة والكون والدنيا والأخرة صار الوعي الأولي (يتيمًا)، ووجد نفسه بين متحارجتين بما الاستعداد لقبول أية وجهة نظر وأي اجتهاد أياً كان مصدره، ومهما تكن مقوليته ومنطقتيه، وبين الخضوع لرأي أو مذهب أو فكر واحد يملئ على الناس، دون أن يكون من يملئه متيناً عن الآخرين بأي شيء، وكان الأسلم تجاه هذه الحالة الحرجة هو اختيار التعددية؛ ولما كانت وجهات النظر كلها معقولة؛ إذ إنها جمِيعاً ترد الكل إلى أحد أجزائه، وليس لأحد الأجزاء فضل على الجزء الآخر تساوت المذاهب، وأصبحت كلها على نفس الدرجة من الصواب والخطأ؛ فقد تكافأت الأدلة - كما يقول القدماء - وغاب الترجيح؛ فتحولت التعددية إلى مذهب، كما هو الشأن عند وليم جيمس في «عالم

(١) السابق: ١٥٢.

متعدد»، وأصبح الخلاف حول الحقيقة ذاتها؛ فتأصلت التعددية دون أن يكفر أحد أحداً، وتعددت وجهات النظر دون تحويل إحداها للأخرى. وصار الغرب يزهو بأن حضارته وحدها هي حضارة التعدد والاختلاف. وصارت التعددية أيضاً قوام الحياة السياسية ودعامة الحرية والمساواة^(١).

أسهمت حركة الاتصالات الواسعة النطاق والارتحال في الزمان والمكان الذي يعيشه أبناء عصرنا في نشر التعددية؛ حيث أتاحت لكل واحد أن يرى ويسمع ما لا يخصى من الأفكار والأراء والمذاهب ووجهات النظر، كما صار كل إنسان يقوم نفسه بالقياس إلى الآخرين^(٢). وهذا كله يؤهل الأذهان والمشاعر إلى قبول ما يصدر عن غيره من أفكار وموافق.

غزت أفكار التعددية العالم الإسلامي، وصارت هذه الكلمة ذات بريق وجاذبية خاصة لدى النخبة المثقفة، وصار هناك اتهام واسع النطاق لكل المتدينين بأنهم أحاديو التفكير، ويرفضون الآخر، ويضيقون ذرعاً بالرأي الآخر إلى ما هنالك من تهم معلبة وجاهزة لكل من يقف موقفاً غير مريح ..

وإذا علمنا أن سيادة التعددية كانت نتيجة فقد الإطار المرجعي أدركنا أنها حالة غريبة محضة لا يمكن لها - بصورتها المعهودة عندهم - أن تزدهر في العالم الإسلامي لا لشيء إلا لأنه يؤمن بمبادئ وقيم وأحكام إيماناً قطعياً لا يسمح باختلاط الحق بالباطل وجعلهما في مرتبة واحدة من الصدق والقبول. والتعددية بعد هذا شيء غامض ففرنسا التي تعتبر نفسها عاصمة الثقافة العالمية - القائمة على التنوع طبعاً - ضاقت ذرعاً بفتیات يغطين شعورهن، وقامت بفصلهن من المدارس ..

ومن جهة أخرى فإن قانون التعددية لم يخرج إلى قيد الحياة إلا على أنقاض قانون (الهوية) وقد بدأت شعوب عديدة تتساءل: من نحن وما هي واجباتنا وحقوقنا وما حدود وجودنا القومي والإنساني ... وهذا كله عندما

(١) مقدمة في علم الاستغراب: ٦٢٧.

(٢) عودة الوفاق: ٣١.

يتبلور سينضغط على التعددية، ويضعها من جديد ضمن دائرة الوعي ليعيد النظر في صلاحيتها من جديد.

لا ينبغي أن يفهم من هذا أن التعددية شر خالص؛ فهي على كل حال خير من علمانية تفرض فرضياً على شعوب مسلمة. ثم إن الشريعة الغراء أباحت التعددية ضمن الثوابت والأصول والأحكام القطعية، ومن ثم نشأت لدينا مذاهب فقهية عديدة وما زال فينا من يجتهد في أمور كثيرة، والتعددية التي نؤمن بها هي تعددية «التنوع في إطار الوحدة» وهذا مبدأ كوني.

وعلى كل حال فإن البصيرة بمذاهب الحضارة وقضاياها الكلية أمر ضروري لكل من يريد أن يكون فاعلاً في هذا العصر مؤثراً في توجهاته.

٤ - الاستهلاك العظيم:

لم يحدث في التاريخ أن نجح مجتمع بشري في تأمين حاجات الناس وكمالياتهم كما نجحت المجتمعات عالمنا المعاصر؛ فالالفتوحات العلمية والتقنية والاستغلالية لموارد البر والبحر وغداً الجو، مكنت الإنسان من توفير سلع وخدمات لو ذكرت للناس قبل نصف قرن من الآن لظنواها ضرباً من الوهم والخيال.

ونتيجة للإفلاس الروحي الذي لم يسبق له مثيل أيضاً؛ فقد قام الناس بإحلال الشهوات وأصناف المتع محل السعادة القلبية والإشراق الروحي، فبمجرد شعور الإنسان أنه قد يتم تحول إلى مستهلك وغداً رفع مستوى المعيشة هدف الحياة، كما غدا التقدم الاقتصادي كبير أصنام العصر، ومنذ قرون أخذ مفهوم «التقدم» يتطابق تدريجياً مع النمو الاقتصادي على حين أن ما كانت تبشر به الديمقراطيات الغربية هو العدالة الاجتماعية وتعظيم السعادة على الجميع، وذلك في منظور الغرب لا يتحقق إلا من خلال التوسيع الاقتصادي^(١). وهكذا تم اختزال (التقدم العام) وهو بالطبع مادي وروحي إلى النمو الاقتصادي وحده. وكان هذا يعني تمحور أنشطة الحياة كلها حول

(١) عودة الوفاق: ٤٤

هدف أعظم نهائي، هو: مزيد من العمل من أجل مزيد من الإنتاج من أجل مزيد من الاستهلاك من أجل المزيد من السعادة.

لم يكن الاندفاع نحو الاستهلاك العظيم ناجماً عن التغويض عن انهيار المركز الروحي للإنسان الغربي فحسب، بل كان إلى جانب ذلك نتيجة الرغبة في استمرار وتيرة النمو التي تخضع لها اقتصاديات البلدان المتقدمة تقنياً من أجل إيجاد احتياجات جديدة وتشييط الرغبة في تلبيتها باستخدام الدعاية وفتح أسواق تصدير جديدة وخفض مدة بقاء السلع^(١).

ويلخص أهمية الدعاية في الأعمال التجارية قول أحدهم: «لو كان لي عشرة دولارات لاتجرت بوحد منها وأنفقت الباقى في الدعاية»! وتذكر بعض الأرقام أن أمريكا أنفقت في العام المنصرم ٨٤ مليار دولار في الدعاية والإعلان عن السلع والخدمات، وهذا الرقم يكفي لإطعام عشرة شعوب من الشعوب التي تتضور جوعاً! ويؤسفني القول: إن فن الدعاية لدينا يسير باتجاه النمط الغربي، مع أن الدعاية تؤثر على الادخار الوطني في وقت نحن بأمس الحاجة فيه إلى رؤوس أموال من أجل إيجاد فرص عمل لملايين العاطلين عن العمل لدينا.

إن المذهبية الرأسمالية هي المسئولة عن الآلة التي أشرنا إليها، وقد انتقلت عدواها إلى باقي الأمم والشعوب، وصار الحديث عن الاقتصاد والربح والاستثمار وأسعار الأسهم - أكثر الأحاديث جاذبية وسيطرة على العقول والمجالس. كان شعار الحركة الدولية عند الغرب هو: الاقتصاد في خدمة السياسة، لكن الشعار اليوم هو: السياسة في خدمة الاقتصاد، تجاوباً مع المركز المرموق الذي احتلته المتفعة المادية اليوم. وقد كان الناس على مدار التاريخ يتوجون إلى استهلاكه لإبقاء مسيرة الحياة مستمرة، لكن الذي أحدثه الفلسفة الرأسمالية وذيلها وملحقاتها هو الرغبة في الاستهلاك من أجل الإنتاج! وهذا أدى إلى المسارعة في نضوب الموارد

(١) السابق: ٥٦.

المعدنية والطاقة غير المتتجددة، كما أدى إلى تلوث الماء والهواء وتسخين حرارة الأرض؛ مما ينذر بأوخر العواقب، ولو قدر لسكان الهند والصين أن يسلكوا المسلك الاستهلاكي الذي يسلكه الغرب - ولا سيما أمريكا - لاختنق العالم في عشر سنوات! لقد انتشرت الأمراض بسبب التلوث، وهناك بعض الأرقام المخيفة حقاً، فأمراض السرطان المتنوعة يعود ما بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪ منها إلى تلوث البيئة، كما أن نسبة ارتفاعها في حدود ٣٪ في السنة^(١).

سوف يطرح العالم قريباً في كل سنة من المخلفات ما يكفي لطمر عاصمة مهما كانت كبيرة بأكواام من الفضلات سماكتها ١٠٠ متر^(٢).

يقول أحد علماء البيئة المحترمين في الغرب: «إن المواطن الأمريكي يدمر حالياً في المتوسط مائة ضعف لما يدمره المواطن الهندي من موارده الطبيعية. ومن المرجح أنه إذا حفقت بقية العالم من النمو ما حققه الغرب فسيكون في ذلك فناء الإيكولوجيا العالمية إلى غير رجعة»^(٣).

إن مسؤولية حماية البيئة وترك الأرض صالحة لعيش الإنسان مسؤولة إسلامية؛ فما دام الله تعالى جعلنا خلفاء في الأرض، وطلب منا إعمارها فإن علينا أن نبذل كل ما في وسعنا لحفظها وصيانتها. والمأسوف أنه لا يوجد شعب مسلم يستطيع أن يدعى اليوم أنه من المنخرطين في برامج للمحافظة على البيئة، بل إن نمط الاستهلاك والتخييب الغربي للحياة الطبيعية صار مهوى الأفئدة للملاليين من المسلمين!!.

إن التعاليم الربانية في الاقتصاد والقناعة والحسانة أمام غزو الشهوات، هي وحدتها القادرية اليوم على تغيير الإنسان، وهذا التغيير هو السبيل الوحيد للتغيير نمط الاستهلاك المهلك^(٤)، لكن المبادئ لا تعمل في فراغ، وإن علينا أن نوفر الشروط والأدوات لجعلها فاعلة، وذلك جزء من ابتلاء الله - تعالى - لعباده.

(١) السابق: ٧٤، ٨٦.

(٢) آفاق المستقبل: ١٦٦.

(٣) عودة الوفاق: ٦٣.

(٤) هناك قاعدة يمكن تطبيقها في العديد من المجالات، هي: «ما يُستهلك يُهلك».

نتيجة للصراع الممرين بين الكنيسة والمجتمع المفتتح صارت القطعية مع الماضي شرطاً أساسياً في الوعي الأوروبي لإحداث أي تقدم، وكانت القطعية انتقائية إذ إن صلة الأوروبيين بالرموز اليونانية لم تتدرب، وإنما تبلورت وكانت فكرة (الشهيد) المخلص المسيحية هي الرمز الملهم لكثير من الأعمال الأدبية، وذات أثر أيضاً في توجيه الحركة الاجتماعية، لكن بعد حلول العلمانية بصورة نهائية حلت في الوعي الأوروبي صورة (البطل الوثني) الذي يغزو وينهب وينفق ويهب... وكان لا بد من إيجاد نظرية متكاملة تبلور وتفسر علاقات الإنسان مع كل ما حوله؛ ولم يكن من الممكن أن تعتمد آية نظرية متوقعة إلا على المحسوسات والماديات لتكون مخزن الوعي؛ لأن آية صلة بعالم الغيب سوف توقع الوعي الأوروبي في ارتباك، وسوف تخಡش وجه العلمانية التي تدعى الاكتفاء الذاتي على مستوى الرموز والقيم والأفكار والمفاهيم. وانتهى كل ما قيل حول «الروح» في القديم من آراء، وما سُود من ألف الصفحات؛ لأن التعامل مع غير المحسوس لا يخضع لمناهج البحث العلمي، ومن ثم فإن الروح صار يطلق عليها اسم الوعي أو العقل وما كان يدعى من الوجود الروحي وأبعاده المختلفة فهو إما غير موجود بالمرة أو هو - في أحسن الأحوال - وظيفة الخلايا المعقّدة التركيب والعمل. وإن كل عمليات تحليل المعلومات وتركيبيها وأشكال التعرف والسلوك - يبنيه الدماغ بنفسه، ولا شيء آخر يُدعى العقل المجهول؛ فالعقل والدماغ شيء واحد! ويعتقد كثير من العلماء المعاصرین أن حل مشكلة غموض العقل يمكن أن يتم في يوم ما في الدماغ الفيزيائي (الصناعي) من خلال تعقيدات الآلة والتي تستطيع تحويل الطاقة الكهربائية إلى أعداد لا نهاية من السلوك البشري^(١). وعلى حين كان (هيجل) يعتقد أن الحركة الجدلية للأفكار هي الأساس نفسه للعالم الواقعي، حيث الفكرة سابقة للعالم الذي هو عملية

(1) انظر النظرية الروحية: ٤٧.

تحقيق الأفكار - ذهب (ماركس) وأتباعه إلى أن العالم يسبق الأفكار التي تأخذ نماذجه، وليس العكس؛ فحركة الفكر انعكاس لحركة الواقع المنقولة إلى دماغ الإنسان^(١). وهكذا فالعقل نشاط دماغي يعمل في نطاق المادة. هذه الوضعية الفكرية المادية اخترقت عالمنا الإسلامي من أدناه إلى أقصاه. وقد كان وقعها على المثقفين أكبر من وقعها على العامة؛ فتضاءلت لدينا مساحة الاهتمامات الروحية، واتسعت مجالات العمل العقلي على حساب الوجدان وانطلاق الروح، وصار تحليلنا للأحداث والواقع يرتكز على المعطيات المادية والحسية أكثر من اعتماده على إدراك آثار الانحسار المعنوي والانحراف السلوكي . . . إن هذا كله جعل آراء المفكرين عبارة عن تنظير وتخطيط عقلي جاف يفتقد (طاقة الفعل) التي لا تولد في مجال العقل والفكر وإنما في مضارب الروح، وإن من واجبنا أن نعيد الاعتبار لنقاء السريرة وأعمال القلوب واستقامة السيرة حتى نتمكن من إحداث التوازن المطلوب بين العقل والقلب.

٦ - النفعية :

فقد الغرب المرجعية العقدية بقطبيته الكاملة مع الدين - أي دين - وحاول الغربيون تغطية الواقع العملي لهم عن طريق فيض من المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والتي تمنحها شيئاً من المشروعية والتنظيم المعرفي، وهذه المذاهب على مالها من أثر في ثراء المعرفة إلا أن كثرتها وتقطيعها تؤدي في النهاية إلى البلبلة والى نوع من «اللاأدرية» وخير حل آنذاك هو اللجوء إلى امتحان الأفكار عن طريق فائدتها ونفعها ما دام لا وجود لسبيل آخر للحكم عليها. ولم يكن هذا وحده هو السبب في سيادة مذهب النفعية واجتياده لكل المذاهب الغربية الأخرى، فهناك الشعور بالرفاهية والتفوق العلمي والاقتصادي؛ فهو يدفع بطريقة خفية إلى تبني الأفكار التي تزيد في سلطانه، ولا شيء كتحكيم الشمار والنتائج أعود بالنفع على المتصرفين من الاحتكام إليها.

(١) علم اجتماع السياسة: ٢٥٣، ٢٥٤.

وقد كان الوعي الإنجليزي سباقاً إلى العمل على أساس المتفعة؛ وإذا كان (بنتمان) ت ١٨٣٢ هو مؤسس المذهب النفعي فإنه في الحقيقة لم يُعدْ أن أعطى للأيديولوجية مذهبًا ونهجًا في إنكلترا المهتمة بالفعالية والرفاه أكثر من اهتمامها بالتأملات الفلسفية. إن أسطورة النحلات (١٧٢٣) هي الوثيقة الرمزية لهذه المنفعة. الأسطورة تقول: هناك خلية صارت فيها النحلات فاضلات زاهدات متقدفات محسنات، إنها الكارثة!

الاستنتاج:

إن عيوب الأفراد هي نعمة للمجتمع، فأنانية كلِّ هي شرط في ازدحام الجميع^(١).

وكان (وليم بالي) ت ١٨٠٥ وهو أيضًا إنجليزي قد أسس نظرية (التشهيل) أي تسهيل العمل، وبالتالي أرسى بعض قواعد المذهب النفعي في الأخلاق؛ فصحة الفعل مرهونة بما يتحققه من أخلاق^(٢).

وقد وضعت البشرية تحت إمرة سيدين مطلقين: الألم واللذة. ويصدر الحكم الخلقي على الأفعال بناء على الإقلال من الألم والزيادة في اللذة. وتم بعد ذلك توسيع مفهومي اللذة والألم إلى مفهومي النفع والضرر. وارتکز في مذهب «النفعية» أن المصلحة أساس الخير، والواجب تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر قدر من الناس^(٣).

وبما أن أمريكا بنت أوروبا - ولا سيما بريطانيا - فإن مذهبًا لا يختلف كثيراً عن المذهب النفعي نشأ فيها يدعى^(٤) «البرجماتية»، ومؤسسها هو: (تشارلس بيرس) ت ١٩١٤، وفيه أن الأفكار الصحيحة هي ما تثبته الفحوص الدقيقة والبحث الرصين. ويقول (وليم جيمس): إن كل الخلافات

(١) تاريخ الفكر السياسي: ٣٢٦.

(٢) مقدمة في علم الاستغراب: ٣٠١.

(٣) السابق: ٣٩٩ وما بعدها.

(٤) السابق: ٤٣٨ وما بعدها.

الميتافيزيقية يمكن أن تحل أو تقل أهميتها عن طريق النتائج العملية المترتبة عليها. والأفكار مجرد (شيكات) لا بد أن تكون لها قيمة مصرافية!

على الصعيد العملي أنتجت (النفعية) عدداً من السياسات التي يمارسها قادة الغرب في حركتهم اليومية - ولا سيما - خارج بلادهم ومن أهم تلك السياسات:

أ - سياسة الفتح السلمي:

إذا كان بإمكانك أن تصل إلى كل أهدافك دون أن تراق قطرة دم من دماء جندي من جنودك، فذاك دليل براعتك ونجاحك. وإذا كان بإمكانك أن تصيد بشباك من حرير فلا تستخدم غيرها. وقد أكدت هذه السياسة نتائج الحربين العالميتين المدمرة إلى جانب ما لمسه المستعمر الغربي من أن الدول التي نالت استقلالها صارت شعوبها أكثر تعلقاً به وحاجة إليه من أيام الاستعمار، فالسياحة لأبنائها في بلاده والآلات تستورد من عنده، والطلاب يتبعثون إلى جامعاته! إذا كان بإمكان الآخرين أن يأتوا إليك ليحققوا لك كل ما تصبو إليه فلماذا تذهب إليهم؟!

ولا ريب أن التفوق الحضاري الغربي هو الذي أملى هذه السياسة تجاه العالم الثالث المستضعف فاستقرار الأحوال فيه وشعوره بشيء من الحرية يتبع له شيئاً من النمو والتقدم الذي يوفر إمكانية جيدة للنهب!

إذا كان بإمكانك أن تذبح بقرة سمينة، فلماذا تذبحها عجفاء؟!

ب - سياسة الأمر الواقع:

إن النفعية و«البرجماتية» تدفعان دفعاً إلى الالتصاق بالواقع إدراكاً وإصلاحاً واستثماراً ومجالاً للفعل.. وكان مما أفرزته النفعية إلى جانب التفوق الكبير الذي أحرزه الغرب سياسة (الأمر الواقع). وهذه السياسة تقوم على العمل الدائب المتدرج المتخفى على إيجاد واقع معين ومحاولة تثبيته بكل وسيلة ممكنة، ومعطيات (مرور الزمن) تخدم هذه السياسة حيث يصبح المتضررون من واقع سين مسلولي الحركة بعد ترسخه و حاجته إلى جهود

كبيرى كي يتغير، وهم لا يستطيعون بذلك تلك الجهود لأن الواقع السيني نفسه يحول دون التمكن من الأعمال الكبيرة! وهكذا يدور الضعف المغدور بهم في حلقة مفرغة لا يعرفون للخروج منها فكاكاً.

هذه السياسة يمارسها الغرب ضد شعوب العالم النامي جهاراً نهاراً؛ فهو ما يزال يحاول الإبقاء على عين الظروف السيئة التي خلفها وراءه عند مغادرته لها من خلال زرع القلاقل والفتن ونهب الخيرات وفتح الأسواق لمتاجاته عن طريق الابتزاز.... ولعل (اليهود) خير من يمارس هذه السياسة بنجاح؛ فقد أصموا آذانهم عن كل القرارات الدولية إلى أن أوجدوا واقعاً لا يمكن معه تنفيذ تلك القرارات؛ فأين يذهب مئات الآلوف من المهاجرين اليهود، وماذا يمكن عمله لترسانة نووية هائلة، وكيف يستطيع مئات الآلوف من أهل فلسطين الاستغناء عن العمل لديهم، ولا يوجد أي بديل يلوح في الأفق...؟

إن الجملة التي يقولها أصحاب هذه السياسة للمغدور بهم هي: «صح النوم»!!.

جـ- سياسة التذرع:

لا بد للنفعيين أن يضفوا (العقلانية) والمشروعية والانسجام على أعمالهم، ومن ثم فإنه لا يجوز خدش القيم الأساسية التي ينالون على أساسها أصوات الناخبين، ويستمدون شرعية سلطتهم منها. وهذا يعني أن تحقيق المصالح لا بد أن يستند إلى تلك القيم ولو بطريقة ملفوفة، ومن ثم فإن الحل في هذه الحالة هو إيجاد المسوغات والذرائع التي تستند إلى القيم المستهلكة في الداخل، وتساعد في الوقت نفسه على تحقيق المصالح والغايات المستهدفة. وقد عبر (هتلر) يوماً عن هذا حين قال: إذا أردت أن تضرب أصحاب عقيدة مناوئة فعليك أن تضرفهم باستمرار، لكن حتى تضرفهم باستمرار فلا بد لك من مبرر. فالمطلوب إذاً هو (صناعة المبرر) وتتخذ تلك الصناعة أشكالاً عديدة من خلاف على حدود أو إحداث حرب أهلية أو تلقيق تهمة إرهابية أو تخريبية أو حماية مصالح مهمة أو مجال حيوي

أساسي... وهكذا يتدخل التفعيون في شئون البلد الضحية من خلال مسوغات مشروعة ومفهومة لدى شعوبهم ولدى المجتمع الدولي.

إن النفعية والواقعية تمثلان تحدياً كبيراً لنا ليس على مستوى السلوك المتسلط الذي يعاملنا به الغرب فحسب، ولكن على مستوى العمل الدعوي أيضاً؛ حيث إن من شعارات الواقعية والنفعية «دعونا نلمس»، ومن ثم فإن واقع المسلمين الحالي يمثل صدراً كبيراً عن سبيل الله، ويقف عقبة كثيرة أمام نشر دعوتهم ورسالتهم؛ فالداعاوي المذهبية في العالم بالصلاح والإصلاح كثيرة، ومن ثم فإن ما يُحرم منها من الواقع العملي المشرق لا يجد سبيلاً إلى أذهان الشعوب الغربية.

ثم إن علينا أن نحل مشكلاتنا الداخلية، ونقوي من نسيجنا الاجتماعي؛ حتى لا نعطي الذريعة للتدخل في شؤوننا الخاصة.

ولا بد من القول بعد هذا وذاك: إن منطق (أرسطو) العقيم الذي يقوم على الصدق الشكلي، وعلى بحث القضايا في الذهن لا في الواقع - ما زال - يسيطر على أذهان كثير من طلاب العلم الشرعي من خلال دراستهم لكتب التراث المشوبة بذلك المنطق؛ مما يجعلهم بحاجة إلى شيء من الاهتمام بفهم الواقع وتقديره؛ فقد كان من أسباب انتكاساتنا الحضارية الانفصال بين العلوم والواقع المعاش مما حرمه من النضوج والرشاد، وحرمه من الإصلاح والتقويم!

٧ - مشروعية الاختراق الثقافي المتبادل:

تسبيت حركة الاتصالات العالمية الضخمة في كسر كل الأقال، وإزالة كل الحاجز بين البلدان والشعوب؛ مما أحدث تواصلاً وتمازجاً ثقافياً لم يسبق له نظير من قبل، وجعل الثقافات المتباعدة أمام بعضها وجهاً لوجه، ترى كل واحدة منها مزاياها وعيوبها في وجه الأخرى؛ مما جعل (الآخر) أنجع وسيلة لفهم الذات وتقويمها.

ومن مظاهر الإقرار بمشروعية ذلك الاختراق المراكز الثقافية والصحف والمجلات الدولية والكتب الكثيرة التي تترجم، وتنقل من لغة إلى لغة أخرى وشبكات الاتصالات وأجهزة البث المختلفة... .

وهذه المشروعية هي بعض ما تملئه القوة من شروط واستحقاقات، والتي يجب سدادها دون تأخير.

وحيثما تلتقي ثقافتان متباينتان، فإن كل واحدة منهما تشكل محنة للأخرى وتدخلها في نوع من أنواع الاختبار؛ لكن المشكلة في هذا اللقاء الضخم الذي يتم اليوم أنه لقاء شكلي، فالثقافة الغربية تدخل - من خلال وسائلها - كل بيت وجامعة ومزرعة . . . ، وهي مع ذلك تملك فتنة الغلبة وجاذبية التفوق والنجاح في ميادين كثيرة، على حين أن الثقافة الإسلامية - على ما تملكه من مبادئ سامية وعناصر ممتازة - لا تجد الوسائل التي تمكنها من الظهور أمام الغرب، بل إنها لا تملك الوسائل الكافية لرد التهم عن نفسها، حيث تستهدف من أكثر من جهة وفي أكثر من صعيد. ويضاف إلى هذا إخفاق أكثر الشعوب الإسلامية في تحقيق إنجازات رائدة تدعم الموقف العالمي للثقافة الإسلامية. وبالتالي فإن ثقافتنا لا تشكل تحدياً للثقافة الغربية، ولا تحوجها إلى شيء من المراجعة إلا إذا استثنينا بعض الحالات الفردية. ولا نتوقع أن يحدث تغيير على هذا الصعيد ما لم تتحقق النقلة الحضارية النوعية للشعوب الإسلامية أو بعضها على الأقل.

لكن الذي أود أن أشير إليه أن كثيرين منا ما زالوا مشغولين بالحديث عن الغزو الثقافي الغربي والتآمر الدولي الرهيب علينا وعلى ثقافتنا، دون أن يدفع ذلك إلى أية خطوة إيجابية أو الوصول إلى محك نهائي في هذا الموضوع. علينا أن نسأل أنفسنا لماذا لا نقوم نحن بالتآمر على أحد، وننظر نهجس دائماً بالعدوان والتآمر الخارجي؟!

ربما جاء الجواب: لأننا ضعاف. وعلينا أن نقول بعد هذا: لماذا نحن ضعاف؟ ثم نقول: ما أسباب الضعف، ثم ما الوسائل لتلافيه أو تحجيمه؟ وعلينا أن نطوي بعد ذلك هذه الصفحة لنبرهن عملياً أن خير رد على الغزو هو العمل المتواصل لإحداث نوع من التكافؤ، وأنذاك فإننا لن نشعر بحاجة إلى الشكوى من أحد؛ حيث نستطيع أن نخترق، ونغزو ونكسب أرضاً جديدة لرسالتنا وثقافتنا.

مما ترسخ في الوعي الأوروبي أن الإنسان حصاد ما يعرفه، وما يتقنه وبالتالي ما يملكه، ومن هنا اندفع الغرب في الاكتشاف والتصنيع إلى أقصى حد ممكن، مما أنتج تعاظم الملكية وإيجاد مجتمعات الوفرة والخدمات والجامعات ومراكز البحث العلمي... وصار التقدم نحو الأفضل والبحث في الكيفيات والوسائل التي تحقق ذلك الهاجس اليومي لعالم الغرب كله، ولكل من تواصل معه من شعوب الأطراف.

هناك في الأصل فرق بين التطور والتقدم: «ففكرة التطور مستندة إلى نظرية علمية محققة ولو نسبياً، أي إلى فرضية إجرائية علمية مدعمّة. أما فكرة التقدم فهي فكرة أخلاقية وأيدلوجية محضة. فالتطور يمس الأشياء والموضوع بشكل عام في استقلاله عن الذات. أما التقدم فيتعلق مباشرة بالذات وبالمعايير الأخلاقية الاجتماعية»^(١). التطور قد يكون إيجابياً وقد يكون سلبياً، والبنية الجسدية في سن الكهولة تستمر في تطورها نحو الشيخوخة ثم الموت.. لكن التقدم هو تطور دائماً نحو الأفضل، لكن المشكلة في العالم الغربي أنه ليس لديه أي ضمان للفصل بين التقدم والتطور، فالحركة الاجتماعية والعلمية والإنتاجية ماضية في سبيلها لتجد الأخلاق والعقائد الأوروبية، وهذا طبيعي؛ إذ في ظل فقد المرجعية العليا لذلك يكون من المستحيل وضع حدود أي معايير تمنع الثبات لأي شيء؛ ولا سيما في ظل حركة تغير سريع يعجز المخ البشري عن ملاحقة الآثار التي يخلفها وراءه. ثم إن القصور البشري لا يمكن أبداً من رؤية الحقائق الكبرى دفعة واحدة مما يجعل الإنسان منهمكاً دائماً في تجارب: (الصواب والخطأ)، فرُحْ بإنجاز ثم ندم عليه وخوف منه. وحين يتوجه مجتمع أو شعب إلى إعطاء التقدم الأولوية المطلقة، فإنه يقوم بإيجاد الأسباب التي تخدمها، كما يقوم بتحطيم كل الحواجز والأفكار والعقائد بل والمعلومات - أحياناً -

(١) الوعي الذاتي: ٢٩

التي تعرقل سبل تحقيقها، وهذا ما حصل في الغرب واستشرى بفعل العدوى في باقى أنحاء المعمورة؛ فالتقدم يقتضي إزالة الحواجز والمعوقات أمام حركة الناس وحركة الأفكار والبضائع، ومن ثم ساد بشكل قوى شعار: «دعاه يمر، دعه يعمل»، وصار من المسؤوليات الأساسية للدولة فتح الأسواق الخارجية وإيجاد فرص العمل الداخلية من أجل تحقيق ذلك. الاتصالات السريعة من أجل اختصار الزمن، وهي مثل (الوجبات السريعة)، مثل الدقة في المواعيد، مثل الفاعلية القصوى، مثل الاقتصاد في الجهد ترمي جمياً إلى هدف واحد: هو إنجاز أكبر قدر ممكن من الأشياء والأعمال في أقل وقت ممكن.

في سبيل التقدم الذي هو أولوية مطلقة تصبح الراحة من أجل العمل، ويصبح إشباع الغرائز بأية وسيلة كانت أمراً مشروعاً ما دام يؤدي إلى فراغ البال من أجل مزيد من الإنتاج! الربا يصبح عمود الاقتصاد العالمي ما دام يسهل عمليات الاستثمار - أو هكذا يظن - وإنشاء الشركات العملاقة. لا مانع في سبيل التقدم من أن ترك المرأة أسرتها وحصنها الحصين - بيتها - وتنخرط في الوظائف والمهن، وينبغي عليها أن تتحمل الضغوط الرهيبة التي لا تحملها جملتها العصبية، كما أن عليها أن تتكيف مع كل ما ت تعرض له من مضائق وإيذاءات من الجنس الآخر؛ فكل ذلك يحتمل في سبيل التقدم! تفكك العلاقات الأسرية وتفاعل المشكلات البيتية بسبب عمل المرأة أو سفر الزوج لسنوات عدة - قد تكون متابعة - كل ذلك سائع ومقبول وعلى الإنسان أن يتحمل

التقدم يستلزم السحب من الرصيد الحيوي والبيئي من أجل حركة التصنيع، وما تستلزمه من الاستهلاك، وعلى الناس أن يقبلوا بذلك ولو أدى ذلك إلى الاختناق أو تصاعد أمراض السرطان والحساسية، ففقه الأولويات جعل التقدم في المرتبة الأولى، وأباح وبالتالي التضحية بكل أشياء المراتب الأخرى!

إلى جانب هذا وذاك على الناس أن يتواافقوا مع حركة التاريخ والامتثال للمعايير الأخلاقية والاجتماعية التي تفرزها، وإنما فقسوة العيش والعجز عن

الفهم، والاتهام بالعيش خارج العصر، بل بالهجمية هي المنغصات التي تتذكر.

في غيبة الهدایة الربانية يصعب على الناس أن يدركوا المساحات الفاصلة بينهم وبين حفهم الحضاري الذي يحثون الخطى نحوه من خلال الهوس والولع بالإنتاج العظيم والشيء الجديد!!

استلزم التقدم معايير جديدة لـ(اللباقة) الاجتماعية هي: الفاعلية والدقة والشراء وسرعة الفهم والانتقال بالوسائل الحديثة، وكتب الرغبات والقدرة على التضخيم والقدرة على الإنجاز السريع والإيجابية والقدرة على التكيف... كما استلزم انتزواءً معايير وأخلاق أخرى وتهميشهما مثل الطيبة واستقامة السلوك ونظافة السريرة واللطف والتدين - بشكل عام - وهكذا باختصار (الكدع) مكان (ابن الحلال) و(النجاح) موضع (الفلاح)! هذا هو واقع العالم من حولنا، وقد وضعت ثورة الاتصالات الرهيبة والمتنامية العالم في وجه بعضه بعضاً، وقامت سوق الموازنات والمقارنات، وانتهى أكثر الناس في الأقطار والشعوب النامية والمكافحة من أجل البقاء إلى الإعجاب، بل الافتتان بالتقدم الغربي، كما فتن الغرب بالتقدم الياباني، واختصر في حسّ شعوبنا ذلك التقدم المتعدد الجوانب إلى التقدم الاقتصادي؛ فصار الحديث عن الرفاهية والتنمية والتعمّت بثمار التقنية الحديثة هو الحديث المسيطر على المجالس والمنتديات بل والمواعظ! .

لولا التواصل الكوني لكان في إمكان كل أمة أن تضع معايير تقدمها، وأن ترتب أولويات نموها وحركتها العامة، لكن هذا ليس ممكناً اليوم في ظل الأوضاع الحالية. وتجاهل تطلعات الشعوب المبنية على ما رأته لدى الآخرين لن يكون ممكناً ولا حكيناً؛ وتقليل الغرب وتابع طريقته ووثيرته في النمو والتقدم ستكون مرة؛ إذ إن من غير الممكن نقل حالة حضارية ناتجة عن تطور بنى فكرية وعقائدية وبيئية مختلفة إلى ديار المسلمين، وتعسف ذلك لن يؤدي إلى النمو والتحضر، ولكن سيفتك البناء الموجودة لدينا، ويحدث انقساماً في الوعي دون أن يتمكن من إيجاد بناءات جديدة أو وعي جديد.

والإعراض عن كل ما في العصر يجعلنا نصاب بكل شروره دون أن نجني شيئاً من ثماره.

فلم يبق لدينا سوى تحقيق الانطلاقية الذاتية المتوازنة التي تنسجم مع أهدافنا وطاقاتنا ومبادئنا، انطلاقه تتم وفق أولوياتنا وحاجاتنا، تحافظ على البيئة، ولا تستهلك الإنسان في طلب المتعة واللهو، ولا تستهدف العلو ولا الفساد في الأرض، وتكتف المسلم عن الحاجة والتطلع لما في أيدي الآخرين، وتساعدنا في نشر رسالة الإسلام؛ وهذا لن يتم بدون الفكر والجهد الصادق والإخلاص العميق؛ والله عاقبة الأمور.

٩ - جدلية التحدى والاستجابة:

من المفاهيم الكبرى التي سادت في عصرنا هذا العلاقات الجدلية بين الإنسان وما حوله من نبات وحيوان وجمامد، وأصبح هناك بإزاء قوانين الفعل قوانين رد الفعل. ولم تعد التحديات والصعوبات محسناً وشقاء. بل أصبحت نعماً ربما يؤدي فقدانها إلى الترهل والموت والاندثار...

إن إدراك العلاقات (الخطية) لا يحتاج إلى قدرات ذهنية عالية، ولا إلى ثقافة معقدة ولا إلى خبرات راقية؛ إذ إن الرابط بين الأسباب والنتائج فيها يتم بصورة مباشرة وسهلة، وهل هناك أسهل من الربط بين الماء والري أو بين النور والإبصار؟ لكن إدراك العلاقات الجدلية هو الذي يحتاج إلى كل ذلك حيث تسهم في الظاهرة الواحدة حزمة من الأسباب الظاهرة والخفية، ولا ندري في أحياناً كثيرة نسبة تأثير كل سبب، كما لا نستطيع التفرقة بين الأفعال الصادرة بسبب المبادرة والأفعال الصادرة ردًا على تحدي معين إلا في أحوال معينة. فليس من السهل - مثلاً - إدراك الحافز الذي يحدثه الفقر أو المرض في حركة الإنسان على وجه الدقة؛ كنا في الماضي ننشد الراحة، ونتخيّل باستمتاع السعادة التي تحيط برجل من وراء تأمين كل ما تتوق إليه نفسه من غير جهد ولا كد، غير مدركين لما لذلك من أثر في إيجاد نفسية الاسترخاء والإهمال، وإيقاف ممارسة الوظائف الحيوية، والحرمان من نعمة الحركة والرياضة البدنية مما يعجز بالشيخوخة المبكرة!.

خبرة الإنسان علمته أن فقد المثير مشكلة، وصار من الباحثين من يرى

أن جزءاً كبيراً من تخلف أفريقيا يعود إلى عدم وجود تحديات تدفع إلى العمل، فالماء والغذاء موجود - ولا سيما في الماضي - واعتلال المناخ لا يحتاج معه إلى التدفئة، وتتوفر الغابات سهولة منقطعة النظير لبناء المساكن والعشش والأكواخ. وهذا كله جعل الإنسان الأفريقي يشعر أن لا شيء يدعو إلى العجلة ولا إلى الكد والنصب ما دام الحد الأدنى من الحياة متوفراً!

العلاقات الجدلية تقتضي دائماً التنافس والتعاون، فحين تصطدم فكرة بفكرة أخرى يتولد عنهما فكرة ثالثة هي أعلى منهما مستوى حيث تكون قد تجاوزتهما معاً، وصارت خلاصة لأجمل وأبدع ما فيهما. علاقات التنافس والتعاون هذه تتم في نطاق توازنات مستمرة لا غنى للحياة عنها، ومنها تولدت مفاهيم كثيرة في القرن الماضي منها: التكيف والصراع من أجل الحياة والتوتر والمقاومة والمجابهة والأزمة واستيعاب وجهة نظر الآخر والكمون والتجاوز والهروب والاختبار والتنازل....

واستطاع (توينبي) المؤرخ الإنجليزي المشهور أن يستثمر المعارف الجدلية التي تحصلت لدى البشرية في تفسير نشوء وتحلل الحضارات، وجعل نشوء كثير منها بسبب تحديات واجهتها، كما جعل فقد المثير وسهولة الحياة مع فساد الصفوّة أسباباً مهمة في تحللها وانهيارها.

وأدرك (توينبي) أن التحدي الشديد يكون عقيماً حيث يوجد لدى الناس نفسية العجز والإحباط، ومن ثم فإنه بلور فكرة (الوسط الذهبي) ذاك الذي يتحدى لكنه لا يعجز، فهو فوق إمكانات الناس في اللحظة التي يكتشفونه فيها لكنه ليس فوق إمكاناتِ أعيد تحريكها وتنظيمها واستثمارها بشكل جيد^(١). (فكرة الوسط الذهبي) هذه صارت اليوم عماداً مهماً من عُمُد التنمية الحديثة، إذ صار من مهامات الدولة الحديثة أن تقوم بتوفير تجهيزات البنية الأساسية من طرق موانئ ومطارات وكهرباء ومستشفيات ومدارس (مما يوفر

(١) انظر مختصر دراسة التاريخ ٢٣٢: ١ وما بعدها.

الحد المقبول من التجهيزات المساعدة للفرد على استثمار طاقاته وأمواله، وهذه كلها مع توفير الأمن تشكل الوسط الذهبي للإنتاج وترتب على هذا الواجب على الدولة واجب على المواطن، وهو محاولة الاستفادة من هذه المرافق بكفاءة، لأنه إن لم يفعل ذلك كان عليه أن يدفع الثمن، فالمدرسة تفتحها الدولة، وعليك أن تدخلها لكن الثمن الذي ستدفعه إن لم تدخلها سيكون باهظاً، إنه عدم الأهلية للقيام بأي نشاط فعال في مجتمع متعلم! . وأكثر مشكلات الإنتاج حدة في الدول المختلفة هو سوء الوسط الذي يتحرك فيه المتوجون.

لم تكن جدلية التحدي والاستجابة الكشف البشري الكبير على المستوى التقني والمادي فقط، وإنما في المجال الفلسفـي أيضاً، والذي هو الأساس في الحركة المادية، وخذ مثلاً واحداً تحولت فيه نظرـة الإنسان المادي - بشكل رئيسي - من الاعتقاد بأنه شيء طبيعي إلى اعتباره تحدياً كبيراً، مما أسس عدداً من الاستجابـات الكـبرـى، وذلك هو (الموت)؛ فقد كان الموت في المفهـوم القديـم استسلاماً للـله - تعالى - وتسليم الروح إلى بارئها، وهو أمر منتظر، وفي بعض الأحيـان محـبـبـ. وهو مناسبـة لـتحقيق التضامـن والتعاون والمرودـة بين أـبنـاءـ الجـمـاعـةـ، وفرصة لـإـظهـارـ الشـجـاعةـ والمرـوـءـةـ والصـبـرـ وـقـوـةـ الإـيمـانـ وـالـعـزـيمـةـ. إنـ الموـتـ أحدـ أـسـسـ وـمـبـادـيـ الحـيـاةـ ذاتـهاـ؛ فهو يـساـويـ بـيـنـ الـبـشـرـ، فـلـأـحـدـ أـفـضـلـ وـأـقـوىـ منـ الـآخـرـ، وـلـأـنـ ثـرـوـةـ أحـدـ فـيـ وـقـفـ موـتـهـ وـمـثـولـهـ بـيـنـ يـدـيـ خـالـقـهـ. وـمـاـ دـامـ كـلـ إـنـسـانـ فـانـيـاـ، فـكـلـ شـيـءـ مـادـيـ دـنـيـويـ يـفـقـدـ قـيمـتـهـ الـمـطـلـقـةـ، ويـصـبـحـ ذـاـ قـيمـةـ نـسـبـيـةـ. ويـصـبـحـ عـلـىـ إـنـسـانـ أـنـ يـعـمـلـ لـدـينـهـ وـدـنـيـاهـ مـعـاـ. يـصـبـحـ الموـتـ إـذـنـ باـختـصارـ عـاـمـلـ تنـظـيمـ لـلـأـخـلـاقـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـكـيـ يـصـبـحـ كـذـلـكـ لـأـ بـدـ منـ قـبـولـهـ وـاستـيعـابـهـ بـدـونـ كـبـرـ أوـ غـضـاضـةـ.

أما اليوم فقد صار الموت بالنسبة للإنسان الحديث نقصاً مطلقاً وعطباً للمادة وقتلاً لقدرة لا تعوض. وهو هاجس يومي يحاربه الإنسان الحديث في كل يوم وساعة حتى أصبح الطب والتأمينات على الحياة شغل الناس الشاغل.

صارت الحضارة الحديثة تسعى إلى أن تجعل من تحدي (الموت) وإخضاعه حافزاً إلى التفوق المادي وال العسكري. إذن ليس السعي لتأكيد الذات وتحقيق السيطرة والتفوق بما هي قيم سائدة في المجتمع الحديث إلا لمقاومة الشعور بخطر الموت، وبالخوف منه^(١). وإذا كان هذا الموقف الرئيس لكل علماني فإننا نلمس أن إشعاعات هذا الأمر قد عمت العالم كله بدرجات متفاوتة فقد تهمش حيز الآخرة في الحس إلى حد بعيد، ولم يصبح هو الأمر اللاشعوري للحركة الاجتماعية في عالم الإسلام، وذلك بسبب تأثيره بالفلسفة الغربية وبسبب ضغوط الحياة المادية الحديثة. مع أن المسلم - على المستوى النظري - ما زال يعتقد أن الموت نهاية مرحلة، وليس فناء كما هو عند الآخرين. إن كل تحدٍ من التحديات يسبب مشكلة لكنه في الوقت نفسه يمنحك فرصة لكن يشرط أن تكون في الموضع الصحيح. الموضع الصحيح يعني إدراك التحديات بحجمها الطبيعي دون تضخيم؛ فنيأس، دون تهوين فنستريخي. والوضع الصحيح يعني أيضاً أن نوفر الحد المقبول من الوسط المنتج الذي يساعدنا على الاستجابة الحية، وذلك يحتاج إلى الأمان والاستقرار والتضامن والالتزام وشيء من الرخاء وكثير من الفاعلية.

١٠ - العدمية والتشاؤم :

يمكن القول: إن الإنسان أعطى نفسه أكثر من قدره الحقيقي؛ فهو - لا شك - مكرم ومخلوق متميز، وعلى حين يفنى أكثر المخلوقات يوم القيمة فإنه مخلد في نعيم أو شقاء دائمين. ومع ذلك فهو كائن حي يجري عليه كل ما يجري على الكائن الحي من الأعراض وأطوار الخلق، وصحيح أن الله تعالى - أ美的ه بالعقل وبطاقات كامنة كثيرة إلا أنه أيضاً أرسل له الرسل وخط له طريق الهدایة؛ لكن الإنسان بعد هذا وذلك ترك كل ما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولجا إلى العقل يستمد منه الهدایة لكل ما يتعلق بشؤونه، كما أنه لجأ إلى المعطيات العلمية التي أثمرها العمل العقلي

(١) انظر اغتيال العقل: ١٦٧ وما بعدها.

والتجريبي؛ ليفسر بها كل جوانب الحياة حتى مسائل الروح وبدء الخلق... وكانت النتيجة هي (تناسخ الحقائق) وتبدل النظريات والغرق في الجزئيات والعجز عن الإمساك بالكليات الكبرى التي تحدد للإنسان مساره وتوسّس له علاقته بما حوله. والسبب في ذلك أن هيكل الحقيقة ما زال يتغيّر مع الزمن والعلم يستطيع الإجابة عن الأسئلة المعاصرة حول أيٍّ واقع تحدده مصطلحات معاصرة، ويتشكل المنطق على هدي قيم العصر؛ ومن ثم فإن العلم - مهما كان القدر الذي كشفه من الحقيقة ضخماً - فإنه لا يقدم منهاً أو تفسيراً شاملًا لحقيقة تناسب كل الأزمان. من الطبيعي أن تكون المعرفة التي يحصل عليها الإنسان من خلال آية بنية فكرية كونية هي بنية انتقائية. ولا يوجد معايير أو معتقدات توجه البحث عن معرفة ليست رهناً بالبنية الفكرية الكونية. وخلاصة القول: إن المعرفة العلمية ليست بالضرورة هي أوضح تمثيل لما يكون عليه الواقع إنها من صنع بيئة فكرية، وهي أداتها. إن عملية الاكتشاف هي في الوقت نفسه عملية اختراع، والمعرفة هي صناعة الإنسان^(١).

هذه الأزمة الكبرى التي وقع فيها الوعي الأوروبي باستدباره الوحي وإعلان (موت الإله) كما فعل نيتشه، وهو يحاول أن يعمم بلواه على العالم وقد نجح بشكل سافر في مناطق كثيرة، وبشكل مقطئ أو محلي في مناطق أقل. وإذا لم يحسن الإنسان المعاصر بالأسى والتشاؤم فإن ذلك يعني الضياع مرتين: مرة بسبب فقد الاتجاه، ومرة بسبب انسداد سبل العودة!

كان القرن التاسع عشر قرن التفاؤل بتقدم لا نهائي وسيطرة على الطبيعة غير محدودة وأمال بالخلاص من أمراض الشيخوخة، إلى جانب تعميم السلام على الأرض... لكن القرن العشرين ذهب بذلك كلّه، وحل التشاؤم والشعور بالتفاهة والانحسار وفقدان الأمل في السيطرة على المصير. وقد عبر (الوجوديون) عن الحالة المشؤومة التي صار إليها الوجود الإنساني، بأنها: عدم وموت وحصر وهم وضيق وضياع للفرد في الجماعة

(١) عندما تغير العالم: ٤٣٢ - ٤٣٣.

وثرثرة وغثيان وقيء وفراغ وعبث.. إلخ... والإنسان على حد تعبير (كامو): تناقض وسخف ولا معقول بلا غاية أو هدف، مصيره الانتحار!. والوجود الإنساني عند (ميرلوبونتي) و(مارسل): جسم والنفس أحد أبعاده. ومنذ (كيركجارد) الوجود الإنساني تناقض وفضيحة وعار! حتى انتهى كثير من الفلسفات الوجودية إلى العبث واللامعقول، على عكس الوعي الأوربي في البداية عندما كان يتسم بالعقل والهدف والحرية والحرية والتقدم والوضوح والاتساق^(١).

هذه الحالة التي وصل إليها الغربيون بصورة رئيسة سببها الأصلي خنق مجال الروح وجعل الموت فناء كاملاً، وليس نهاية مرحلة، والقصور في معرفة عقم المنهجية الفكرية المتتبعة في إدراك الحقائق، وحرمان العقل البشري المحدود من إطار مرجعي (الوحى) يزوده بالأساسيات والكلمات التي يعمل من خلالها وفي هديها. وإن النزعة العنصرية والنظرية الدونية للآخرين التي يرسخها الإعلام الغربي في نفوس مواطنه قطعت الطريق عليهم أمام الاستفادة مما لدى المسلمين من هداية - إلا على الصعيد الشخصي - وبالتالي فإن الأمل في الشفاء ضعيفاً.

إن المذهبية الإسلامية بجعلها الدنيا دار ابتلاء وجهاد وكفاح وإصلاح، وبجعلها «مزرعة للأخرة»، وبتركها حيزاً مصوناً للروح والقلب وحيزاً آخر للعقل، وبوضعها أصولاً وضوابط للمعرفة والاكتشاف - تركت الطريق مفتوحاً أمام أسواق (الروح)، ووضعت (العقل) في إطاره الصحيح وبثت في الإنسان روح الاشتغال بالمهم والتوجيه نحو الأصلح، وبالتالي فإن المسلم على الرغم من سوء الأحوال يظل الأكثر سعادة وبهجة والأكثر أملًا وإشراقاً؛ والعاقبة للتقوى.

هذه محاور أساسية تسود في عصرنا، وهناك محاور أخرى غير هذه من نحو السيرورة نحو العموم والشمول، وكشف المشترك، وانتشار العقلانية

(١) مقدمة في علم الاستغراب: ٧١٣، ٧١٤.

والتطلغات المتناقضة والإيجابية والسعى إلى السلطة والشهرة والافتتان بالجمال وحب المغامرة، وحب البحث عن الحقيقة.. إلخ... لم ننشأ التفصيل فيها خوفاً من الإسهاب والإملال، ولعلنا نعالجها في بعض بحوث المستقبل؛ ومن الله - تعالى - الحول والطول.



(٤) في الرأي العام

يهدف العمل الدعوي إلى استقطاب آراء الناس ومشاعرهم واهتماماتهم حول المُثل والمبادئ، والقضايا التي يرى الدعاة ضرورة بقائهما محاور لحياة المسلمين في كل حال من الأحوال. وقد أدى انتشار وسائل الإعلام والقدر الكبير من النفوذ الثقافي الذي فازت به إلى إعطاء الرأي العام معنى جديداً وأهمية بالغة؛ حتى إن كثيراً من الدول الغربية - ولا سيما أمريكا - بات الرأي العام فيها أكثر تأثيراً في توجيه السياسة وصياغة مواقف القادة من الخطط الاستراتيجية ومن آراء المستشارين والخبراء؛ فالموطنون يحملون سباق الانتخابات بأيديهم بشكل دائم، وعلى من يريد كسب أصواتهم ألا يتتجاهل آراءهم وتطلعاتهم في المجالات المختلفة. ولم تكن المجتمعات القديمة بعيدة عن هيمنة الرأي العام؛ فطبيعة الحياة الاجتماعية تفرض باستمرار نوعاً من رقابة البشر بعضهم على بعض، وتقويمهم لأنفسهم ومكانتهم الاجتماعية من خلال آراء الآخرين فيهم. لكن الحياة المعاصرة جعلت كل شيء معقداً، وضخت آثار كثير من الظواهر على نحو عجيب.

تعريف الرأي العام:

ذكروا للرأي العام تعريفات كثيرة، يمكن أن نستطرد بها بقولنا: إن الرأي العام هو الفكرة السائدة بين جمهور من الناس إزاء موقف أو تصرف أو مسألة، مما يشير اهتمامهم، أو يتعلق بمصالحهم المشتركة^(١).

إن الرأي العام هو الحصيلة الأخيرة التي تتولد عن ضرب الناس

(١) الإعلام في العصر الحديث: ٧٤

لمختلف الآراء التي يسمعونها حول قضية ما بعضها في بعض. وفي عملية الضرب تلك تختلط الآراء المسموعة مع المعتقدات والمشاعر والأفكار والخلفيات المسبقة والمصالح والمنافع بطريقة لا شعورية في كثير من الأحيان، ومن خلال ذلك التمازج والتصادم يخرج القاسم المشترك الذي يعد خلاصة دقيقة موزونة لكل ذلك الخليط.

طبيعة الرأي العام:

يتميز الرأي العام بأنه ذو ثبات نسبي، وهو في ذلك يقف في منطقة وسطى بين الثقافة والرأي الشخصي؛ فالثقافة أكثر ثباتاً منه، وهو أكثر ثباتاً من الرأي الشخصي. وسبب احتلاله لهذا الموقع أن الرأي العام يكون في العادة تجاه قضايا معاصرة ومؤقتة، كرأي الناس في برنامج حزب من الأحزاب أو تجاه اتفاقية سلام أو نشوب حرب أو ارتفاع الأسعار، وما شاكل ذلك من القضايا الملحة والطارئة، ولذا فإننا نرى الرأي العام يتمحور في كل مدة زمنية ليست طويلة حول قضية من القضايا. أما الثقافة فتأخذ صيغة الأسس والمرتكزات والعادات التي تدوم لفترات طويلة.

كما أن الرأي العام لا يمكن تشكيله حول قضية من القضايا إلا حيث ينشط التبادل الاجتماعي، ويكون المجتمع منفتحاً على بعضه بعضاً واعياً بذاته، واضعاً لقضايا ومشكلاته تحت المجهر؛ حيث يولد ذلك نوعاً من الحركة الاجتماعية النشطة، ويُوجَد اهتمام الناس بكل ما يمس حياتهم ومصيرهم.

أما حين يكون المجتمع فاقداً للحس الجماعي، خاماً في تمازجه الثقافي، مشغولاً كل فرد من أفراده بلقمة العيش اليومية أو غارقاً في شؤونه الخاصة، فإن تكوين الرأي العام آنذاك يكون عسيراً.

بناء الرأي العام:

إن عيش الناس في مجتمع واحد يعني وجود اهتمامات ومشكلات

واحدة أو متقاربة، كما يستلزم وجود عدد من التنظيمات والإحالات الفكرية والشعرية، أي وجود لغة مشتركة وقنوات مشتركة وعقلية مشتركة وعواطف مشتركة، تسهم جميعاً في بلورة مواقف مشتركة من القضايا والمشكلات المطروحة على الساحة الوطنية بوجه خاص والعالمية بوجه عام. وهذا كله يعني أن هناك في التركيبة الاجتماعية والثقافية أصولاً وقواعد عميقة تحكم - إلى حد بعيد - في نوعية الرأي الذي سوف يتبنّاه الناس حول قضيائهما المصيرية. ولعلنا نذكر أهم العوامل المؤثرة في بناء الرأي العام على النحو التالي:

١ - العقيدة:

لا يخلو مجتمع من مجموعة من العقائد الموجّهة نحو الكون والحياة، وعلاقات الناس بخالقهم وأبناء جنسهم، ونحو كينونتهم وعلاقتهم بالماضي إلى جانب مجموعة من التطلعات والاستشرافات للمستقبل. وهذه في جملتها تشكل الأساس النظري والمعنوي للواقع المعاش وامتداداته المختلفة.

وحين تطرح قضية من القضايا فإن الناس لا يتعاملون معها من فراغ، وإنما من خلال الثوابت لديهم. ولا بد من القول إن للعقيدة متناً أساسياً وهوامش أقل صلابة وأقل مرکزية في قلوب الناس وعقولهم؛ فعلى سبيل المثال يستحيل في مجتمع إسلامي تكوين رأي عام يمجد الشرك، أو يستبيح الزنى أو شرب الخمر أو الربا أو قتل النفس؛ لأن هذه القضايا ذات موقع مرکزي في عقيدة المسلمين وثقافتهم، لكن يمكن من خلال مطارق الضرورة وتنشيط الشهية نحو المغريات تشكيل رأي عام يقبل بالتنازل عن جزء من أرض الوطن ضمن موازنة معينة، أو تقبل هزيمة أو صفعة أو نوع من المعاملات التي هي موضوع خلاف أصلاً لدى المرجعية العقدية إلخ. . . .

والعقيدة لا تستمد سلطانها من خلال موقعها الهام في بناء المجال النظري فحسب، وإنما من خلال ما تؤسسه من سلطان عرفي، وما تفرزه من قوانين ومسلمات ثقافية تدعم وتصون الثوابت. لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن وعي الناس يظل يقطاً ومنسجماً مع مرتكياته بصورة دائمة وتامة؛ إذ

إن هيمنة العقيدة على الرأي وال موقف والوعي أيضاً لا تتم بصورة آلية، وإنما من خلال الفاعلية الشعورية؛ ولذا فإن من الممكن للرأي العام أن يتوجه لتحبيذ فكرة أو قضية لا تقرها العقيدة وذلك حين تسوء الظروف، ويضطر الناس إلى الدخول في موازنات صعبة تتشكل فيها العقيدة الاجتماعية^(١) على نحو مغاير للعقيدة الأساسية المطلقة. ونستطيع أن نخلص من هذا إلى أن تشكيل رأي عام صاف وموافق لعقيدة الأمة مرهون بيقظة الوعي وفاعلية الشعور وحسن الظروف، وإلا فكل شيء وارد.

٢ - المرحلة العامة التي يمر بها المجتمع:

حين يتشكل الرأي العام حول قضية ما فإنه يكون محدوداً بخصائص المرحلة التي يمر بها المجتمع ودرجة وعيه وفتحه على قضاياه ومشكلاته فمسيرة البشرية نحو الرشد، ونحو معرفة ما يصلح ويصلح لها مسيرة طويلة وملتوية وشاقة، فالمجتمعات الإسلامية - مثلاً - لم تدرك ضرورة احتضانها (المؤسسات الوسيطة) إلا في وقت متاخر جداً على الرغم من تجربتها الحضارية الطويلة، كما أنها لم توفق دائماً إلى تحديد مصادر الألم والإحباط في المقاطع المهمة والرئيسة من تاريخها المديد؛ ومن ثم فقد يجد مجتمع اليوم من الإجراءات والتنظيمات والأفكار... ما كان يستنكره بالأمس، وقد يخيب ظنه في حلول كثيرة طالما علق عليها الآمال في مرحلة من المراحل. وحين قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م كانت وحياناً من وعي أمة ضاقت ذرعاً بظلمات (الباستيل) والتحالفات الدنسة ضد الفقراء والضعفاء والمصالح الوطنية العليا؛ على حين كان الرأي العام في جنوب أمريكا ما زال يشعر بال الحاجة إلى نظام العبيد؛ لأنه سند العمل الزراعي ومصدر أساسى للعمل في الفلاحة^(٢).

وهكذا فالحالة الاجتماعية العامة تؤطر القابلية لأفكار أو دعوات معينة.

(١) العقيدة الاجتماعية جماع المبادئ والمصالح والموازنة بينهما.

(٢) انظر سيكولوجية الرأي العام والدعوة: ٣٦.

٣ - في حالات الخطر يسهل تكوين رأي عام:

إن أي مجتمع يصاب بأزمات حادة، أو يتعرض لمخاطر جدية يتحفز لسماع أي شيء، ويحاول كل فرد من أفراده أن يصوغ رؤية حول ما يجري، ويحدث نوع من الطلب الشديد على المعلومات؛ مما يدفع بالكثيرين إلى الأخلاق والتزيد لسد حاجة الطلب؛ كما أنه في أحوال الأزمات والتهديدات - ولا سيما الخارجية - يكون الناس في حالة من الارتباك وضعف التوازن؛ مما يسهل التأثير في مواقفهم وأرائهم. كما أن المخاطر يجعل الناس يبحثون عن قيادة تمضي بهم إلى بر الأمان، ويتقدم في العادة كل من يأنس في نفسه نوعاً من الأهلية؛ مما يجعل الناس يتلقون بالقبول - ولو مؤقتاً - كل ما يسمعونه على أنه جزء من التجربة الجديدة.

ويستطيع تشكيل الرأي العام في هذه الحالة كل من يملك بعض الوسائل الإعلامية، ومن يسوق المعلومات والأخبار التي تدغدغ عواطف الناس، وتوافق أهواءهم. لكن رد الفعل سيكون عنيفاً ونکوصياً إذا ما اكتشف الناس أنهم استغلوا استغلالاً سيناً.

٤ - كلما كان المجتمع بسيطاً كان تشكيل الرأي العام فيه ميسوراً:

حينما تعتقد الحياة في مجتمع يعتقد فيه كل شيء؛ حتى طرق الفهم والتفهيم حيث يكتسب الناس الخبرة التي تمكّنهم من وزن الكلام الذي يسمعونه، كما أن قنوات الاتصال ومصادر المعلومات تحدث نوعاً من الدفق المعلوماتي على ذهن القارئ والسامع؛ فيخفف من درجة حماسته لفكرة بعينها، كما أن كل اتجاه من اتجاهات الرأي يكشف عيوب الاتجاهات المعايرة مما يجعلها جميراً تتقاسم آراء المواطنين وتتواءعها بحسب قوتها وإنقاذهما. وهذا ما نجده واضحاً في استطلاعات الرأي في الغرب حيث لا يستطيع حزب أو زعيم - غالباً - أن يحظى بنسبة عالية من أصوات المواطنين المؤيدین لسياساته وتوجهاته.

أما في المجتمعات البسيطة فإن وسائل الناس وقدرتهم على تمحيص ما

يسمعونه تكون محدودة، كما أن المعلومات التي تتدفق عليهم تكون قليلة وغير مبلورة بالإضافة إلى أن الاستعداد لقبول الشائعات يكون أكبر، وكل هذا يؤدي إلى سهولة تكوين رأي عام عندهم حول أي شيء من الأشياء قبولاً ورفضاً، وتعكس استطلاعات الرأي والانتخابات هذا بشكل واضح أيضاً.

٥ - يتشكل الرأي العام حول القضايا المحورية في حياة الناس:

لكل شعب من الشعوب قضاياه التي تحتل بؤرة الشعور منه؛ ففي الأوساط التجارية والبلدان المتقدمة عموماً يتشكل الرأي العام حول الربح والخسارة في أسهم المصارف والشركات وأسعار العملات والتضخم والفضائح المالية والسياسية وغلاء المعيشة والتأمين الصحي.. أما في المجتمعات الزراعية فإن ما يطفو على السطح هو أسعار المنتجات الزراعية وأحوال المناخ ومشكلات البذور.. وفي المجتمعات التي تخوض حرباً يتشكل الرأي العام حول البطولات والتضحيات والأسلحة والأخطاء الحربية وهكذا..

إن النجاح الذي ينبغي أن يسعى الدعاة إليه هو جعل قيم الإسلام وتوجيهاته وقضايا الأمة الكبرى - مركزاً لاهتمام الناس والسمو بمتطلبات المسلمين عن الأشغال اليومية والقضايا الهامشية. ولا يتم ذلك من خلال كثرة الأحاديث حولها، وإنما من خلال معرفة المداخل الفكرية والشعورية ومعرفة سنن الله في خلقه. وهناك الآن من الدراسات الناضجة ما يمكن من معرفة الكثير من ذلك.

وظيفة الرأي العام:

١ - تكافف الرأي العام في إطار من إطارات جماعات الرأي العام يساعد المجتمع في التعرف على مشكلاته^(١)؛ حيث إن معرفة رأي الناس في أوضاعهم ومشكلاتهم مهمة جداً؛ ليس لنسبة الصواب التي فيه، ولكن لأن

(١) سيكولوجية الرأي العام: ٣١

ذلك يؤمن قدرأً من (التبادل الاجتماعي) الذي يعد أكبر ضمانة لمنع حدوث ثورات وانهيارات اجتماعية كبرى. كما أن تلك المعرفة تمكّن من إيصال الجهد والاحتجاج الاجتماعي إلى محكاته النهائية؛ فيترك الناس التلاوم والكلام على المثاليات والمستحبّلات ويشرعون في عمل الممكّن، كما يدركون حجم المسؤولية الملقاة عليهم، والتي تعودوا إلقاءها على كواهل الآخرين.

٢ - مهما بلغت قوّة دولة أو جماعة فإنّها تظل بحاجة إلى مساندة ومظاهرة الرأي العام؛ حيث إن الشعوب تظل منبعاً لطاقات لا تنفد، والخطط الدعوية والحضارية الناجحة هي تلك التي استطاعت إشراك أعداد كبيرة من الناس في التعاطف معها والمشاركة فيها؛ ومن هنا احتلت الدعاية وفنون الإعلان أهميتها المتزايدة في العصر الحديث، وإن كان كثير منها يوجه توجيهها سينما!

وكان من الأسباب المهمة في إخفاق التجربة الاشتراكية عدم الالكتراش بأراء الناس في الخطط التي تنفذها الدولة، ومحاوله إبراز رأي عام مزور من أجل كسب الدعاية والاستحواذ على تعاطف مستحبيل! وفي المقابل فإن الإسلام قد استطاع أن يحول العرب إلى جيوش من الفاتحين، ويزجّهم في ساحات الصراع العالمي؛ ليتمكنوا لدين الله في الأرض؛ حيث أصبح الجهاد الشغل الشاغل للرجل والمرأة والصغير والكبير.

ولا تستطيع أمة أن تنجذب المشروعات الكبرى دون حشد قاعدة عريضة من أبنائها خلفها، ولا يتم ذلك إلا من خلال تشكيل رأي عام عريض أولاً.

٣ - يُعد الرأي العام الركيزة التي تستند إليها الأنظمة والقوانين، وقد أثبتت التجربة أن خضوع الناس لقوانين لا يؤمنون بها، ولا يرتاحون لها يظل شكلياً ومحدود الفائدة؛ ومع أنه لا يوجد فراغ قانوني في أية دولة من دول الأرض، إلا أن الواضح أن فاعلية القوانين في دفع الناس في الاتجاه الصحيح وكفهم عن الجرائم تكاد تكون معدومة في بلدان كثيرة، وذلك

بسبب عدم مساندة الرأي العام لها^(١).

٤ - قبل أن تنشأ الدول والسلطات كانت المجتمعات تحكم عن طريق الأعراف والتقاليد، وكانت المجتمعات تعتمد على الرأي العام في محاصرة الجريمة والأفعال الشائنة؛ ولم تتناقص أهمية الرأي العام بعد وجود الدول والأنظمة واللوائح؛ إذ إن القوانين مهما تكون مفصلة فإنها ترك مساحات من الفراغ التي لا يمكن تغطيتها إلا عن طريق العرف والرأي العام. كما أن القوانين مهما بلغت من القوة والصرامة والوضوح تظل قابلة للتأويل والتفسير؛ لأن طبيعة صياغتها تسمح بذلك، أما الرأي العام فإنه يصعب تجاهله أو تأويله، وليس أمام الناس سوى الرضوخ له، أو دفع الثمن غالياً في مقابل عدم الاكتثار به.

وليس بخافٍ من وجه آخر أن الرأي العام أقوى سلطاناً من القانون بسبب أن المجتمع كله يتولى الرقابة على مراعاة الأعراف والاتجاهات والقيم الجماعية؛ على حين أن الدولة وحدتها هي التي تتبع تطبيق النظم والقوانين.

بقي أن نقول إن الرأي العام - بخلاف الدولة - يبدو للناس في مظهر مقبول بعيد عن القهر والإكراه؛ وهذا يخفف من التوترات الاجتماعية؛ وفي ذلك خير عظيم.

ولا بد من القول في نهاية المطاف: إن تحسيننا لأهمية الرأي العام الدولي والم المحلي ما زال ضعيفاً؛ وإن مما يؤسف له أن بعض الشباب - الذين لا ينقصهم الإخلاص - يقومون على الساحة الدولية بأعمال طائشة تحشد الرأي العام العالمي في مواجهة الإسلام وأهله دون أدنى شعور بالمسؤولية تجاه ذلك.



(١) انظر الإعلام في العصر الحديث: ٥٥ وما بعدها.

(٥) ثقافة الإلقاء

حين ت يريد أمة من الأمم تحسين واقعها إلى الأفضل، فإن عليها أن تبدأ الطريق من نقطة إصلاح ثقافتها، ومراجعة مرتکزاتها وأدوات التفكير والتجدد والمحاكمة فيها، للتعرف على (العقابيل) الثقافية؛ فتتخلص منها، وعلى النقاط التي تحتاج إلى تقوية فتدعمها.

ولعلنا نتحدث عن ثقافة الإلقاء لدى (الصفوة) من الدعاة والمثقفين والمفكرين والقيادات الاجتماعية، ثم نعرّج على الثقافة (الشعبية)، وما ينبغي زرعه فيها وتشذيبه منها؛ لعل الله - تعالى - يأخذ بأيدي هذه الأمة إلى المزيد من الرشد والفلاح؛ وهو أهل لكل فضل.

ثقافة الصفوّة:

عني بالصفوة كل أولئك الذين تشكلت ثقافتهم بطريقة واعية، ونالوا حظاً من المعرفة الراقية التي تمكّنهم من قيادة مجموعات من حولهم، والتأثير فيهم. وكلمة (الصفوة) كلمة فضفاضة في دلالتها؛ فالصفوة متفاوتون في ثقافتهم وتأثيرهم؛ لكن يجمعهم جميعاً أنهم ليسوا من الشرائح الشعبية التي تكون ثقافتها عن طريق تلقين المجتمع لهم وبطريقة لا شعورية. ولعلنا - على منهجنا - نوجز نقاطاً مهمة في ثقافة الإلقاء الحضاري لدى الصفوّة في المفردات التالية:

١ - إن الصفوّة دائماً قلة، وكلما قست شروط الجودة وجدنا أنفسنا نتلفت يميناً ويسرة نبحث عن خلاصة الصفوّة وقد نجد، وقد لا نجد إلا أناساً من الدرجة الثانية! . إن سمة كل مجتمع في النهاية هي سمة الصفوّة

التي تتولى قيادته الفكرية والاجتماعية؛ وهذه المرحلة بحاجة مائة إلى صنفين: دعوة المثقفين ومتقفي الدعاة، أي أولئك الذين يجمعون بين استنارة الفكر والفهم العميق إلى جانب لوعة وحرقة على واقع الأمة، تشبه لوعة الأمهات! وإذا كنا ننهى أنفسنا عن التعصب للفكرة فإننا نرى أن الصفة التي لا تتمتع بالحد الأدنى من الرجولة للدفاع عن الأفكار والمبادئ التي تؤمن بها - هي صفة منحطّة -؛ وستظل جاهزة لخدمة مصالحها الخاصة، وتوظيف ثقافتها في بناء مجدها الذاتي، ولو كان الثمن هو عباءة أمّة بأكملها! إن قيمة الصفة بل طبيعة وجودها لا تنبع من القدر المعرفي الذي تحمله، وإنما من مقدار تحملها للهم العام ومشاركتها في إصلاح الشأن العام؛ أي على قدر تعدي نفعها للأمة، وعلى قدر تجاوزها لمصالحها الشخصية. وإن الإحباط الذي تعاني منه الأمة ينصب أولاً على نخبها وقادتها الرأي - ولا سيما المثاليين منهم - فيها؛ ومن ثم فإن كثيرين منهم يرکتون إلى اليأس، ويسبود كتاباتهم التشاوُم؛ وهم بذلك يدفعون بأنفسهم دفعاً نحو العزلة وأخذ إجازة مفتوحة! ولذا فإن الحاجة ماسة اليوم إلى أقوام لا ييئسون من إمكان تحسن الأحوال مهما ساءت الظروف.

٢ - إننا بحاجة اليوم إلى منح مجتمعاتنا رؤية واضحة ومتسقة عن واقع الأمة وتحديد مواطن العطب فيها إلى جانب توضيح مسيرتها الحالية واستشراف شيء من مستقبلها. ولا تستطيع الصفة منح ذلك ما لم تمتلكه هي؛ وفي هذا الإطار نجد أن المثقفين الذين يجمعون رؤية منهجية شاملة للواقع الذي نعيشه وللصورة التي ينبغي أن يكون عليها - ما زالوا لدينا قلة قليلة؛ لكننا نشعر أن الوضع يتحسن، وأن مزيداً من الرشد الفكري بدأ يطرق الأبواب، ويغزو الساحات الثقافية. إن تحديد أسباب الانهيار قد لا يكون بالأمر الصعب في كل الأحيان، لكن استخراج العناصر الخيرة والإيجابية من حياة مجتمع مريض متقهقر يظل أمراً مهماً؛ حتى لا تظل جهودنا تعود إلى نقطة الصفر في كل مرة. كما أن من واجبنا أيضاً ألا نطرح الأفكار التي تؤدي إلى الإلقاء الحضاري فحسب، وإنما أن نتعلم كيف نطرح سياسات

الإقلاع والانطلاق؛ فالسياسات دائمًا هي التي تكشف عن مدى إمكانية تحويل الأفكار إلى حقائق على الأرض. وهذا ما كان ينقص الأفكار الإصلاحية التي طرحت منذ أكثر من قرن من الزمان.

٣ - إن أحوج ما تحتاجه مرحلة الانطلاق والإقلاع مثقفون يحملون ثقافة تمازجية تكاملية، هدفها استشراف جميع المؤشرات والعناصر ذات الثقل في تكوين الوضع الحالي، وتلك الازمة والمطلوبة للتغيير المنشود. ومن الملاحظ أن خيار الطاقات الفكرية والثقافية لدينا مشغولة بجزء بالغ الضآلة من المعرفة، يزيدون فيه ويوسعون ويشذبون، ويقدمونه تارة، ويؤخرون، حتى صحت فيما بحثنا مقالة برناردشو: «يعرفون كل شيء عن لا شيء». ومع إيماناً العميق بأن العلوم لا تتقدم إلا عبر التخصص إلا أن ذلك التقدم مهما كان ضخماً لا يعني المشغلي بالشأن العام والمخططين والمنظرين للتقدم الحضاري العام عن الرؤية الكلية الشاملة التي لا توفر عادة إلا عند ذوي المعرفة الأفقية؛ لكن حذر من أن نخدع بالثقافة الموسوعية القائمة على تكديس معلومات من تخصصات شتى دون البحث عن أوجه الربط والتكميل بينها. فحين دخلت الأمة في نفق الجمود ثم التخلف كان لديها كثيرون ممن يدرسون ويدرّسون علوماً عديدة، لكن غفلتهم كانت كبيرة عن الخلاصة التي يمكن استحلابها من خلال المزج بين تلك العلوم، على نحو ما تصنعه النحلة في جنبيها من الرحيق، فتحيله إلى شراب بديع منقطع النظير. إن مجاوزة التخصص ومحاولة الاطلاع على علوم لا نعرف منطلقها، أو الأسس التي تنبع منها معرفة حقيقة، كما أن الهمامش الفاصل بين تكليس الباحث داخل معطيات تخصصه الجزئية، وبين احتمال تحلله في عالم المعرفة الواسع هامش ضيق، لكن المغامرة الناجحة في حقول معرفية شتى ستجعلنا كمن قام برحلة طويلة مثيرة عاد بعدها إلى الوطن، وقد طرأ عليه تحول شامل^(١).

إن مما يساعد على تكوين الثقافة التمازجية بعد سعة الاطلاع الهدف

(١) انظر في هذا مقدمة في علم التفاوض: ٢٧٣ وعودة الوفاق: ٢٣٠

أن نتساءل باستمرار عن نقاط الارتباط واللقاء بين ما نقرأ، من نحو: ما أثر الاقتصاد في الأخلاق، وما أثر القهر في التربية، وما أثر كثرة الحفظ في كفاءة التفكير، وما أثر سوء الظروف في مفارقة الأصول وتضخم فقه الضرورات.... وما أثر الثقافة الشفوية في صياغة أفكار الناس وعقلياتهم

أسئلة كثيرة لا نهاية لها يجب أن نطرحها على أنفسنا في كل وقت وحين.

إن علينا أن نقرأ للنوابغ في كل علم؛ إذ إن جملة واحدة من هؤلاء تفتح آفاقاً لا تفتحها كتب من كلام غيرهم!

٤ - إن ثمة موازنة ضرورية ودقيقة بين المحافظة على الثقافة الوطنية الإسلامية وبين الانفتاح على الثقافات الأجنبية، وهذه الموازنة من مهمات الصفة الذين يدركون وحدتهم طاقة ثقافتنا الأهلية على استيعاب دفق الثقافات الأجنبية المغایرة لها في كثير من أصولها ومنطقها. وثقافتنا الإسلامية اليوم تمر بمرحلة التعرف على الذات من جديد، وإعادة تفسير بعض الرموز، ومنح بعض الأحداث والمفاصل التاريخية معنى جديداً، وهذا يعني أنها لا تقوى على الكثير من الأعباء الإضافية التي يجب أن تتحملها من جراء استيعاب وهضم ثقافات أخرى. وإذا تجاهلنا هذا الموضوع فقد تكون كالطبيب الذي قرر إجراء عملية جراحية كبرى لجسد منهك!. والطريق الأسلم - وربما الأحكم - أن نحاول استنطاق الرموز الثقافية الإسلامية على نحو يجعلها أكثر وضوحاً وشمولاً وقابلية لفهم معاصر وذلك عبر فاعلية حضارية عالية الوتيرة. إنه لا يجوز لأفكارنا التجددية أن تبتعد كثيراً عن قدرة مجتمعاتنا على الاستجابة والتتمثل؛ حتى لا تكون كالطائر الذي يببس في غير عشه!

٥ - إن جهود المثقفين والدعاة ينبغي أن تتمحور حول أهداف رئيسة معينة تجعلها الأمة نصب عينيها، وهي تستأنف مسیرتها الحضارية. ولا تقل الموازنة بين هذه الأهداف وإعطاء كل منها حقه أهمية عن التحقيق. هذه

الأهداف يمكن ضغطها في ثلاثة، هي: العبادة، وتعني الطاعة المطلقة للعبد المتضمنة كمال الحب مع كمال التعظيم. ثم الخلافة عن الله - تعالى - في الأرض، وهي تعني إقامة الحق والعدل والتخلق بأخلاق الله - تعالى - على قدر الطاقة والواسع. ثم عمارة الأرض، كما قال - سبحانه - ﴿هُوَ أَشَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمِلُوكُمْ فِيهَا﴾^(١)، أي: طلب منكم عمارتها.

هذه الأهداف العليا ينبغي أن تجذب كل أنشطتنا، كما أن جهودنا وأفكارنا الصغرى ينبغي أن تستبطن هذه المعاني وتستلهمها على مستوى من المستويات. وكل فكرة أو خطة لا تستهدف هذه الأهداف، ولو بصورة غير مباشرة ينبغي أن نتلقاها بحذر ونقف منها موقف المتأمل، وإنما الإنزال نحو الدنيوية والمادية أمر سهل ميسور.

٦ - اقتصادية الثقافة تكمن في إنتاج ألوان من الأفكار والطروح والخطط والرؤى والآليات التي تساعدنا على توفير الجهد والوقت والمال؛ وإن لدينا الملaiين من العقول التي تنتج أفكاراً وثقافة لا مساس لها بأي شيء (عملي) أو توفير في الجهد أو الوقت، كتب كثيرة تطبع وأخرى تتحقق ومشاريع كثيرة تخطط، والمردود لا يتناسب أبداً مع التكلفة. إن الأمة محتاجة إلى المال ومحاجة أيضاً إلى الوقت، وإلى استخدام الجهد في قضائها الأكثر إلحاحاً، وإن مسؤولية المثقفين أن يعطوا من أنفسهم القدوة لغيرهم في توظيف كل ذلك توظيفاً متدني الكلفة عظيم المردود، وهذا يتطلب شيئاً مهماً: التنازل عن بعض الخصوصيات والمكاسب الشخصية؛ وال بصيرة النافذة في متطلبات العصر الذي نعيش فيه.

الثقافة الشعبية:

إذا كانت ثقافة الصفو تكون عن طريق إرادي متعمد ومحختار، فإن أكبر خصيصة للثقافة الشعبية أنها تكون عن طريق لا إرادية وبأدوات غير

(١) سورة هود: الآية ٦١.

ملمومة ولا محددة، وهي تتشكل خارج الوعي ويتشبع بها الفرد العادي على النحو الذي يستنشق به الهواء، وفي هذا كله يكمن سر صلابتها واستعصائها على الغزو الأجنبي أكثر من الثقافة العالية.

إذا كان الأمر على هذه الصورة فإن تحسين الثقافة الشعبية وتوجيهها ورفع مستوى اهتمامتها - يظل إحدى مسؤوليات مثقفي النخبة الذين في إمكانهم تسلیط الوعي على الثقافة الشعبية، وإدراك ما تتطلبه مرحلة الانطلاق والإلقاء من أخلاق واستعدادات وتوجهات... وإذا لم يقم الصفة بمهماهم هذه فإنهم لا يقضون على إمكانية انطلاق حضارية راشدة فحسب وإنما يعرضون أنفسهم للنبذ والتهميش من قبل الطبقات الدنيا.

ولعلنا نذكر في النقاط التالية أهم ما نرى ضرورة غرسه وإشاعته في الثقافة الشعبية من أجل تأمين خلفية ثقافية واسعة تدفع بالآمة نحو الانطلاق المأمول:

١ - إشاعة ثقافة المشاركة؛ فالقاعدة الشعبية تشعر باستمرار أنها معزولة عن توجيه الحياة وموقع اتخاذ القرار، ففي المعامل مثلًا قلما يستشار العمال في مشكلة إنتاجية، ومن ثم فإن العامل يعيش عن ذلك بمحاولات بلوره موقعه في المصنع... كأن يكون رئيساً على العمال أو صاحب حظوة عند رب العمل أو مهندس المصنع، وهذا بالإضافة إلى أنه يخلق توترات داخل المصنع يجعل العمال لا يشعرون بالانتماء إلى عملهم، ولا يشعرون بأية مسؤولية تجاه واقعه أو مستقبله. والذي سيبادر إلى تنشيط روح المشاركة والآليات هم المثقفون، ومهما قيل إن القاعدة ليست أهلًا لإبداء الرأي والمثورة فإن الصحيح أن الطريق الوحيد لرفع سوية تفكيرها وصقل خبرتها هو زجها في خضم المشاركة وإعطاء الاهتمام لكل ما تقوله. وقد نجح اليابانيون نجاحاً منقطع النظير في جعل المصانع اليابانية أشبه بمحاضن لأسرة واحدة يتكلم فيها الصغير والكبير دون تكلف أو غضاضة، ويشعر الجميع بالانتماء إليها على قدم المساواة.

٢ - الانطلاق الحضاري لا يمكن له أن يتم نتيجة وحي المبادئ العليا فحسب؛ إذ إن طبيعة المبادئ أنها لا تعمل في فراغ، ودون توفر شروط موضوعية تؤهل الناس للاستجابة لها، ونحن نلاحظ أن ثقافاتنا الشعبية تشكو من أمراض مزمنة تمثل في الآنية والزهد في العلم والمستقبل، إلى جانب ضعف الحس الجماعي والمجتمعي، وعدم تقدير الإنجاز الذي يتحقق الآخرون بالإضافة إلى حب الحرية والعدل دون عمل أي شيء لتدعمهما... وهذا يعني تطلب نوع خاص من التركيز على حب التطلع نحو المستقبل وحب العلم وتشجيع الأعمال الخيرة النبيلة إلى جانب الاهتمام بإقامة أعلام العدل حيثما كنا وأينما اتجهنا، وهذا كلّه يحتاج قبل كل شيء إلى إدراك أهميته لمرحلة الإقلاع إلى جانب الصبر والمصابرة؛ فالزمن دائمًا جزء أساسي من الحل.

٣ - إن الوضعية العقلية لدى كثير من الشعوب الإسلامية تحتاج إلى نوع من التعديل والتحسين، وهذه الوضعية هي - ولا شك - نتيجة التراجع الثقافي حيث الأممية ضاربة جذورها، وحيث العناية بقضايا الفكر والمعرفة ما زالت ضامرة ومحدودة؛ وإن مما تحتاج إليه الثقافة الشعبية حاجة ماسة تأسيس عقلية الكف عن الكلام والمسارعة إلى المواقف الحادة دون وجود معلومات حسنة صالحة لقول شيء أو عمل شيء. ومن الملاحظ أن العربي - بصورة خاصة - سريع الاندفاع خلف العواطف ويريق الأمنيات، كما أنه حسن النية إلى حد بعيد، وقدرته على محاكمة الأمور أيضاً محدودة. ومع أن القرآن الكريم أمرنا ألا نتبع الظنون، وألا نقول بغير علم في مواضع كثيرة إلا أن واقع الحال على النحو الذي وصفنا.

والمدهش في هذا أن موقف كثير من المثقفين في هذا الموضوع لا يختلف عن موقف العوام؛ مع أننا نعول في علاج هذا الداء عليهم ! .

إن هناك الكثير مما ينبغي عمله من أجل تأسيس عقلية منهجية لا تقول بغير علم، ولا تجادل من فراغ، ولا ترى في كلمة «لا أدرى» أو كلمة «دعونا ننظر» أو «دعونا نلمس» - آية غضاضة.

إن ملفات هذه القضية ينبغي أن تظل مفتوحة مع محاولة التجديد في المعالجة والطرح حتى نشعر أننا تقدمنا نحو العافية.

٤ - يلاحظ أن عقلية (المستحيل) تسسيطر على أكثر العامة لدينا، ولهم في ذلك عذر؛ فمعطيات تاريخنا القريب لا تدل على أن مساحات الحركة وإمكانات التقدم أمامنا فسيحة أو كبيرة؛ لكن مهمة المثقفين أن ينشروا أشعة الأمل عند استحكام اليأس، وهذا هو شأن الربانيين الذين لا يقطعون حبال الرجاء من كرم الله مهما ادلهمت الظلمات! إن كثيرين منا ينظرون إلى ما ينبغي عمله حتى نصبح أمة محترمة وقوية، فيجدون أمامهم جبالاً من المهام، ثم ينظرون إلى ما بين أيدينا من وسائل وإمكانات؛ فتعصف بهم رياح الإحباط والانحسار! ولم تكن أبداً مشاعرهم كاذبة ولا مصطنعة، لكن طريقة النظر هي الخطأة، ولو أنها عملنا وفق طريقة أخرى لكان المردود مختلفاً.

إن القاعدة العملية في معالجة الأمور الجسمانية يمكن تجسيدها في القول: «إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً»، وهذا مبني على أن كثيراً من المستحيل ليس مستحيلاً في ذاته، وإنما هو مستحيل إضافي لفقد مقدماته وأسبابه عند بعض الناس؛ فإذا باشرنا الممكن من مقدماته تحول المستحيل نفسه إلى ممكن. إن علينا أن نؤسس عقلية «شيء خير من لا شيء» بدل عقلية «كل شيء، أو لا شيء».

٥ - في عصرنا الحاضر تضخمت الخصوصيات بصورة مرضية، وزادت الحضارة الحديثة العوازل بين الناس مما أدى إلى ضعف التضامن بينهم، وسادت ثقافة «نفسي» مع أن نبينا صلوات الله عليه يقول وحده دون باقي الأنبياء في يوم الكرب الأعظم: «اللهم أنتي أمتي»: ومن ثم فقد ضعف بينما التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكثير منع «الماعون» وبذل الخير، بل صرنا في زمان ينظر فيه إلى من يبادر إلى الخير والإحسان نظرة استغراب^(١) إن لم ينظر نظرة شك

(١) في إحدى الولايات الأمريكية أسلمت أسر عديدة بسبب تطوع شاب مسلم بمساعدة سيدة عجوز على حمل (سلتها) إلى المنزل!

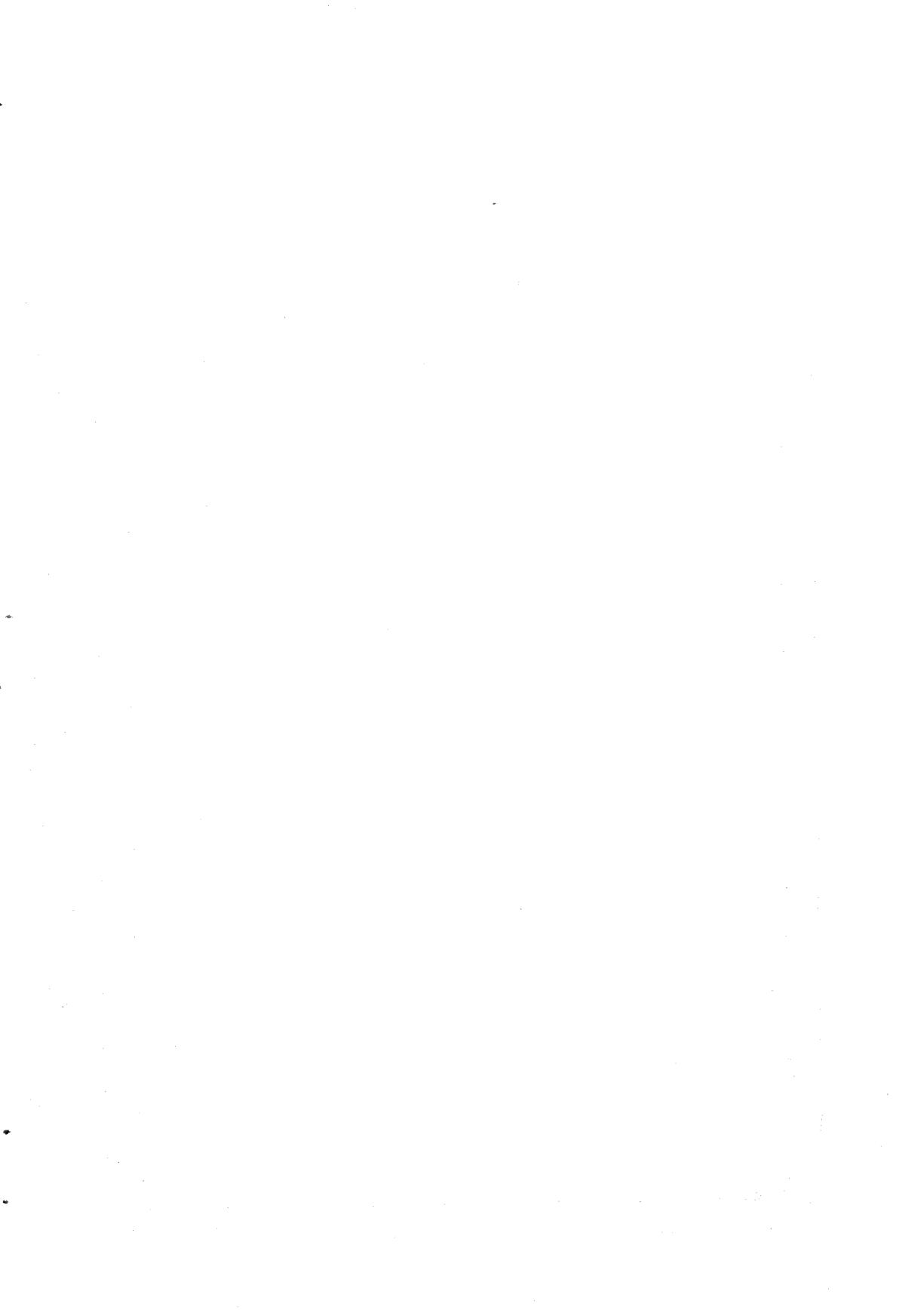
وريه؟ ومن هنا فإن ثقافتنا الشعبية بحاجة إلى أن تستعيد هذه الخلال الكريمة حتى تخفف من قسوة العيش، ونحفظ على مجتمعاتنا نسيجها الاجتماعي المتميز. ولا بد للصفوة - والدعاة منهم خاصة - أن يعطوا المثل والقدوة من أنفسهم في هذا الأمر خاصة؛ حيث غالب على كثير منهم شيء من الانفصال عن هموم الناس، أو شيء من التعالي على الانشغال بمثل هذا!!.

إن قضية الثقافة تحتمل كلاماً كثيراً؛ ولعل فيما قدمناه ما يسلط الضوء على أهم قضياتها؛ والله المستعان.



المقدمة الثالثة
في سمات الداعية وسلوكه

- ١ - السلوك رؤية جديدة.
- ٢ - السمات الأساسية للداعية.
- ٣ - سمات تكميلية في شخصية الداعية.



(١) السلوك - رؤية جديدة

إذا قيل إن الجوهر الإنساني ثابت لا يتقدم ولا يتأخر؛ فذلك صحيح إلى حد بعيد. وإذا قيل إن الثقافة ومجموعة الظروف الحياتية المختلفة تمنع بعض الصفات وبعض السلوكيات معنى جديداً، أو تضفي عليه أهمية خاصة - فذاك أيضاً صحيح. في العصر الحديث تبدلت أشياء كثيرة، وارتقت أقدار أشياء، وانحطت أقدار أخرى؛ وكل ذلك بسبب ما أصاب المزاج العقلي والنفسى للناس من تبدلات . . .

مهما قيل في وصف العصر الذي نعيش فيه فإن أصدق ما يُنعت به أنه عصر المادة والجسد والأشياء، عصر المظهر لا الجوهر، وعصر المكاسب لا المبادئ، وقد صارت القضايا العقدية والأخلاقية هامشية في حسّ كثير من الناس، أو هي على أحسن تقدير قضايا شخصية، وقناعات فردية، أي إن ذلك أدى إلى تضاؤل الوعي الجماعي تجاهها. هذا الوضع وإن أعطى للقانون والنظام دوراً متزايداً إلا أنه لم يلغ مكانة الأخلاق في المجتمع؛ بل منحها جاذبية جديدة؛ فالشيء القليل لا يفقد قيمته، بل يصبح عزيزاً.

حين أهملت التربية الخلقية في كثير من المؤسسات في الغرب صار الناس ينظرون بتقدير أكثر للموقف الأخلاقي؛ فالمواطن الصالح هو دائماً إنسان أخلاقي لا يكلف الدولة والمجتمع أي تكاليف إضافية، وإنما يساعد في تحمل جزء من تكاليف إدارة وضبط غيره. ومن هنا نجد أن الإنسان الذي يتمتع عن التدخين وشرب المكيفات الأخرى - مثلاً - هو موضع تقدير في الثقافة الأمريكية. ثم إن الحياة الحديثة قد ضخمت الخصوصيات، ومن ثم اتسعت دوائر التطوع؛ مما عاد الناس يتوقعون من غيرهم الكثير من

المساعدة والمعاونة؛ ومن ثم صار ينظر إلى كثير من الأعمال نظرة احترام لأن أصحابها متطوعون بها. كما أن سيطرة الشهوات جعلت ذوي السلوك الحسن رمزاً للرجولة وقوة الإرادة.

وهناك قضايا أخرى أساسية منحت الخلق الرفيع والسلوك القويم منزلة خاصة، منها: كثرة الدعوات والفلسفات التي تدعى صلاحيتها لإنقاذ العالم؛ مما أوقع الناس في ارتباك حيث تساوت كل المذاهب في الدعوة إلى الخير والفضيلة؛ مما جعل مجرد الكلام غير ذي قيمة، وصار المحك الوحيد هو المسلك الذي ينتهجه أبناء تلك الدعوات ويرهانهم العملي الملموس على أنهم الأصلح لعمارة الأرض ونفع عباد الله والتخفيف من آلام البشرية . . .

أما على الصعيد النفسي فإن التأثير في الآخرين عن طريق الموعظة والأمر والنهي يظل محدوداً حيث يقف ظرف المتلقى وظرف الواقع دائمًا عائقاً دون التواصل الكامل، وحيث يتم استقبال ما يطلب القيام به عن طريق (الوعي). أما حين يتجلّى المبدأ أو القيمة الأخلاقية في سلوك شخص من الأشخاص فإن التأثير في الآخرين يتغلغل في نفوسهم وأذهانهم عن طريق «اللاوعي» و«اللاشعور» فيتأثرون، ويتغيرون بطريقة خفية. ثم إن طبيعة القيم تتأبى على القسر والإكراه، فهي لا تفرض لكنها تجذب. وقد استطاع الصحابة - رضوان الله عليهم - وكثير من صالحـي هذه الأمة من تجار وغيرـهم نشر المبادئ والأخلاق الإسلامية عن طريق السلوك العملي، ولم يكن لدى القوم وسائل إعلام، ولا كتب فلسفة؛ بل إن كثيراً منهم كانوا أميين .

وفي النهاية فإن الإسلام اليوم يتعرض لحملات تشويه واسعة النطاق، ولن يكون من المفيد كثيراً مقابلة تلك الحملات بحملات (نظيرية) لنقاء الإسلام وصلاحـه؛ إذ إنـنا لا نملك العـدة لـذلك، ولو مـلكـناـهاـ فإنـ المـزاجـ العـقـليـ الـحدـيثـ لاـ يـرـتـاحـ لـنـغـمـاتـ الدـفـاعـ وـالـتـبـرـيرـ، إنـماـ الرـدـ الصـحـيحـ سـيـكونـ

في إثبات المسلم أنه شيء مختلف ومتميز ، ولن يبدأ الخطوة الأولى في هذا العامة ، وليس هذا مما يؤمل منهم ، إنما الذين يتوقع ويرتخي منهم ذلك هم المثقفون الأخيار والدعاة الأبرار الذين يملكون إرادة التضحية والعطاء ، ويصبرون في ذات الله على جعل أنفسهم مرآة تعكس مبادئ هذا الدين وأخلاقه .



(٢) السمات الأساسية للداعية

إن أخلاق الإنسان لا يتم التعرف عليها إلا من خلال السلوك، ومن ثم فإن الحديث عنها يمتزج امتزاجاً كبيراً بالحديث عنه. ولا بد من القول: إن ما سنذكره من سمات وصفات نرى أنها أساسية في شخصية الداعية - هو أساسي أيضاً في شخصية المسلم، وكثير منه أساسي في شخصية أي إنسان بصورة عامة؛ لكننا نذكرها ونذكر بها؛ لأن القصور فيها عند عامة الناس لا يترتب عليه ذلك الضرر أو الخلل الذي يترتب على القصور في حياة إنسان يؤهل نفسه لـ يؤثر في الآخرين؛ ولذلك قدوة لهم. إن ما يحتاجه التجاوز من السمات والقدرات دائماً متميز وخاص.

ومن جهة أخرى فإن ما يفصل بين ما هو جوهري، وكمالي في هذا الباب ليس واضحاً في كل موضع ولا كل مناسبة، ففي ظرف ما يكون ما هو كمالي شرطاً أساسياً للنجاح، لكننا هنا نمضي على ما هو غالب ومؤلف، وهذا سرد موجز لأهم ما يحتاجه الداعية من سمات وأخلاق أساسية:

١ - الإخلاص :

إن المشاق التي يكابدها الداعية في سبيل الله - تعالى - ومناصرة دينه تستهدف رضوان الله والفوز بثبوته؛ ومن الشروط الأساسية لقبول الأعمال عامة (الإخلاص)؛ حيث ينبغي أن يكون العمل خالصاً من الشوائب والدعاوى الجانبية، وليس تحصيل الإخلاص بالأمر البسيط، وإنما يحتاج إلى يقظة تامة ومجاهدة دائمة، وإلا فما أسهل الانزلاق، وانصراف النية أو تكديرها بمنفعة شخصية. وقد أمرنا الله تعالى بأداء الأعمال خالصة لوجهه حين قال: ﴿فَأَعْبُدُ

الله مخلصاً له الظير  ^(١). وقال سبحانه: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَنَ كُرَّةُ الْكُفَّارُونَ﴾  ^(٢). وقد كان السلف يسترون أعمالهم الصالحة، ويبالغون في ذلك خوفاً من الرياء؛ ويلاحظ اليوم أن الطلب اشتد على المديح والثناء، وهذا يعكس صفاء النيات، ويعرض الأعمال الصالحة لخطر الرفض. واستجابة لذلك الطلب نجد الكثير من الدعاة يبالغون في المديح والثناء لبعضهم بعضاً ولغيرهم، وهذه المبالغة في المديح تتخذ أحياناً نوعاً من التالي على الله - سبحانه وتعالى -، وفيها من صنوف الخضوع وإذلال النفس وإدخال الغرور على الممدوح الكبير !! إذا كان الصواب شرطاً أساسياً للنجاح فإن الإخلاص شرط أساسى للثواب والقبول، ولا غنى للداعية عن هذا وذاك.

٢ - تجرد الداعية عن العصبية والمنافع الخاصة :

إن كثيراً من جاذبية الدعوة نابع من اعتقاد المدعويين أن ما يدعون إليه لا يعود بالفائدة إلا عليهم، فهي دعوة لإنقاذهم من النار، والإصلاح معائهم في الدنيا؛ ولذا فإن نظرتهم إلى الدعوة هي نظرة احترام وتقدير وإكبار حيث يضخون بأوقاتهم وراحتهم من أجل الآخرين. وقد كان من سنة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الإعلان لقومهم أنهم لا يتغرون من وراء دعوتهم منفعة خاصة على أية صورة من الصور حتى يسدوا الطريق من أوله على المرجفين والمروجين للدعابة المضادة، وكان الشعار دائماً **﴿وَمَا أَشْلَكْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**  ^(٣). وحين تباطأ أهل مكة بالإيمان فند القرآن الكريم شباهتهم ومزاعهم، وكان منه **﴿أَمْ تَسْأَمِهُمْ أَجْرًا فَهُمْ بِنِ مَغْرِبِ مُنْقَلَوْنَ﴾**  ^(٤). فأخذ الأجرة على الهدایة ثقيل على الناس، ولذا فإن حبيباً النجار كان يرحب الناس بقبول دعوة المرسلين؛ لأن أعلام الحق ترفرف على

(١) سورة الزمر: الآية ٢.

(٢) سورة غافر: الآية ١٤.

(٣) سورة الشعراء: ١٠٩.

(٤) سورة الطور: الآية ٤١.

رؤوسهم، ولذا قال: ﴿أَتَيْعُوا مَن لَا يَسْتَكْثِرُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(١). وقد كانت مسألة (الأجرة) فيصلًا قديماً بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة، فالمنطق العام في أعمال الدنيا هو استحقاق المقابل عن كل جهد، ولذا فإن الخضر - عليه السلام - لما وجد جداراً مائلاً فأقامه قال له موسى - عليه السلام - ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَحَذَّتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(٢) ولا سيما أن أهل القرية لم يضيغوهما مع حاجتهما إلى الطعام.

وقد خبر الناس التعامل مع الكهنة والسحراء والمشعوذين الذي يدعون نفع الناس وإصلاح حالهم، وتأكد في وعيهم فرق ما بينهم وبين الأنبياء أن هؤلاء يأخذون الأجر على خدماتهم، والسحراء وأضرابهم يعرفون هذا من أنفسهم، ولذا فإنهم سألوا عن الأجر حين دعاهم فرعون إلى مباراة موسى إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا تَحْنُّنَ الظَّفَرَيْنَ﴾^(٣).

مشكلة الدعاة مع (الأجرة) بدأت على مستوى الأمة حين انخفضت الوتيرة الإيمانية ووتيرة الرغبة في هداية الخلق وإنقاذهم، على حين نشطت رغبات السيطرة على الآخرين وأخذ ما بأيديهم من مال ومتاع، وذلك حين قلل أو رحل النمط الرفيع الذين رباهم النبي على عينه، وخلفهم أقوام ذاقوا طعم الدنيا والرفاهية، فصار لهم ليس كيفية إدخال الناس في دين الله أفواجاً، وإنما الآلية التي تؤدي إلى توسيع الفتوحات، وتعظيم حركة تدفق أموال الجزية والخارج من الأطراف إلى القلب «عواصم الخلافة»، وهذا ما نلاحظه - بكثير من الأسى والحزن - في سير الفتوح فقد تضاءلت الرغبة العامة في هداية الخلق، وصار لهم المسيطر هو الجزية أو القتال الذي قد يأتي بمنافع أكثر منها بكثير! نعم ظل في صفوف الجنود من يطلب الشهادة، ويسعى إلى هداية الخلق؛ لكن ذلك لا يشكل سياسة عامة للجيش. وهذا هو أوضح تفسير لثورات البلدان المفتوحة حرباً؛ حيث صار ثمة شعور بأن هؤلاء

(١) سورة يس: الآية ٢١.

(٢) سورة الكهف: الآية ٧٧.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٤١.

الفاتحين أهل دنيا وليسوا أهل دعوة، أهل جباه، وليسوا أهل هداية! .

وقد شاهدنا في عصرنا الحاضر اخترق بعض الأثرياء للصفوف الأولى من خلال ما ينفقونه على الدعوة أو بعض رجالاتها دون أن يكون لهم ما يؤهلهم للجلوس في الصف الثالث! .

وقد دخلت بعض الجماعات الإسلامية اليوم في معارك انتخابية (برلمانية) وبلدية وصارت منابرها مهتمة بالمحايدات السياسية أكثر من اهتمامها بهداية الناس وتعليمهم وحل مشكلاتها؛ وهذا سوف يؤكد في حسن الناس - ولو بعد حين - أن هؤلاء يسعون إلى هدايتهم من أجل أصواتهم في الانتخابات؛ وبذلك تفقد الدعوة زخمها ورصيدها، ولطالما فقدت دعوات ومذاهب وفئات فتوحاتها الروحية نتيجة ظن أو اعتقاد الناس أن الدعوة تستثمر لجلب منافع سياسية! .

إن مما أساء إلى الدعوة والدعوة مرة أخرى عدم وجود مؤسسات جيدة ترعى الدعوة، وتتولى الإنفاق عليهم؛ مما جعل كثيراً من الدعاة بحاجة ماسة إلى عون الذين يدعونهم، وهذا موجود في العالم الإسلامي بشكل واسع؛ ولا سيما في الريف^(١). ورحم الله الحسن البصري الذي كان يقول: «لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك»^(٢). وكان سفيان الثوري يبحث طالب العلم على العمل الحر حتى لا يتضرر أجرة من أي جهة، وكان يقول: «العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلًا للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بيته، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار سفيراً للفساق»^(٣).

(١) مما ليس مستغرباً في بعض الدول الأفريقية أن يقف خطيب الجمعة بعد الفراغ منها على باب المسجد ماداً يده للمصلين؛ لأن ذلك هو الطريقة الوحيدة لتحصيل لقمة عيشه!!

(٢) قواعد الدعوة إلى الله: ١٣٢.

(٣) مناهج العلماء: ١٤٢.

طريق الدعوة طريق شاق لأنه طريق تضحيه وطريق عقبات ، والاستمرار فيه يحتاج إلى زاد كثير؛ ولن يكون هناك زاد أفعى من الصلة بالله - تعالى - ومراقبته واللجوء إليه وطلب العون منه؛ إن الدعوة الخالصة هي تضحيه خالصة؛ ومن ذا الذي يقوى على التضحيه بشكل دائم إن لم يتصل بمصدر للطاقة لا ينضب أبداً؛ بل يزداد على مدى الأيام كرماً وجوداً! في هذا العصر المادي الذي يتوجه كل شيء مجاني فيه إلى أن يكون نادراً صارت الحاجة إلى الشفافية الروحية أكبر وأشد؛ وفي غمرة العمل قد تغلب على الداعية الحركة وحب الاتصال بالناس؛ بل قد يغرق في متابعتهم وحل مشكلاتهم؛ وإذا بماء الإيمان لديه ينضب، أو يتعكر دون أن يدرى، وحين يحدث ذلك فإن عاقبته ستكون فتوراً في العمل وفتوراً في العطاء، كما ستكون ضعفاً في تأثير الداعية في غيره وبهوتاً لجاذبيته ولمعانه في عيون مدعويه.

ليس أفعى في جلاء القلوب وصقل الأرواح من الإكثار من ذكر الله - تعالى - ومناجاته في أوقات السحر حيث الصفاء التام وحيث التجلی الخاص من الرحمن الرحيم. وقد كان السلف يعجبون من طالب علم لا يقوم الليل! إن المناجاة لا تتخذ شكلاً من الأشكال ولا قالباً من القوالب، فهي إما أن تكون أو لا تكون، ومن ثم فإنها حين تطلقها روح المسلم تكون نبعاً فياضاً للشفافية والشعور بالقرب! وليس أولى بالتنقل وتجاوز الأقدار المفروضة من العبادات من الداعية الذي جعل محور حياته خدمة هذا الدين والتمكين له في الأرض. وينبغي أن يكون واضحاً أننا إذ نهتم بقضايا الفكر والثقافة فإن ذلك لا يعني أبداً إهمال جانب الروح أو جانب السلوك، بل إن ذلك يعني أن شرط صواب الحركة الدعوية والتربوية والسلوكية دائماً هو الفكر النير ذو الرؤية الشمولية. لكن لا بد من القول أيضاً إن من الخطورة بمكان أن تحول جماعة أو حزب إلى مجموعة من المنظرين والمخططين، وتفتش فيها فلا تجد الأوليين ولا الريانياين ولا العابدين المتبلين... إنها - ولا ريب - بذلك تضع نفسها في مهب الريح،

وتعرض تماسكها وقبل ذلك مسوغ وجودها للخطر المحدق .
 إن بإمكاننا بعد هذا وذاك أن نجعل «الشفافية الروحية» مقياساً حقيقياً
 لكون الداعية على المنهج الصحيح؛ فالمحروم من نعمة القرب من الله تعالى
 ومراقبته محروم من الإحساس المرهف، ومن الشعور بأنه يلبس حلية التقوى
 التي يلبسها دائماً الإيمان الوهاج المتدقق . وليس ذلك فحسب، بل إن العتمة
 الروحية تصيب حياة الداعية بالجمود والعطالة والانحطاط؛ لأن المؤمن الحق
 موصول بالله - تعالى - معمور بعطائه وكرمه فهو لذلك باستمرار في رقي دائم
 على طريق الهدایة والمعرفة^(١) .

٤ - التواضع :

طبيعة العمل الطوعي تدفع بالإنسان دائماً إلى المقدمة؛ إذ إن المتقطع
 هو الذي يجمع الناس عندما يتفرقون، وهو الذي ينبعهم عندما يغفلون، وهو
 الذي يصلح بينهم عندما يختصمون... وهذا كله من شأنه أن يشعر الداعية
 بنوع من التفوق الذي يتبعه في أحياناً كثيرة نوع من الإحساس بالتعالي
 الضماني؛ وحين يشرع الإنسان في دخول هذا النفق المظلم يقر له الناس فعلاً
 بالتفوق، لكنهم يفقدون حرارة الاقتداء به، وربما أدى شعوره بالتميز إلى
 إجهاض كل كلماته من المعانى السامية التي تحملها؛ حيث يتخذ كثير من
 الناس من ذلك ذريعة إلى إسقاطه من حسابهم.

إن الله - تعالى - عَلِمَ نبِيَهُ ﷺ كُلَّ مَا يَجْعَلُ مِنْهُ الدَّاعِيَةُ الْأُولَى فِي
 الْعَالَمِ؛ وَكَانَ مِنْ جَمْلَةِ مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ قَوْلَهُ: «وَلَا خِفْضٌ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»^(٢).
 إن التواضع فوق أنه تعبير دقيق عن العظمة الحقيقة - قليل التكلفة على
 المستوى الشعوري والعملي؛ فالمتواضع يبدو دائماً أقل من حقيقته، وبذل فإنه
 يظل يكبر في أعين الناس دون جهد يبذل، كلما كشفت لهم الأيام عن
 جواهره المخبأة! على حين أن المتكبر يضع نفسه في امتحان دائم فهو رجل

(١) حكمة الدين : ٢٢.

(٢) سورة الحجر: الآية .٨٨

عریض الدعاوی، وعليه باستمرار أن يثبت أنه ليس أقل مما يُعرف عنه، وهیهات هیهات أن يتم له ذلك!

إن الكبر يولد باستمرار التوتر المرضي لدى صاحبه ولدى المجتمع الذي يعيش فيه؛ ويكتفي في ذلك ما يحدثه المتكبر في المجتمع من معادلة الاحتقار المتبادل! وقد أحسن من شبهة المتكبر بالصاعد في الجبل، يرى الناس صغراً، ويرونه صغيراً. إن التواضع للأرض المنخفضة تجتمع فيها خيرات السماء، على حين تغادر القمم والسفوح! ولو لم يكن في التواضع سوى جعل صاحبه قادراً على جذب من هم أكثر تفوقاً منه لكان مكسباً كبيراً!

٥ - الحكمة:

إذا كانت الدعوة عبارة عن محاولة إيجاد نوع من التطابق والتماثل بين الواقع المعاش والهدي الرباني، وعلمنا أن الواقع الشارد عن الطريق القويم إنما ولد على قاعدة من التوازنات الخفية، وإذا علمنا أن هناك جهات كثيرة ترتفق من وراء الفساد والانحراف...! إذا علمنا كل ذلك أدركنا أن الدعاة يمشون في أحيان كثيرة على حبل مشدود، وهم بحاجة بشكل دائم إلى اتخاذ قرارات صعبة وإلى إجراء موازنات دقيقة، وهذا كله يحتاج إلى اتصاف الداعية بصفة مهمة هي «الحكمة». وقد عُرِّف القدماء الحكمة بأنها «وضع الشيء في موضعه». ولا تتأتى «الحكمة» إلا من خلال امتزاج فضليتين: كمال المعرفة وقوة الإرادة؛ فلا تكفي إرادة حازمة وعزم أكيد على فعل ما هو خير أو هو حق؛ بل لا بد من معرفة حسنة للموقف الصحيح الذي ينبغي اتخاذه؛ كما أن المعرفة بالحق لا تجدي كثيراً إذا لم يكن ثمة إرادة قوية توقف أهواء النفس عند حدودها؛ ليتمكن المرء من أن يكون في الموضع الصحيح.

بعض الفلاسفة يرى أن الحكم نوع من المعرفة تختفي فيها التفرقة بين النظرية والعمل: إنها علم الحياة الروحية، وهو علم أعمق من كل العلوم وأشد است蜃اراً.

إن الحكمة تحمل في طياتها عدداً من الفضائل الجزئية، هي: الاستفادة من التجارب الماضية، والاستعداد للإفاده من التعاليم والنصائح، والبصر بالعواقب، والتفكير والتبصر والاحتياط والاعتبار^(١).

ولا ريب أن جزءاً من (الحكمة) وهبي وجزءاً منها كسيبي. إن الحكمة هي التي تملّي على الداعية أن يتكلّم في موقف من المواقف، وهي نفسها التي تدفعه إلى أن يسكت في موقف آخر، وهي التي تجعله يخطو في بعض الأحيان خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. الحكمة تتأبى على التنزيل في قولهب جاهزة أو أشكال محفوظة؛ إنها أم الوسائل والأساليب؛ لكنها أكبر من أن يحويها أسلوب أو منهج معين.

إننا نلاحظ أن كثيراً من الدعاة اكتسب مناعة ضد آلام النكسات والنكبات؛ فهو لا يستفيد منها شيئاً، ولا يأخذ منها أدنى عبرة، وهو مستعد لتجاوز كل ما يمكن استفادته من دروس التاريخ في سبيل السير خلف بريق أو سراب، حتى إذا وقعت الواقعة أعد نفسه لنكبة جديدة!

٦ - الحرص على المدعويين:

إن نصف شروط نجاح الداعية متوقف على الآخرين؛ فمهما توفرت شروط النجاح لدينا فإن ذلك لا يعني على الصعيد العملي شيئاً ما لم تحدث استجابة لدى الذين يشكّلون حقل الدعوة؛ ومن ثم فإن الداعية الحق يلزمه شعور قوي بالحاجة إلى الآخرين، ولم لا وبأيديهم في النهاية الحكم عليه بالنجاح أو الإخفاق!

يشبه أحد المفكرين الداعية بالتاجر، على الرغم من اختلاف بل تضاد أهداف كل منهما؛ فقواعد السلوك الظاهري لديهما واحدة؛ «ذلك أنه لا الداعية ولا التاجر يمكنه - رغم اختلاف الدوافع - أن يسيء إلى من يتعامل معهم... فكما يقدم التاجر التنازلات لزبائنه، ويتحمل منهم أنواع المضايقات

(١) الأخلاق النظرية: ١٦٣.

في سبيل بيع بضاعته لتحقيق أرباح أكثر، فإن الداعية يعامل جماعته بكل تسامح ورحابة صدر متغاضياً عن كل الإساءات والإهانات التي قد يتعرض لها بقدر حرصه على الصفح عن كل الزلل والهفوات في سلوك الآخرين التي قد تعيق سبيل قيامه بمهمته^(١).

إن مظاهر العناية بالمدعويين كثيرة جداً؛ يمكن أن نعد منها ما يلي:

أ - ترك توبير لهم وتقريعهم؛ إذ إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وليسوا بحاجة إلى معكرات إضافية.

ب - السؤال عنهم، وتحسس أحوالهم لتقديم العون لهم والمساعدة إلى مشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم؛ فإن الناس يهتمون بشخص الداعي وبما يدعو إليه على قدر ما يديه من اهتمام بهم.

ج - دراسة حالاتهم ومعرفة أقرب الطرق إلى عقولهم وقلوبهم؛ فالتأثير اليوم في الناس لم يعد سهلاً، كما كان قبل، ولم يعد الناس غفلاً يصدقون كل ما يقال لهم؛ والذي يفهم طريقة تفكير الناس، ويعرف مفاتيح اهتماماتهم يستطيع أن ينفذ إليهم أكثر من غيره.

د - إن أحسن طريقة لضمان استمرار المدعو في طريق الخير هو أن نحوّله نفسه إلى داعية، يحمل هموم الدعوة، ويتبني أفكارها.

ه - منا من يفسر الحرص على المدعو تفسيراً خاطئاً، فيضع على المدعو القيد، ويحجر عليه الاتصال بالآخرين أو الحوار معهم، ويظن أنه بذلك يحفظه من الضياع؛ وهذا قد يكون صحيحاً في حالات خاصة؛ لكن القاعدة العامة في هذا أن شدة الحرث على المدعو بمثيل هذه الطرق قد تكون هي الدافع - بعد حين - إلى ترك الدعوة والخلاص من الحجر المفروض عليه.

و - إن خبرة الحرث على المدعويين لن تنضج إلا من خلال دراسة

(١) المنهج الرباني في الدعوة إلى الله: ٥١.

حالات كل أولئك الذين تركوا الدعوة، ومحاولة الخروج بنماذج محددة لمجموعة الأسباب التي أدت بهم إلى ذلك؛ وهذا حتى لا تتكرر الأخطاء دون أية فائدة! .

٧ - الشجاعة الأدبية:

لا يستطيع الداعية أن يقوم بأي عمل من الأعمال دون امتلاك قسط من الشجاعة؛ ذلك لأن طبيعة الدعوة تكمن في تجاوز السكون والسلبية والقصور الذاتي إلى التأثير في الآخرين وإعادة صياغتهم من جديد، وهذا يعني دخول المجال الخاص للآخرين والذي يعدونه شيئاً لا يصح اخترافه.

ليست الشجاعة عدم الخوف، وليس هي عدم المبالغة بالآخرين أو بالأخطار المحدقة، ولا هي الاندفاع نحو تحقيق الغايات دون أدنى رؤية أو فطنة... .

إن الشجاعة تعني أشياء كثيرة، منها:

أ - التمسك عند مواجهة الخطر وفي الظروف الأليمة، على نحو ما فعل النبي ﷺ يوم حنين حين ولى جُلُّ الناس، وهو ثابت يردد:

أنا النبِي لَا كَذْب

ب - مواجهة الظلم ومحاصرة الشر بكل وسيلة مشروعة وممكنة، وهذا هو جوهر النهي عن المنكر الذي احتفل به الإسلام أيام احتفال.

ج - التغلب على الصعوبات والأخطار التي تتجاوز المعتاد، على نحو ما واجه المصطفى ﷺ وأصحابه الحصار في شعب بنى هاشم وعلى نحو ما واجه أبو بكر موجة الردة الهائلة في زمانه... .

د - احتمال أشد الآلام بصبر وثبات؛ على نحو ما فعله كثير من أبطال الدعوة في العصر الحديث حيث قضوا نحبهم في أسوأ الظروف، حتى لا يقولوا كلمة باطل أو يتنازلوا عن مبدأ يؤمنون به.

هـ - من ضروب الشجاعة تحمل المسؤولية عن الأفعال التي يقوم بها المرء؛ فذاك تعبير عن كمال العقل وكمال الرجولة في آن واحد.

و - الاعتراف بالخطأ وعدم محاولة التملص منه، أو إلقاء بعاته على الآخرين والاعتراف بالقصور والتقصير والتفريط.

ز - الجود والاستعداد للبذل والتضحية في سبيل نجاح الدعوة وتبلیغ کلمة الله، فالكريم لا يكون إلا شجاعاً، والشجاع لا يكون إلا كريماً.

ح - التطلع إلى جلالات الأعمال والإنجازات الكبيرة وتحمل تكاليف تحقيقها، كل ذلك من ألوان الشجاعة^(١).

إن المشكلة في هذه الصفة وغيرها من سمات الفضائل وقوعها بين رذيلتين؛ رذيلة الإفراط ورذيلة التفريط، ومن المؤسف حقاً أن الإنسان لا يستطيع وضع الحدود الفاصلة بين الفضيلة والطور الذي إذا صارت إليه انقلبت إلى رذيلة، وكل ما نرسمه من حدود هو اجتهادي وتقديرى؛ فربما سميانا موقفاً من المواقف تهوراً على حين يسميه غيرنا شجاعة. وربما نسمي موقفاً من المواقف جيناً على حين يسميه غيرنا حذراً أو فطنة وحكمة أو احتياطاً؛ لكن على الرغم من هذا فإن أولي الأ بصار يستطيعون في النهاية مقاربة المفصل إن لم يضعوا السكين عليه.

٨ - الأخذ بالعزيمة:

دائرة الخير واسعة جداً، ودائرة الشر أيضاً واسعة، ويظل الممکن متسعأً؛ والناس سيلتزمون من ممکنات الخير بحسب ما تبلور في أذهان قادتهم ومصلحיהם، وما تبلور في أعمالهم وسلوکهم؛ بمعنى آخر: إن الذي يحدد عتبة الخير في المجتمع وسقفه هي النماذج التي يقتدي بها الناس؛ ومن هنا تبع مسؤولية الداعية عن الرقي بمجتمعه وأمته؛ ومن هنا أيضاً يطالب بما

(١) انظر حول بعض ما سبق الأخلاق النظرية: ١٧٨ وما بعدها.

لا يطالب به غيره من الأخذ بالعزم والبعد عن الرخص ومواضع الخلاف ما
يمكن. وفي الوقت نفسه ينظر الداعية إلى ترخص الناس في بعض الأمور
نظرة إعذار وتقدير لمدى علمهم بالحكم ول مدى استعدادهم النفسي وطبيعة
الظرف الذي يمررون به؛ وهذه النظرة ليست - بالطبع - نهائية، وإنما هي
مقدمة لهم ما هم عليه ثم محاولة الرقي بهم. فالداعية لا يهدف إلى جعل
الناس يلتزمون بالهدي الرباني فحسب، وإنما يسعى أيضاً إلى أن يصبح منهم
دعاة هداة.

ولا ينبغي في النهاية النظر إلى الداعية بأنه فوق البشر، وأن طبيعة ما
التزم به توجب عليه التزامات محددة فوق ما يلتزم به الإنسان العادي؛ فالداعية
بشر من البشر؛ ولهم مشكلاتهم وميولهم، وعليهم ضغوط أسرية واجتماعية؛
وأحكام الشرع واحدة للجميع؛ إنما هو التزام أدبي يحث عليه التصدي
للهدایة. «مَا عَلَى الْمُخْسِنِينَ مِنْ سَيِّلٍ».

إن الناس حين ينظرون إلى شخص على أنه قدوة لهم فإن ذلك يرتب
عليه نوعاً من السلوك المحتشم، كما يرتب عليه الأخذ بمعالي الأمور وتجنب
مواطن الشبه. يقول الإمام الأوزاعي: «كنا قبل اليوم نضحك ولنلعب، أما إذا
صرنا أئمة يقتدي بنا، فلا نرى أنه يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ».

ولما هم إمام العصر الليث بن سعد بفعل مفضول ينافي العزيمة قال له
إمام أهل المدينة يحيى بن سعيد الأنصاري: «لا تفعل فإنك إمام منظور
إليك». وكان عبد الواحد بن زياد يقول: «ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ
إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون
أبعدهم عنه». ومن اللطيف أن العامة يعرفون خطورة أخذ علمائهم بالرخص
ولينهم أمام الشدائد، ويدذكرون في هذا أنه لما أخذ الإمام أحمد بن حنبل،
ومعه محمد بن نوح إلى الخليفة، وقد حملوا على بعض واحد وهو مقيدان،
جاءهما رجل من الأعراب يقال له جابر بن عامر، فسلم على الإمام أحمد،
وقال له: يا هذا إنك وافد الناس، فلا تك شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس
اليوم فإذاك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه - من القول بخلق القرآن -

فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيمة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت عليه؛ فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً. قال أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من الذي يدعونني إليه^(١).



(١) مناهج العلماء: ٢٠٠ وما بعدها.

(٣) سمات تكميلية في شخصية الداعية

سبق أن ذكرنا أن وضع حدود فاصلة بين ما هو أساسي وتكميلي من سمات الداعية يظل أمراً تقريبياً بشكل عام، وطبيعة الموقف الدعوي تفرض في بعض الأحيان وجود سمة معينة، وتقدمها على ما سواها، فعلى حين يتطلب موقف من المواقف المعاشرة، يتطلب موقف ثان الحكمـة، وقد يتطلب موقف ثالث الشجاعة؛ ورابع الأنـة وهكـذا... وما يمكن أن يعد في سلك الصفات المكملة كثير؛ لكنـنا نقتصر على أهمـها على النـحو التـالي:

١ - إنصاف الآخرين :

يعني الإنصاف إدراكاً متكاملاً لما عند الآخرين من حسنات وميزات، ولما يعانونه من مشكلات، ولما يعيشون فيه من ظروف مختلفة: ظروف النشأة والتـكوين والظروف الآتـية؛ وهذه المعرفـة تلزمـنا بأمرـين:

أ - التـقدير لـجوـانبـ الـخـيرـ والمـيزـاتـ الـتيـ يـتحـلوـنـ بـهـاـ مـهـماـ كـانـ منهـجهـمـ فيـ الدـعـوـةـ، أوـ فيـ الـحـيـاةـ عـامـةـ مـخـالـفاـ لـمـاـ نـحنـ عـلـىـهـ.ـ والـخطـأـ الـذـيـ نـقـعـ فـيـ دـائـماـ أـنـاـ نـضـعـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ مـقـايـيسـ لـلـكـمالـ وـالـنـجـاحـ وـالـسـوـاءـ،ـ ثـمـ نـحاـولـ تـطـبـيقـهـاـ عـلـىـ الـآـخـرـينـ،ـ وـنـحـكـمـ بـعـدـ ذـلـكـ عـلـىـهـمـ بـأـحـكـامـ لـاـ تـخلـوـ مـنـ القـسوـةـ غالـباـ.ـ وـقـدـ تـعـودـنـاـ أـنـ نـتجـاهـلـ وـجـهـةـ نـظـرـ الـآـخـرـينـ فـيـ مـقـايـيسـنـاـ تـلـكـ،ـ وـتـكـونـ التـيـتـجـةـ أـنـ يـفـعـلـ الـآـخـرـونـ نـحـوـاـ مـاـ نـفـعـلـ؛ـ فـنـحـوـلـ مـجـتمـعـنـاـ إـلـىـ مـجـتمـعـ تـلـاوـمـ وـتـنـابـذـ.

ب - إـعـذـارـ الـآـخـرـينـ،ـ وـالـإـعـذـارـ لـيـسـ تصـوـيبـ مـاـ لـدـىـ الـآـخـرـينـ مـنـ سـلـوكـ وـأـفـكـارـ،ـ فـالـحـقـ لـاـ يـتـعـدـ؛ـ إـنـمـاـ هـوـ تـفـهـمـ الـوـضـعـيـةـ الـعـامـةـ لـلـآـخـرـينـ

وإدراك أن وضعيتهم العامة هي نتاج مجموعة معطيات عديدة، وأن تلك المعطيات لو تجمعت في حياة واحد منا ل كانت وضعيته مشابهة - في الجملة - لوضعية الآخرين التي نتقدها. ومن هنا ينسبون إلى عمر - رضي الله عنه - أنه قال: «أعقل الناس أعذرهم للناس». إن المعرفة الكاملة صفح كامل. وإن لوم الآخرين وتجريتهم لن يحل أية مشكلة، وإنما الذي يحلها هو مساعدتهم على تجاوزها، وتهيئة الظروف المناسبة لوضعية أفضل.

٢- المهارة في إيجاد أجواء الوئام:

حين تعلو الأصوات في قاعة فإن كل متحدثين يُضطران إلى رفع أصواتهما، وينزعج الجميع ويكون سوء الفهم سيد الموقف، ومهما يكن ما يقال مهماً فإن الضجيج سيصرف الانتباه عنه. إن إيجاد أجواء الوئام والتفاهم والانفتاح والقابلية للحوار وقبول الدعوة هو مهمة الداعية، ليست مهمة الأطراف الأخرى.

إن هناك خططاً كثيرة منوعة تهدف إلى صرف اهتمام الناس بما يقوله الدعاة، بل نقول إن ذلك لا يحتاج إلى خطط، فالغزو الثقافي أوجد عقلية جديدة مشتلة، وكثرة متطلبات العصر - المتناقضة أحياناً - شغلت عقول الناس وقلوبهم، واستنفدت أوقات فراغهم، وما تبقى من طاقاتهم.

إن هذا كله محتمل لكن الذي لا يتحمل هو أن بعض الدعاة يسعى أينما ذهب، وأينما حل إلى زرع عوامل الاضطراب والتشويش وقسم أبناء البلد الواحدة إلى فرقاء متناحرین مع زعم كل منهم بأنه يدافع عن المنهج الصحيح، وهو حتى يوجد لنفسه موطن قدم يبنه الناس إلى أوجه الخلاف بينهم بدل أن يستثمر عوامل الاتفاق في إصلاحهم. وبعض الدعاة يبذرون بذور العصبية في الأرض البكر: عصبية لشيخ أو مذهب أو جماعة أو اتجاه؛ فيؤدي ذلك إلى خسارة الجميع لتلك الأرض. إن الدعاة الربانيين يقلعون أشواك العصبية والانغلاق والتحزب ليعلم التفاهم والتعاون والتآثير والتآثر؛ وهذا ما كان يفعله سفيان الثوري - رحمه الله - فإنه كان إذا دخل البصرة

حدث بمناقب عليٰ، وإذا دخل الكوفة حدث بمناقب عثمان! وكان يقول عطاء بن مسلم: إذا كنت في الشام فاذكر مناقب عليٰ، وإذا كنت في الكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر^(١).

ويرى بعض المفكرين من أسباب قبول النبي ﷺ شروط قريش القاسية في صلح الحديبية رغبته في تهدئة أجواء الصراع وفتح الطريق أمام الدعوة؛ حيث لم يكن من الممكن قبول قريش للإسلام في حالة الحرب. لكن ما الحيلة مع أقوام لا يجدون لأنفسهم موضعًا في حالات التصافى والتفاهم؛ وهم يتغزرون من الصفاء، ويختنقهم الهواء الطلق، ولا ينعشهم - كشأن بعض الهوام - إلا الهواء الفاسد والبيئة الملوثة!!.

إن إشغال الناس بالجزئيات، والأمة تُجتث جذورها، وتستأصل شأفتها من أعظم الخيانة لها وللمنهج الرياني الذي كلفنا بحمله وبلورته والدفاع عنه.

٣ - القدرة على الموازنة بين العزلة والاختلاط بالناس:

لا نماري في أن من الدعاة من قد ينفع الناس دون الاختلاط بهم لأن يكون كاتباً أو مفكراً، ولا نماري أيضاً في أنه ليس كل الأ الخيارات يصلحون لمحالطة الناس والقيام بالاتصال الفردي؛ بسبب مزاج خاص أو وضعية معينة، وكلامنا هنا موجه إلى أولئك الذين يعدون أنفسهم جنود تنفيذ، ويقومون بالاحتياط بالناس ودعوتهم. وفي هذا السياق نجد أن نوعاً من التوازن بين اعتزال الناس ومحالطتهم يظل ضروريًا بالنسبة لهذه الفتاة. فالاعتزال للناس يؤدي إلى انتشار الفساد لعدم وجود من ينهى عنه ويحاصره.

أما كثرة المحالطة للناس فإنها تؤدي - في أحيان كثيرة - إلى إلف الناس للداعية وإسقاط الكلفة بينهم وبينه، كما تؤدي إلى استنفاد الناس لما عند الداعية من طاقة روحية وذخيرة ثقافية وعلمية، وربما يتحولون من مرحلة التأثر إلى مرحلة النقد؛ والطالب كما هو معروف يتأثر بأستاذه أكثر من تأثيره

(١) حلية الأولياء ٧: ٢٧.

بوالده، وأهم سبب لذلك أنه لا يرى أستاذه إلا في أحسن أحواله، على حين أنه يرى أباء في كل أحواله. وقد كان من هديه عليه السلام أن يتفقد أصحابه بالموعضة، يلتمس أوقات نشاطهم واستعدادهم، وكان في بعض الأوقات يجعل على بابه من يحجب الناس عنه ليتفرغ لشأنه الخاص. وكثيراً ما يحدث أن يكون الداعية متسبباً إلى جماعة من الجماعات^(١)؛ فإذا به - لما يديه من حيوية - يحمل أعباء كثيرة ينوء بها، ويُستهلك ويتحول إلى (رجل خدمات)، ويجد نفسه بعد مدة عاجزاً عن أن يرقى بنفسه أو أسرته، كما أن الأخطاء وأنواع القصور تتکاثر في أنشطته؛ لأن المرء مهما كان نشيطاً وحيوياً إلا أن ذلك كله سقفاً وحدوداً في النهاية.

إن اعتزال الناس بين الفينة والفينية ي يصل الروح، ويجدد الرواء، ومن يفعل ذلك فربما يكون في وقت عزلته في خدمة الناس أكثر مما لو اختلط بهم؛ ومن الملاحظ أن الناس حين يصيبهم كرب أو أزمة فإنهم كثيراً ما يلجأون إلى أولئك (المحتشمين) ينشدون لديهم الرأي والتعاطف والعون.

٤ - بعد عن (الشخصانية) في الدعوة:

قد يرى المدرس أو الداعية أن من المناسب أن يسوق للناس بعض تجاربه الخاصة في الحياة ليقتدوا به، أو ليأخذوا العبرة مما جرى معه، وهذا لا بأس به مع الحذر من أن يعطي انطباعاً خطأً بأنه يمدح نفسه، أو يرفعها فوق قدرها. وبصورة عامة فإن الداعية كلما ابتعد في حديثه عن شؤونه الخاصة كانت فاعليته، وكان تأثيره في سامعيه أشد. والتركيب الثقافي والمزاجي في العصر الحديث هو الذي جعل هذا من شروط القبول والفاعلية؛ إنه أحد مظاهر الفصل بين الذات والموضوع الذي بلغ مداه، كما لم يحدث في أي وقت مضى.

(١) بعض الجماعات تكون عاجزة عن إحداث التغيير المطلوب في أشخاص من يتبعونها؛ فالنشيط والكسول يظلان على حالهما يوم اتسما إليها.

وقد شاهدنا من الدعاة من حول جماعته أو جمعيته أو حزبه إلى (مزرعة) يرتع فيها الأبناء والأصهار والأقرباء، وبعضاً منهم جعل أتباع جماعته أشبه بـ(تركة) لا وريث لها، فورئتها لأحد أبنائه يقوم عليها، ويرعاها^(١). وبعض الدعاة وطلاب العلم جعل من سيرته الذاتية ورداً يكرره على أسماع طلابه ومربيديه. وقد رأينا من الدعاة من يترجم لوالده أو أسرته، وذلك في نظري لا يخلو من مغامرة ومخاطرة؛ إذ إن تلك الترجمة لن تكون أمينة ولا نزيهة، كما أن ممارسة النقد فيها ستكون شبه مستحيلة، وتلك ضرورية لكل ترجمة.

ومهما أحرز هؤلاء من نجاح في دعواتهم فإنه سيكون مؤقتاً، وكر الأيام والليالي سوف يعيد الأمور إلى نصابها!

إن من الأخطاء الفادحة أن نزرع في حُسْن الناس أننا نمثل الإسلام تمثيلاً صادقاً، أو أن تجربتنا الخاصة هي الأكثر نضجاً أو الأعم نفعاً؛ فالواحد من الدعاة مهما سما سيظل غير معصوم ولا مكتمل، ومهما نضجت خبرته فإن ما لا يعرفه أكثر مما عرفه.

٥ - الآلة في التخطيط والحماسة في التنفيذ:

كل واحد منا يحرص على أن يرى أهدافه تتحقق على أرض الواقع كي تقر عينه، وكى يطمئن إلى أن جهوده لم يكن مآلها الإخفاق والانكسار، ويضاف إلى هذا أن طبيعة الشباب تميل إلى الحماسة وحب الإنجاز مع استسهال الصعب وعدم تقدير العواقب. والذى يحتاجه الداعية ليس البرود ولا مشي السلفحة، وإنما تقدير الأمور التقدير الصحيح؛ فإمكانات الدعاة كثيراً ما تكون محدودة، وأمالهم غالباً ما تكون أكثر من عريضة، والتحديات عاتية، ومع هذا نجد فيما من يريد حرق المراحل والقفز فوق معطيات الواقع؛ لكن للأشياء طبيعتها ومنطقها الخاص، ولا يمكن تجاوز ذلك ولا تجاهله. وفي مقابل ذلك نجد دعاء - هم شيوخ غالباً - لا هم لهم إلا وصم

(١) يحدث في بعض الحالات أن يكون ابن الشيخ أكثر طلابه كفاءة لقيادة الجماعة من بعده، وهذه حالة استثنائية خاصة.

الآخرين بالاستعجال على قطف الشمار وتحقيق الآمال، وهم دائماً دعاة تؤدة وأناة وبصيرة واعتبار... ولو سألتهم عما حققوه نتيجة رؤيتهم الخاصة لخطط الدعوة وأساليبها لم تجد عندهم شيئاً متميزاً...

إن المطلوب ليس القفز في الهواء ولا مواعظ الحكمة والتعقل؛ لكن المطلوب هو التخطيط المتقن للعمل الدعوي، التخطيط الذي لا يرهق تنفيذه كواهل الدعاء، ولا يهدف في الوقت نفسه إلى تحقيق إنجازات صغيرة؛ فإذا ما أحكم ذلك كان التباطؤ في التنفيذ غير ذي معنى. ومع هذا وذاك فإن تعقيدات العصر ومخاطر السرعة العالية فيه تظل شيئاً يوجب الحذر، فالمستجدات كثيرة والمعلومات المتوفرة عن طبيعة الحقول الدعوية محدودة؛ والفضيلة في مثل هذا تتجلّى في امتلاك القدرة على الوقوف أو الرجوع خطوة إلى الوراء كلما اقتضت الحكمة ذلك؛ لكن عندما يقبل الناس على الدعوة، وتتهيأ لها الظروف المناسبة، فإن المسابقة إلى الخير هي شعار الصالحين المخلصين.

٦ - المصابرة:

طريق الدعوة طريق طويل وشاق، والبادل فيه لا يتضرر عوضاً ناجزاً، وإنما يعمل، ويتنظر الأجر عليه في الآخرة. والعقبات والصوارف أكثر من أن تحصى، ومن ثم كان لا بد من التسلح بالصبر وسؤال الله - تعالى - التثبيت، ولا بد لجماعة المؤمنين من التواصي بالصبر، يلقى الرجل أخاه، فيقول له: أصبر، ويقول له أخوه: أصبر، على نحو ما حدثنا الله - تعالى - عن المؤمنين في سورة العصر؛ إذ من سماتهم الأساسية التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إننا لا ننكر أننا في أحوال كثيرة نفقد القدرة على الاستمرار، ونصاب بنوع من الانحسار، وينبغي أن نعترف أن كثيراً من أعمالنا مصاب بقصر النفس والأنانية، وقسم آخر نبدأ به لكننا لا نتابعه. وبعض الدعاء ينتشر بين الناس أفقياً، ثم بعد مدة إذا به يتقلص شيئاً وراء شيء لعدم قدرته على المتابعة.

إن أساس الصبر ينبع من عون الله - تعالى - لعبدة؛ وتمامه في إدراك

أن هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، والصبر نفسه جزء مهم في النجاح مهما تكن النتائج سلبية. إن مما يدعو إلى الضجر والسام في بعض الأحيان إحساس بعض الدعاة أنه يعمل في فراغ، وأن من حقه أن تكون الساحة خالية إلا من كلمة الخير؛ ومن ثم فإنه يلزمه شعور بعدم الإنجاز مع أن الحقيقة أن طبيعة عصرنا وفلسفته ليست خيرة، وإنما هي مادية انتهازية. الصبر يجعل الزمن يعمل لصالح الداعية؛ لكن لا بد معه من مراجعة العمل الدعوي في ضوء المبادئ التي نؤمن بها، وفي ضوء النتائج التي نحصل عليها؛ وإلا فمن المحتمل أن يصبح تصوير النفس نوعاً من التغطية على النتائج السيئة ونوعاً من احتمال آلام الأخطاء دون أدنى مبرر.

٧- النوعية العليا حاجتنا:

إن كل مسلم ملتزم بالفرائض مبتعد عن الكبائر يعد داعية بلسانه أو بحاله على مستوى من المستويات، وياعتبر من الاعتبارات؛ فنحن لا نشكو من أزمة في أعداد الدعاة؛ فالخير في هذه الأمة راسخ وكثير؛ إنما تكون الأزمة التي تواجهها الأمم في الأحوال الصعبة، في نوعية الدعاة والمصلحين والمفكرين وأهليتهم للأخذ بيد الأمة وطرح الحلول لمشكلاتها المتأسنة، وتجسيد النموذج الصالح الذي يجذبهم نحو الخير. قد أنسانا كليات للدعوة ومعاهد لتدريب الدعاة وألوفًا من المدارس الشرعية التي تخرج الأئمة والخطباء؛ لكن هاجسنا دائمًا كان هو (الكم) والانتشار الأفقي، لم نصم توسيعًا دقيقاً لشخصية طالب العلم الذي سؤله للقيام بهذا العمل العظيم، وأحياناً لا تتم مقابلة من يقبلون في الكليات الشرعية المختلفة وهكذا...

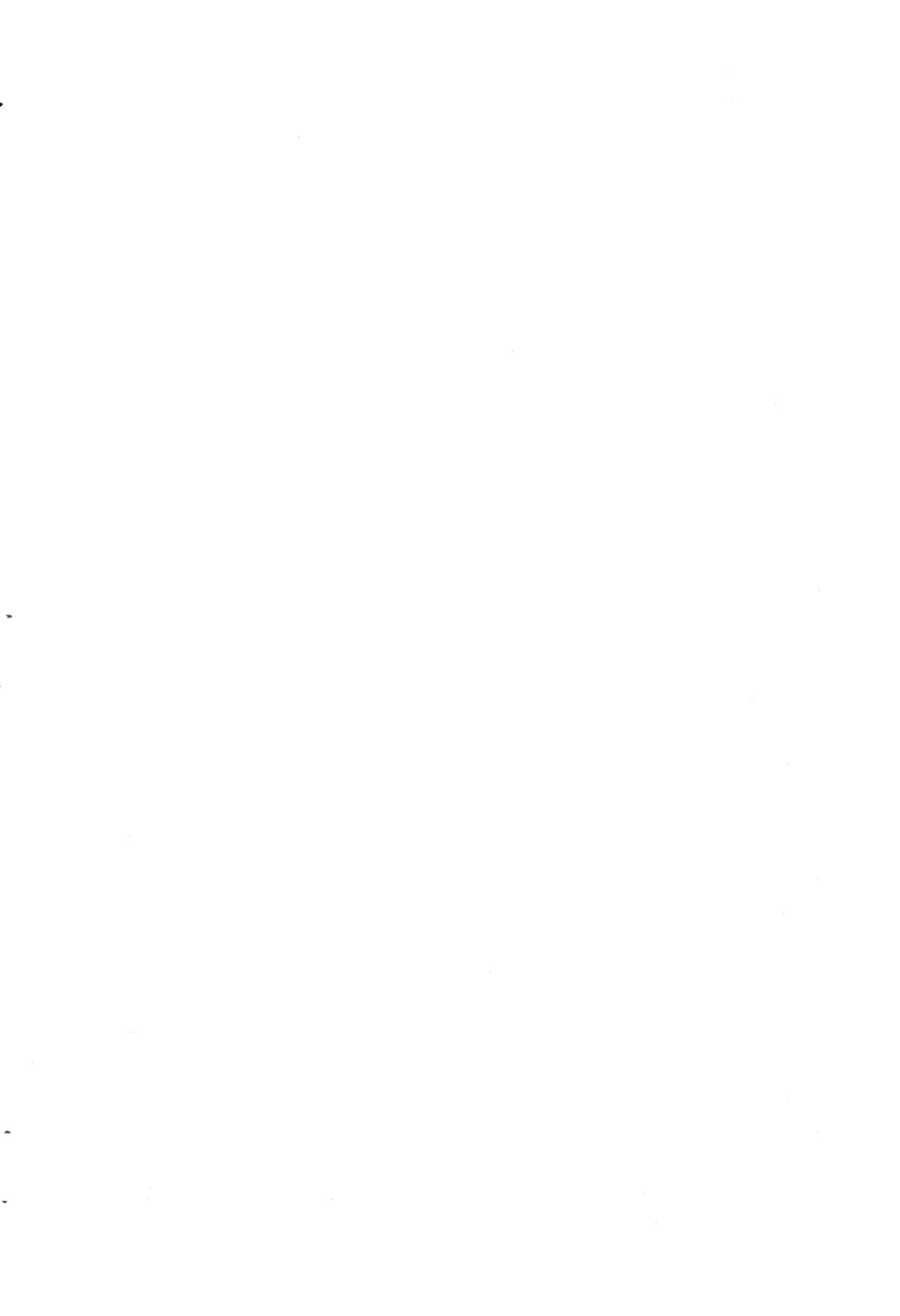
وما نجده من نبوغ في بعض الدعاة ناتج عن جهد شخصي، وهو نبوغ لم يكتشفه أحد، وقلما يلقى النابغة رعاية خاصة مميزة من آية جهة. وكانت عاقبة ذلك على العمل الدعوي سيئة للغاية. ولا أريد أن أفتح جروحاً، ولا أن أثير أشجاناً؛ فالمشكلة معروفة ومفهومة؛ لكن السؤال دائمًا كيف نستطيع اختيار النوعية المطلوبة، وكيف تقوم بتربيتها وإعدادها وتثقيفها ثم متابعتها ومساعدتها في مجال عملها؟؟.

وفي الختام فإن الصفات التي تساعد الداعية على التميز كثيرة، ولعلنا
لم نذكر كل المهم منها؛ فهناك - مثلاً - السخاء والتعالي على الأحقاد، وحب
الإنجاز، والرفق والاستغناء عن الناس، وحسن الظن بال المسلمين والستر على
عيوبهم والتضحية في سبيل الدعوة والإيجابية وحب الخير للناس والزهد في
القيادة، وما إلى ذلك من الشيم الحميدة؛ لكن طبيعة الكتاب لا تسمح بأن
نقول كل شيء؛ ولعل الله - تعالى - يعيننا على العمل ببعض ما قلنا؛ وهو
مولانا.



المَقَدِّمةُ الْأَبْعَدَةُ
فِي الْبَلَاغِ الْمُبِينِ

- ١ - البلاغ المبين.
- ٢ - أسلوب الداعية.
- ٣ - التلازم مع وضعية المدعو.
- ٤ - مخاطبة الفرد ومخاطبة المجموعات.
- ٥ - وسائل البلاغ المبين.



(١) البلاغ المبين

الوظيفة الأساسية للرسل - عليهم الصلاة والسلام - ليست إعمار الأرض ولا توفير الرفاهية للناس أو إطعام الفقراء؛ وإنما تبليغهم الرسالة التي حملهم الله - تعالى - إياها. وهذه الرسالة وإن كانت مفرداتها كثيرة إلا أنها تتمحور في النهاية حول قضية جوهرية ونهائية، وهي تذكير الناس وتنبيههم لساعة الوقوف بين يدي الله - تبارك وتعالى - وما تتطلبه النجاة في يوم الحساب من تبعات وتكاليف على مستوى الإيمان وعلى مستوى العمل، سلباً وإيجاباً؛ وقد عبر لنا القرآن الكريم بجلاء عن ذلك الهدف المحوري من بعث الرسل حين قال: ﴿رَفِيقُ الدَّرْجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِتُنَذَّرَ يَوْمَ النَّلَاقِ﴾^(١). إن الإحساس بيوم التلاق وتبعاته هو الذي ينبغي أن يسيطر على مشاعر الناس، حتى يستقيموا على الشريعة، ويعمروا الأرض، ويترحموا بينهم

والأنبياء وخلفاؤهم من الدعاة إذ يقومون بـ«البلاغ المبين» يكونون قد قاموا بالعمل الأساسي الذي تبرأ به الذمة أمام الله - سبحانه وتعالى - وهناك آيات كثيرة تدل على هذا من نحو قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينُ﴾^(٢) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَعْرَضُوا فَعَا أَنْسَنَكَ عَلَيْهِمْ حَيْثِظًا إِنَّ عَيْنَكَ إِلَّا أَلْبَانُ﴾^(٣).

(١) سورة غافر: الآية ١٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤٨.

ويمكن أن نستجلِّي من الفوائد العظمى التي تجنيها الأمة من «البلاغ المبين» ما يلي:

- ١ - جعل حياة الأمة مشدودة نحو هدف واحد، إذ إن تبليغ الرسالة يحول دون انسياق الأمة خلف أهداف مشتَّة متناقضة ودينوية. وإذا ما فقدنا «مركزية الهدف» فإن كثيراً من أوجه التناقض والانسجام تصير شكلاً، وتتحول من نقاط ارتكاز للتلاحم المجتمعي إلى معابر لتحقيق الأمجاد الشخصية والمنافع الخاصة!.
- ٢ - إن القيام بعملية التبليغ أكبر ضمان لتجريم الثورات الاجتماعية التي تعصف بالصالح والطالع؛ فمن خلال التذكير بالواجبات والبحث على ترك المنكرات وبيان المبادئ الأساسية التي ينبغي مراعاتها - ينشط التبادل الاجتماعي الذي من طبيعته الإحساس المبكر بتأزمات المجتمع واحتقاناته، كما أنه يؤمِّن نوعاً من التوجيه للحركة الاجتماعية في مساقات محددة.
- ٣ - إن البلاغ المبين يُعلم الناس تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ودينهِم ومجتمعِهم؛ وما أصيَّبت الأمم بداء أخطر من فقد الشعور بالمسؤولية. ومن خلال الدعوة يتمكن الناس من معرفة ما يجب عليهم أن يفعلوه، وفي الوقت نفسه الثمن الذي عليهم أن يدفعوه إذا هم لم يستجيبوا، ومن خلال هذا وذاك تولد الشخصية وفضيلة الشعور بالمسؤولية. ومن غير القيام بحق الدعوة والبلاغ يسود نوع من السُّبات والترهل في الوعي والإدراك، ونوع من الضبابية في علاقات الناس ببعضهم بعضاً.
- ٤ - إن البلاغ المبين هو سفينة النجاة من أهوال تفسخ المجتمعات وانحلالها؛ إذ إن أضر ما يلحق المجتمعات من أذى هو تراكم الأخطاء وتحول العادات والتقاليد إلى شعائر وعبادات، وانتشار البدع والأنماط الخاطئة؛ مما يؤدي في النهاية إلى أن يفقد المجتمع الإحساس بهويته وأصالته.
- ٥ - الدعوة تغرس في حُسْن الناس وعقولهم وجود مرجعية عليا مطلقة

و(لا بشرية) توجهم، وترشدهم، وتؤطر تفكيرهم؛ وعندما تعم الفوضى، وتندرس عالم الطريق يجدون فيها شاطئ الأمان، وصلابة اليقين.

٦ - إن أمة الإسلام لا تملك اليوم من الإمكانيات العادلة ولا من النفوذ العالمي ما يمكنها من فتح مجالات حيوية خارج حدودها؛ والشيء الوحيد الذي يمكن أن يلفت انتباه العالم إليها هو الدعوة والمضامين الحضارية الفريدة التي تحملها. إن إهمال أمة الإسلام للدعوة شوه وجهها العالمي، وحرمتها من الشعور بالتألق والتميز الذي كان من الممكن أن يكون لها وحدها. أليس من الغريب العجيب أن تُدعى أمة لتسلّم مفاتيح العواصم والمدائن، فتابى، ثم تتسلّم كوخاً !!

إن القيام بالدعوة - مهما تكن النتائج - شرف عظيم؛ لكن نجاح الدعوة في الوصول إلى أهدافها لا يتم بمجرد وجود آية دعوة، وإنما يحتاج إلى شروط عديدة يجب توفرها في شخص الداعية وأسلوبه، وفي نفس المدعو أيضاً، إلى جانب نجاعة الوسائل المستخدمة حتى تؤتي الدعوة ثمارها، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً. وسنعرض في الصفحات التالية أهم تلك الشروط والمواصفات.



(٢) أسلوب الداعية

في عصرنا الحاضر تكاثفت الأفكار والمعلومات إلى حد لم يكن يخطر حدوثه في بال أحد، وكان من التأثير المباشرة لغزارة المعرفة عجز كثير من الناس عن الحكم على صحة الأفكار والمعلومات التي يطلعون عليها؛ وحتى يحصلوا على شيء من اليقين، فإن الطريق الأقرب والأسهل كان بناء موقفهم من صلاحية ما يسمعون على معرفتهم وثقتهم بصاحب الفكرة أو الرأي. ولا يعني هذا بالطبع غض الطرف عن ذاتية المعلومة، ومدى استحواذها على عناصر القبول المجردة، وإنما يعني عدم التدقيق والتفتيش فيها، والركون إلى الصورة الذهنية المنطبعة عن قائلها أو الداعي إليها.

هذه الوضعية ليست جديدة في الحقيقة، لكن شريحة المضطربين إلى التلبس بها صارت واسعة جداً.

والنتيجة النهائية لهذا هي اكتساب شخصية الداعية وسمعته وتكونيه الداخلي ومظهره وكل ما يتصل به ويلابسه من وظيفة ومسكن وعلاقات... اكتساب كل ذلك أهمية استثنائية تسهل وصول الرسالة الدعوية أو تعوّقه، وتحمّلها مزيداً من المصداقية أو تشهدها، وتجعل نتائجها عكسية. وبناء على ذلك فإن قلم الداعية ولسانه لم يعودا الوسيلة ذات الأهمية الوحيدة في هداية الخلق وإرشادهم، وإنما انضم إلى ذلك بشكل قوي وسائل عديدة، سماها علماء الاتصال (وسائل الاتصال غير اللغطي). وستقدم في الصفحات التالية بعض القواعد واللاحظات حول أساليب الاتصال اللغطي والاتصال غير اللغطي على النحو التالي:

أولاً: أسلوب الاتصال اللفظي :

عني بالاتصال اللفظي كل أشكال التعبير المنطوق التي تعتمد اللغة في إيصال بعض الأفكار والمفاسيم إلى الآخرين. ولعلنا نستجلب بعض الأسس والسمات التي تساعد في نجاح الخطاب الدعوي ووصوله إلى غاياته المنشودة في المفردات التالية:

١- التكامل:

يشير الشخص الإعجاب حين يجتمع فيه ما تفرق في غيره. والداعية الناجح هو الذي يجمع في خطابه وأسلوبه بين ثلات سمات أساسية هي: العاطفة والعلم والفكر. وغياب أي منها يجعل الخطاب غير متوازن، و يجعل تأثير الداعية محدوداً وربما يسبب ذلك نوعاً من التشوه في ثقافة المخاطبين والمدعوين إذا اتّخذ أشكالاً حادة، ودام مدة طويلة.

ووظيفة العاطفة في الخطاب توليد شيء من الطاقة في نفوس المدعوين وإثارة حماستهم، وتعاطفهم مع الفكرة التي يعرضها. ومهما انحصر المجال الروحي للشخص، ومهما كانت درجة (عقلانيته) عالية فسيظل للخطاب الممزوج بشيء من العاطفة رونقه وتأثيره في نفسه.

أما العلم في ينبغي أن يكون صلب الرسالة الدعوية؛ فالتركيب العقلي للناس اليوم يميل إلى دفعهم نحو الاستقلال الشخصي، ومحاولات إدراك الحقائق بصفة ذاتية، ولا شيء يتحقق ذلك كالمعلومة الصحيحة المؤثقة. وقد كانت الفلسفة فيما مضى (ملكة العلوم) حيث كانت محاورة الطبيعة ضعيفة، وكان تمثل القضايا والمشكلات وحلّها يتم من خلال الذهن، والخيال المجرد. أما اليوم فإن (الإحصاء) هو ملك العلوم، وله في نفوس الناس مكانة خاصة، ويلحق به الدراسات المؤثقة التي تكشف عما هو كائن في المجالات المعرفية المختلفة، فاعتمادها في الأسلوب الدعوي مطلب ضروري اليوم.

ومن العلم الذي يحتاج إلى تدعيم (العلم الشرعي). وتدعيمه يكون

بذكر أدلة المسائل والأحكام والآراء التي يطرحها الداعية على الناس. وقد غبر على الأمة زمان كثُر فيه سوق الأحكام مجردة عن الأدلة، فأورث ذلك نوعاً من الجفاف فيها، وساهم في إشاعة التقليد، وإضعاف روح الاجتهاد والنظر والتأمل والترجيح.

وقد كان للدعوة السلفية المعاصرة فضل لفت أنظار الناس إلى هذه القضية، مما يحسب لها في موازين التجديد الحضاري.

أما الفكر في الخطاب الدعوي، فإنه أداة يستخدمها الداعية في تحليل الظواهر وتحليلها والربط بينها. ويحاول الداعية من خلال نماذجه الفكرية الخاصة بناء عقلية منهجية قادرة على النقد والتجاوز واستشراف المستقبل والفكاك من أسر النمطية والطبيعة والتاريخ، وكشف زغل العلم وتزيّدات الأخبار وتقويم الصور الذهنية الموجّة التي تتشكل لدى الناس من خلال تراكم العادات والتقاليد.

٢ - التوازن:

هذه الخصيصة من أهم الخصائص التي علينا أن نراعيها في مخاطبتنا للناس، وذلك لأن الداعية لا يخاطب شريحة واحدة ذات مستوى واحد، أو ذات حاجات محددة من البيان والمعرفة والتذكير؛ ومن ثم فإن التوازن بين جميع جوانب الخطاب يجعل الشريحة المستهدفة أوسع، ويجعل الاستجابة والتفاعل من قبل السامعين أكثر. ومن جملة ما ينبغي مراعاة التوازن فيه ما يلي:

أ - التوازن في المزج بين العلم والفكر والعاطفة؛ فلا يطغى واحد منها على الآخر إلا لوجود مقتضٍ خاص. فالناس - بصورة عامة - بحاجة إلى هذه العناصر الثلاثة في آن واحد. وحين يجتمع الداعية إلى أحدها، ويهمل الباقى فإنه يخسر شريحة من المدعوين لا تجد حاجتها فيما يقول، كما أن مما يلحق الضرر بسمعة الداعية تشكُّل صورة ذهنية عنه بأنه عاطفي في خطابه أو عقلاني أو حرفى أو جاف الأسلوب....

لكن إلى جانب هذا لا بد من القول: إن حالة المدعىون أو طبيعة الموضوع موضوع الخطاب، قد تفرض الميل إلى التركيز على أحد هذه العناصر، فحين يكون الموضوع متعلقاً بشرح مسألة فقهية أو عقدية - مثلاً - فإن مجال العاطفة والفكر يكون محدوداً؛ وحين يكون الحديث منصباً على معالجة مشكلة اجتماعية أو تاريخية أو اقتصادية فإن الحاجة إلى العاطفة قد تكون محدودة وهكذا... .

ب - التوازن في تناول الموضوعات:

حاجات الناس كثيرة اليوم، وما يحتاج إلى إثراء وتقويم وتصحيح في أفكارهم وسلوكياتهم متعدد الجوانب، ومهمة الداعية أن يدرك ذلك بشكل جيد. وضمن تنوع حاجات الناس هناك أولويات أيضاً وخصوصيات لكل أهل بلد أو أهل حي. والناس يحتاجون - بشكل عام - إلى من يذكرونهم بالأخرة والمصير النهائي لهم، كما أنهم بحاجة إلى من يعلمهم العقيدة الصحيحة وبعض الأحكام الشرعية الضرورية لاستقامة سلوكهم. وهم إلى جانب ذلك محتاجون إلى من يبصرون بما يحقق السعادة والكرامة لهم، ولأمة الإسلام، وبما يساعدهم على تجاوز المشكلات التي يعانونها من الفقر والبطالة والجهل والكسل والفوضى والظلم وعدم فهم روح العصر الذي يعيشون فيه. ولا بد للداعية أن يتحسس كل ذلك، وأن يحاول بناء مضامين رسالته الدعوية عليه. والذي نشاهده اليوم ميل كثير من الدعاة إلى طائفة من الموضوعات التي تغطي جانباً من الجوانب التي ذكرناها دون الجوانب الأخرى. فمن الدعاة من يهمل شأن الفقه، ويركز على الوعظ، ومنهم من يركز على شئون الدنيا، ويهمل الحديث عن الآخرة.

ومن الدعاة من خاض معارك سياسية وانتخابية، فسخر منابر الجمعة للمهارات والمناورات السياسية وأهمل الجوانب الأخرى..

وي بعض الدعاة جعل همه الأكبر الحديث عن السحر والشعوذة والجان والشياطين، وجعل منها قضية القضايا، وأقحم الناس في قضايا لا تحتل من اهتماماتهم أي حيز.

إن المشكلة أن بعض الدعاة يرى حاجات الناس الدعوية من منظور ثقافته الخاصة، فالذى يغلب عليه جانب الفكر يشغل الناس بالقضايا الفكرية، والذى يغلب عليه جانب معرفة القصص والتاريخ يركز على الوعظ والأخبار وترجم الرجال وهكذا... .

إن الرؤية الشاملة لحاجة الأمة عامة، وحاجة جماعة المستهدفين بالخطاب خاصة أمر حيوى وضروري لخطاب متوازن كاف واف.

ج - التوازن على مستوى اللغة المستخدمة:

المشكلة التي يواجهها الدعاة والخطباء، وكل من يساهم في تكوين الرأي العام هي تفاوت مستويات المخاطبين من الأمي إلى أستاذ الجامعة والمثقف الكبير، في ظل الاتساع المعرفي وكثرة المصطلحات وتجدد الأساليب على نحو لم يسبق له مثيل، وهذا أدى إلى اتساع الهوة الثقافية بين الناس وتضاؤل لغة التفاهم المشتركة، ولا سيما على الصعيد النقدي والفكري؛ وهذا كله جعل الداعية في حيرة من أمره في شأن توليف خطاب يناسب الجميع. ونود هنا أن نشير إلى نقطتين:

الأولى: أن استخدام العامية في الدعوة مرفوض مهما كان مستوى المخاطبين والمدعويين متدنياً؛ فالعامية فقيرة في مفرداتها وإشعاعاتها وإيحاءاتها، وهي لا تستطيع التعبير عن المعاني الراقية ولا الأفكار المعقّدة، ويمكن استخدام فصحى قريبة خالية من المصطلحات والكلمات الغريبة بقدر الإمكان.

الثانية: لا بد من أن يكون هناك نوع من الانسجام بين الألفاظ والأساليب المستخدمة وبين المضامين والمعاني المعبّر عنها؛ إذ إن من الإساءة للمعاني الراقية والأفكار الفلسفية والنظريات المعقّدة أن يعبر عنها بلغة هابطة وأمثلة تقترب من البداهة والابتذال، فذاك يحدّ من عطاء الفكر، ويُشوه النظريّة. كما أن التعبير عن المعاني القرية المألوفة بالألفاظ ومصطلحات لا تكون إلا في متناول الخاصة، وخاصة الخاصة بعد من التعمّر والتفاصح

المنكور والمعيب. وقد صرنا نشاهد في الفترة الأخيرة بعض التعبيرات الرنانة الموجهة بأن وراءها شيئاً كثيراً حتى إذا ساق أصحابها أمثلة على ما يقول وجدت أن الجمل تمثّل فولد فأراً.

ويمكن القول بصورة عامة: إن التناسب الأساسي ينبغي أن يكون بين مستوى الأفكار والمخاطبين بها، كما أن نوعية المعلومات تتطلب انسجاماً آخر؛ فالمعاني العقدية والفقهية وألفاظ العقود، وما شابه ذلك تحتاج إلى لغة واضحة ودقيقة حتى لا يساء فهمها، أو تعطي انطباعاً خاطئاً، حيث يجب أن تكون بعيدة عن الخيال والألفاظ الموجبة.

أما في المجال الحضاري وعلى صعيد تصور القضايا والمشكلات الكلية فإن اللغة المناسبة هي اللغة الموجبة المرفرفة التي لا تسجن المعاني، ولا تقيد الأفكار، وإنما تزجّيها إزلاء، وتؤمن إليها إيماء؛ إن الألفاظ علامات على المعاني ليس أكثر؛ وأنذاك فإن حظوظ المخاطبين منها تكون متفاوتة، وكان الواحد منهم يسمع الخطاب بعد مروره بمخزونه الثقافي؛ فيتلون فهمه للخطاب الدعوي بلون ثقافته، فتتفجر طاقات النص عيوناً وأنهاراً لدى بعضهم على حين يحوم آخر حوله دون أن يجترّه، أو يدخل حمّاه.

وكثير من الناس ذوي الثقافة الفقيرة والخيال المحدود يستاءون من ذلك، وربما شكّلوا في اتزان وفهم مبدعه؛ لكن لا أظن أن هناك بدلاً عن ذلك سوى التبسيط، وهو بديل سيء في مواطن كثيرة.

٣ - ترتيب الأفكار:

ثقافة عصرنا خطّت خطوات فساحاً في التنظيم والترتيب المنطقي والاقتصاد في التعبير، ومحاولة الفصل بين القول وحجته، والربط بين الأسباب والمسبّبات والمقدمات والنتائج. وقد أثر هذا في التركيب العقلي لكثير من الناس، وصار من الواجب على الدعاة مراعاة هذا الأمر إلى أقصى حد ممكن، وذلك عن طريق التقسيم للقضية موضوع الحديث تقسيماً منطقياً متوفقاً مع التسلسل المنطقي للمعقولات في أذهان بني البشر؛ فإذا كان

الداعية يتحدث - مثلاً - عن الربا بدأ بتعريفه ثم بأدلة التحرير ثم بصورة المعاصرة أو أكثرها، ثم في بيان الأضرار المترتبة عليه في الدنيا والعقوبة الأخروية التي تنتظر أكليه، ثم دفع الشبه الواردة على التحرير أو بعض صوره، ثم تقديم خلاصة مركزة للنتيجة التي يريد الداعية الوصول إليها. إن هذا الأسلوب في معالجة الموضوعات يسهل على المخاطب الاستيعاب، كما يسهل عليه الاستفسار عن الأجزاء التي لم يستوعبها. والمستحسن إلى جانب هذا أن يحدد المتكلم العنوان الدقيق للموضوع الذي يريد معالجته. والملاحظ اليوم أن كثيراً من الخطباء والدعاء لا يراعي أي ترتيب في خطابه، وربما تساؤل الناس - كما يحدث في بعض خطب الجمعة - عن الموضوع الذي تحدث عنه الخطيب والنتيجة التي توصل إليها والقناعة أو الرسالة التي يريد إيصالها.

ومن اللطيف في هذه الصياغة المرئية حسن الانتقال وسلامة الوصل بين أجزاء الموضوع.

٤ - المشاركة:

عصرنا الحاضر أكسب شخصيات أبنائه نوعاً من الاستقلال الشخصي والوعي بالفرد، ومع أن لهذا ميزات عديدة إلا أنه أوجد نوعاً من الوحشة بين الناس، كما أوجد إحساساً باتساع المجال الخاص لكل منا، والتوجس من كل من يحاول التأثير في غيره، وصار اتخاذ موقف ما مضاداً للحياد. وهذا في الحقيقة يوجب على الداعية استخدام صيغ المشاركة بدل الصيغ الدالة على الذات، أو تلك التي تجعل المخاطب كأنه في جبهة مضادة للمتكلم؛ مما يوجد حواجز نفسية بين طرف في عملية الاتصال، وربما عُد ذلك نوعاً من الخروج عن اللياقة المطلوبة.

ومن هنا فإن علينا أن نستخدم لفظ (نحن) أو كلمة (الناس) أو (العالم) أو (المسلمون) بدل لفظ (أنا) و(أنت) و(أنتم) و(جماعتي)... وربما سانع ذلك في بعض السياقات الخاصة. والمقصود من استخدام صيغ المشاركة إحداث نوع من الدمج الشعوري بين المتكلم وسامعيه، وأحياناً يتم هذا

الدمج من خلال بعض الألفاظ المتسمة بالتودد من مثل (إخواني) و(أيها الأحباب) و(أيها السادة) . . . وهو شيء طيب ما لم يتجاوز حدوداً معينة، فيفسر على أنه تملق أو استجداء لاصفائهم وسماعهم.

ومن أنواع المشاركة المطلوبة اليوم تركيز الداعية على الأرضيات المشتركة بدل التركيز على نقاط الخلاف وأوجه التغاير. ومن الملاحظ في هذه السبل أن بعض الدعوة يملا خطابه بصيغ الرفض والنفي، وكل ما يدل على عدم الموافقة مع أن بلورة المشترك والمسائل المتفق عليها ستؤدي بالضرورة إلى محاصرة الأفكار والسلوكيات غير المرغوب فيها.

٥ - الرفق والكياسة:

مضت سنة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على الرفق في الخطاب والمجادلة والتي هي أحسن استجابة لأمر الله - سبحانه وتعالى - وسعياً في جذب القلوب نحو الكلمة الطيبة، وقد أمر الله موسى وهارون - عليهما السلام - بالرفق بفرعون حين قال: ﴿أَذْهَبَا إِلَّا فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قُوَّلَا لَتَّا لَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(١) وفي الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»^(٢)، وفي حديث مسلم: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وهم بحاجة إلى من يواسיהם لا من يعنفهم. علينا ألا ننسى أن البشر مخلوقات عاطفية تجذبهم الكلمة الطيبة وينفرهم التوبيخ والتقرير، وعند كل واحد منهم من الاعتداد بنفسه ومواهبه وإمكاناته ما يجعله يرى في الكلمة القاسية عدواً على كرامته ومجاله الخاص. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق ما يحتاجه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر: «فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي والرفق معه والصبر بعده . . .». وهذا كما جاء في الأثر عن

(١) سورة طه: الآياتان ٤٣، ٤٤.

(٢) أخرجه الشيشخان.

بعض السلف، ورووه مرفوعاً: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه؛ رفيقاً فيما يأمر به؛ رفيقاً فيما ينهى عنه؛ حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه»^(١).

والداعية إلى جانب إثارة الكلمة الرقيقة والأسلوب العذب يؤثر أيضاً التشبيهات الجميلة، ويبعد عن الأمثال والتشبيهات القبيحة أو المنفرة؛ وقد سمعت مرة أحد الدعاة يشبه وجه حاتق اللحية بالعجز!! كما سمعت آخر يشبه لاقطات (التلفاز) على أسطح المنازل بالرایات التي كانت تنصبها المؤسسات على بيوتها في الجاهلية!! وهذا كلام الصمت خير منه بكثير!

إن قولنا: هذا خلاف الواقع يؤدي عين المعنى الذي يؤديه قولنا: هذا كذب، لكنه أرفع وألطف. وإن قولنا: ما رأيكم لو عملنا كذا ألطف من قولنا: اعملوا كذا، وكفوا عن كذا...

إن صيغة الأمر والنهي لم تعد مقبولة في كل موضع؛ فالحضارة الحديثة وسعت دائرة الخصوصيات والحرية الشخصية إلى أبعد حد ممكن، وإن من واجبنا أن نشعر المخاطب أننا لا نعتدي على أي منها.

٦ - التعويل على المناقشة:

عند العودة إلى تراثنا نجد أن أسلوب الحوار والمناقشة والمراجعة كان هو الأسلوب الأكثر انتشاراً في الحلقات العلمية؛ والفقه الحنفي بشكل خاص شهدت بدورته الأولى محاورات واسعة جداً بين الإمام أبي حنيفة وبباقي أصحابه، بل إن العودة إلى ما قبل ذلك إلى عهد النبي ﷺ توقفنا على أن كثيراً من أحاديثه ﷺ تفيض بمراجعة أصحابه رجالاً ونساءً مستفسرين عن معنى كلمة أو مستوضحين عن مسألة. وحين تراجعت جذوة حب المعرفة في نفوس المسلمين، ودخلوا في عصور التقهقر ساد أسلوب التلقين، وصارت عملية الاتصال الدعوي تقوم على طرف واحد هو الداعية

(١) الفتاوى ٢٨ : ١٣٧

أو الخطيب أو المعلم، وكان لهذه الحالة أسباب عديدة، لعل من أهمها ضعف سوية المتكلمين، حيث لا يمتلكون أية خلفية عما يقال لهم، وبالتالي فإنهم غير قادرين على المناقشة. وقد يكون من تلك الأسباب عجز الداعية أو المحدث عن إثارة حماسة المخاطبين واستخراج الفضول لديهم بسبب طبيعة الأسلوب الذي ينتهجه أو بسبب عدم اشتغال كلامه على شيء من الطرف الجديد الذي يستحق التساؤل والتحاور؛ إذ إن الواضح اليوم أن كل ما هو معروف يكرر، وكثير مما يحتاج إليه الناس لا يسمعونه؛ مما يورثهم الملل والسامة.

إن تشجيع الناس على طرح الأسئلة، وإبداء الرأي حول مختلف القضايا أمر في غاية الأهمية؛ لأن ذلك يبني نفسية المشاركة وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إحداث القناعة بالرسالة الدعوية، بل القناعة بأية فكرة مطروحة مهما كان نوعها. وقد حدث أن أعطيت تعليمات بضرورة تكثيف العمل في أحد المعامل؛ فلم يؤد ذلك إلى زيادة تذكر في الإنتاج؛ على حين أن معملاً آخر جرت فيه مناقشة بين أرباب العمل والعمال حول ضرورة زيادة الإنتاج وفوائدها، والأضرار التي ستلحق بالجميع إذا لم يحصل ذلك؛ فارتفع الإنتاج بشكل كبير^(١).

إن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى تدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة بدل ما يحصل الآن من الحرث على صمتهم واستماعهم لما يلقى عليهم. ولخصوصية خطبة الجمعة، فمن الممكن أن يجلس الخطيب دقائق بعد صلاة الجمعة لمناقشة بعض المسائل التي وردت في الخطبة والاطمئنان إلى أنها فهمت على الوجه الصحيح، ولسماع وجهات النظر.

(١) علم النفس الاجتماعي: ١٧٠.

٧- الجاذبية بدل القسر:

إن نجاح الداعية في جعل ما يقوله للناس يستقر في نفوسهم، ويتجدد في سلوكهم وحياتهم اليومية دون شعور بالكلفة أو العناء - يتوقف إلى حد كبير على ما يمتلكه الداعية من براءة وجاذبية؛ فالقيم الخيرة - عامة - لا تفرض على الناس فرضاً، لكنها تجذبهم إليها جذباً، فيتمثلونها، ويضطرون في سبيلها عن طيب خاطر وخضوع تام. وجاذبية الداعية تكمن في التكامل بين جوانب شخصيته وأسلوبه وموضوعه والظرف الذي يتحدث فيه وشعور الناس بالحاجة والارتياب لما يقال... لكن بما أن مشاعر الناس وعواطفهم وحماستهم ليست أشياء ثابتة جامدة، ومن ثم فإن من ذكاء الداعية أن يعرف متى يجب عليه التوقف عن الكلام. إن جاذبية الداعية لا يمكن أن تكون كلها كسبية، فهناك الموهبة الربانية الكامنة في عمق شخصية الفرد من اللطف وسعة الصدر وكرم النفس والتحمل والذوق والحكمة... لكن هناك أشياء كثيرة يمكن للداعية أن يتعلمها ويتكتسبها.

من الملاحظ أن بعض الدعاة يفرضون نفسه فرضاً على الناس، فيستغل اجتماعهم في صلاة الجمعة أو على طعام أو آية مناسبة فيها نوع من الإلزام بالحضور؛ ليحدث الناس بما يرى حاجة الناس إليه ملحة. ونحن لسنا ضد الاستفادة من اجتماع الناس للفت نظرهم إلى بعض الأمور لكننا ننبه إلى أن الناس تظل أذهانهم مشدودة نحو الهدف الذي حضروا من أجله، ومن ثم فإن شغل وقتهم بأي شيء آخر يعد في نظرهم نوعاً من الفضول أو التطفل. ومن ثم فإن الحديث ينبغي أن يكون مناسباً لما حضر من أجله الناس، وأن يكون مما يمس أولوياتهم، وأن يكون إلى جانب ذلك موجزاً مختصراً.

إن فرض الداعية نفسه على الناس بدل جذبهم يعد مؤشراً هاماً على ضعف نجاحه في مهمته. وهذه المشكلة في الحقيقة ليست مشكلة الدعوة وحدهم لكنها أيضاً مشكلة الحضارات والدول والأحزاب والجماعات... وحين حاول أرنولد تويني إيجاز طبيعة انهيار الحضارات ذكر عوامل عدة من جملتها: قصور الطاقة الإبداعية وقد فقد الجاذبية لدى القلة التي تقود المجتمع

فليجاؤن إلى استخدام القوة في ضبط الكثرة العاطلة من المبادرة والإبداع^(١).

٨ - الاقتصاد:

مجالات القول لدى الدعاة فسيحة ومتسعة والمناسبات التي تدعو إلى الكلام كثيرة متزايدة. وقد جرت العادة أن تنصب الثقة على بعض الدعاة من لدن الناس؛ فيدعون إلى الحديث بمناسبة وغير مناسبة. وإشارات الإعجاب والاستحسان التي يتلقاها الداعية ربما دفعته إلى الاستجابة والإطالة فيقع في آفة التكرار والاستطراد والسطحية؛ وذلك لأن الكلم كثيراً ما يكون على حساب الكيف، وكثرة الكلام تعرض الأفكار والصور والمعاني التي عند الداعية للنفاد، ويصبح الجديد لديه نادراً. فلا بد من ترك وقت جيد للقراءة من أجل إثراء الحصيلة المعرفية وتتجديدها لدى الداعية؛ لأن ذلك يشكل جزءاً مهماً من جاذبيته ونجاحه. ثم علينا أن نعلم أن الأمة اليوم بحاجة ماسة إلى النمط الأعلى من كل شيء؛ فتحن اليوم نعاني من فقر الكيف والنوعية، لا الكلم والكثرة.

وهناك نوع آخر من الاقتصاد أراه ضرورياً لتوازن الخطاب الدعوي، وهو لزوم الواقعية وعدم المبالغة في تصوير الأمور على صعيد الواقع أو بيان الخصائص أو تحديد المشكلات أو بيان ثواب الأعمال أو عقوباتها؛ فتجاوز حدود القصد في أي من هذه المجالات يدفع طائفة من الناس إلى الوضع المعاكس، وقد رأينا أن أنساً كرهوا بعض الشيوخ لكثرة ثناء طلابهم عليهم؛ وهناك جماعات أعرض الناس عنها لكثرة ثنائها على نفسها.. وينظر اليوم إلى الذين يبالغون في مدح الأمة، أو يبالغون في ذكر الثواب والعقاب - ينظر إليهم نظرة لا تخلو من الاستخفاف والاتهام بالقصور والعيش في الأوهام. وكان علماء الحديث - وهم أدق الناس منهجة لدينا - قد جعلوا من أمارات وضع الحديث اشتغاله على ذكر الثواب العظيم للعمل القليل، والعقاب العظيم على الجرم الصغير؛ لأن ذلك ليس من هدي النبي ﷺ ولا

(١) مختصر دراسة التاريخ ٤١٢: ١.

من شرعة الإسلام. الكراهة للمبالجة تؤكدها الثقافة المعاصرة الميالة إلى الرؤية الشاملة للأمور والنزاعة نحو النقد في كل اتجاه؛ ولا أرى أن من الحكمة تجاهل ذلك.

٩ - ختم الرسالة الدعوية:

هل يختتم الداعية بدعاية صريحة للسامعين لتبني الأفكار أو القضية التي حدثهم عنها، وهل يذكر بعض نتائج خطابه، وهل يذكر ملخصاً لأهم ما قيل فيه؟ هذه أسئلة عديدة يطرحها كل واحد منا على نفسه. الحقيقة أن ذلك يتوقف على طبيعة الموضوع الذي يتحدث فيه، وعلى مستوى المخاطبين أيضاً.

فالدعوة الصريحة الملحة للتعاطف مع الأفكار التي يعرضها الداعية تكون مقبولة كلما كان مستوى المخاطبين متدنياً، وكلما كان الموضوع المعروض بعيداً عن القضايا الشخصية للداعية. أما إذا كان المخاطبون على مستوى عال من المعرفة والعلم والمكانة الاجتماعية فإن الإلحاح يكون غير مناسب. كذلك إذا كان هناك نوع من المصلحة الخاصة للداعية فإن الأولى العرض وعدم الإلحاح، ويقول نحو من هذا في تلخيص الكلمة أو الخطبة وذكر النتائج المستفادة منها؛ فليس من المناسب فعل ذلك أمام المثقفين ذوي السوية العالية لأن في ذلك نوعاً من الاتهام لفطنتهم. أما أمام العامة وأشباههم فإن ذلك يكون عملاً جيداً ومطلوباً؛ إذ ربما لا يرسخ في أذهانهم سوى الخلاصة التي يذكروا لهم، ويمكن أن يقال نحو من هذا أيضاً في أسلوب عرض وجهة نظر أخرى مغايرة لما يقوله الداعية بعد أن يكون فرغ من شرح وجهة نظره. وفي هذا المقام يمكن القول: إنه ليس من المناسب تشتيت ذهن السامع العادي بذكر وجهات نظر عديدة؛ إذ إن ذلك قد يضره أكثر مما ينفعه، ولا سيما أنه ليس مؤهلاً للموازنة والترجيح بين اتجاهات الآراء فيما سمع.

أما إذا كان المخاطبون من الصفة فإن عرض وجهة النظر الأخرى يكون تعبيراً عن سعة الاطلاع وعن الموضوعية وعن احترام السامعين حيث

يترك لهم حرية اختيار ما يرون مناسباً وأقرب إلى الصواب. والداعية بفهمه الثاقب وحسه المرهف يميز بين هذه الأحوال المختلفة، ويستخدم لكل حالة ما يناسبها.

١٠ - صمت الداعية:

ربما كان التدفق في الحديث في بعض مراحل تاريخنا علامة على تمكن المتحدث من موضوعه وعلامة على نباهته وذكائه. كما أنها في يوم من الأيام ربما كنا نجد لا يترك الداعية في أي مجلس من المجالس شاردة ولا واردة دون أن يعلق عليها، أو يبين موقف الإسلام منها. وربما كان ذلك مستساغاً آنذاك أو كانت معرفتنا بمدى صوابه محدودة.

أما ثقافة اليوم السائدة فإنها تتجه إلى عدم تحبيد السرعة في الكلام، وإنما التكلم بتؤدة وأناء، وجعل بعض السكتات تخلل الكلام، وفي ذلك فرصة للمتحدث كي يركز أفكاره، ويختار عباراته لكن فترة الصمت يجب ألا تطول؛ فيسام السامع.

أما تقرير الداعية المشاركة في الحديث والتعليق على ما يسمع أو الإعراض عن ذلك، ولزوم جانب الصمت فإن هذا محكوم أيضاً بالظرف السائد في المجلس؛ وفي نظري أن محاولة الداعية توجيه الحديث نحو شيء مفيد يعد أمراً طيباً، لكن علينا أن نحذر من السيطرة على المجلس وحرمان الآخرين من المشاركة. ولعل أفضل وضعية هي أن يتولى الداعية تنظيم الحديث وتداوله بين الحاضرين، وإذا استطاع الداعية أن يؤجل إبداء وجهة نظره؛ ليكون آخر المتكلمين فإن ذلك أمر حسن حتى يستطيع استمزاج الآراء ومعرفة مستوى الحاضرين . . .

ولعل من الحالات التي يستحسن فيها صمت الداعية شعوره بأن الحديث وصل إلى مستوى يهدد تضامن أهل المجلس، وذلك حين يتناول قضايا خطيرة أو شخصية جداً. كذلك شعور الداعية بأن الحوار أخذ طابع الجدل العقيم الذي لا ينطلق من دليل أو يبني على معلومات صحيحة.

إن المتحدث الجيد هو في الأصل مستمع جيد، وعلينا أن نتعلم فضيلة الصمت كما نتعلم الكلام، وكثيرو الكلام يحرمون عادة من معرفة رأي الآخرين والمعلومات التي لديهم، وربما يتورطون في قول كلام يضطرون إلى التراجع أو الاعتذار عنه بعد قليل.

وعلى كل حال فإن من الضروري ألا يعطي الداعية انطباعاً بأن صمته عبارة عن عجز أو سلبية أو عدم اهتمام.

هذه الملاحظات التي أبدينها على الاتصال اللفظي لا يمكن أن تكون شاملة لكل ما يمكن أن يقال؛ لكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ثانياً: أسلوب الاتصال غير اللفظي :

بدأ في الخمسينيات من هذا القرن الاهتمام بالاتصال غير اللفظي، وكان لعلماء علم الأجناس وعلماء علم النفس وعلم النفس العلاجي خاصةً الفضل في تنميء أشكال الاتصال غير اللفظي^(١). ويقصد بالاتصال غير اللفظي كل المظاهر والحركات والأدوات والملابس، وما شاكل ذلك مما له علاقة بشخصية المرء وواقعه السلوكي. والحقيقة أن المسألة ليست جديدة؛ ففي القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص عدة تدعو إلى استخدام الاتصال غير اللفظي بطريقة تعبر عن القيم الإسلامية المختلفة، وتكميل الرسالة اللغوية التي يتبناها المسلم باعتباره قائماً بالحق وداعية إليه؛ فعفة المسلمة تقتضي منها عدم إلامة القول والخضوع به حتى لا تعطي انطباعاً خاطئاً، وتواضع المسلم وخوفه من الله يمنعه من أن يطيل ثوبه ويجره خيلاً حتى لا يفهم منه الآخرون خلاف ما يدعوه من العبودية لله تعالى وهكذا^(٢).

إن الاتصال غير اللفظي يعطي انطباعاً راسخاً للناس عن حالة الداعية التي يتبعس بها؛ وحين يتتطابق قول الداعية مع سلوكه ومظهره فإن المظهر

(١) انظر مقالات في الدعاية والإعلام الإسلامي: ٨١.

(٢) انظر السابق: ٨٢، حيث ساق آيات وأحاديث عديدة حول هذا الموضوع.

يعزز فرص القبول لما يقوله الداعية؛ وحين تتناقض الرسالة اللفظية مع الرسالة غير اللفظية فإن الناس يميلون إلى تصديق الرسالة غير اللفظية؛ ومن ثم قالوا: لسان الحال أبلغ من لسان المقال. وكثير من بقاع العالم الإسلامي لم يفتح بالسيف ولم يذهب إليها الدعاة والعلماء، لكن ذهب إليها التجار الذين هم إلى العامة أقرب؛ لكن سلوكهم ومعاملتهم وسمعتهم كان منار هداية للأمم التي سافروا إليها. وبالإمكان أن نذكر أن أنماط الاتصال غير اللفظي ما يلي:

١ - سمعة الداعية:

لا يخفى أن قيمة ما يقوله الداعية ممتزجة في نظر أكثر الناس بما يسمعونه على الصعيد المعرفي وعلى الصعيد السلوكي؛ فأكثر الناس عاجز عن تثمين وتقويم ما يسمعه؛ وعن الحكم على مدى صوابه ونفعه؛ ومن هنا فإن ما استقر في أذهانهم، وما انطبع في نفوسهم من صور عن داعية بعينه يعدّ ذا أهمية بالغة في تفاعلهم مع ما يقوله الداعية واستجاباتهم له. فإذا عرف الناس أن داعية ما لا يحرض على صلة الجماعة - مثلاً -، ثم رأوه يلقي درساً حولها فإن رد الفعل لديهم سوف يكون غاضباً ومعبراً عن اليأس والإحباط. وفي المقابل فإن الصورة الذهنية المنطبعة إذا كانت ترسم داعية غزير العلم أو شديد التدقيق والتحقيق فإن الناس سوف يتلقون ما يقوله بالقبول والإعجاب وهكذا...

وتتعقد الظاهرة حين يكون الأسلوب الذي يعتمد الداعية هو الإكثار من الوعظ والأمر والنهي وتبيخ الآخرين وزجرهم؛ حيث تتوجه الأذهان مباشرة إلى تلمس ما عسى أن يكون في حياته من ثغرات ونقاط ضعف. إن المثالية التي يزرعها بعض الدعاة قد تسبب أضراراً لكثيرين، وأولهم هم الدعاة أنفسهم!

٢ - المظهر:

لم يأت على البشرية يوم آثرت فيه القبح على الجمال أو الفوضى على

النظام أو القذارة على النظافة؛ لكن الذي يتعرض للمد والجزر هو درجة الاهتمام بهذه المسائل. ومن الملاحظ أن الخواء الروحي الذي تعاني منه البشرية إلى جانب ضمور الأصالة، وكثير من المعانى النبيلة أدى إلى الاتجاه نحو المظهر وإعطائه أهمية متزايدة، وصار المظهر بحق كافياً لتكوين الانطباع الأول؛ فإذا كان الانطباع إيجابياً تطلع الناس إلى مضمون إيجابي، وإذا كان سلبياً فإن الناس آنذاك لا يتوقعون الكثير، بل إن ما سيصادفونه من فضل وعلم خلف الأسماء البالية سيكون منقوصاً وعند بعضهم معذوم الأهمية.

ومن ثم فإن من هديه وسنته ﷺ لبس الثياب البيضاء والحرص على نظافتها، والحرص على التطيب والتحث عليه وترجيل الشعر ودهنه وتغيير الشيب - بغير السواد - وما شابه ذلك مما هو معروف ومشهور؛ وكل ذلك في الحقيقة مؤشر إلى الاهتمام بالناس والإحساس بالذائقة الجمالية لديهم... هذا الاهتمام بالناس هو الذي يساعد على جلب اهتمامهم بنا وباستحقاقنا العضوية في مجتمع له معاييره الخاصة. يقول مالك بن نبي - رحمة الله -: «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة؛ فإن لمنظارها القبيح في النفس خيالاً أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه.... فالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل، وتوكياً للكريم من العادات»^(١).

٣ - فضيلة الاهتمام:

يعني الاهتمام بإعطاء الداعية كلَّ ما يتصل به ما يستحقه من العناية والمتابعة والصيانة والتنظيم. ويجب أن نقول في البداية إن معايير الناس السادسة حول قضايا كثيرة ليست صحيحة دائماً؛ فقد استقر - على سبيل المثال - في أذهان الناس أن مظهر مسوق بضاعة ما لا يخلو من ارتباط بالبضاعة التي يسوقها؛ ومن ثم فإن لمندوبي المبيعات مواصفات معينة لا بد

(١) مشكلة الثقافة: ١١٥، ١١٦.

من توفرها؛ وإلا كسدت البضاعة. فهل نقوم باختيار مندوبي مناسبين أم نشتغل بتغيير قناعات الناس؟ لا ريب أن الخيار الأول هو الأقرب والأسهل؛ لأنه مضمون النجاح . . .

في زماننا هذا صار الوصم بصفة (الإهمال) من أشنع أنواع الهمز واللمز؛ لأن ذلك يعني الخروج على روح العصر الذي يحبذ الاهتمام بكل شيء مهما يكن عارضاً أو تافهاً. وبناء على هذا فإن اهتمام الداعية بثيابه ونظارته و سيارته ومسكته والمواعيد التي يضربها والانتقادات التي يسمعها والأخبار التي تبلغه . . . إن اهتمامه بكل ذلك مهم جداً في الانطباع الذي يتشكل عنه لدى الناس. ومن ثم فإن علينا أن نلاحظ ذلك بدقة لكن يقال إلى ضده؛ وأمنتنا أمة التوسط والاعتدال في كل أمر. وقد أظهرت بعض الدراسات أن الأفراد الذين يهتمون اهتماماً زائداً بملابسهم هم في الغالب أناس متمسكون بالعادات والتقاليد، مثابرون متشككون وغير مستقررين؛ كما أنهم لا يثقون بأنفسهم. على حين وُجد أن الأشخاص الذين يقتصدون في ثيابهم هم من النوع الذي يتحمل المسؤولية، وهم نشطون ذوو كفاءة، كما أنهم «دقيقون وأذكياء»^(١).

إن المهم هو إعطاء انطباع بالاهتمام والعناية بكل ما يمثل نوعاً من الاتصال والتواصل بيننا وبين الآخرين.



(١) الاتصال والسلوك الإنساني: ١٩٣.

(٣) التلاقي مع وضعية المدعاو وظروفه

مهما وضعنا من مواصفات للأسلوب الجيد القادر على البلاغ المبين، فإن قدرأً كبيراً من نجاح ذلك الأسلوب يتوقف على ملائمة للمخاطبين وموافقتهم لاستعدادتهم وثقافتهم وأمزاجهم وظروفهم . . .

وليس إدراك ذلك بالأمر الهين؛ حيث يواجه كل واحد منا ظروف الحياة بصورة منفردة؛ وبالتالي فإن لكل منا وضعية الفريدة التي تستحق الانتباه والعناية والدرس؛ وإن ثقافة الناس تتعرض للتغيرات سريعة جداً؛ وقد صار التعرف على ما يرغب الناس في سماعه والأسلوب الذي يرتأحون إليه علماً من العلوم وفناً من الفنون؛ بل إن مراعاة ثقافة الناس وأمزاجهم صارت ذات أثر بالغ في القدرة على المنافسة الاقتصادية؛ فعلى مدى العشرين سنة الماضية تراجعت حصة الصناعة الأمريكية من السوق العالمية ست نقاط على حين زادت حصة الصناعة اليابانية ١٥ نقطة. وحصة أمريكا في السوق من الأدوات الآلية - وهي السلعة التي تحدد القدرة التنافسية لأي بلد - تراجعت من ٢٥٪ إلى ١٥٪ خلال ثلاثين عاماً، بينما زادت حصة اليابان من صفر إلى ٢٢٪!! ويعزو بعض المفكرين ذلك إلى بنية العقلية الأمريكية وبنية العقلية اليابانية، حيث تنطلق أمريكا من عقلية تقليدية ملخصها: ما سنتتجه سوف يستهلكه الناس على حين أن اليابان تقول: ننتاج ما يحتاجه المستهلك^(١). ومن ثم فإنك تلمس التطوير والتنوع في الصناعات اليابانية بما يلبي جميع الأذواق والرغبات وال حاجات، ويبدو أن كثيرين من دعاتنا يؤثرون الطريقة

(١) آفاق المستقبل: ٨٤.

الأمريكية، فلا يلقون أي اهتمام لما ينبغي أن يكون عليه الخطاب المعاصر! ولعلنا نذكر بعض النقاط المضيئة في هذا السبيل في الحروف الصغيرة التالية:

١ - الحديث المباشر والحديث المخمرلي:

ما هو مشاهد في بعض البلدان ميل الناس إلى التحدث بصورة غير مباشرة، ولا سيما في مجال النقد ومجال الخصوصيات، على حين أنها نرى بلداناً أخرى تؤثر الصراحة، والحديث المباشر الذي يضع النقاط على الحروف^(١). ويكون التركيب العقلي والأآلية الإدراكية لدى الناشئة على هذا النحو من خلال التربية والتشبع بالثقافة المحلية. وتبعاً لتلك التنشئة فإن الصنف الأول يتضاعف من الصراحة الزائدة، وإذا لم يتتبه الداعية لذلك فإنه قد يخسر علاقات كثيرة بسببها. ويفيد أصحاب الأسلوب المخمرلي في الخطاب السلبية، ويختفون مشاعرهم وأراءهم وأفكارهم حينما يجابهون بغير ما ألفوه. أما الذين أتوا الأسلوب المباشر، فإنهم قد لا يستوعبون ما يقال لهم بشكل جيد إذا قدم بطريقة ملفوقة. وقد كان من هدي النبي ﷺ في مجال النقد عدم المواجهة، وطالما كان يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. أما في غير مجال النقد فإن على الداعية أن يراعي الخصوصية الثقافية للمخاطبين حتى يتمكن من التأثير فيهم وتبادل الفهم معهم.

٢ - مراعاة مستوى المخاطب:

قدرة الناس على الفهم متفاوتة، وثقافتهم أيضاً متفاوتة والداعية الموفق هو الذي يدرك ذلك ويتحاطب مع الناس على أساسه. وقد روي عن علي رضي الله عنه - أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله». وقال ابن مسعود: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وقال الشاطبي: «وليس كل ما يعلم مما هو حق

(١) نجد هذا وذاك واصحين في مدحبي دمشق وحلب على سبيل المثال.

يُطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علمًا بالأحكام^(١). وقد كره الحسن تحديث أنس للحجاج بحديث العرنين؛ لأن ذلك سهل له سفك الدماء^(٢).

إن بعض الدعاء يصلح في تكوينه الثقافي، وفي أسلوبه لمخاطبة العامة ومتواطي الثقافة، وبعضهم لا يصلح إلا لمخاطبة الصفة، ولو تحدث مع العامة وأشباههم لكان في حديثه من الشبه وإثارة المشكلات أكثر مما فيه من النفع. ومن الصعب على الرجل أن يغير أسلوبه؛ لذا كان من الأولى أن يتوجه كل لما يناسبه، ويصلح له.

٣ - عملية الإقناع اليوم أكثر تعقيداً:

التواصل الكوني العظيم وثورة المعلومات الآخنة في الاتساع وضفت إنسان العصر الحديث ضمن حالة ضخمة من المعلومات والمعارف المتناغمة والمتعارضة؛ مما أوجد نوعاً من البلبلة لدى كثير من الناس، كما أوجد نوعاً من الحررون في قابلية الاعتقاد والتصديق لدى الناس عامة، وعند المثقفين خاصة. وإن ما نطلق عليه اليوم اسم (الرأي) كان الناس منذ خمسة قرون يسمونه (حقيقة). ولم يكن هناك في ذلك الزمن سوى قليل من الأفراد الذين يستطيعون مغادرة قراهم؛ ليعرفوا الفارق بين الحقيقة والرأي^(٣).

هذه الوضعية الجديدة توجب علينا استخدام المنطق والبرهان والخطاب الشري بالمثلة والشواهد المختلفة والمنتزعة من علوم وخبرات شتى حتى نتمكن من نوع من الاختراق والتجاوز لكل الضبابيات والغشاوات التي خلفها تدفق المعلومات على بصيرةبني البشر اليوم.

وعلينا إلى جانب هذا أن نتعلم كيف نصغي لإنسان عصرنا، وكيف نجعله يعتقد أنها مهتمون بما يقوله؛ ذلك لأن المخاطب إذا كان يشعر أن لديه

(١) قيمة الكلمة ومسؤوليتها: .٢١

(٢) قواعد الدعوة إلى الله: .٧٥

(٣) انظر (عندما تغير العالم): .١٢١

ما ينبغي أن يعبر عنه فإنه لن يصغي، ولن يستوعب ما نقوله له إلا بعد أن يفرغ من الإدلاء بما لديه.

٤- إشعار المخاطب بكرامته:

كرم الله ببني آدم جميعاً حيث أرسل لهم الرسل، ومتعمهم بالعقل والاختيار والقدرة على المخاطرة ومجاوزة الرغبات، كما قال - جل وعلا -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَيْتَ عَادَ وَحَلَّتْنَاهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُ مِنَ الطَّيْبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾^(١).

والإنسان مهما كان شأنه ومهما كانت ظروف مهنته يحس بكرامته، ويتحقق إلى من يشعره بأنه كريم، وبأن له ذاتاً محترمة؛ ومن ثم فإن صيغة الخطاب الموجّه ينبغي أن تشعره بأنه مؤهل للصلاح ومستحق للتقدير، وأنه أهم من متع الدنيا الذي لا يجوز أبداً أن يسبب امتلاكه عدواً على أية ذات بشرية. ومن إشعارنا له بالكرامة أن يكون لدينا الاستعداد لرؤيتها كثير من الأشياء من وجهة نظره، أو إشعاره على الأقل بأن له وجهة نظر يمكن أن تكون صائبة. ومن ذلك إبراز جوانب الخير فيه لمن منحه شيئاً من الثقة بنفسه، ونفجر موارد الطاقة التي سيستخدمها في نشاطه الإنساني.

وإننا نعتقد أن النظرة الدونية للأخرين ستجعلنا نخسرهم، وإذا كسبناهم للدعوة فهل سنكسب لها مجموعة من المعوقين أو العبيد، والعبد لا يكر، ولا يفر.

ومن ثم فإن علينا أن نخاطب من ندعوه بأحب أسمائه إليه، وإذا كان له لقب مهنة أو لقب علمي خاطبنا به ما دام ذلك يشعره بكيانه وبكرامته.

٥- تخيير الظرف المناسب:

عند البخاري من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -: «كان النبي ﷺ

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا». وقد علق ابن حجر على ذلك بقوله: ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة، لكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوم بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة؛ ليقبل على الثاني بنشاط، وإما أن يكون يوماً في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط^(١).

قضية الظرف مهمة جداً في موقف المخاطب، ومدى استجابته وتشوقه لما يسمع وفي رفضه وعدم إقباله، ويمكن أن نلمس فيها المسائل التالية:

أ - إن من حصافة الداعية أن يتخير الحالة المناسبة للحديث، فإذا كان المخاطب في حالة نعاس أو في انتظار طعام تأخر عن موعده، أو كان في انتظار خبر مهم، أو في حالة من الكرب الشديد.... فإن استعداد المخاطب لاستقبال المعلومات، والتفاعل معها سيكون معدوماً أو محدوداً؛ وربما عُذر ذلك في نظره نوعاً من الخروج على اللباقة. إن الحاجات الملحة تصرف انتباهنا عن كل ما حولنا بل إنها تؤثر في توازننا العقلي والنفسي؛ ومن ثم كان من آداب القاضي امتناعه عن القضاء إذا كان جائعاً أو حاقناً أو ناعساً...

ب - من الضروري للداعية أن يعرف المعلومات التي يستند عليها طلب المخاطب؛ فيقدمها له في أوانها، وفي الإطار الذي يخدم الدعوة وبالأسلوب الذي يشبع حاجة المخاطب، ويشده في الوقت نفسه نحو القيم والمبادئ الإسلامية.

وقد أجريت دراسة في جامعة (بنسلفانيا) حول انتشار الأفكار، تبين منها ما يلي :

(١) فتح الباري ١ : ١٦٣.

١ - يزداد الطلب على المعلومة عندما يزداد الشك لدى الأفراد حول فكرة من الأفكار حتى يصل الناس إلى شيء من اليقين.

٢ - تزداد درجة قبول المعلومات الجديدة في حالة وجود غموض وإبهام حول قضية من القضايا.

٣ - كلما كانت إمكانية تجريب تطبيقات فكرة أعظم، أو أمكن رؤية الآخرين يستخدمونها كان ذلك أدعى إلى قبولها^(١).

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما ذكر من خصائص السلع والخدمات الحديثة التي تحوز على القبول، ونسبة إقبال الناس عليها حيث وجد التالي:

% .٩٢	مدى إشباعها للحاجات القائمة
% .٨٦	ملاءمتها لاحتياجات المستهلكين
% .٧٨	فائدتها النسبية
% .٧٥	قابليتها للملاحظة ووضوح نتائجها
(٢) % .٥٧	قدرتها على تحقيق فوائد مباشرة

إن بعض الأفكار والمعلومات هي بالنسبة للناس بمثابة الخبر، وبعضها بمثابة اللحم، وبعضها بمثابة الفاكهة، وبعضها سمعوه حتى ملأوه. والداعية الناجح هو الذي يدرك ذلك، ويتصرف على أساسه. وإن سبب إخفاق كثير من وسائل الإعلام وسبب تأزم جوانب عديدة من الخطاب الإسلامي هو بالضبط هذه المسألة؛ فما يقال باستمرار أقل أهمية وتلبية لاحتياجات الناس مما لا يقال !.

إن أمّة الإسلام تشعر اليوم بالدونية، ويطوق عنقها مشكلات على كل الصعد، وهي بحاجة ماسة إلى من يعرّفها على مجلّم الأسباب التي أدت بها

(١) انظر الاتصال والسلوك الإنساني : ١٨٨.

(٢) السابق ...

إلى هذه الحال المنكورة، كما أنها بحاجة إلى من يأخذ بيدها نحو بر الأمان من خلال الطرح البصير والتفكير العميق والرؤى الشاملة.

ج - من أهم ما تجب مراعاته في الخطاب الأخذ بعين الاعتبار الوضعية الثقافية للمخاطب، إذ إن الفوارق بين العامة والمثقفين هائلة، بل إن الفوارق بين ما نسميه مثقفين كبيرة؛ حتى يمكن القول: إن كثيرين منهم ينبغي مخاطبتهم على موجة خاصة بهم وبأسلوب خاص؛ لأن هناك اختلافاً واسعاً بينهم في أسس الثقافة ومشخصاتها. والأسلوب الخاص هو تعبير عن ثقافة خاصة؛ والتلف في هذا المجال غير ذي فائدة. وإن الصفة أو النخبة هم أهل الثقافة العليا، وهؤلاء هم الذين تكونت ثقافتهم بطريقة واعية بواسطة القراءة والحوار والممارسة العملية، وهم الذين يمثلون ثقافة الأمة أمام الثقافات الأخرى، وهم الذين يتولون غربلة الوافد من الأفكار والمعلومات وإدخاله إلى الثقافة الشعبية؛ ومن ثم فإن كسبهم للدعوة يكون في العادة عملاً مكلفاً لكن الفوائد التي يمكن أن تعود على الدعوة، وعلى الأمة من وراء هدایتهم لا تحصى.. وفي المرحلة المكية حيث التأسيس الفذ للقاعدة الصلبة كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب»^(١). وتشير دراسات عديدة إلى الأهمية المتزايدة التي تكتسبها الصفة في التأثير في الرأي العام وقيادة الناس وصيانة ثقافتهم وتوجهاتهم. ومن تلك الدراسات دراسة (روبر) حيث انتهى إلى الخروج بفرض أسماء «نظيرية الدارة ذات المركز المشترك». وتقوم هذه النظرية إلى افتراض أن الأفكار تتخلل الجماهير ببطء شديد حيث تتحرك في دوائر ذات مركز موحد ابتداء من قادة الرأي أو الفكر أو كبار المفكرين إلى حوارييهم، ثم إلى مجموعة الأفراد ذوي التأثير القوي على المجموعات ثم المفكرين ذوي التأثير الأقل ثم الأفراد العاملين في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الإداري ثم عامة الناس^(٢). وهذا يعني أن المعلومات تتدفق

(١) أخرجه الترمذى.

(٢) الإعلام والاتصال بالجماهير: ٧٠

على مراحل حتى تصل إلى العامة. وحين تكون الأفكار مبسطة فإن بإمكان العامة أن يتلقوها من أية جهة وأحياناً من وسائل الاتصال دون واسطة، لكن الأفكار المعقدة والدقيقة يصعب انتقالها من مصدرها إلى العامة دون وسائل ودون نوع من التقرير والتبسيط وإلا تعرضت للتشويه وسوء الفهم.

من خصائص الخطاب الذي ينبغي أن يوجه إلى الصفة ما يلي:

أ - بناء الأرضية المشتركة؛ فليس من مصلحة الدعوة، ولا الأمة أن تبحث في أوجه التناقض بين أبنائها حتى تعمق الشروخ والانقسامات. وتكون الأرضية المشتركة من الخطوط العقدية العريضة، ومن معطيات التراث والتاريخ، ومن خلال الأهداف والمصير المشترك والمصالح العليا للأمة، إلى جانب المبادئ الإنسانية العامة من نحو العدل والإحسان وحب الخير ومناصرة المظلوم ومساعدة الضعيف ومحاصرة الشر والتماسك الاجتماعي وبلورة العدوى المشترك. والتركيز على هذه القضايا سوف يكون إطاراً أشمل نديراً فيه الخلافات الكبرى، ونعبر من خلاله إلى توحيد الرؤية في مسائل كثيرة.

ب - ثقافة الصفة وفكرهم أقرب إلى التعقيد، والفكر المعقد يحتوي باستمرار على مسائل مبلورة ومسائل أخذة في التبلور، ومقولات نصفها مدرك والنصف الآخر خيال. وما يطرحه المفكرون من أفكار كبرى بعضه له أمثلة وصور ذهنية مدركة وبعضه لا نماذج له، لكنه يوسع الأفق ويساعد في إيجاد البديل... والداعية الناجح هو القادر على أن يحاور أولئك من خلال طريقة في التفكير مشابهة، ومن خلال أسلوب يتسم بالمرونة وشيء من الغموض والإيحاء.

ج - يتضائق المفكرون وأبناء الصفة عامة من الأسلوب الذي يعرض الأمور والمشكلات من وجهة نظر واحدة، وربما نظروا إلى ذلك على أنه نوع من الغرور أو ضيق الأفق أو العدوانية، ومن ثم فإن عرض وجهات النظر الأخرى بوضوح وبايجاز يعد شيئاً حسناً ومت朶جاً، لكن لا يفعل الداعية ذلك إلا إذا كان واثقاً من قدرته على إقناع المخاطب بوجهة نظره وقناعته هو

بها ويراهينها، وإن فقد تكون النتائج سلبية. ومما وصف به أسلوب الفخر الرازي في تفسيره أنه كان يسوق الشبه نقداً، ويرد عليها نسيئة! .

د- الدقة أمر حيوي في مخاطبة الخاصة؛ إذ ينبغي أن تحسب حساباً لكل كلمة تقولها، وتعني الدقة إدراك مرامي كل كلمة تقولها، وما يمكن أن يفهم منها، وما يمكن أن يجد فيه المخاطب مأخذأً عليك، ويستخدمه ضدك في وقت لاحق. كما أن الدقة تعني نوعاً من الترابط المنطقي بين المقدمات والنتائج، وعدم سوق القطعيات مساق الظنيات أو سوق الظنيات مساق القطعيات وإعطاء الأدلة التي بحوزة الداعية القدر المكافئ لها من الاهتمام دون مبالغة.

هـ- التوثيق والإحصاء مهمان جداً، وعلى الداعية أن يعتمد الأسلوب الإحصائي الذي يعتمد الرقم، وأن يكون في الوقت نفسه عالماً بمصدر معلوماته وقدراً على توثيقها ونسبتها إلى أصحابها.

و- يحتاج الداعية في خطابه إلى العامة أن يلقنهم المقدمات والنتائج معاً؛ لأن وضعيتهم الذهنية والثقافية لا تمكنهم من الوصول إلى المحکات النهائية في كل قضية، أما في خطاب أفراد الصفة فينبغي أن تبعد قدر الإمكان عن فرض النتائج على المخاطب، لأن بنية الثقافية والعقلية تجعل آلية الاستخلاص للنتائج لديه ثرية ومتعددة؛ مما يجعل ما تقوله له أقل مما يصل إليه، كما أن المعرفة الواسعة توجد لدى صاحبها نوعاً من الإباء الرافض لأي شيء يكسره على خلاصة معينة.

ز - يلاحظ أننا في أحديتنا كثيراً ما نستهلك الوقت في الحديث عن المسائل الجزئية والمشتبة، وهذا يسود في صفوف الصفة وال العامة على حد سواء، وهذا يولد في أكثر الأمر الشعور بالإحباط واليأس من أي تقدم. وأرى أن الحديث في صفوف الصفة ينبغي أن ينطلق دائماً من رؤية شاملة لمختلف جوانب الوضع الحضاري ومحاولة الربط بين تلك الجوانب ولمس وجوه تأثير وتاثير بعضها البعض، ثم محاولة الانتهاء إلى نتائج محددة عبر الحوار والجدل والتي هي أحسن والانتهاء إلى بعض المقولات النهائية، وبذلك وحده نفتح سبلاً للعمل، وننهي بعضاً من الجدل العقيم المغلق.

٦ - رجع الصدى:

لا بد للداعية أن يتوقف بين الفينة والفينية، ليقوم بتحسس الآثار التي تركها كلامه أو كتابه في الناس؛ وليس رأي الناس وتأثيرهم معياراً لصواب ما يقوله الداعية؛ وإنما هو معيار لمدى ملاءمة ما يقوله للسوية التي عليها الناس ومعيار لحاجاتهم من الخطاب..

والمؤشرات التي تدل على مستوى استجابة الناس لما يقال لهم عديدة، ومنها ما هو لفظي مباشر، ومنها ما هو غير مباشر؛ فمن المباشر الملاحظات التي قد يبديها بعض الناس حول محاضرة أو خطبة جمعة أو كتاب، والملاحظات غير المباشرة تمثل في إقبال الناس على حضور خطبة أو شراء كتاب أو قراءة جريدة؛ حيث إن ما يلقى الاستحسان يلقى الإقبال من الناس؛ ورد الفعل غير المباشر أبلغ في الحقيقة وأصدق؛ لأنه يعبر عن رأي جماعي جماهيري، أما الملاحظات المكتوبة أو الشفوية فإنها كثيراً ما تعبّر عن رأي فردي.

ويجب أن نعترف أننا لم نعمل شيئاً ذا قيمة حول التعرف على ردود فعل الجمهور، ولم نحاول قياس رأيهم ولاأخذ ملاحظاتهم مأخذ الجد مع أن من اليسير جداً وضع صندوق في كل مسجد يتولى إمام المسجد حتى المصليين على وضع اقتراحاتهم وملاحظاتهم فيه، ثم يقوم بفتحه في أحد أيام الأسبوع؛ ليتعرف على كل ما يهم المصليين، وما يرغبون سماعه وفهمه منه، لكن يبدو أن الحسّ الغالب علينا هو أن واجبنا أن نتكلم بما نراه مناسباً، وأن على الآخرين أن يسمعوا ما يلقى إليهم؛ فهم بحاجة إلى كل ما نقوله، بل إننا لم نقل بعد إلا بعض ما يحتاجون إليه!

إن قلة الدراسات لدينا في مجال الاتصال ومجال علم النفس وعلم الاجتماع أدى إلى أن يكون مردود الجهود الطيبة الكثيرة المبذولة في مجالات الدعوة - محدوداً، بل جعل إمكانية قياس مدى التقدم الذي نحرزه ضعيفة جداً.

(٤) مخاطبة الفرد ومخاطبة المجموعات

الخطاب الذي يوجهه الداعية للناس نوعان: نوع موجه لمجموعة أو مجموعات من الناس الذين يعرفهم، أو لا يعرفهم كما هو الشأن في خطب الجمعة والمحاضرات ووسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وتلفاز وصحف ومجلات ...

والنوع الثاني الخطاب الفردي الموجه لشخص بعينه، ولكل من الأسلوبين وظائفه وخصائصه وأدبياته، ولعلنا نعرض بعضًا مما يتعلق بذلك.

أولاً: الدعوة الفردية:

حين بدأ النبي ﷺ دعوته في مكة المكرمة اعتمد بشكل أساسي أسلوب الدعوة الفردية مع أنه كان يدعو في النوادي العامة إلى كلمة التوحيد ونبذ الأصنام، إلا أن التركيز الحقيقي كان على الاتصال الفردي؛ ولذا فإن الشمار في المرحلة المكية كانت محدودة، لكنها كانت على أعلى مستوى من النضج والأصالة والالتزام والحماسة ...

ويمكن أن نذكر من ميزات الدعوة الفردية ما يلي :

- أ - أنها سهلة الحدوث فهي لا تحتاج إلى ترتيبات كثيرة.
- ب - يمكن أن تتم في أقسى الظروف، وطبيعة المعايشة اليومية بين الناس تساعد عليها.
- ج - معدومة أو قليلة التكلفة.
- د - عابرة، تحدث في قطار أو على الرصيف أو في محل تجاري ..

- هـ - مجالها رحب للمصارحة التامة بين الداعية والمدعو.
- و - استخدام الخطاب المناسب للشخص المخاطب دون الحاجة إلى تلوين الخطاب وتنوع مستوياته حيث لا يوجد إلا مستمع واحد.
- ز - إمكانية حدوث الاتصال في اتجاهين من الداعية إلى المدعو والعكس.
- ح - معرفة الداعية المباشرة والسريعة لأثر كلامه في نفس مدعوه، وتمكنه من تغيير أسلوبه أو مضمون رسالته في الحال.
- ط - الدعوة الفردية أفضل وسيلة للإقناع.
- ي - التعارف بين الداعية والمدعو من خلال الدعوة الفردية يزرع الثقة بينهما، وهي تسهل انتقال الأفكار والمعلومات إلى المدعو^(١).
- ك - في المجتمعات التقليدية والمحافظة - كما أثبتت بعض الدراسات - تكون أنماط الاتصال الشخصي أكثر فاعلية، على خلاف ما هو الحال في المجتمعات المتقدمة^(٢).
- ل - في الدعوة الفردية تكون إمكانية التوضيح أكبر حيث يجد الداعية نفسه حرّاً في استخدام بعض الرموز الإضافية مثل التنهد والتنغيم وحركات الوجه من التبسم والتقطيب وغيرها . . .

هدف الدعوة الفردية :

الهداية هي الهدف العام لكل الأنشطة الدعوية مهما كان نوعها إلا أن الذي أثبتته دراسات علم الاتصال هو أن الاتصال الجماهيري الجماعي يؤدي - في حال نجاحه - إلى تغيير الأفكار، أما الاتصال الفردي فإنه يؤدي إلى تغيير السلوك^(٣). فالمدعو من خلال الاحتكاك بالدعاة ينفعل بهم ويقتدي بسلوكهم وسمتهم.

(١) الاتصال والمجتمع اليوم وغداً: ٩٧.

(٢) مفاهيم علم الاجتماع: ١٤٥.

(٣) الاتصال والمجتمع: ٩١.

وهذه النقطة تمثل تفسيراً دقيقاً لبعض جوانب تأزم للعمل الدعوي؛ حيث إن وسائل الإعلام في أكثر الدول الإسلامية ليست مهتمة بقضايا الدعوة، وهي لا تنشر الفكر الإسلامي؛ مما يجعل تأثيرها في أفكار الناس سلبياً. ويضاف إلى هذا أن الأعداد المتوفرة من الدعاة لا تفي في أكثر الأحيان بسد حاجات الدعاة الفردية التي تؤثر في سلوك الناس - كما أسلفنا - مما يعني ضعف إمكانات التأثير على مستوى الأفكار وعلى مستوى السلوك!

ثانياً: الدعوة الجماعية:

تختلف الدعوة الجماعية عن الدعوة الفردية اختلافاً واسعاً؛ فإذا كانت الدعوة الفردية سهلة الحدوث متعدنة الأسلوب، فإن الدعوة الجماعية تحتاج إلى إعداد وتهيئة الظرف المناسب للإرسال والاستقبال، وأعتقد ما فيها أن الداعية يقع في حيرة من أمره على أي مستوى يتحدث، والذين أمامه أخلاق وأشتات يتفاوتون تفاوتاً عظيماً؛ ففيهم الأمي وأستاذ الجامعة، كما أن فيهم المظلوم الذي يريد منك أن تتحدث عن العدل، وفيهم المحتاج الذي يريد منك أن تتحدث عن الصدق، وفيهم وفيهم . . .

لكن على الرغم من هذه الصعوبات، فإن للدعوة الجماعية ميزة كبرى، هي إمكانية اختصار كثير من الجهد والأوقات، كما أن فيها تعويضاً عن النقص الحاد في أعداد الدعاة في أكثر بلدان العالم الإسلامي؛ فبسبب ثورة الاتصالات اليوم صار بإمكان الشخص اليوم أن يخاطب مئات الملايين في وقت واحد لكن المشكلة - كما ذكرنا - أن وسائل الإعلام الجباره ليست في يد الدعاة، بل وليس منها في العالم الإسلامي إلا القليل！.

ويمكن أن نذكر مما يتعلق بالدعوة الجماعية ما يلي :

أ - علينا أن ندرك أن الخلفيات الثقافية لمستمعينا مختلفة، كما أن مشكلاتهم متنوعة، وهم قد يتسبون إلى أعرق وقبائل وأحزاب شتى، وهذا يجعلنا نعمد إلى أن نأخذ مسافات عن كل ذلك، ونحاول طرق القضايا العامة؛ حتى لا ترك أي انطباع لدى السامعين بالتحيز أو التدخل في بعض الخصوصيات.

ب - محاولة اختيار الأسلوب الأبسط في خطب الجمعة والمحاضرات والندوات العامة التي يحضرها مستويات مختلفة؛ فالضعف دائمًا أمير الركب.

ج - التقليل من الوعظ والإرشاد، والتركيز على ذكر الأحكام الفقهية حيث إن الجهل بأحكام الشريعة الغراء هو القاسم المشترك بين أكثر المسلمين.

د - ربط الناس بالتاريخ الإسلامي، وإبراز الدور الذي قامت به الحضارة الإسلامية في تقدم البشرية.

ه - التوازن في الترغيب والترهيب؛ فلا يقع الناس في اليأس والقنوط ولا هو يسهل لهم دخول الجنة أو الخلاص من المهزائم والنكبات الحضارية، فيطمع الناس في الحصول على ذلك دون جهد ودون ثمن.

و - إرضاء الناس غاية لا تدرك، ولا تعدم الحسناء ذاماً، وسيظل من الناس من لا يعجبه شيء، ولا يرتاح لبروز أحد؛ ومن ثم فالعبرة بموقف السواد الأعظم من السامعين.

ز - الدعوة الجماعية لا تربى، وهي ضعيفة التأثير في تغيير السلوك، ومن ثم فإن من الواجب أن تُكمل من خلال عمل المحاضن الأسرية والدعوة الفردية.



(5) وسائل البلاغ الصبيّن

إن الأسباب التي يمكن أن تساعد على الهدایة، وكذلك الوسائل أكثر من أن تدخل تحت عد أو حصر؛ فنور الهدایة ينقدح في قلوب كثريين نتيجة أسباب لا تخطر على بال أحد؛ فكم من رجل كانت بدايته تعرفه على الإسلام؛ لأنّه سمع من يذم الإسلام ويقدح فيه، وكم من رجل أحب الإسلام؛ لأنّه رأى مسلماً يُظلم، فوقف لمناصرته، وكانت بدايته مع طريق النور... وكم من شاب تسبّب في هداية أسرة؛ لأنّه قام بتقديم خدمة لها...

إن التأزم الراهن للعالم واللحيرة التي تلفه والوحشية التي تجتاحه، كل ذلك جنود خفية «وَمَا يَقْرَأُ جُنُودَ رَيْكَ إِلَّا هُوَ»⁽¹⁾ تدفع بالناس دفعاً إلى ارتياح طريق الهدایة والخير. وربّ الكلمة عابرّة فعلت في أقوام ما لم تفعله إذاعة موجّهة أو جريدة سيارة أو خطيب مفوّه! هذا وإن كان لا يغّني عن التخطيط لامتلاك الوسائل الدعويّة لكنه في الوقت نفسه يحفّزنا على ألا نزهد في أية كلمة حقّ، نقولها أو نكتّبها.

عصرنا الذي نعيش فيه هو عصر الاتصال، والتّنامي المذهل في وسائل الإعلام، وما استحدث من البث المباشر وشبكات الحاسوب الآلي - جعل العالم بمثابة قرية صغيرة، وصار كل جزء منه مرآة للأجزاء الأخرى، وأدى ذلك إلى هجمة المعايير والأفكار والعادات والتقاليد التي تتجهها، وتتمسّك بها الدول والشعوب التي تقود التقدّم، وقد مثلّ هذا تحدياً سافراً وكبيراً لكل

(1) سورة المدثر: الآية ٣١.

المصلحين والدعاة الذين يسعون إلى بث مفاهيم ومعايير وأنماط سلوك مغايرة لما هو سائد في الغرب.

وقد دلت بعض الدراسات أن وسائل الإعلام تساهم في بناء نحو من ٧٠٪ من الصور الذهنية عن العالم من حولنا^(١).

كما دلت دراسات أخرى حول مدى التأثير الذي تحدثه أنماط الاتصال المختلفة على ما يلي: تحتل المحادثة الشخصية المرتبة الأولى في التأثير عليها بعد ذلك المناقشة الجماعية، ثم الاجتماعات غير الرسمية ثم الهاتف ثم الاجتماعات الرسمية ثم الأفلام الناطقة ثم التلفاز ثم الإذاعة ثم التلغراف ثم الرسالة الشخصية ثم الصحافة ثم الملصقات ثم الكتب^(٢).

ومشكلة المحادثة الشخصية - وهي الوسيلة الأعمق تأثيراً - وما يجansها من أنواع الاتصال الشخصي والشفوي أنها تتطلب أعداداً كبيرة من الدعاة، وأوقاتاً أوسع، وهذا ما نجده عزيزاً في الأوساط الدعوية.

وسائل الاتصال الكبرى ومراكز الإنتاج (السينمائى) الضخمة ووسائل البث المباشر التي تطرق الأبواب على مدار الساعة... كل ذلك موجود ومملوك للدول المتقدمة. والذين يستقبلون ذلك عندنا هم في كثير من الأحيان الأثرياء وكبار المثقفين ثقافة غربية؛ وهذا أوجد لدينا نوعاً من الطبقية الثقافية أو نوعاً من الشقاق الثقافي الذي يُعد أساساً لكل بلاء!!.

إن بإمكاننا أن نشكوا كثيراً من التخلف في وسائل الدعاة المختلفة، لكن ذلك لن يفيد شيئاً؛ وعلينا أن ندرك أن الأمة تعاني من مشكلات في كل صعيد من الأصعدة، وأنه لا ينبغي لنا أن نتوقع تقدماً فذاً في مجال وسائل الإعلام الإسلامي على حين أننا عاجزون عن صناعة القلم والورقة والإبرة والخطيب...!

(١) الصورة الذهنية: ٤٧.

(٢) السابق: ٤٨.

إن الأمة حين تأخذ في التهffer تكون بمنزلة السفينة التي تغوص كل أجزائها في آن واحد، كما أن التقدم على أي صعيد سوف يؤثر إيجابياً على باقي الأصعدة، وهكذا... .

ولعلنا نتحدث هنا عن بعض الأفكار والرؤى التي تساعد على النهوض بالوسائل الدعوية عامة وخطبة الجمعة خاصة باعتبارها الوسيلة المجانية والممتاحة في كل مكان من عالم الإسلام.

أولاً: الوسائل الإعلامية العامة:

الوسيلة: هي الأداة التي نستخدمها في إيصال أفكارنا ومشاعرنا إلى الآخرين^(١).

ونحن هنا لا نتحدث عن الوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى الإصلاح أو تحسين حال الناس، وإنما نتحدث عن الوسائل التي تساعدنا على جعل بلاغنا مبيناً واضحاً مبرئاً للذمة أمام الله - تبارك وتعالى -.

لا بد من القول ابتداء إن المنهج الذي نؤمن به يمكن إيصاله إلى الناس بأساليب شتى، وإن كل أسلوب يستخدم وسائل متعددة، والمنهج الكامل الواضح في الأذهان هو ذلك المنهج الذي يتيح لأصحابه أن يستخدموها شتى الأساليب التي تؤدي إلى ذيوعه وانتشاره، والتي تنسجم معه روحأً ونصباً و قالباً.

كما أن كفاءة أية وسيلة من الوسائل الدعوية تتوقف على أمرین :

الأول: هو حكمـة مستخدمها؛ فمن الممکن لجريدة من الجرائد أن تساعد بشكل فعال على قلب كيان مجتمع؛ لأن القائمين عليها يتقنون عملية الاتصال بالناس، ويعرفون على نحو جيد ماذا يريدون. وقد يكون لدينا جريدة أخرى تملك نفس الإمکانات التي تملکها الجريدة الناجحة، لكنها

(١) انظر كلاماً مستفيضاً حول الوسيلة وضوابطها في المدخل إلى علم الدعوة: ٢٨٢ وما بعدها.

أشبه بصلاح فتاك بيد إنسان لا يعرف عن استخدامه شيئاً؛ بل قد يستخدمه بطريقة مدمرة! .

الثاني: الأسلوب الذي يتبع في استخدام الوسيلة والاستفادة منها، وكم رأينا إذاعات أثارت حماسة المواطنين لخدمة شعوبهم وببلادهم، واستطاعت أن تنفتح في الناس روحًا جديدة؛ لأنها اعتمدت الصدق والتزاهة والموضوعية، وصادفت هامشًا من الحرية مكنها من ممارسة النقد والمحاسبة وتسلیط الأضواء على المشكلات والأزمات التي يعاني منها المجتمع... .

كما أنتا شاهدنا الكثير الكثير من الإذاعات التي بذرت في نفوس الناس اليأس من صلاح الأحوال والزهد في خدمة الأوطان، والالتفاف حول المصالح الشخصية، بما انتهجه من جعل الأبيض أسود والأسود أبيض، وبما بثته من قيم فاسدة خارجة عن معتقدات المجتمع ومبادئه الأساسية!! .

وهذه بعض الأفكار التي تتصل بالنهوض بالوسائل الدعوية العامة:

١ - عصرنا هذا عصر الكبار والعمالقة، وعلاقة المؤسسات والأنشطة مع بعضها بعضاً تشبه علاقة الأسماك الكبيرة بالأسماك الصغيرة! فالطبيعة التنافسية التي أطلقتها الرأسمالية، والطبيعة الأكثر اقتصاداً للأعمال الكبرى أفرزتا هذه الوضعية.

ونظراً للقدرة المالية الضخمة في الغرب بالإضافة إلى التقدم التقني الذي عنده، فإنه استطاع أن يجعل دول العالم الثالث - ومنها العالم الإسلامي - في حالة من التبعية الإعلامية؛ فوكالات الأنباء التي توزع الأخبار موجودة في بلاده؛ حتى إن سكان القطر الواحد يتلقفون أخبار المدن المجاورة لهم عن طريق وكالات الأنباء الغربية!! .

بداية التصحيح لأي وضع خاطئ تولد عند إدراك المطلوب عمله، والعالم الإسلامي لا يملك الأموال ولا التقنيات الموجودة في الغرب، لكن مشكلته الكبرى ليست ذلك، وإنما إدراك أهمية الاستثمار في المجال الإعلامي. كان اليهود قد رفعوا في القرن الماضي شعاراً يقول: «من يملك

الذهب يملك العالم». أما الشعار اليوم فهو: «من يملك الإعلام يملك العالم». فالإعلام اليوم لا يقتصر على مهمة نقل الأخبار بين الدول، وإنما يقوم - من خلال الاستحواذ الكامل على أوقات الناس، ومن خلال جذبهم إليه - بصياغة البنية العقلية والثقافية للناس إلى جانب توجيه الرغبات وإيجاد رغبات استهلاكية جديدة؛ بل إنه بدأ يشكل الذائقة الجمالية للناس... وهو وإن تحاشى في بعض الأحيان التعرض للقضايا العقدية وقضايا الحال والحرام إلا أنه كون المحيط والمناخ الذي سيكيف عقائد الناس ومبادئهم العليا، والذي سيوجه سلوكهم...».

المطلوب اليوم التوجه إلى إنشاء المؤسسات الإعلامية الكبرى المتعددة الجنسيات. والدعاة إذا كانوا لا يملكون المال الكافي، فإنهم يملكون تحريض أهل الخير من الأثرياء؛ ليوجهوا استثماراتهم نحو الوسائل الإعلامية، كما أنهم يستطيعون تجميع أموال كثيرة عن طريق إنشاء الشركات المساهمة التي تقوم بتمويل محطات الإذاعة والتلفاز والمجلات والجرائد. نحن نعلم أن هناك ظروفاً صعبة قانونية ونظامية وسياسية تحيط بهذه القضية، إلا أنه سيظل هناك إمكانات عديدة في دول كثيرة لقيام مثل هذه الأنشطة، وقد رأينا تجارب عدة ناجحة في تركيا ولبنان وأوروبا وأمريكا وأفريقيا... لكن المشكلة دائماً كانت ضعف الإمكانيات. وضعف الإمكانيات يعود ليس إلى قلة وجودها وإنما إلى أن نظرة أثرياء المسلمين إلى العمل الإعلامي ما زالت متخلفة، وما زال الاهتمام بإنشاء الأنشطة الإعلامية يحتل أعلى درجة في سلم الأولويات الذي يشتمل على بناء المساجد والمدارس وبناء الملاجئ وإطعام الجائعين... وما درى أولئك أننا عن طريق وسائل الإعلام النشطة نستطيع أن ننشط كل أعمال الخير، كما أننا نستطيع أن نقيم الجسور المهدمة بين أهل الثراء وبين مستحقي أموالهم.

أنا أعرف أن أي عمل إعلامي ستنشأ حوله ملاحظات شرعية في المقام الأول، ثم ملاحظات موضوعية وفنية في المقام الثاني، وأعلم أن كثيراً من الأعمال الإعلامية سيحتاج إلى تكيف شرعي واجتهاد وشيء من المرونة،

لكن ذلك لا يدرك أكثره إلا عن طريق العمل؛ فهو يُكتشف اكتشافاً، ولا يبني نموذجه الأمثل في فراغ، المهم ألا نقتل الوقت في التنظير أو في طلب الإجماع في قضايا تأباه طبيعتها.

إن كثيراً من الدعاة يملكون أموالاً، ويقومون باستثمارها في مجالات النقل أو الغذاء أو العقار؛ وقلما فكروا في استثمارها في مجال يدر الربح ويخدم الدعوة في آن واحد.

٢ - يعني العمل الدعوي في كثير من المجتمعات الإسلامية من قلة الوسائل الإعلامية المستخدمة أو المتاحة، وفي كثير من الأحيان لا يتاح إلا خطبة الجمعة وبشكل محدود ومقطئ، وهذه القلة تعود إلى عاملين: الأول هو ضعف الإمكانيات وقلة القادرين على توظيف الموجود منها. والثاني هو فقر الخيال اللازم لبناء المجال الحيوي المطلوب لجعل التدين والالتزام ثقافة للناس.

وفي هذا الصدد يمكن القول: إن هناك أنشطة كثيرة ووسائل إعلامية متاحة يمكن الاستفادة منها إذا نحن قررنا فعلاً تهيئة المناخ المساعد على نجاح الأعمال الدعوية؛ إذ بالإمكان استخدام الملصقات والإعلانات في الصحف واللوحات (اليافطات) والهاتف ومحطات الإذاعة والتلفاز وإقامة (المهرجانات) في المناسبات المختلفة... في بث الأفكار التي تحارب الرذيلة، وتؤكد الترابط الاجتماعي من أمثال الحث على إقامة الصلاة والحرص على صلاة الجماعة وصلة الرحم والقرض الحسن وكفالة الأيتام ومناصرة المظلوم والحرص على لقمة الحلال والاقتصاد في استهلاك الماء والكهرباء والمحافظة على البيئة وتشييد المرافق العامة والمحافظة عليها وغير هذا كثير كثير، مما يساهم في بناء المجتمع الفاضل والأمة الملزمة. إن جعل هذه المسائل حاضرة في حسن الناس من صلب العمل الدعوي، وهو مهم في أكثر الأحيان!.

٣ - يمكن القول: إنه في العقددين الأخيرين تكاففت الكتابات الإسلامية في المجال الحضاري بشكل عام، ومنه المجال الفكري والتنظيري، واتجهت

بعض الكتابات نحو استخدام الرؤية الفلسفية العميقية في محاولات تصور الواقع - المشتبك المعقد - وفي طرح الحلول له، ويدأ العديد من كتابنا يشعر بأن كثيراً من القراء والمستمعين لا يستطيعون استيعاب ما يُطرح إما لضعف خلفيتهم الثقافية، وإما لضعف القابلية العقلية لديهم في معاناة فهم الأمور الدقيقة. ولا يجوزبقاء تلك الهوة الشاسعة بين مفكري الأمة وجمهورها؛ ولعل تجسير تلك العلاقة يتم عن طريق تكثيف استخدام الوسائل الدعوية في هذا المجال، إذ يمكن لكاتب قصة قصيرة - مثلاً - أن يعبر عن قضية السنن الربانية وصرامتها أو يعبر عن مسألة تعقد الواقع وصعوبة الاستحواذ عليه، كما يمكن لكاتب مسلسلة إذاعية أن ينهل من التراث المادة التي تمكّنه من تصوير بعض المشكلات والأزمات التي تعرضت لها الأمة، وكيفية مواجهتها لها ورؤيتنا نحن لأسباب تلك الأزمات ولعمليات المواجهة. ويمكن لكاتب مسرحية أن يصور عمليات السلب والنهب وأشكال التآمر التي تعرض لها العالم الإسلامي في العصر الحديث على يد (الاستعمار)؛ لتعلم الأجيال بعضاً من أسباب مأسينا، وبعضاً من أخلاقيات أدعياء الرقي والتحضر...!

وقد شاهدنا بعض المسرحيات التي قام بتأليفها وإخراجها وتمثيلها بعض طلاب الجامعات، وقد تركت تلك المسرحيات أطيب الأثر في نفوس المشاهدين، ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن بعضها قد ترك من الانطباعات، وغرس من الأفكار ما لا يقوم به كتاب كامل بل كتب!.

ويوجد ثمة مجال رحب جداً لتبسيط الأفكار وكتابتها بأسلوب ميسر، وذلك هو مجال الكتابة للطفل؛ إذ يمكن من خلال قصص الأطفال غرس مبادئ التفكير المنطقي والشعور بالمسافات وبالزمان والتعريف بإشارات العصر الحديث وأدبيات الفاعلية الحضارية المطلوبة... .

إن المسرح و(السينما) والتلفاز والإذاعة والروايات والقصص أدوات ممتازة لتبسيط الفكر الرациي المعقد إذا وجد الاهتمام أولاً، وإذا وجدت الطبقة المتوسطة من المثقفين الذين يمثلون حلقة الوصل بين ذوي الثقافات العليا وذوي الثقافة الشعبية ثانياً.

والذي دعانا إلى هذا ما نعتقد من أن مبدعي الأفكار النقدية والبناءة لا يستطيعون - في كثير من الأحيان - القيام بتبسيط أفكارهم؛ فذاك في نظر كثير منهم لا يقل في مشقته عن تكليف أستاذ الجامعة بتدريس طالب في الابتدائي؛ كما أن من غير الصواب شغل كبار المفكرين بتعميم أفكارهم على الناس؛ ففي ذلك من قتل الوقت الكثير، إلى جانب الانصراف عن الأهم إلى المهم. والنظرية الموضوعية تقتضي مساعدة المبدعين على الإنتاج وإعفاءهم من كثير من تكاليف الحياة اليومية؛ حتى تنعم الأمة بثمار عبقريتهم . . .

ثانياً: خطبة الجمعة :

هل هناك شيء أعون للداعية على أداء واجبه وتلبيغ رسالته من أن يشعر الناس بوجوب التوجه إلى المساجد في كل يوم جمعة؛ ليسمعوا من دعائهم وعلمائهم ما يصرهم في أمور دينهم ودنياهم؟ وهل هناك فرصة أعظم لتوحيد المفاهيم من أن يتلقى أهل البلدة أو أهل الحي الواحد؛ ليسمعوا بعض الأحكام أو الأفكار أو الملاحظات التي تكون لديهم عقلية واحدة، وثقافة واحدة ومشاعر واحدة، وبالتالي موافق لما يتفاعل على مسرح الحياة موحدة؟ ! .

هذه هي الفرصة العظيمة التي تتيحها خطبة الجمعة. لكن الأمر - كما نقول دائماً - أن الأمة حين تكون في حالة تخلف أو ركود فإن انتفاعها بمبادئها والإمكانات المتاحة لها يكون محدوداً أو معذوباً، وهذا ما نلاحظه بالنسبة لخطبة الجمعة. ونحن في البداية نقول: لنا أن نتصور سوء الوضع فيما لو لم يكن عندنا شيء اسمه: صلاة الجمعة؛ لا ريب أن الجهل سيكون أعظم والوعي أقل والترابط بين أهل الحي الواحد أضعف؛ لكن الذي يتوجع منه المسلم أن الأطنان من الورق التي تكتب عليها خطب الجمعة أسبوعياً لم تتحقق إلا جزءاً يسيراً مما هو ممكن، ومما هو مرجو!! .

وهذه بعض الأفكار التي نظن أنها تساعد على أداء خطبة الجمعة لوظيفتها على وجه مقبول:

١ - الخطيب الجيد هو قارئ جيد:

يعرض الخطيب في كل أسبوع عقله وثقافته على الناس؛ ووسائل الإعلام أتاحت للناس اليوم قدراً كبيراً من المعلومات المتناثرة الجديدة، والتي تنتهي إلى الحقول المعرفية المختلفة. وهذا يمثل تحدياً لخطباء الجمعة الذين ركزوا إلى معلومات وإحصاءات قديمة عن واقعنا المعاصر، وإلى الذين اعتادوا أن يرددوا بعض الأمثلة والنماذج حول أمجادنا التاريخية أو حول مشكلاتنا ومشكلات الغرب مما نسخه الجديد، أو كثراً تكراره، فصار مملولاً، أو مما صار مرفوضاً من قبل البنية العقلية والثقافية الجديدة.

والخطيب الناجح هو الذي يتبع الجديد متابعة جادة، ليشعر الناس بأنه متبع لما يجري على الساحة، ومتخذ أيضاً موقفاً منه.

لكن المهمة الأخطر التي على الداعية أن يقوم بها هي الاستفادة من المعلومات الجديدة في صياغة خطابه ومنحه المزيد من المنطقية والمنهجية والواقعية.

إن انفجار المعلومات وثورة الاتصالات أتاحتا كماً هائلاً من الأخبار والمقولات، لكن الذي علينا نحن أن نقوم به هو تنظيم هذه المعلومات ودمجها ضمن طرحنا الفكري والدعوي، وتوظيفها لتعزيز الرؤية الإسلامية للحياة بطريقة متسقة وغير متعدفة.

٢ - الإيجاز:

بعض الخطباء يرى أن مشاغل الدنيا الكثيرة صرفت الناس عن تعلم العلم وسماع الموعظ، وكثير منهم يصلى في بيته، ولم يبق مجال لإسماعهم ما ينبغي أن يسمعوه إلا خطبة الجمعة؛ ومن ثم فإنه ينبغي اهتمال هذه الفرصة لإيصال كل ما نرغب في إيصاله إليهم، ولذا فإنه يعالج موضوعاً معيناً ثم يشير إلى التنبيه على كل القضايا التي جدت خلال الأسبوع

والذي نريد أن نقوله: إن كون حضور صلاة الجمعة فرضاً قد يوحي بعض المصلين أن الخطيب يستغل ذلك، ويلزمهم بسماع ما لا يجدون رغبة

في سماعه؛ مما يوجد بينه وبينهم حاجزاً نفسياً يصرفهم عن سماعه.

وقد ثبت من خلال بعض الدراسات أن العقل البشري لا يستطيع أن يتبع ما يلقى عليه بكفاءة أكثر من خمس عشرة دقيقة، ثم يتسرّب إليه الكلال. وهذا يعني أن الحرص على إسماع الناس الكثير سيكون غير ذي فائدة.

الارتجال سبب أساسي في التطويل، حيث يصير الخطيب إلى الإفاضة في الشرح وذكر ما يعنّ له من قصص وحوادث، كما أن المرتجل يصعب عليه تقدير ما يحتاجه موضوعه من الوقت.

ويحدث في بعض الأحيان أن يجد الخطيب بعض الشخصيات رفيعة المستوى مشلودة إليه؛ فيغريه ذلك بالإطناب ونسيان باقي المستمعين من المصلين!

وقلة الاهتمام بتحضير الخطبة عامل آخر في الإطالة؛ ويدركون في هذا الصدد أن أحد الجنرالات أرسل رسالة مطولة إلى بعض مرؤوسيه، وقد اعتذر في آخرها لأنه لم يجد الوقت لكتابتها بطريقة موجزة!!

وعلى كل حال فإن من الممكن للخطيب أن يعقد مجلساً قصيراً بعد صلاة الجمعة يشرح فيه ما يرى ضرورة شرحه للناس. وعدد الحضور سوف يكشف عن صحة ظنه! يحدث في حالات نادرة أن يكون الخطيب متميزاً جداً مما يجعل الحاضرين في مسجده من سوية خاصة، ويقدمون إليه من أماكن شتى؛ ولا ريب أن هذه الوضعيّة لها خصوصيتها لكن مع هذا فإن الاقتصاد يظل أمراً مطلوباً.

وهديه عليه السلام في خطبه وكلامه عامّة كان إيثار الإيجاز على التطويل. ولو أراد العاد أن يعد كلامه لاستطلاع، وربما أعاد الكلمة مراراً حتى تعقل عنه.

٣ - ما بين الارتجال والقراءة:

للداعين إلى الارتجال حججهم البينة، كما أن للخطبة المكتوبة أيضاً أنصارها. والحقيقة أن لكل منهما ميزاته التي لا تنكر. وقد ساد بين الناس

نوع من النظرة الدونية للذين يكتبون ما يقولونه على المنابر، وربما كان ذلك لوجود احتمال أن تكون الخطبة منسوبة من كتاب، أو تكون من كتابة أحد أصدقاء الخطيب.

إن الارتجال يدل ولا ريب على عدد من القدرات الذهنية والكلامية؛ لكن من الصعب على الخطيب مهما كان بارعاً أن يسلسل أفكاره، ويسوق شواهده على النحو الذي يكون ممكناً في حالة الخطبة المكتوبة. وربما تكون محفوظات الخطيب من الشواهد والنصوص محدودة مما يدفعه إلى الإقلال منها، ويكون بذلك قد حرم مستمعيه من بركة سماع الآيات والأحاديث التي تعد ماء الخطبة ورواءها، كما أن ذلك يخفيض من درجة الوثوق بما يقوله؛ حيث إنه كلام عقلي طبيعي يتحمل الصواب والخطأ.

فإذا كان الخطيب مصرأً على الارتجال فليكتب إذن قبل يوم الجمعة كل ما يريد قوله، ويحاول ترديده مرات عديدة حتى يطمئن إلى قدرته على ارتجال ذلك دون خلل.

لعل المذهب الوسط والأكثر قبولاً في هذه المسألة هو أن يمسك الخطيب بورقة صغيرة في يده، فيها رؤوس تقسيمات الموضوع إلى جانب بعض النصوص التي يريد إيرادها، وكذلك الأرقام الدقيقة التي سيدعم بها قوله، إلى جانب ما قد يكون لديه من ملاحظات وتنبيهات يود لفت نظر المصليين إليها. وبذلك يكون قد أمسك بخطام موضوعه، وسيطر على مفاصله إلى جانب التمكن من النظر في وجوه المصليين، وتمكن عيون المصليين من الالتقاء بعينه؛ وهذه ميزة كبرى؛ إذ إن العيون تقوم بمهمة تنظيم التفاعل الداخلي بين المتكلم وسامعيه، كما أنها تعطي للمعاني الملقة بعداً جديداً إضافياً يزيدها وضوحاً وبياناً.

٤ - الكتب المؤلفة في خطب الجمعة:

نظراً لتفاوت أوضاع الخطباء وقدراتهم على الكلام ومخاطبة الناس، ونظراً إلى أن الجهل قد يكون متفشياً، فلا يوجد من يقوم بخطبة الجمعة فقد

وَجَدْ مِنْذْ قَرْوَنْ كَثِيرَةً مِنْ يَقُومُ بِتَأْلِيفِ خُطُوبٍ مِنْبَرِيَّةٍ عَلَى عَدْدٍ جَمِيعٍ لِلسَّنَةِ مِنْ أَجْلِ إِسْعَافِ بَعْضِ الْخُطَّابِيَّاتِ بِهَا. وَهَذَا وَلَا شَكَ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَمَفْيِدٌ؛ لَكِنَّ الْمُشَكَّلَةُ سُوءُ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ الْكِتَابَ؛ فَالْمُؤْلِفُ يَرْكَزُ عَادَةً عَلَى الْمُوْضِيَّوْعَاتِ الَّتِي تَهْمُّ الْبَيْنَةَ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا؛ فَقَدْ يَرْكَزُ - مَثَلًاً - عَلَى أَكْلِ (الرِّبَا) فَيَأْتِي خُطَّابٌ فِي لَقِيَّ المَوْضِيَّوْعَ عَلَى أَسْمَاعِ أَهْلِ قَرْيَةٍ لَمْ يَسْمَعُوا بِالْبُنُوكَ، وَلَا تَعْاملُوا مَعْهَا^(١) . . .

كَمَا أَنَّ الْمُؤْلِفَ قَدْ يَعْتَمِدُ مَسْتَوِيًّا مِنَ الْلُّغَةِ فَيَأْتِي خُطَّابٌ، وَيَأْخُذُ خُطْبَةً مِنَ الْكِتَابِ، وَيَلْقِيَهَا فِي مَسْجِدٍ، مَرْتَادُوهُ مِنَ الْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِهِمْ وَهَكُذا . . .

لَعِلَّ الْأَنْسَبُ مِنْ كِتَابٍ يَشْتَمِلُ عَلَى عَدْدٍ مِنَ الْخُطُوبِ الْجَاهِزَةِ عَلَى عَدْدٍ أَسْبَابِ السَّنَةِ هُوَ أَنْ تَؤْلِفَ كِتَابًا يَتَضَمَّنُ مَعْلُومَاتٍ مُنْظَمَةً تَخْدِمُ خُطَّابَ الْجَمِيعَةِ فِي مَجَالَاتِ الْعَقَائِدِ وَالْعَبَادَاتِ وَالْفَكَرِ وَالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِقْتَصَادِ وَالثَّقَافَةِ وَالتَّرْبَيَّةِ وَالْحَوَادِثِ التَّارِيْخِيَّةِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ، مَا يَشْكُلُ الْمَادَةُ الْخَامَ الَّتِي يَمْكُنُ لِكُلِّ خُطَّابٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَقُومُ بِصِيَاغَةِ ذَلِكَ بِاسْلُوبِهِ الْخَاصِّ وَبِحَسْبِ مَسْتَوِيِّ الْمُصْلِيِّنَ لِدِيهِ .

٥ - خطبة لمداواة الجراح :

الْحَضَارَةُ الْحَدِيثَةُ جَعَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ آتِيًّا، وَشَغَلَتِ النَّاسُ بِهِمُومِهِمُ الْيَوْمَيَّةِ وَهَذِهِ الْهِمُومُ أَشْكَالٌ وَأَلْوَانٌ، وَهِيَ فِي تَزَايِدٍ مُسْتَمِرٌ. وَلَا رَيبَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْهِمُومِ سَبَبَهُ الْبَعْدُ عَنِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَنَسْيَانُ الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّ سَبَبَ بَعْضُهَا الْحَرَصُ وَالْطَّمَعُ . . . لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَغْيِرُ مِنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الْمُشَغُولَ لَا يُشْغِلُ، وَمِنْ ثُمَّ فَإِنَّ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْقُلَ عَنِ الدُّعَاءِ أَحَادِيثَهُمْ عَنِ الْمَبَادِئِ وَالْمِثَلِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْإِلْتَزَامِ وَالتَّرْبَيَّةِ . . . وَهُمْ غَارِقُونَ فِي هُمُ الْعِيشِ وَالرُّقِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالتَّحرُّرِ مِنَ الذُّلِّ وَالْتَّبَعِيَّةِ وَهُمْ إِيجَادُ مَدْرَسَةِ الْلَّأْوَادِ . . .

(١) إِنَّ الْأَمْرَ قَدْ يَتَجاوزُ ذَلِكَ، فَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ الْأَصْدِقَاءِ أَنَّهُمْ صَلَوَوا فِي إِحدَى الْقُرَى فَوَجَدُوا خُطَّابَيْ يَدْعُوا لِأَحَدِ خَلْفَاءِ بْنِ الْعَبَّاسِ بِالنَّصْرِ وَالْتَّمَكِينِ!! وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الْكِتَابَ أَلْفَ فِي زَمَانِ الْعَبَّاسِيِّينَ.

ليس المطلوب من خطيب الجمعة أن يحل هذه المشكلات؛ فذاك شيء أكبر من طاقة الخطيب، لكن المطلوب منه شيئاً:

الأول: أن يحاول أن يبيّن في نفوس المسلمين نوعاً من الاستعلاء على الصغار من خلال ربطهم بالله تعالى وتنذير الموت والتوجّه إلى معالي الأمور واتباع البناء المتدرج . . .

الثاني: تصور تسلسل منطقي لأسباب معاناة الناس وترتيبها في الذهن ومحاولة إبرازها؛ حيث إن لدى الناس جهلاً عظيماً في فهم أسباب شقائهم، ومن باب أولى في العلاقة المنطقية التي تربط بين تلك المشكلات؛ كما أن لديهم قدرة عظيمة على التكيف مع تلك المشكلات؛ فهم لا يعرفون أن الجهل والغوضى والكسل والعجلة وسوء التقدير هي الأمهات الكبرى لكل أشكال المعاناة. وما لم يحسن الإنسان من سجله في هذه القضايا أو بعضها على الأقل، فسيظل يتخطّط دون أن يعرف فكاكاً مما هو فيه!

ونقول من وجه آخر هل من الحكمة - مهما كان الظرف - أن نتحدث عن آداب الطعام أو فوائد السواك . . . والسامعون على جهل بعقيدة التوحيد أو كيفية الغسل الصحيح . . .؟ وهل من المفيد أن تنفس روح العزة والإباء فيمن يعيش على ناصية الشارع، وفيمن يتسلو لقمة العيش، ومن لا يجد عملاً إلا بأقصى الشروط . . .؟

إن نباهة الداعية وثقافته المتميزة كفيلتان بتعريفه على استخدام الكلمة المناسبة للسامعين. إن وظيفة خطبة الجمعة هي الإرشاد إلى مقاطع الحق، ومداواة جراح الناس بالتهوين منها تارة، وبإعادة تفسيرها تارة، وبزرع بعض الأمل تارة، وبتقديم بعض العلاج تارة أخرى.

إن تعرف الداعية على طبيعة الأشياء ومنظفتها، وتعرفه على محورية المشكلات وهامشيتها في حس الناس وشعورهم سوف يساعدانه على تقدير الموقف الصحيح من أزمات سامعيه.



المقدمة الخامسة
في علاقات الداعية

- ١ - علاقات الداعية.
- ٢ - علاقات الدعاة بعضهم ببعض.
- ٣ - علاقات الدعاة بالحكام.

(١) علاقات الداعية

العلاقات التي يقيمها الناس بعضهم مع بعض تنقسم إلى قسمين: علاقات قهرية، تفرضها ظروف خارجة عن إرادتهم كالعلاقات بين الأرحام والجيران وزملاء العمل... وعلاقات اختيارية كتلك التي تتم بين الأصدقاء والشركاء. ودلالة العلاقات الأولى على شخصية المرء هامشية؛ إذ قد يكون الأب صالحًا، ولا يكون الابن أو الأخ كذلك. أما العلاقات ذات الدلالات الكبرى فهي العلاقات الاختيارية.

التعقيد الموجود في عصرنا هذا، وسعة العلاقات التي على المرء أن يقيمها أديا إلى إيجاد بدائل وخيارات كثيرة لم تكن موجودة من قبل، ويمكن القول: إن العلاقات هي فن التوازنات، وإن كل علاقة يقيمها الداعية مع غيره هي انعكاس لوعيه ومبادئه ومصالح دعوته، ويمكن جعل سعة العلاقات الناجحة التي يقيمها الداعية مقياساً على نجاحه الدعوي وعلى نشاطه وعطائه وحركته، كما أنها دليل على قدرة الداعية على تمثل واقع الآخرين واستيعابه ثم التحرك في إطاره.

ولا نريد هنا أن نتحدث عن كل العلاقات التي يبنيها الدعاة مع الآخرين؛ فذاك حديث يطول، وقد كتب فيه الكثير؛ لكن الذي نريد أن نشير إلى بعض قضياته وعقابيله هو علاقات الدعاة بعضهم مع بعض وعلاقات الدعاة بالحكام، وهذه العلاقات مهمة ومؤثرة في نجاح الداعية في مهمته التي ندب نفسه إليها.



(٢) علاقات الدعاة بعضهم ببعض

لا يكون الخلاف بين علماء أهل السنة والجماعة في الأصول - غالباً - وإنما في الفروع، ومن ثم فإن هناك أرضاً مشتركة فسيحة يلتقي فيها على المستوى النظري والفكري جميع العاملين في الحقل الدعوي. لكن هذا الذي نقوله يتحقق حين يكون العاملون في ساحة دعوية واحدة في أحسن حالاتهم الفكرية والمزاجية، وفي حالة العافية من الأهواء والشهوات وضغط المصالح الخاصة والرؤى الجزئية. وهذا من حيث النظر ممكن، لكن على الصعيد العملي الواقعي فالامر أعقد مما نظن؛ فعلى الرغم مما نقوله من وحدة الأصول والالتقاء في الهدف الأكبر، ووحدة المصير، والتحديات المشتركة إلا أن هناك من العوامل والظروف ما يمكن أن يؤدي إلى تحويل الساحة الدعوية إلى ساحة حربأهلية!

من ذلك اعتقاد بعض الدعاة ضرورة استحوذ الأفضل على الساحة وطرد المفضول منها. ومن ذلك ظن بعض الدعاة أن الخلاف الذي بينهم وبين بعض منافسيهم خلاف في الأصول لا في الفروع. ومن ذلك أيضاً نظر الداعية إلى أسلوب ووسائل غيره من الدعاة على أنها غير مشروعة، أو على أنها مجلبة للخراب والهدم..

ومنها الشكوك والظنون المتبادلة حول التزاهة والاستقامة والإخلاص.. ويزيد الطين بلة أن هناك من الخصوم والمنافسين من خارج الساحة الدعوية من يذر الشك، ويضع بعض الدعاة في ظروف لا تدعو إلى الاطمئنان أو حسنظن.

يضاف إلى كل ذلك رواسب الخلافات العائلية والقبيلية والنقد الجارح

والتفاوت في العادات والتربية والأمزجة والحساسيات النفسية، وما إلى ذلك مما يشكل خلقيات غير مرئية وبينى عميقة لكثير من الخلافات التي تبدو خلافات لمصلحة الدعوة، وهي منها براء! .

ولعلنا نذكر في النقاط التالية بعض السمات والتصورات التي تساعد على تحسين العلاقات بين الدعاة، وتحقيق التوتر بينهم:

١ - حاول أن ترسل رسالة طيبة كلما ستحت الفرصة:

حاجة الإنسان إلى تشجيع الآخرين واهتمامهم به حاجة متتجذرة في التراث الثقافي - وربما الجيني - للبشرية؛ ومن الضروري لتشييد العلاقات الأخوية أن يحاول كل واحد منا استغلال أية مناسبة ليثبت لأخيه أنه مهم به متضامن معه قادر على أن يساعده على بعض لأواء الحياة؛ كما أنه راغب في أن يشاركه أفراده، ويجعل الفرحة فرحتين

من المؤسف أننا نستخفف بأشياء كثيرة، وهي في عين الآخرين مهمة وذات شأن، أي أننا لا نملك الحساسية الكافية لفهم أبعاد الموقف الشعوري للأخرين تجاه أحداث حياتهم الخاصة وتوجه موقفنا منها. إن ابتداء الأخ بالسلام شيء مرمز اجتماعياً وعرفياً، وقل نحو ذلك في الاستفسار عن صحته بالهاتف أو بزيارة شخصية؛ ومثل ذلك عرض خدمة عليه في مناسبة سعيدة أو إرسال باقة ورد - مثلاً - أو السؤال عن ابنه الذي يدرس خارج البلاد أو الثناء على محاضرة ألقاها، يشعر بالفائدة منها . . . مما لا يمكن حصره. وفي حديث مسلم: «لا تحرقئن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق». وفي الحديث الذي أخرجه الشيخان: «يا نساء المسلمين لا تحرقئن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(١).

وحيث وفد كعب بن مالك - رضي الله عنه - على رسول الله ﷺ بعد أن أنزل الله توبته على الثلاثة الذين خلُّفوا كان الصحابة قد تحلقوا حوله في

(١) أي لا تمنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها ولو كان ما لديها قليلاً. والفرسن من الشاة كالحافر من الدابة.

المسجد، قام طلحة بن عبيد الله يهروي حتى صافحه، وهنأه بتوة الله عليه، فسرّ بذلك كعب سروراً عظيماً، وقال: والله ما قام رجل من المهاجرين غيره؛ فكان كعب لا ينساها لطلحة^(١).

٢ - لنحاول اكتشاف الإيجابيات:

يروى أن عيسى - عليه السلام - مرّ في نفر من أصحابه على شاة ميتة، فقال لهم: صفوها، فذكروا من كراهة رائحتها ويشاعة منظرها... فأراد أن يلفت انتباهم إلى شيء لم يقيموا له وزناً، فقال: لم يقل أحد منكم: ما أشد بياض أسنانها؟!

وهكذا فإن أي مسلم - مهما كان وضعه - له الكثير الكثير من الإيجابيات والفضائل، بل إنك لا تجد إنساناً على وجه هذه الأرض هو عبارة عن مجموعة من السيئات؛ وما أعظم العظة التي يقدمها لنا القرآن الكريم حين نص على الإنعام بالاصطفاء لكل واحد من أمّة محمد ﷺ حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُرْثَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أُصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَوْمَئِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٢). يقول بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - ما استبشرنا بآية في كتاب الله مثل استبشرنا بهذه الآية. إن الذي يعمل في حقل الدعوة، ونأخذ عليه بعض المأخذ له فضائل كثيرة قد لا نحصيها، أهمها فعل الواجبات أو السواد الأعظم منها وترك المحرامات أو السواد الأعظم منها. ونحن حين نضع اللوم على بعض الدعاة، أو نصفهم ببعض التقصير، لا نقصد إلى أنهم دون غيرهم من عامة الناس، بل إن نقدتهم دليل استجماعهم سمات من النبل والخير والفضل يبرز معها ما يقع منهم من تقصير، فسيرتهم ثوب ناصع البياض يشينها أي شيء، ونشد لها دائماً أن تظل نقية تعكس نبل المقصود الذي ندبوا أنفسهم إليه.

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٢.

إن قدرة العقل البشري على اكتشاف السلبيات أعظم من قدرته على اكتشاف الإيجابيات، وعلينا نحن أن نجاهد لنوجهه نحو اكتشاف الخير الكامن في إخواننا، وتقديره لأصحابه.

٣ - لنشاور إخواننا في خصوصياتنا:

مهما كان لون النشاط الذي يقوم به الداعية، فإن الساحة الدعوية تظل واحدة وأشبئ ببحيرة صغيرة، ما يلقى فيها يؤثر في مجملها بصورة من الصور وقد أدت ظروف شتى إلى توسيع دوائر الخصوصيات لدى أكثر الدعاة، وربما اعتبر بعض الدعاة - أحياناً لغير سبب - نفسه مركز الدائرة وغيره الهامش، وعلى الآخرين أن يستشيروه، ويستفيدوا من خبرته، أما هو فلا يوجد في الساحة من يمكن أن يستفيد منه، إنها عقدة الأخ الأكبر أو الأقدم أو الأقوى !!

إن من جملة المشكلات تحديد دوائر الخصوصيات؛ فما اعتبره شأنًا خاصًا أجهده فيه على النحو الذي أراه مناسباً، ينظر إليه غيري على أنه شأن عام، والمشورة فيه واجبة، إذ إنه يؤثر في الساحة برمتها .. .

ولا يخلو كلا النظرين من شيء من الصواب في أكثر الأحيان، لكن الذي نريد أن نقوله هنا هو مشاورة الإخوة والزملاء والشركاء فيما تعتبره شأنًا خاصًا، كلما كان ذلك سائغاً إذ ليس المقصود من الشورى الاسترشاد والالهتماء إلى الرأي الأصوب دائمًا، وإنما إيجاد الألفة بين الناس وزرع الثقة وإسقاط الكلفة وتقوية النسيج الاجتماعي والإيحاء للمستشار بأنه متميز، وأهل لأن يستفاد منه خارج مجاله الخاص .. .

كم يكون جميلاً أن يستشير الداعية أخاه في بعض المشكلات التي يواجهها، أو يستشيره في بعض الكتب التي تقفيه في مجال معين !

٤ - لا يجوز إلباس التحسسات الشخصية ثوب الفكر:

المهنة الواحدة والعمل المشترك يفرزان نوعاً من التنافس ووجهات النظر المتباعدة والاحتكاك المزعج وسوء الفهم المتبادل

وهذا كله طبيعي، ويمكن تأطيره وتهميشه واستيعابه بطريقة ما، لكن الذي يحدث في كثير من الأحيان أننا نجد نوعاً من الغضاضة في الإعلان عن جوهر خلافاتنا وبيان أنها بسبب التنافس أو اختلاف الأمزجة... .

ونرى آنذاك أن الأنسب عزو الجفاء والتقطاع السائد بيننا إلى خلاف في الفكر والمبدأ والأسلوب وتقدير الظروف.... وفي هذا تلبيس على النفس والناس وإخلال بالقيام الله بالقسط والعدل. ونظرأً لتتجذر هذه الوضعية في سلوك الناس قال أحدهم: «الخلاف الشخصي إذا طال أمده تحول إلى خلاف فكري». ولذا فإن علينا أن نميز بدقة بين الأمرين، وأن نحاول وضع كل في إطاره الصحيح. إن التحسسات النفسية تأخذ صفة المؤقت، أما الخلافات الفكرية فإنها أكثر ديمومة واستمراراً، ومن الظلم للدعوة والترابط الأخوي أن نحوُ العارض الطارئ إلى أشياء ثابتة ولازمة.

٥ - المعرفة الكاملة صفح كامل:

يروى عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: «أعقل الناس أعذرهم للناس». وهذا القول سابق لزمانه لأنه كلام رجل من أعظم رجال (الاستراتيجية) في تاريخنا الإسلامي؛ إذ إن كثيراً من النِّزَق والبَرَم الذي كان يبديه كثيرون في الأجيال السابقة - مردُه إلى عدم القدرة على الإحاطة بالأسباب والظروف التي أدت إلى حصول حدث ما أو وضعية معينة. التقدم الحضاري الموجود الآن جعل الناس أكثر تفهماً لأحوال بعضهم بعضاً، وبالتالي أكثر تسامحاً تجاه ما يرونـه من تصرفات... .

ليس المقصود من هذا الكلام أن نقر كل ما نراه؛ فهذا ليس بصواب، لكن المقصود أن نحاول فهم الأسباب والجذور والخلفيات والنشأة التربوية والظروف المحيطة والضغوط المادية والأدبية التي تمارس من هنا وهناك وما إلى ذلك مما يؤدي إلى ولادة وضعية معينة، وإذا وقفنا على ذلك علمنا أن الوضع الذي نراه خطأنا وضع قاهر لأصحابه من غير وجهة، وربما كان تضيقهم منه لا يقل عن تضيقنا، وقد نصل إلى نتيجة هي أن ما رأيناـه من

أسباب وجذور... قد يضعنا في نفس الموقف الذي ننتقده فيما لو أحاط بنا...

إن الإرادة مهما كانت حرة وقوية، وإن العقل مهما كان مستنيراً فإن هناك ما يحدد حركتهما وفاعليتهما وتوجههما؛ وإن علينا أن نحاول تفهم ذلك وتقديره.

٦ - لنعزل تصرفاتنا عن مشاعرنا^(١):

ليس من الحكمة أن تُبعد رقابة وعيينا عن مشاعرنا، وهذه الرقابة هي إحدى ما يميز الإنسان عن الحيوان. وليس من الحكمة ولا اللباقة ولا المصلحة أن تكون تصرفات الإنسان صدى لمشاعره في كل موضع وكل أوان؛ ففقه الموازنات يعلمنا تجاوز اللحظة الراهنة والنظر إلى الأمام، وتجاوز المسألة الصغيرة والتطلع إلى ما هو أكبر...

وقد أخرج البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «استأذن رجل، فقال: ائذنا له فبنس أخو العشيرة أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله قلت الذي قلت، ثم أنت له الكلام؟». قال: أي عائشة: إن شر الناس من ترَكَ الناس - أو ودعه الناس - اتفاء فحشه»^(٢). قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولبس الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول؛ وذلك من أقوى أسباب الألفة. وقال بعضهم: المداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفالسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلفظ القول والفعل، ولا سيما إذا احتاج إلى تألفه ونحو ذلك^(٣). وفي هذا البيان غنى عن كل بيان.

(١) رجل الإدارة: ١٤٣.

(٢) فتح الباري ١٠: ٤٧١.

(٣) السابق ١٠: ٥٢٨، ٥٢٩.

٧ - تأسيس الأعمال المشتركة:

مهما قلنا إن الساحة الدعوية متعددة، وإن حاجتها أكثر مما هو موجود فيها فإن الدواعي للنزاع والصدام تظل موجودة. وإن مشاعرنا مهما تكون تجاه بعضنا بعضاً طيبة فإنها تحتاج إلى ما ينظمها وينميها ويعجذبها... وإن خير ما يتحقق هذا، ويمنع ذاك هو تأسيس الأعمال الدعوية المشتركة كالجمعيات والمدارس وبناء المبرات والمساجد والمؤسسات الإعلامية المختلفة إلى جانب اللقاءات الدعوية والحوارات الفكرية وكل ما من شأنه إشعار الجميع بأنهم شيء واحد، ويسعون إلى غاية محددة واحدة.

إن هذه الطريقة في تنظيم المصالح وتبادل المنافع هي المتبعة اليوم بين الدول؛ حيث تصير الحكومات المتعاونة إلى تأسيس المجالس واللجان التي تجمع اجتماعات دورية، وتخطط للمشاريع المشتركة، وتسعي لتوحيد الرؤية في المجالات المختلفة.

وإن من المؤسف حقاً أن كثيراً من الدعاة لم يشعر بعد ب مدى النفع الذي يعود عليه وعلى دعوته من وراء الأعمال المشتركة مع من يخالفونه في بعض أسلوبه أو وسائله! والدليل على صحة ما نقول هو كثرة الأعمال الفردية والضعيفة، وقلة الأعمال الجماعية الكبيرة!

٨ - علينا أن نذكر دائماً أن الهدف النهائي واحد:

لو استعرض الدعاة - على مختلف مناهجهم - مجمل الأهداف النهائية التي يسعون إليها لوجدوا أنهم يعملون - بوعي أو بغير وعي - من أجل تحقيق أهداف مشتركة؛ فالصحوة المباركة التي تشهد لها أمّة الإسلام اليوم قاربت بين المناهج إلى حد لا يستهان به، وجعلت المحكّات النهائية لمجموعة الإحالات الفكرية والشعورية - واحدة أو تقاد.

ولا ريب أن الهدف الأعظم للجميع هو الغزو برضوان الله - جل وعلا - من خلال تحقيق مجموعة من الأهداف المختلفة من نحو التمكين لدين الله في الأرض ونشر أعلام الهدایة فيها ونحو خدمة أوطان المسلمين، والسعى

إلى رفع مكانة أمة الإسلام بين الأمم، وتربيّة الناشئة وتزكية النفوس ونشر العلم الشرعي، وتحقيق الفروض الكفائية، والمساعدة على التخفيف من وطأة الجوع والجهل والمرض وشّتى أنواع التخلف....

وهذه المجالات ذات الأهداف المحددة مستغرقة لكل الجهود الدعوية المبذولة في الساحات العملية كافة؛ مما يعني أن الجميع يسيرون بالأمة نحو غايات واحدة ونهائيات متجانسة.

صحيح أن مشاعرنا نحو بعضنا ونظرتنا إلى أعمال الآخرين لن تكون على هذا النحو، كما أن تقويمنا لأنشطة الآخرين لن تكون بمثل هذه البساطة، لكن علينا أن نعلم أن ما نخسره بسبب الخلاف، وما نستهلكه من طاقات وأوقات في الجدل العقيم حول صحة المنهاج وصواب الأعمال... هو أكبر بكثير من خسائرنا بسبب اختلاف الأساليب والوسائل التي نختلف حولها. إن من الكياسة والفتنة ألا نضيئ العمر في طلب الإجماع على مسائل لا تقبل بطبعها وحدة الرؤية والطريقة والوسيلة.

٩ - المناصرة والمناصحة أوان الشدة:

طريق الدعوة مملوء بالعقبات والتحديات، وأوقات المعاناة فيه أكثر من أوقات الراحة والاطمئنان. وحين يقع الداعية في شدة، أو يحتاج إلى معونة فإنه يأمل في مساعدة رفاق الطريق الطويل ومناصحتهم وتسديدهم، وقد جرت عادة كثير من الناس أن يتقاربوا في أوقات الرخاء، وينسى بعضهم بعضاً في أوقات الشدائد. ولا ريب أن بعض عذابات الطريق شيء لا بد منه؛ وحين يتعرض لها الداعية يكون بحاجة إلى من يصبره ويثبته... كما أن جزءاً من الآلام يحل بالدعاة بسبب أخطائهم وسوء تقديرهم للأمور؛ وهم آنذاك بحاجة إلى من يسددهم، ويبصرهم بعواقب الاجتهادات الخاطئة... وإن كثيراً من الكوارث التي أصابت الدعوة والدعاة كان من الممكن تلافيه لو أن العارفين منا بالموقف الصحيح نهضوا لمناصحة إخوانهم وثنיהם عن اندفاعهم نحو حرق المراحل أو القفز في الهواء أو سوء التقدير...

إن علينا أن نعود إلى أخلاق علمائنا وأئمتنا في تعاملهم مع بعضهم

بعضاً فيما نحن بصدده خاصة وفي شؤونهم عامة؛ حيث كانت مصلحة الإسلام العليا هي المسيطرة على حسّهم وتصرفاتهم. وما يروى في ذلك أنه لما حُمل الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون في محنة خلق القرآن سمع أبو جعفر الأنباري بذلك، فعبر الفرات، فوجد أحمد في الخان، فسلم عليه. فقال: يا أبا جعفر تعنت. فقال: ليس هذا بعناء، وقال له: يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لمن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق كثير من خلق الله، وإن أنت لم تُجب لم يمتنع خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله، ولا تجهم إلى شيء. فجعل أحمد يكثي، ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله! ثم قال أحمد: يا أبا جعفر أعد عليٍ ما قلت. فأعدت عليه، فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله^(۱). قد كان أبو جعفر يدرك خطر تساهل الإمام أحمد في هذا الموقف، وما قد يجره من البلاء على الأمة، فسار إليه يشدُّ من عضده، ويرفع من همته؛ لأن المسألة أكبر من أن تترك لأحمد يواجهها بمفرده، وإذا رأى العالم الرياني من أخيه انحرافاً، أو وجده في موقف خطأ فإنه لم يكن ليُشكِّt على ذلك، وإنما يأمره بتقوى الله، وينبهه إلى عاقبة ذلك؛ فحين دعا الحجاج علماء البصرة والكوفة، وجعل ينال من علي - رضي الله عنه - غضب الحسن البصري لله، وجعل يشتبه على علي إلى أن أغضب الحجاج، فقام عن السرير مغضباً، وخرج القوم. فقال عامر الشعبي - وكان جالساً معهم -: فأخذت بيد الحسن، فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير، وأوغرت صدره. فقال الحسن: إليك يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه، ویحک يا عامر هلاً اتقيت الله!! إن سُئلت فصدقت، أو سكت فسلمت. فقال الشعبي: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشدُّ في التبعة!^(۲).

(۱) مناقب الإمام أحمد بن حنبل: ۳۹۱.

(۲) مناهج العلماء: ۱۸۶.

إن مما يساعد على قبول النصيحة أن تكون سراً، وبصيغة لطيفة، ومن غير استعلاء وتكبر مع إخلاصها لله - جل وعلا - وتحين الوقت المناسب والفرصة السانحة لإسداها.

١٠ - لا نقف مواقف التهم، ولا نسارع إلى الاتهام:

أخرج البخاري وغيره أن صفيحة زوج النبي ﷺ جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحديث عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ يقلبها - أي يردها إلى منزلها - حتى إذا بلغت باب المسجد مر رجلان من الأنصار، فسلمما على النبي ﷺ فقال لهم: على رسلكما، إنما هي صفيحة بنت حبي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبير عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكم شيئاً».

قال ابن حجر: وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان.

قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء، ومن يقتدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم^(١).

إن كثريين منا يلقون الكلام على عواهنه دون مبالاة بما قد يفهمه الآخرون منه، كما أن بعضنا لا يلتزمون بما ينبغي أن يكون عليه العالم والداعية من حشمة وسمت وتنزه عن خوارم المروءة، والبعد عن مواطن الشبه؛ مما يوقع الآخرين في غيبتهم، ويضعف الاستفادة من علمهم وهدفهم.

وإن علينا واجباً آخر هو عدم المسارعة إلى اتهام من عُرف عنه الخير لأدنى شبهة تعرض لنا؛ فإن الله تعالى أمرنا بالثبت والتبيين عند سماع الأخبار

(١) فتح الباري ٤: ٢٨٠.

والشائعات، حيث قال - سبحانه : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَاءَنُوا إِنْ جَاءَكُوْ فَاسِقٌ يَبْلُو فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُؤْبِلُوا فَوْمًا بِجَهَلٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿٦﴾»^(١). وقد ثبت لدينا بالخبرة والتجربة أن القادرین على التزام الدقة في نقل الأخبار وفهمها على وجهها الصحيح، والتفریق بين الخبر والتحليل الشخصی من بعض الرواۃ - أن أولئک قلیلون جداً، وقد جرت العادة أن يتدخل في ذلك الهوى أو سوء الفهم، أو هما معًا! مما يدعو العاقل المنصف إلى التحرز والأناة تجاه كل ما ينقل من أخبار الناس عامة والدعاۃ خاصة؛ حيث إنهم كثيراً ما يكونون مستهدفين .

وإذا علم الداعیة أن جزءاً من نجاحه سيكون مستمدًا من نجاح إخوانه فإنه سوف يسعى إلى نجاحهم وتقديمهم في مهامهم؛ والله الأمر من قبل ومن بعد .



(١) سورة الحجرات : الآية ٦.

(٣) علاقات الدعاة مع الحكماء

يوفِر الإسلام عقيدة وشريعة، كما يُوفِر التاريخ والتراث والأمال والآلام والمصير المشترك، الأرضية والإطار والسياج الذي تتفاعل فيه القوى الاجتماعية المختلفة في حالات التوافق والتَّخالُف والتَّنوع. وإن الأسباب التي تدعو إلى شيء من التوتر داخل المجتمع الواحد كثيرة ومتعددة؛ إذ إن المبادئ العليا والأهداف المشتركة مهما أسبغت على الناس من مفاهيمها ومنطقيتها، ومهما عززت من مشاعر الوحدة والألفة فإن الصحيح أيضاً أن مفاهيمنا عن الحالة الراهنة، وعما ينبغي أن تؤول إليه ليست واحدة دائماً؛ كما أن كل واحد منا يرسم مجاله الخاص ومجاله الحيوي على انفراد، وإن كل عدوان عليه من آية جهة يشير تحفظه؛ كما أن أساليب معالجتنا للمشكلات ليست واحدة، وتحديداً للمسؤولية عنها مختلف ومتفاوت. لهذه الأسباب وأسباب أخرى نجد أنه لا يوجد مجتمع على وجه الأرض ليس فيه شيء من التوتر والتعارض والتنافر حول أمور وقضايا كثيرة، وهذا ينسحب على المجتمعات المتقدمة والمتخلفة في آن واحد، كما ينسحب على المجتمعات الحاضرة والماضية بل إننا نخطو خطوة أخرى، فنقول ليس التمايل الاجتماعي التام أمارة على الصحة، ولا هو موضع غبطة لأي مجتمع من المجتمعات، بل علامة الشيخوخة والأخذ في الخمول والتحلل . . .

إن المجتمع السليم الحي يستحمل على توترات كثيرة؛ لكنه ينجح في إيقاف الخلافات عند حدود معينة، كما أنه يستغل تلك التوترات في تنوع المجتمع وإثرائه، وهو يعمل على الاستفادة منها في تجديد موازنته واكتشاف عيوبه وإبداع الحلول لها، ويتحقق من خلالها سُنة (التدافع) التي تقى

المجتمعات البشرية من الانجراف نحو البعد الواحد، أو الوقوع تحت سيطرة قوة واحدة.

انطلاقاً من هذه المفاهيم تتقبل كثيراً مما يحصل في المجتمعات الإسلامية اليوم من الخلاف حول تحديد المشكلات التي تعاني منها الأمة، وحول أساليب الحل وضمانات كرامة الإنسان المسلم ونيل حقوقه كافة غير مبخوسة، وسواء أكان ذلك الخلاف بين الدعاة والمصلحين أو بين الدول بعضها مع بعض، أو بين هؤلاء وأولئك. وأعتقد أن بناء نوع من التفاهم بين جميع الأطراف، ضرورة حيوية من أجل تحقيق المصلحة العليا للأمة؛ وذلك يتطلب تضاحية من الجميع وتنازلاً ومحاولات جادة للفهم المتبادل من لدن جميع الأطراف، وإنما نقول ذلك؛ لأن «العلاقة المتميزة بين السلطة والدين شرط لا غنى عنه لتأسيس الاجتماع المدني، أي لبناء مجتمعات متعاونة ومتضامنة بين أفرادها، وهو الإطار الضروري لإيجاد التواصل والتداول المعنوي والمادي، وبالتالي لنمو الحضارة وتقدمها»^(١).

فالثقافة - أية ثقافة - تتهشم، وتتعرض للمحن ما لم تقم دولة بتبنيها - ولو على مستوى معين - وتنميها ودعمها، والدولة تكتسب من وراء تبنيها لثقافة الأمة ومبادئها ما تحتاج إليه من ولاء ودعم في ضبطها لمجتمعها، وفي تنفيذها لخططها ومشاريعها. إن نجاح أية أمة بشكل فذ يعني نوعاً من النجاح في العلاقات بين العلماء والحكام، أو بين أهل الكتاب وأهل الحديد - كما يقول ابن تيمية - ونجد صدى هذا واضحاً في تاريخنا الإسلامي المديد؛ ففي حالات إقبال الإسلام والأمة معه كان هناك نوع من الإجماع على أولويات المرحلة وأهدافها، وفي حالات الأزمات والاختناقـات الحضارية كان الصدام حول كل شيء وهو سيد الموقف، ويصدق في ذلك قول أحد المؤرخين: في حالات الانهيار يصعب تجنب الاقتتال بين الإخوة^(٢).

(١) نقد السياسة: ٢٣.

(٢) مختصر دراسة التاريخ: ١٢٥: ٤.

لم يكن في زمان النبي ﷺ مجال لأي صراع بين مبادئ الدين وأالية الدولة؛ حيث كان - عليه الصلاة والسلام - النبي المعصوم الذي يبلغ الناس أمر ربه، كما كان رئيس الدولة أيضاً والمرجع الأعلى في شئون الأمة، يسوس مصالحها، ويجهز جيوشها، ويقضي في حربها وسلمها وقضايا مالها واجتماعها... وبعد لحاقه بالرفيق الأعلى وقع الاختيار على أبي بكر - رضي الله عنه - وكان في نظر الصحابة - رضي الله عليهم - أميزهم؛ فهو السابق بالصحبة والأقرب إلى رسول الله ﷺ والأكثر ورعاً والأغزر علمًا... وحين ولّ خطبة كشف فيها عن التزامه بتحقيق مصلحة الجماعة في حدود الطاعة لله - تعالى -، وقد جاء فيها: إن أطعت فأعينوني، وإن عصيت فقوموني. أطعني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم. لقد ولّت عليكم، ولست بخيركم... أفتظنون أنني أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ إذاً لا أقوم بها (أي الحكم). إن رسول الله كان يعصم بالوحي، وكان معه ملّك. وإن لي شيطاناً يعتربني، فإذا غضبت فاجتنبني، لكم علي أن لا أؤثر في أشعاركم وأبشراركم، ألا فرعوني، فإن استقمت فأعينوني، وإن زغت فقوموني^(١).

وبعد عهده لعمر بالخلافة ووفاته قام الرجل بالأمر على خير قيام، وكان كما قالت ابنة شعيب «إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرَّتِ الْقَوْىُ الْأَمِينُ»^(٢). وقد اتسعت رقعة الدولة في زمانه اتساعاً عظيماً، وكانت المشكلة التي تواجه الخلفاء - على مستوى الأعوان - أن الجيل الذي رياه النبي ﷺ على عينه كان في تناقص مستمر، على حين كان الناس من عامة وخاصة؛ فمن لم يره، ولم يقبسوا من نوره في زيادة مطردة؛ مما يعني اتجاهها نحو القلة في الطراز الرفيع الذي يصلح لمساعدة

(١) تاريخ الطبرى .٢١٠:٣.

(٢) سورة القصص: الآية .٢٦

الخلفاء الراشدين، إلى جانب اتجاه نحو الكثرة الكاثرة على مستوى من يحتاجون إلى رعاية وسياسة وضبط وتوجيه... لكن عمر - رضي الله عنه - إلى جانب أنه رجل دولة من الطراز النادر والرائع جداً كان قد سد كل المنافذ التي يمكن أن يدخل عليه منها تشويش، بل سار في الرعية وفي نفسه سيرة عمرية فريدة قلماً وُجِدت لدى أمّة من الأمم في أي زمان من الأزمنة؛ حيث لزم التقشف في حياته الشخصية إلى جانب عدم استعانته بأحد أقربائه في شئون الدولة بالإضافة إلى علمه واجتهاده الواسعين، وغيره على دين الله ومصالح الرعية ومحاسبة ولاته ومتابعتهم المتابعة الدقيقة؛ مما يعجز القلم عن وصفه^(١).

إن رئاسة النبي ﷺ لدولة الإسلام وولاية صاحبيه من بعده على تلك الدرجة من الرفعة والسمو والتزاهة والكفاءة وثقة الناس واطمئنانهم... قد جعل الحسن الإسلامي بالنسبة للدولة يتشكل على درجة عالية من المثالية، فالمسلمون يريدون من قادتهم أن يكونوا ساسة في أخلاق أنبياء وصديقين؛ ولذلك ظلت هذه الفترة المباركة من الحكم تضغط على كل الفترات التي جاءت بعدها وإلى يوم الناس هذا، وتولدت لدى الناس حساسيات قوية ضد أي انحراف عن الصور الرائعة التي برزت في تلك الفترة. وحين ولَى المسلمين عثمان - رضي الله عنه - كانوا يرون أنَّهم ولَوا خيراً فيهم، وقد كان ظنهم في محله، لكن الناس غفلوا عن أمر مهم، هو أنَّ القاعدة التي حكمها النبي ﷺ و أصحابه من بعده كانت على درجة سامية من الالتزام بأداء الواجبات والبعد عن الزريع، وبالتالي فإنَّ الدولة لم تكن بحاجة إلى التدخل الواسع في شؤونها، ولا استخدام سياسات القسوة والشدة معها، لكن الأمر قد اختلف بعد ذلك... وما يروى في هذا أن بعض الناس قال لعلي - رضي الله عنه - إنك لا تسير فيينا سيرة الشَّيْخِيْن أبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟ فقال: نعم، الشَّيْخان كَانَا أَمِيرِيْن عَلَى أَمْثَالِيْ، وَأَنَا أَمِيرٌ عَلَى أَمْثَالِكُمْ!

(١) انظر في هذا التحول الاقتصادي والاجتماعي: ٢٢ وما بعدها.

ومن ثم فإن الناس - ومنهم بعض أكابر الصحابة - أخذوا على عثمان - رضي الله عنه - بعض سياساته في تعيين الولاية والتصريف بأموال بيت المال، مما هو معروف ومشهور في كتب التاريخ^(١).

من ذلك اليوم بدأ الناس يشعرون بنوع من المفارقة بين سياسات الدولة وبين ما يقرؤونه في كتابهم وسنة نبيهم وما خبروه وسمعواه من سلوك النبي ﷺ وصاحبيه في أمور الحكم والدولة.

ومع تقدم الأيام كان الوعي المسلم حول قضية السياسة والدولة يزداد ارتباكاً، وصار للعلماء في التعامل مع الحكام مناهج ومقولات عديدة، كما صار هناك تأصيلات فقهية كثيرة حول حدود الطاعة الواجبة لولي الأمر وحول مخالفته والخروج عليه بالسلاح وبغيره، وحول ولاية الوظائف للدولة وقبول العطاء منها، وما شاكل ذلك . . .

خذ مثلاً على ما نقول موقفهم من قبول أعطيات الخلفاء والأمراء؛ فأبوا ذر - الصاحب الجليل - كان يقول للأحنف بن قيس: «خذ العطاء ما كان نحلة، فإذا كان أثمان دينكم فدعوه». وروي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا أعطيينا قبلنا، وإذا منعنا لم نسأل»^(٢).

وكان الإمام مالك لا يتأثم من الأخذ من الخلفاء؛ لأنه مال المسلمين^(٣). أما الإمام أحمد فإنه لما بعث له المตوكل عشرة آلاف درهم مع أحد حجاجه امتنع من أخذها وقبولها. فقال له الحاجب: يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك في قبولها. فأخذها الإمام أحمد وزرعها، ولم يبق منها شيئاً حتى الكيس الذي كانت فيه تصدق به، ولم يعط لأهله منها شيئاً وهم في غاية الفقر وال حاجة^(٤).

(١) انظر فتح الباري ٥٦:٧، والبداية والنهاية ١٧٧:٧، والخلافة أو الملك: ٦٤ وما بعدها.

(٢) الإحياء ١٣٦:٢.

(٣) مناهج العلماء: ١٤٣.

(٤) السابق: ١٤٤.

وروي أنه كان لا يصلح خلف عمه إسحاق بن حنبل وخلف بنيه، ولا يكلمهم أيضاً؛ لأنهم أخذوا جائزة السلطان^(١).

وهكذا فبعضهم قبل الأعطيه، وانتفع بها، وبعضهم أخذها، وتصدق بها، وبعضهم ردها بعطف، وبعضهم ردها ردأ جميلاً...

بناء الأرضية المشتركة:

ستستطيع كل الأطراف الفاعلة في حياة المسلمين أن تعمل الكثير في حالة واحدة، هي (الشعور بالمسؤولية) أمام قيوم السموات والأرض يوم يلقاه الواحد منا فرداً، ويسأله عن مجموعات الإمكانيات التي وضعها بين يديه كيف تصرف فيها، وعلى أي وجه استغلها واستثمرها... وقد أخذ الله العهد على أهل العلم أن يصدعوا بالحق ويعلموا الناس أمور دينهم حتى لا تنحرف الأمة عن منهج ربها، وحتى لا تنحدر إلى مستنقعات الهمجية والانحطاط، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيقَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ لَتَبَيَّنُهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُونَ فَنَبَدُؤُهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشَرَّوْهُ بِهِ مَنَا قَلِيلٌ فِيمَنَ مَا يَشَرُّونَ﴾^(٢). وقال سبحانه: ﴿أَلَعَنَ اللَّهُنَّ كَفَرُوا مِنْ بَنِتٍ إِنْزَهَهُ اللَّهُ عَنِ الْمُحَمَّدِ وَعَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٣). فالشعور بالمسؤولية أمام الله - تعالى - سوف يدفع أهل العلم إلى بيان الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من شروط ريادة الأمة ومسؤوليتها.

أما الدولة فإن عليها إشاعة العدل وإيصال الحقوق إلى أصحابها وحماية البيضة وحفظ الأمن وتطبيق الشرع ومساعدة الناس على حل مشكلاتهم^(٤)... ولهم على جميع أفراد الأمة الطاعة بالمعروف. وتشترك

(١) البداية والنهاية ١٠: ٣٤٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

(٣) سورة المائد़ة: الآية ٧٨، ٧٩.

(٤) انظر حول مبادئ الحكم في الإسلام: الخلاصة أو الملك: ٣٧.

الأمة مع علمائها وحكامها في مهمة كبرى هي القيام بأمر الله - تعالى -
والتمكين لدینه في الأرض ونشر أعلام الهدایة في العالمين.

لكن المشکل دائمًا ليس في تحديد هذه الوظائف وإنما في طريقة التطبيق بشكل لا يلحق الضرر بأي جانب من جوانب الحياة الإسلامية، كما لا يوقع أي طرف في العنت والخرج، بمعنى ألا يتم بيان الحق ولا تسير شؤون الدولة بطريقة صماء كثيفة، وإنما بالشفافية الكاملة وروح التفاوض والتشاور والتسامح؛ بما يحقق الإيجابيات المرجوة، ويحفظ على الأمة تمسكها والتتفافها حول مصالحها العليا.

وفي تصوري أن كثيراً من الشروط والحدود التي وضعها بعض الفقهاء مما ينبغي توفره في الحاكم المسلم وكيفيات إدارته للدولة وكذلك التفاصيل التي وضعت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأساليبه - كل ذلك لا يمكن تطبيقه بطريقة صارمة، بل إن هناك مساحات واسعة للحاكم يتحرك فيها لتحقيق المصالح المرسلة، وما يراه ضرورياً لحفظ كيان الأمة؛ حيث لا يوجد في العالم كله أمة تستطيع أن تحدد كل تحركات حاكمها وتصرفاته وإجراءاته... كما أن كثيراً من قضايا الدعوة يقوم على التقدير الشخصي للداعية أو الجماعة، وهذا التقدير قد يكون صحيحاً وقد لا يكون. ومن ثم فإن اعتماد روح المراجعة والنقد البناء المنصف مع تحمل المسؤولية إلى جانب المصارحة والتعاون والالتزام العام بالإسلام وأحكامه والأهداف الكبرى للأمة هو الضمان للممارسة الصحيحة في حياتنا الاجتماعية.

في ظل التخلف المرير الذي تعشه أمة الإسلام وفي ظل الاتصال الكوني الهائل صار الاستقلال الوطني التام أمراً في غاية الصعوبة؛ فالحرية ليست شعاراً يُرفع، وإنما هي في جوهرها عبارة عن القدرة على الاختيار، وليس ثمة اختيار ما لم يكن هناك بدائل، والتخلف الذي نعانيه جعل البدائل أمامنا محدودة جداً... ومن هنا فإن حكام المسلمين سيضطرون إلى موازنات دقيقة، وسيتعرضون لضغوط مختلفة، كما أن من المستحيل تلبية كل

المطالب التي يدندن بها الناس دون معرفتهم بالإمكانات المتاحة. إن المهم أن تنجح في إقامة تحالف وطني خفي يوسع مساحات المناورة في تعاملنا مع الأعداء، ومع أولئك الذين بنوا خطط نجاحهم على استمرار تخلفنا.

إن الفهم المتبادل لطبيعة الدولة وطبيعة الدعوة مهم في إقامة ذلك التحالف، وفي تخفيف توترات التنافس - عندما تخلص النيات - وإن مما ينبغي أن يكون معروفاً أنه لا توجد دولة تستغني عن عصري الإقناع والإكراه معاً، فإن جازاتها هي وسائلها لإقناع الناس بجدراتها وكفاءتها في فرض رؤيتها التحضرية على الناس. وعنصر القسر والإكراه ضروري لضبط حركة كل أولئك الذين حرموا من التربية القوية، وأولئك الذين يريدون التمتع بخيرات المجتمع دون تقديم أي شيء له ...

إن المجتمع الفاضل هو ذاك الذي يقوم بشؤونه أو بأكثرها دون الحاجة إلى تدخل الدولة، ولكن مهما كان الأمر، فسيظل هناك استخدام للقوة لكن الدولة الفاضلة الناجحة أيضاً هي التي تحل أزماتها الداخلية، وتديرها بأقل قدر ممكن من استخدام العنف والإكراه. والمهم في هذا أن القدر الذي يستخدم في ضبط المجتمع يكون عادلاً ومكافأة لحجم الجناية في إطار توجيهات الشريعة الغراء.

والدعوة إلى الله بطبعها وبما هي اتصال بالناس تعد - في نظر الدولة - مؤسسة لسلطة منافسة؛ فقد تقعـد في البنـى العمـيقـة للسيـاسـة أن كل ما هو فردـي إذا صـار جـمـاعـياً صـار سـيـاسـياً بـقـطـع النـظـر عنـ أـهـدافـ وـمـدىـ خـطـورـتـه علىـ كـيـانـ الدـوـلـةـ. والـمـقصـودـ منـ هـذـاـ الـبـيـانـ وـذـاكـ أـنـ يـسـطـيعـ كـلـ طـرفـ روـيـةـ نـفـسـهـ مـنـ وـجـهـةـ نـظـرـ الـآـخـرـ؛ لـأـنـ هـذـاـ هـوـ السـبـيلـ الـأـمـثـلـ لـلـتـفـهـمـ الـعـمـيقـ، ولـلـوـصـولـ إـلـىـ بـعـضـ الـمـحـكـاتـ النـهـائـيـةـ ...

وإذا استعرضنا التاريخ، وما خلفه في الرصيد الشعوري للأمة وجدنا أن الناس ظلوا يعطون ولاءهم لشيء اسمه (أمة الإسلام) بما يجسدـهـ هـذـاـ المعـنىـ منـ رـابـطةـ العـقـيدةـ وـالـانـتمـاءـ إـلـىـ التـارـيخـ وـالـتراثـ وـالـغـيرـةـ عـلـىـ المـصلـحةـ الـعـامـةـ

وكرامة المسلم وأمنه ومستقبله... وسيعطي الناس ولاءهم لأية دولة ما دامت تستطيع العمل على هذه المحاور وتحقيق الإنجازات التي تدور في محورها، وتعززها في وعي المسلم وواقعه المعاش. إن في أغوار نفسية المسلم اليوم جرحاً عميقاً من وراء ما يراه من ذل المسلم في كل بقاع الأرض وهدر دمه والتأمر عليه والمتجارة به وبمستقبله، وأنه يحتاج إلى الدولة التي ترفع من شأنه، وتواصيه.

إن مما شرطه عصر الاتصال الكوني أن الكل يساوي الجزء، وأن الجزء يساوي الكل فمكانة الفرد في العالم جزء من مكانة شعبه ونفوذه حكومته الدولي، ومكانة أية دولة وأي شعب من إنجازات أبنائه ونبوغهم وسلوكهم... وإن شعور أية أمة بالتألق ينبع من تناغمها الاجتماعي والمدني وحلها لمشكلاتها بالوسائل السلمية معبقاء شيء من طاقتها لمساعدة الآخرين على التخفف من مشكلاتهم. ولا ينبغي لداعية أن يظن أن بإمكانه أن يشيد صرح الدين في وطن مهين، أو في ظل حرب أهلية أو بين أقوام طحتتهم الحاجة والقلة والذلة والانحسار الحضاري... كما أنه لا ينبغي لحكومة أن تظن أن العيش خارج هموم الأمة وتطلعاتها ومبادئها الكبرى سوف يسمح بأي إنجاز تاريخي، أو أنه سوف يمكن من تحقيق أية مكانة دولية...

إن المشكلات الداخلية دائماً هي تحديات الكبار، وإن الانكفاء على الداخل واستثمار إمكاناته لصد العدوان الخارجي هو أيضاً حيلة الكبار وفن العظماء!

إذا لم يستطع أهل الرأي والخبرة، وأهل السلطان والنفوذ أن يندمجوا في كل واحد، فإن عليهم أن يتعلموا كيف يتعايشون، أي كيف يعملون من خلال الموازنات المحسوبة، ومن خلال التضحية في سبيل الشأن العام والمصلحة العليا. ولعل النظر التاريخي يفضي إلى هذه النتيجة، ولعل ذلك كان من أكبر المشكلات والأزمات التي عانت منها أمة الإسلام في تاريخها المرير. إن الفرق بين الاندماج والمعايشة هو الفرق بين التلاحم المصيري

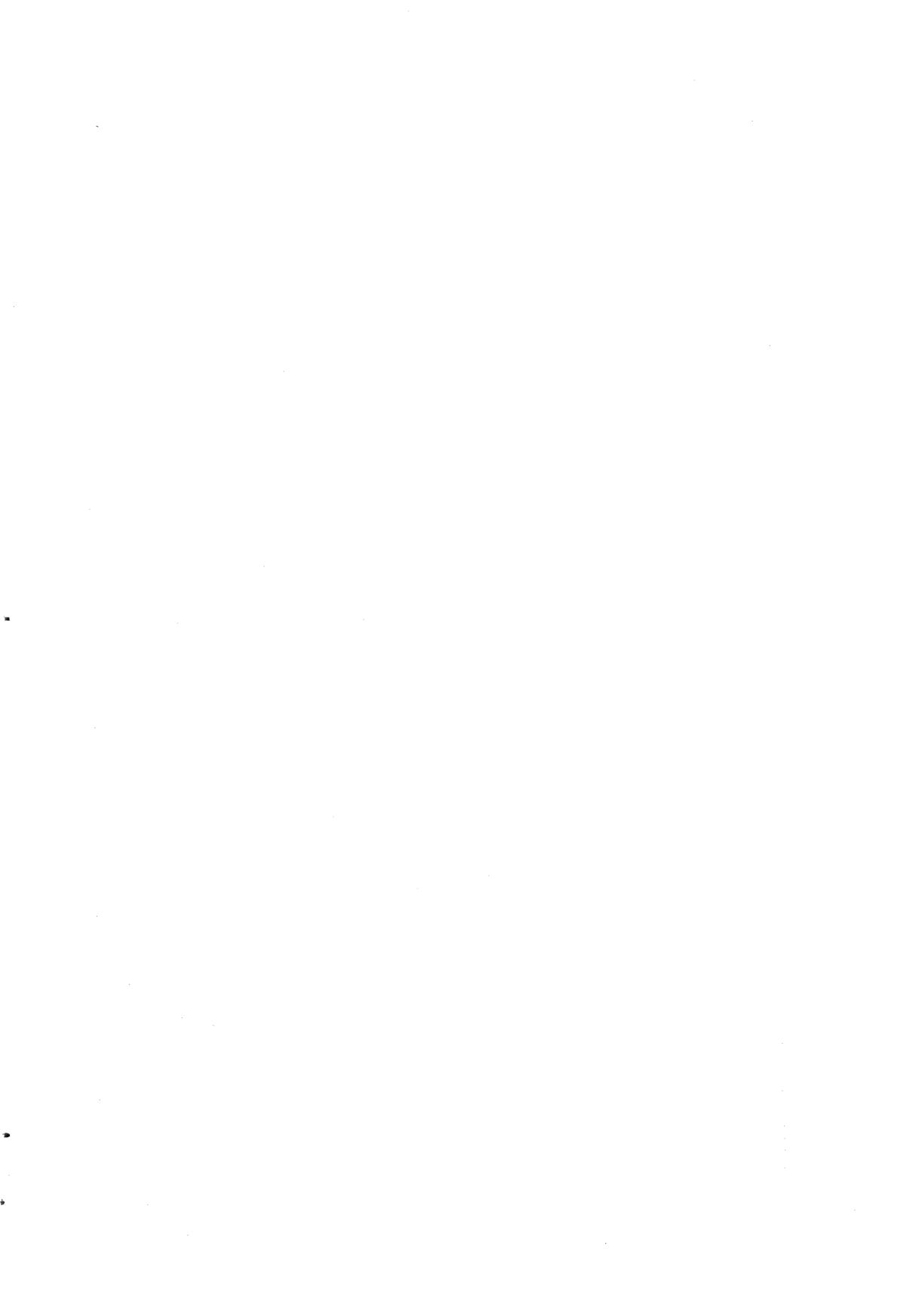
وبين الاختلاط الشكلي، لكي يظل هذا أفضل من استهلاك طاقات الأمة في المكائد والمؤامرات الداخلية! .

إن شفافية الدولة وسعة قاعدتها والتزامها بعقيدة الأمة وهمومها من أهم العوامل التي تساعد على الاندماج الاجتماعي، والتي تخفف من التوتر الداخلي في أمة هي أحوج ما تكون إلى وحدة الفكر ووحدة الموقف. والله ولينا.



المقدمة السادسة
في الرؤوة الفردية والجماعية

- ١ - الدعوة الفردية.
- ٢ - الدعوة الجماعية.
- ٣ - في بنية الجماعة الدعوية.



(١) الدعوة الفردية

إن الناظر في جملة النصوص الشرعية، وفي سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه يرى رأي العين أن كل مسلم مكلف بأن يقوم بشيء من الدعوة إلى الله - تعالى - بحسب الوسع والطاقة، بل إن مجرد الالتزام العملي بالشعائر الإسلامية يعد ضرباً مهماً من ضروب الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ طالما كان لسان الحال أبلغ من لسان المقال.

ولذا فإني أرى أن الأصل هو الدعوة (الفردية) حيث إنها الصورة الفطرية والبساطة والقليلة الكلفة، والتي لا تحتاج إلى أية مواءمة... . وحين يجد المسلم مجالاً للدعوة إلى الله - تعالى - فإن عليه أن يخوض غماره ولو كان وحده، ولا يُطلب منه أن يتضرر أحداً؛ إنها المبادرة الفردية التي تُعد بحق المقياس الدقيق لحيوية المجتمع ووعيه بأهدافه ومسؤولياته.

ومن المؤسف أن كثيراً من الجماعات تنظر إلى أولئك الناشطين بصورة فردية نظرة تشكيك أو استخفاف أو استغراب؛ لأنها ترى أن الدعوة الفردية غير ذات معنى أو قليلة الجدوى أو غير طبيعية... .

وهذه النظرة بعيدة عن الصواب، وعن الموضوعية، وهي فضلاً عن أنها ليست مؤصلة شرعاً غير ممكنة التطبيق، حيث إن هناك كثيراً من الناس لا يصلحون للعمل الجماعي لأسباب عديدة، منها ضعف حاسة الانضباط والانصياع لديهم، ومنها الاعتداد الزائد بالرأي الشخصي، ومنها الانحراف - أحياناً - في المزاج إلى ما هنالك من دواع تجعل بعض من يعمل في الحقل الدعوي يرى أن نشاطه المنفرد مناسب له.

ويضاف إلى هذا أن بعض الأمراض والمشكلات التي تعاني منها بعض

الجماعات تُنفر الآخرين من التعاون معها، أو الانضمام إليها، بل يكون في الانضمام إليها نوع من القيود دون أدنى مقابل من التحفيز أو التوجيه.

ومن جهة أخرى فإن لكل جماعة شروطها - المكتوبة وغير المكتوبة - فيمن يصلح للانضمام إليها، وقد يجد كثير من الناس أنفسهم غير مؤهلين لأن ينضموا في ظل أية جماعة إسلامية.

وقبل هذا وبعده فإن كثيراً من الأعمال الدعوية يمكن للإنسان أن يمارسه بنفسه دون مساعدة أحد؛ ونحن ننظر إلى الجماعات على أنها وسائل لا غایات، فإذا كان بالإمكان أداء الواجب ونشر الخير من غيرها على الوجه المطلوب لم يكن هناك ما يدعو إلى الاستيحاش من العمل الفردي.

وقد قام في تاريخنا المعاصر أشخاص كثيرون بأعمال جليلة على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل والحركة؛ وربما قلنا: إن بعضها كان من الصخامة على نحو تعجز عنه جماعة بل جماعات！

ومجالات العمل الفردي أكثر من أن تحصى؛ فالدرس الجيد، والخطبة الممتازة، والكتاب الناجع، والصلة الفردية ببعض الأشخاص، ومساعدة الناس على اجتياز بعض الصعوبات، وإصلاح ذات البين، والمنافحة عن الإسلام، وكثير من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك يمكن أن يتم بصورة فردية، بل إن كثيراً منها لا يكون إلا كذلك. لا يعني هذا أننا ندعوا أهل الخير إلى اعتزال بعضهم بعضاً والاستبداد بالرأي والسلبية؛ فهذه سمات لا تُحمد في العامة فضلاً عن الخاصة. ومما ينبغي تأكيده في هذا الموضوع أن طبيعة العمل الدعوي تؤسس مجالاً خاصاً للداعية، كما تؤسس علاقات كثيرة، وهذا وذاك يسببان حساسيات بين العاملين في الساحة الواحدة، ويجعل المجالات الرحمة ضيقّة، كما يجعل إمكانات الاحتكاك والتصادم واردة، ومن ثم فإنه لا بد للداعية من التحلّي بعدد من الصفات، إلى جانب القيام بتصرفات عديدة من أجلبقاء الساحة الدعوية في حالة من التصافي والونام؛ لأن يحاول فهم إخوانه في الساحة من زاوية رؤيتهم لأنفسهم، وليس من خلال رؤيته الخاصة، وكأن يصبر على الأذى وسوء

الظن والاتهامات وسوء الفهم من قبل إخوانه؛ إذ إن كثيراً من ذلك لا ينفع معه المواقف المتورطة، وإنما يترك للأيام لثبت زيفه.

ومن ذلك البحث عن صيغ للتعاون مع الجماعات والأفراد الموجودين في الساحة؛ حتى يشعر الجميع أنهم يسعون إلى غاية واحدة. ومن المشاهد المؤلمة في هذا أنك ترى الدعاء في المدينة الواحدة، وقد أعطى كل منهم ولاءه لجماعات التي قد تكون خارج مدینته، أما علاقته مع الدعاء في مدینته فهي علاقة تشاحن وتنافس! وهذا مع أن التعاون والعمل المشترك البناء لا يتم غالباً، إلا مع الذين يعيشون معه في بلدة واحدة.

إن فكرة تشكيل التيار الواحد - رغم تعدد الجماعات - ما زالت غائبة عن الساحة الدعوية، إذ يسيطر على كثيرين منا مقوله: إما أن تكون معى أو نسخة مني أو تابعاً لي وإلا فأنت منافس!! مع أن اللائق بطبيعة الأعمال الدعوية - القائمة في أكثر الأمر على الاجتهد - هو أن تكون المقوله: نُشكّل تياراً واحداً مع احترام الخصوصيات، ونخدم هدفاً واحداً كبيراً وإن اختلفت الوسائل والأهداف المرحلية.

ومهما اتسعت الساحة الدعوية فإن شيئاً من التنسيق والتفاهم يظل أمراً ملحاً، وإلا فإن الصدام سيقع لا محالة ما دام هناك نشاطات متعددة ومناهج وأساليب وموازنات متفاوتة.

إن شيئاً من المشاورة والمناصحة بين الدعاء يخفف من التوتر وسوء الفهم والتنافس فوق ما نظن، وأكثر مما نعتقد.

وأظن أن جعل الأعمال الدعوية متوجهة نحو البناء الحضاري العام هو الذي سوف يوسع مجالات العمل الدعوي، ويتيح لنا تنوعاً هائلاً من الأنشطة الخيرة التي لن نجد لها إذا كان الهدف من دعوتنا بناء جماعة أو السيطرة التعليمية على مسجد أو حي، أو ما شابه ذلك من الأهداف المحدودة.



(٢) الدعوة الجماعية

ما فطر الله - تعالى - الخلق عليه حاجة بعضهم إلى بعض على صعيد قضاء مصالحهم كافة، فكما أن هناك قضايا كثيرة يمكن للمرء أن يقوم بها دون مساعدة أحد كذلك هناك قضايا ومشروعات ومهمات كثيرة لا يستطيع المرء القيام بها بشكل منفرد، ويحتاج إلى مساعدة الآخرين في أمور الدين والدنيا. ولذا فإن أي مجتمع في الأرض لا يخلو من الأعمال الجماعية، بل إن تنظيم العمل وتقسيمه من أكبر أسباب الرقي والتقدم المادي الذي نشهده اليوم.

في القضايا الإنسانية يظل وضع الحدود الفاصلة بين الأوضاع والحالات المختلفة دائماً صعباً حيث تكون أوساطها ذات تغير تدريجي غير منظور أحياناً؛ ولذا فقد نختلف اختلافاً واسعاً عند تحديد عمل، هل هو فردي أو جماعي، كما قد نختلف هل الصلة القائمة بين خمسة من الناس كافية لعدهم (جماعة) أو أن الجماعة شيء آخر؟ وعلاقات الناس ودورانهم في فلك بعضهم بعضاً ومجموعة الأعراف والنظم التي تحكم تلك العلاقات، كل ذلك يتبع لنا صوراً من الجماعات والمجموعات التي لا تدخل تحت الحصر... ومن هنا فإن عجبي لا ينقضي من فريقين وقفوا موقفاً متضاداً من مشروعية قيام الجماعات الإسلامية: الفريق الذي يعتقد بوجوب انضمام المسلم إلى جماعة يعمل معها ومن خلالها، وهذا الفريق قد لا يصرح بالوجوب لكن تقويمه للأعمال الدعوية وطريقة تفكيره وإحالاته المنطقية، كل ذلك ينطوي باعتقاده وجوب ذلك.

أما الفريق الثاني فهم أولئك الذين يحرمون على الناس تشكييل الجماعات والأحزاب لما رأوا من تعصب وتفريق للكلمة - في بعض الأحيان - وأخطاء صغيرة وكبيرة... .

مع أن أدنى تأمل يؤدي إلى استحالة منع تنفيذ ذلك على الأرض لما ذكرناه من قبل. وأزعم أن مصدر القولين واحد، هو الفقر في الخيال، والتعامل مع الأشياء بحرفية القطار في التزام السكك الحديد!!.

إن وجود الجماعات الإسلامية أشبه شيء بالمذاهب الفقهية من حيث إن كلاً منها قائم على الاجتهاد؛ فكما أنه لا يمكن لأهل مذهب من المذاهب الأربع أن يلزموا أتباع باقي المذاهب باتباعهم كذلك لا يستطيع قادة جماعة أن يلزموا أعضاء باقي الجماعات بالالتحاق بهم. وكما أنه لا يستطيع أحد منع عالم من الاجتهاد - المؤصل - وتشكيل مدرسة من حوله كذلك لا يستطيع أحد منع مجموعة من الناس من الاتفاق - في إطار أهل السنة والجماعة - على بعض الأهداف المشروعة والسعى لتحقيقها. وكما أنه لا يصح حمل جميع الناس على التقليد المذهبي كذلك لا يصح إلزام الناس بالالتحاق بأية جماعة من الجماعات وهكذا..

ولو أردا منع أي عمل قد يصاحبه شيء من الشر أو المفسدة أو الخطأ؛ لوجب شل حركة الحياة اليومية؛ لأن الخير الممحض نادر، كما أن الشر الممحض نادر أيضاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون إلى من يتلقون عنه الإيمان والقرآن، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون؛ وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر، ولا يتعين ذلك في شخص معين، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها.... وليس لأحد أن يتنسب إلى شيخ يوالى على متابعته ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالى كل من كان من أهل الإيمان...»^(١).

وقال أيضاً: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تحزب، أي

(١) الفتاوى ١١: ٥١٢، ٥١١.

تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر به الله ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم. وإن كانوا قد زادوا في ذلك، ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل والإعراض عنم لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله^(١).

والناظر في حال كثير من الجماعات الإسلامية يجد أن أهدافها العامة مشروعة، وما يرضي الله ورسوله، لكن عند التطبيق والتنفيذ تظهر أخطاء وانحرافات، والمطلوب من أعضائها ومن المسلمين حولها المعاونة في الخير والمناصحة في الخطأ والنقد البناء والإرشاد والتسلية ومقاربة الصواب على قدر الوسع والمكنة.



(١) السابق ١١:٩٢. وانظر أيضاً ١١:٨٩.

(٣) في بنية الجماعة الدعوية

ليس المجتمع هو الفرد المتكرر - كما يرى بعضهم - لسبب ظاهر، هو أن الفرد لا يتكرر، إذ إن الله - سبحانه وتعالى - جعل كل واحد منا عبارة عن مخطوطة فريدة لا نظير لها، ومن ثم فإن القوانين التي تحكم سيرورة الفرد، تختلف كثيراً عن القوانين والملابسات والإفرازات التي تحكم وتتنج عن اجتماع الناس بعضهم مع بعض؛ وإن مما يقي الجماعات كثيراً من المخاطر إلى جانب منحها القوة والفاعلية - أن يعي أبناؤها طبيعة الاجتماع الإنساني والسنن المثبتة فيه بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية المصاحبة له، والأمراض والعلل التي يفرزها، ولعلنا نذكر بعض ذلك في النقاط التالية^(١) :

١ - الجماعات تعيد للمجتمع توازنه:

يحافظ المجتمع على توازناته العميقه من خلال آليات كثيرة، من جملتها دوران عدد كبير من أفراده داخل أطر جماعية، وتحت توجيه قيادة واحدة؛ والحياة الحضرية التي تعم العالم شيئاً فشيئاً حطمـت كثيراً من الترابطـات القديمة وعلى رأسها (القبيلـة) فـمـفـاهـيمـ الـحـيـاةـ الـحـدـيـثـةـ وـطـبـيـعـةـ حـيـاةـ المـدنـ الـكـبـرـىـ كـلـ أـولـنـكـ جـعـلـ الـانـتـمـاءـ الـقـبـلـىـ غـيرـ كـافـ لـتـوـجـيـهـ نـشـاطـ الـفـرـدـ أوـ إـشـبـاعـ حـاجـةـ النـزـوـعـ إـلـىـ العـيـشـ ضـمـنـ دـائـرـةـ اـجـتمـاعـيـةـ خـاصـةـ؛ـ وـمـنـ هـنـاـ إـنـتـنـاـ نـجـدـ الـعـالـمـ بـطـولـهـ وـعـرـضـهـ يـعـجـ بـالـجـمـاعـاتـ وـالـنـقـابـاتـ وـالـجـمـعـيـاتـ وـالـاـتـحـادـاتـ وـالـأـحزـابـ .ـ الـتـيـ تـعـمـلـ عـلـىـ خـدـمـةـ الـحـيـاةـ الـحـدـيـثـ بـوـجـهـ مـنـ الـوـجـوهـ.

المهم في كل هذا أن تقوم الجماعات الإسلامية بواجبها في توجيه

(١) أفردنا كثيراً مما ذكرناه هنا من كتاب (دينامية الجماعات).

الأمة نحو أهدافها الكبرى، وأن تساعد على تنشيط المجتمع وخدمته وحل مشكلاته بما ينسجم مع طبيعتها القائمة على الانتماء الطوعي. وقد حدث في عصرنا الحديث أن قامت جماعات إسلامية، ظاهرها الارتكاز على مبادئ وأهداف محددة، وحقيقة تجديد مفاهيم (القبيلة) بكل ما تعنيه من توارث للزعamas وانتصار للعصبيات العرقية والقطبية والطائفية؛ فهي تحفي الولاء القبلي من جديد، وتحول العلاقات التي ينبغي أن تقوم على الإنفاع والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن - إلى علاقات متکلسة، لا تقبل صرفاً ولا عدلاً، وصار الانتقال من جماعة إلى أخرى أشبه بمن انتسب إلى غير أبيه! لكن هذه الجماعات تعمل ضد منطق التاريخ، وهو كفيل بأن يجعلها يوماً ما من (خردواته)!

٢- لا شيء يغنى عن وضوح الهدف المشترك وملاءمته :

لم يتعلم الإنسان من الحيوان التضاحية اللاإرادية في سبيل الجماعة، ولا يمكن أن يتم ذلك لأن عنصر الإرادة الحرة يجعل مصلحة الفرد وأهدافه غير متطابقة دائماً مع أهداف الجماعة ومصالحها، ومن ثم فإن العضو في الجماعة تшوب علاقته بها شيء من التوتر؛ فهو يحبها، ويرغب في الاندماج فيها؛ لكنه في الوقت نفسه يخاف منها أن تمحو معالم شخصيته المستقلة، وأن تعتدي على مجاله الخاص الذي لن يتطابق دائماً مع مجال الجماعة مهما بلغت درجة تفاني العضو واندماجه، وفي هذه الحال فإن من أشد ما يجذب العضو نحو جماعته هو وضوح الهدف المشترك ومطابقته للمستوى الوسطي للجماعة.

وفي زحمة العمل وكثرة المشاغل والمشكلات التي تعيشها الجماعة فإن الهدف قد يدرك بطريقة رتيبة أو طريقة مبتذلة، وفي كلتا الحالتين يفقد الهدف قدرته على إثارة الحماسة لدى أعضاء الجماعة، وتتفقد الجماعة بذلك قدرأً كبيراً من تمسكها وتلاحمها، وتتفقد بذلك أيضاً أهم موارد قوتها وحيويتها. وتعمد الجماعة آنذاك إلى ابتكار وسائل مصطنعة للحفاظ على تمسكها لأن تقوم بخطوات عملية ذات مخاطرة ومجازفة، أو افتعال مشكلات مع الجهات الأخرى، أو تلجأ إلى القمع الداخلي . . .

ومن هنا فإن جزءاً من واجبات أية جماعة ينبغي أن ينصرف إلى جعل أهدافها دائماً حية وواضحة في ذاكرة أتباعها، وما ذلك بالأمر السهل دائماً. لا يكفي وضوح الهدف ليكون مركز جذب لأعضاء الجماعة، بل لا بد إلى جانب ذلك من كون الهدف مناسباً وملائماً للمستوى الوسطي للجماعة؛ فالهدف الكبير الذي يشعر معظم أفراد الجماعة أنهم عاجزون عن تحقيقه يفقد أيضاً فاعليته في تحريكم ورفعهم؛ ولا يختلف الأمر في حالة كون الهدف متواضعاً، لا يثير تحدياً للأغبية.

وفي هذا الصدد نجد أن كثيراً من الجماعات الإسلامية وضعت أهدافاً غير محددة من نحو التمكين لدين الله في الأرض، أو كسب رضوان الله - تعالى -، أو نشر العلم الشرعي؛ مما هو طيب ونبيل لكنه عائم، ولا يمكن قياسه. وإن كثيراً من الدعاة يريدون تغيير العالم كله دون أن يكون لهم من الأسباب والوسائل ما يغير قرية واحدة! ليس تطلع أية جماعة إلى تحقيق هدف كبير بالأمر المذموم، لكن المطلوب آنذاك التوصل إليه بتحقيق عدد من الأهداف المرحلية المحدودة. إن فتور العضو وتقوّقه داخل الجماعة له أسبابه ودواعيه، وإن على قيادة كل جماعة أن تتحسّس ذلك؛ حتى لا يكون وجود أعضائها فيها شكلياً.

٣ - التجمعات الخاصة تعُرض وجدة الجماعة للخطر :

يطلق مصطلح (الشللية) لدى الجماعات الإسلامية على المجموعات الخاصة التي تتكون بدافع الألفة، أو حول زعيم نافذ بدافع الانجذاب الشخصي، أو تلك التي تتكون على أساس الانتفاء لعائلة أو بلدة ونحن في البداية لا ننكر أن وجود شيء من هذا طبيعي في كثير من الأحيان؛ لكن تغافل الجماعة عن هذه التجمعات، وتركها تنمو وتتكبر سيؤدي إلى نتائج غير حميدة. إن تصخّم الولاءات الخاصة ذو دلالات سيئة، منها: عدم وضوح الهدف المشترك، أو ضعف جاذبيته، ومنها ضعف تلامِم القيادة مع القاعدة، وضعف النسيج الداخلي الذي يجعل من الأعضاء كلاً واحداً؛ كما يفعل (النول) بالخيوط، ومنها عدم قدرة الجماعة على تحويل التوترات

داخل الجماعة إلى توازن ثابت، وعجزها عن فهم المتغيرات الحادثة خارج الجماعة.. والمشكلة أن زعماء (الشلل) يشكلون عند تآزمات الجماعة ومحنها الكبرى مفاصيل تفكك الجماعة وانهيارها مثل ما حدث في جماعات كثيرة - كما أنهم يحدثون بلبلة داخل الجماعة من خلال إيجاد تفسيرات جانبية وخاصة لأوامر الجماعة، كما أنهم كثيراً ما يتقاусون عن تنفيذ تعليماتها. وعلى كل حال فإن ذلك دليل على وجود قصور أو أخطاء بنوية، وإن النظر إليه بعين اليقظة برهان على إمكانات القدرة على المراجعة والتصحيح.

٤ - ليس كبر حجم الجماعة دليلاً على النجاح دائمًا:

نقول دائمًا: إن وحدة الخلق تدل على وحدة الخالق - سبحانه -، وإن كثيراً من قوانين النبات تنطبق على الإنسان والحيوان، كما أن كثيراً من قوانينهما ينطبق عليه، إن الشجرة تكرس الجانب الأكبر من مواردها لبناء وصيانة هيكلها الذي يكلفها غالياً، أما العشبة فترضى بالقليل نتيجة لتواضع جهازها الإنبائي.. إن الرواحف الضخمة انقرضت في نهاية الدهر الجيولوجي الأول نتيجة لفتر ضخامتها وهشاشة بيضها، فلم يبق منها اليوم إلا هيأكلها^(١).

وقل نحواً من هذا في الجماعة عندما تتضخم أعدادها، فإن ذلك قد يكون علاماً مرض لا صحة؛ فالاحزاب والجماعات التي تصل إلى سدة الحكم تتكاثر أعدادها بطريقة سلطانية؛ لأن أنبعاثها الجدد يكونون من أهل المنافع والمعانيم الذي يكثرون عند الطمع، ويقلون عند الفزع. وربما كثر عدد جماعة ما لا لأنها الأمثل والأفضل؛ ولكن لأنها تشكل رأس حرية المعارضة أو لأنها تطلق شعارات عريضة في الإصلاح أو لأنها (أحلى الوحشين) كما يقال في بعض الأحيان.

(١) عودة الوفاق: ٤٧، ٤٨.

إن من مشكلات ضخامة الحجم ضعف القدرة على التأقلم مع المتغيرات الجديدة والخوف من القرارات الجريئة التي تكون ضرورية في بعض الأحيان؛ وذلك لأن الهم الأكبر للجماعة آنذاك لا ينصرف إلى نوعية ما ينبغي عليها أن تنجذه، وإنما إلى المحافظة على كيانها. لكن يمكن أن يقال أيضاً إن الجماعات الصغيرة يكون إحساسها بخطورة القرارات الطائشة والحادية ضعيفاً؛ مما يعني أن تكون الجماعة الكبرى أكثر حكمة وتعقلًا. وهذا أيضاً صحيح.

في بعض الأحيان يكون كسب الأنصار سهلاً، ولا سيما حين تسair الجماعة المعتقدات والعادات السائدة بدل أن تصحّحها، بمعنى أن ثمن كثرة العدد كان فقد الوظيفة الإصلاحية التي هي المسوغ الأكبر لوجود أية جماعة. وحين تكون شروط القبول في الجماعة قاسية، فإن ذلك يعني قلة الأعضاء الذين يتسبّبون إليها؛ لكن نوعيّتهم تكون خاصة ومرموقة.

وفي المقابل فإن ضخامة عدد الجماعة تبعها إلى أن تخفّ من شروط العضوية فيها؛ لأنها آنذاك تقترب من أن تكون نموذجاً مصغرًا عن المجتمع الذي تعيش فيه. أي أنها تفقد كثيراً من التميز الذي يمنحها الجاذبية، ويعطيها حق الدعوة والإصلاح باعتبارها بنية ذات نوعية خاصة.

إن الذي يمكن للجماعة أن تفاخر به هو وضوح أهدافها وجمعها بين التماسک والفاعلية، إلى جانب تفوق إنجازاتها بالنسبة إلى أعداد أتباعها، وقبل ذلك التزامها وامتلاكها لرؤية إصلاحية شاملة.

٥ - التهديد الخارجي حافز على تضامن الجماعة :

إن كل محنة تحمل في طياتها منحة، وإن ما تلاقيه أية جماعة من تهديد ومنافسة خارجية قد يجعلها تنحرف عن مسارها، أو تخسر بعض أتباعها، لكن الشيء المؤكد أن التحديات الخارجية تبلور وعي الجماعة بذاتها، كما أنها تضعها أمام عدد من المحركات النهائية والضرورية لجعل منها يخلص من كل العوائق والزيادات التي يرకّمها عليه الزمن؛ لكن

الفائدة المباشرة والتلقائية التي تجنيها الجماعة هي تعزيز تضامنها الداخلي، ونسياها لخلافاتها أو تأجيلها إلى أمد، بل إن كثيراً من الجماعات - كما هو شأن الأفراد - تبحث عن منافس خارجي، وقد تقوم بنوع من العدوانية تجاه الآخرين من أجل تعزيز تلاحمها الداخلي أو التعبير عنه.

ويمكن القول بعد هذا: إن الأحزاب والجماعات تفقد الكثير من توتها وتلاحمها عندما تنتقل من المعارضة إلى السلطة؛ لأن التهديد الخارجي يضعف أو ينعدم، كما يمكن أن يقال أيضاً: إن التهديد الذي تمارسه جماعة ضد أخرى يمنع الجماعة المهدّدة تماستاً مصطنعاً ربما كانت لا تستحقه، وقد تلجأ إحدى الجماعات كي تخفف التوتر بينها وبين جماعة أخرى إلى التحالف معها ضد عدو مشترك؛ لكن هذا - كما أثبتت التجارب - ليس إلا علاجاً مؤقتاً لا أكثر.

٦ - الثقة الزائدة بالنفس تحول دون التفوق على الذات:

شيء من ثقة أية جماعة بمنهجها وإنجازاتها ضروري لاستمرارها، لكن المشكلة هي الثقة الزائدة التي تجعل الجماعة تشعر بالتفرد والامتياز على غيرها، ومن السهل على أية جماعة أن تعدد إنجازاتها وخصائصها وتضحياتها.

ومن السهل أيضاً على أية جماعة - وكذلك الأفراد - أن تجد نفسها متقدمة ومتفوقة على جماعات أخرى كثيرة؛ لكن العسير دائماً هو التفوق على الذات وتجاوزها، وذلك بالشعور أن يومها أفضل من أمسها، وأنها تمتلك قدرة متزايدة على تلافي الأخطاء التي وقعت فيها في السابق. إن هذه الحالة أشبه شيء بـ(التوبة النصوح) التي تعني الانتقال من حالة رديئة إلى وضع أفضل وأسلم.

إن قدم الجماعة أو إنجازها الكبير أو حنكتها في التعامل مع الطوارئ، أو حجمها... كل ذلك مدعوة إلى الاعتداد بالنفس والشعور بالتفوق. وهنا تبدو فضيلة الشكوى من سوء الأحوال، وفضيلة النقد الذي يمارسه بعض

أعضاء الجماعة؛ ومع أن هؤلاء يوضعون عادة موضع الارتياب إلا أن الصحيح أنهم يسهمون بصورة فعالة في إحساس الجماعة بعدم الرضا عن النفس، وضرورة إحسان التصرف بالإمكانات المتاحة.

٧- تنسيج الجماعة عندما تتحول الأنظمة فيها إلى عادات:

تحولُ كثير من الأشياء إلى عادات يكون بالغ الضرر في كثير من الأحيان وذلك كما في العبادات، وكما في طريقة إدراك الجماعة لأهدافها..... لكن تحول الأنظمة في حياة أية جماعة من قوانين لها طابع القسر والإكراه إلى عادات ومفهومات يتشربها الفرد، ويمثل لها يعد شيئاً ضرورياً لتماسك الجماعة وفاعليتها في أنشطتها المختلفة. ولا ريب أن في كل جماعة عدداً من النظم والقوانين الداخلية التي تحدد شكل العلاقات بين أفراد الجماعة، مثل طريقة اختيار قادة الجماعة ومجلس شوراها، ومثل شروط العضوية والترقي وأشكال الجزاءات والعقوبات....

ومن الواضح أن تلك النظم يظل كمالها نسبياً مهما كانت عبرية وشفافية واضعيها، ومن ثم فإن تسلیط العقل عليها سيجعلها موضع نقد، وسيجعل الامتثال لها جزئياً، لكن حين تستطيع الجماعة رفع أعضائها إلى مستوى أدبياتها، وحين يجعل علاقتهم بها علاقة حب وتفصحية وإخلاص فإن روح العمل الجماعي تسري في كيان كل عضو، فيعمل ويطيع وينفذ ويضحى دون قسر من شخص أو نظام، وهذا ما يشاهده المتأمل في المجتمع المدني في حياة النبي ﷺ حيث كان الصحابة - رضوان الله عليهم - ينفذون تعاليم الإسلام دون شعور - في كثير من الأحيان - بمرتبة ما ينفذونه، وهل هو من باب الواجب أو المستحب .. .

٨- الجمع بين فضيلتي الوعي والكرم ضروري في ترابط الجماعة:

حين يختار فرد ما العمل ضمن جماعة، فإنه يلزم نفسه بعدد من القيود التي توجّبها طبيعة العمل الجماعي، كما أن كل واحد في الجماعة يشعر تجاه الآخرين فيها بمشاعر خاصة تجعله يتوقع منهم العطف والمُوازنة والروح

المجانية... لا يمكن لجماعة تقوم الرابطة الأساسية بين أفرادها على الالتزام الأدبي أن تنظم تضحيات أفرادها، وتحولها إلى واجبات إلزامية، ومن ثم فإن تحلي كل فرد في الجماعة بالكرم الذاتي تجاه إخوانه يعد ضرورياً لتقوية الترابط الداخلي على نحو ما نجده من كرم الأنصار وإيثارهم لإخوانهم المهاجرين - رضي الله عنهم جميعاً - إن كرم الفرد وتطوعه عنوان رضاه عن جماعته واندماجه فيها أيضاً. وأشكال الكرم أكثر من أن تُحصى؛ فقد يكون الموافقة على استلام زمام القيادة في ظروف حرجية، وقد يكون التبرع بجزء من المال أو الوقت أو...

لكن هذا هو شق المطلوب، أما الشق الثاني فهو الوعي بمسيرة الجماعة وأهدافها ومشكلاتها... وهذا الوعي ليس مسؤولية الصفة، وإنما هو مسؤولية كل عضو - على قدر الاستطاعة - إن كرم العضو واندماجه دونوعي قد يحوله إلى إمعنة أو سلعة للمتاجرة، وقد يجعله أدلة لتكرير الانحراف، ما لم يجمع إلى ذلك البقظة التامة نحو وظيفته الكاملة داخل جماعته وخارجها. إن ذلك الوعي ليس مهمأ لحفظ مصلحة الفرد بقدر ما هو مهم لحفظ كيان الجماعة وضمان سلامتها توجهاً. والذي يحدث في كثير من الأحيان أن أكثر أعضاء الجماعة يعدون أنفسهم جنود تنفيذ، ويكلون ما عدا ذلك لرجالات الصف الأول والثاني، لكنهم يكتشفون بعد مدة أن ذلك لم يكن صواباً حيث يفقدون وزنهم في تصحيح مسار الجماعة، ويجدون أنفسهم في بعض الأحيان مرغمين على الانصياع لتوجهات وقرارات غير صحيحة ولا مقنعة؛ ولا يتجلّى ذلك إلا في الأزمات العميقة التي تتعرض لها الجماعة؛ ومن ثم فإن جنود التنفيذ هؤلاء يضجون بالشکوى دون أدنى فائدة، مما يدفعهم إلى الانسلال عن الجماعة أو العمل بطريقة تجعل العضو الذي داخل الجماعة لا يختلف كثيراً عن العضو الذي في خارجها!!.

إن من مصلحة أية جماعة أن تربى العضو الذي يجمع إلى الطاعة التبصر والوعي والإلمام بالمخاطر والمشكلات التي تعاني منها جماعته؛ فذاك هو الضمانة الوحيدة لاستمراره وحيويته وبقائه ضمن إطارها.

٩ - لا جماعة بدون شوري:

لم يعد بإمكان أحد أن يقود أعضاء جماعته بعيداً عن الأعراف والمفاهيم التي أصبحت جزءاً من روح العصر، وكان من أهم مفاهيم عصرنا اعتماد عنصر المناقشة والمشاورة في كل ما يخص الجماعة وأعضاءها؛ حيث إن درجة استقلالية الشخصية والاعتبار الخاص بالذات في تصاعد مستمر، وبما أن عصرنا هو عصر التبدلات السريعة، فإن من الحيوي لكل جماعة حرية على حفظ توازنها في حمى التطورات الهائلة أن تؤهل أعضاءها لاستيعاب التغيرات الخارجية التي تضغط عليها والاستجابات الداخلية التي عليها أن تقوم بها . . .

وقد أجريت دراسات عديدة حول أثر المناقشة والمشاركة في إحداث تغيير معين. ولعلنا نستعرض في هذا الصدد إحدى الدراسات التي أجريت حول معرفة أهمية العوامل النفسية والاجتماعية في الإنتاج، وذلك في أثناء إدخال آلات الحياكة الجديدة تدريجياً في أحد المصانع، وقد قسم العمال إلى ثلاث مجموعات: مجموعة شرح لها استعمال الآلات، وجرى حثهم على بذل جهدهم مع إعلامهم بأن الأنظمة الجديدة سوف تضعها الأجهزة المختصة.

أما الثانية فقد جرى أمامها عرض أسباب التغيرات التقنية الجديدة، ثم دُعي العمال إلى تعيين مفروضين عنهم يساهمون مع مصلحة وسائل العمل في وضع أنظمة بعد فترة من التجربة.

أما المجموعة الثالثة فقد دعيت بكاملها إلى المساهمة في وضع الأنظمة. وقد كانت النتائج كما يلي: المجموعة الأولى أبدت تذمراً شديداً تبلور بترك اثنين من العمال العمل، وباحتتجاجات كثيرة.

أما المجموعة الثانية فقد كان سلوكها مرضياً على الرغم من بعض القلق والمناقشات.

أما المجموعة الثالثة فكانت المعنويات فيها ممتازة، ولم تبرز لديها أية

مشكلة^(١) هذا كله يعني أن تعميق الشورى في صنع قرارات الجماعة ورسم سياساتها يعد أحد المرتكزات الأساسية في تنشيط الأعضاء وإثارة حماستهم وتقليل اعتراضاتهم.

١٠ - مصداقية كل جماعة تتبلور في تحويل شعاراتها إلى واقع ملموس :

تطرح كل جماعة من الجماعات الإسلامية مجموعة من الأهداف والمقولات والسياسات والتوجهات التي تعكس في مجلتها أولويات الجماعة وبنيتها الدعوية وتطلعاتها نحو المستقبل. وإذا نظرنا في حال أصحاب الدعوات والأحزاب والاتجاهات على مستوى العالم وجدنا أنها في جملتها تدعو إلى بعض الفضائل - ولو ظاهرياً - كما أنها تحاول أن تضفي على سياساتها قدرأ من المنطقية؛ وقد دلتنا التجربة على أنه ما من دعوة توفرت لها دعائية مناسبة إلا استطاعت اجتذاب أنصار لها؛ لكن التحدي الذي يواجه الدعوات قاطبة على مدار التاريخ هو تجسيد الأفكار والمبادئ والنظم التي تدعو إليها في حركتها اليومية، وفي المشروعات الحضارية. هذا المحك لا يكشف فقط عن مصداقية تلك المبادئ، لكنه إلى جانب ذلك يشعر الجماعة بمدى مناسبة الشعارات الكبرى لطاقاتها المذخورة، ومدى قدرتها على الوفاء بالتزاماتها. وقد جرت العادة أن يتحول كل مبدأ عسر تجسيده في الواقع إلى شعار يجهر أصحابه به في كل مناسبة لكنه في كل مرة يترك مرارة في الفم بما يولده من إحساس بالفارق بينه وبين الواقع المعيش.

وفي هذا الصدد نجد مفارقات كثيرة في حياة كثير من الجماعات الإسلامية، حيث إن أكثر الجماعات تدعو إلى تعميق الشورى في حياة الأمة لكن قياداتها لا تستشير قواعدها؛ كما أنها تدعو إلى استغلال طاقات الأمة، وهي لم تستطع استغلال طاقات أفرادها الذين يمثلون الصفة!. وهي تدعو إلى تحسين اقتصاد الأمة، لكنها لم تستطع إقامة مشروع واحد ناجح

(١) دينامية الجماعات: ٦٣

وهكذا... عندما تصبح المبادئ في واد والممارسة في واد آخر فإن الدعوات تستوي في نظر كثير من الناس.

إن أدوات كثيرة من الجماعات الإسلامية عبارة عن مستنقعات من أدوات المجتمعات التي تعيش فيها، ومن ثمة فإن كل ما تبذله من جهد في رقى محبيتها ينعكس على وضعيتها الخاصة بالإيجاب.

وليس من المصلحة تصوير الفوارق بشكل مضموم بين الجماعة وبين محبيتها؛ فتؤدي إلى أعضائها برقيها وانحطاط مجتمعها؛ لأن ذلك ليس صحيحاً في كل الأحوال، وعلى كل المستويات؛ ولأنها بذلك قد تجني على أعضائها في حالات تفكك إطارها التنظيمي حيث يضيع أعضاؤها اليائسون من صلاح مجتمعهم وصلاحية جماعتهم! .

ونحن لا نغفل هنا شكوى بعض الجماعات الإسلامية من أن فساد محبيتها أثر في إنجاز مشروعاتها، وتحقيق طموحاتها؛ فذلك صحيح إلى حد بعيد؛ لكن الذي ينبغي أن يقال: إن ترتيب أولويات إصلاح المحبيط والمجتمع العام والت بشير بها هو من مسؤولياتها الدعوية والإصلاحية، وهي أولى الناس بفهم ذلك والتكييف معه.

١١ - لماذا تنقسم الجماعة الواحدة؟

لا بد من القول ابتداء: إن وحدة الجماعة وانقسامها شيء نسبي، فقد تبدو الجماعة - وكذلك الدول والشعوب - كياناً واحداً، لكن فيه مدارس وتيارات وجموعات من الكيانات الخاصة الصغيرة، وهذه باعتبار ما قد تجعل الجماعة الواحدة جماعات؛ وفي المقابل فإن مجموعة من الجماعات قد تجري بينها من التنسيق والتعاون والتفاهم ما يجعلها بمعنى من المعاني كالجماعة الواحدة مع أنها كيانات مختلفة وهكذا... .

إذن بالإمكان القول: إنه لا ينبغي الاعتماد في الحكم على وحدة جماعة ما أو انقسامها على الشكل الظاهري، وإنما على ما يلي:

أ - مدى قدرة الجماعة على تأطير خلافاتها الداخلية، تلك الخلافات التي لا تخloo منها جماعة؛ وليس الخلاف شيئاً سيناً دائماً، بل إنه علامة حيوية الجماعة ومحاولتها التعرف على ذاتها وحدودها، لكن السيني هو أن تتضخم الخلافات بصورة تعيق حركة الجماعة، وقدرتها على اتخاذ القرارات في وقتها المناسب.

ب - شكل علاقة القاعدة بالقيادة مرواز مهم في هذا الباب؛ فالجماعة الواحدة تكون علاقتها بقيادتها قائمة على الوضوح التام؛ حيث تعرف القاعدة اختصاصات قيادتها وحدود طاعتها الواجبة، كما تعرف مجالات حركتها الحرة ومدى ما فُرض إليها من تدبير الشؤون وتنفيذها...

كذلك تكون الجماعة واحدة حين تكون علاقة القاعدة بالقيادة شفافة؛ فأحوال القيادة واضحة ونقطة ضعفها وقوتها جلية، وفي المقابل فإن القاعدة لا تنطوي على التآمر أو حيادة المكائد، وإنما تصارح قياداتها بما تشكو منه وتعانيه، وتبسيط متطلبات العلاقة بينهما بكل وضوح.

ج - قدرة الجماعة على التحرك صوب أهدافها مؤشر مهم على عافيتها وصلابة تلاحمها؛ فالجماعة الواحدة تختلف حول الوسائل والأساليب الناجعة، لكن لا تختلف أبداً حول أهدافها الكبرى؛ لأن الخلاف حول الهدف الأساسي، كاف في تحويل الجماعة الواحدة إلى جماعات، بما يتركه من اختلاف في السياسات ومنهاج العمل وطبيعة العلاقة مع المحيط...

ومن ثم فإن تحسس الجماعة لأهدافها الكبرى، ومحاولة جعلها حاضرة في أذهان أعضائها يعد من الأهمية بمكان لتصليب تماسكها وتوحدها.

ولا بد من القول بعد هذا: إن من الطبيعي أن يكثر الاجتهاد والاختلاف كلما زادت أعداد الجماعة، واتسعت الرقعة الجغرافية؛ لأن ذلك مصدر كبير للتنوع، ومؤشر على ليونة شروط العضوية داخل الجماعة، وهذا كله يجعلها قريبة من تمثيل المجتمع الذي تعيش فيه، والذي لا يخلو أبداً من الخلافات الجذرية، وأحياناً حول كل شيء...

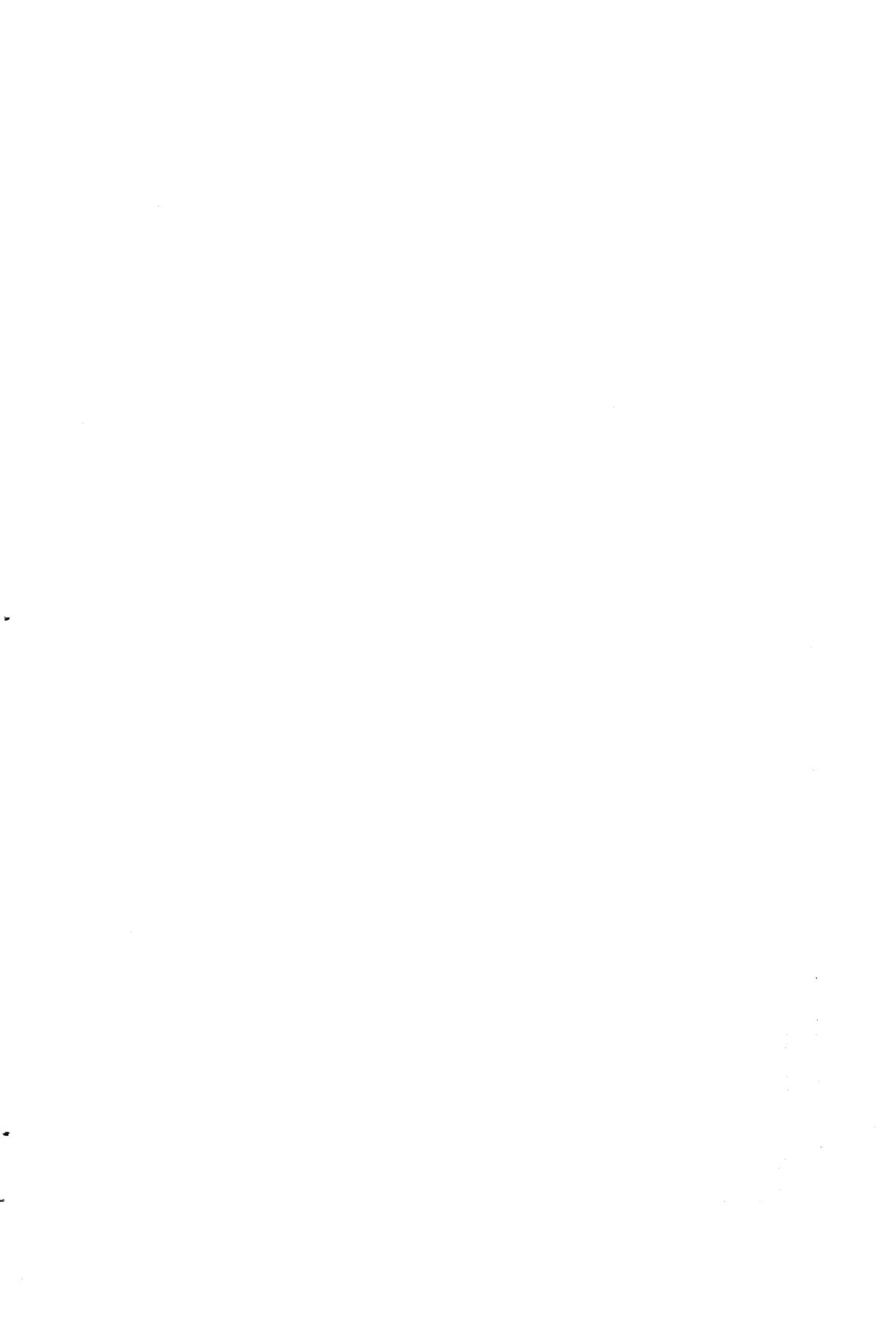
إن نظام الجماعة يجب أن يميل إلى (اللامركزية) كلما تضخمت قاعدة الجماعة، وإن في الانشقاق سيكون مآلها كما أن سعة القاعدة تتطلب بالضرورة توسيع مجالات النشاط والإكثار من الأهداف المرحلية التي تصب في النهاية في محيط الهدف الأكبر.

وعلى الجماعة أن تتقبل التنوع والخلافات الصغيرة بصدر رحب ، وإذا ثُبّت بانشقاق كبير فإن بإمكان الجماعة أن تتنافى آثاره أو كثيراً منها من خلال إرساء علاقات جديدة بين الفريقين ، تقوم على تنمية المشترك واحترام الخصوصيات والإعذار والتفهم المتبادل . . . وإن الإصرار على إظهار إطار معين من التوحد لن يعيد الجماعة إلى وحدتها لكنه سوف يزيد في تمزيقها .

إن علينا أن نعترف أن معرفتنا بـ(علم نفس الجماعات) ما زالت محدودة ، كما أن فهمنا لسفن الله - تعالى - التي تحكم مجتمع الدعوة تحتاج إلى مزيد من الاكتشاف . وعلى الله قصد السبيل .



المقدمة السابعة
قول اعری فی المـ۔ هـجـ الرـعـوـي



قواعد في المنهج الدعوي

يعرف بعض الباحثين مناهج الدعوة بأنها: «نظم الدعوة وخططها المرسومة»^(١).

وقد يعرّف المنهج بالمعنى العلمي بأنه: «مجموعة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معين لبلوغ هدف معين»^(٢).

ونحن نقصد هنا بالمنهج الدعوي «مجموعة القواعد والمعلومات المتربطة والمترتبة التي تشكل قناعات الداعية، وتوجه حركته».

وكما ألمعنا سابقاً فإننا نحاول أن نسد بعض الثغرات، ونكمّل بعض الأعمال التي تناولت مسائل الدعوة وفق منهجية خاصة لا نرمي فيها إلى التفصيل على الطريقة المألوفة، وإنما نود التنبيه إلى بعض النقاط الأساسية في المنهج الدعوي، والتي تساعده في إيجاد طيف ثقافي مؤثر في حركة الداعية، وإن كان يصعب لمسه في كل الأحيان، وسنركز تلك الأسس في بعض المقولات العامة، ونتولى شرحها وفق ما آثرناه في هذا الكتاب من أسلوب، وذلك فيما يلي:

١ - المنهج يساعدنا على اختصار المراحل:

حين لا يملك الإنسان منهجاً فإن هذا يعني أن سبيله إلى الفهم سيكون التجربة، أي التعلم من خلال الخطأ والصواب، وهذا يعني عدم الاستفادة من

(١) المدخل إلى علم الدعوة: ٤٦.

(٢) انظر الموسوعة الفلسفية: ٤٧١.

الثواب والمؤشرات التي أكرم الله بها هذه الأمة من خلال نصوص الكتاب والسنة، كما يعني عدم الاستفادة من مركوم الخبرات الأممية المتاح الاطلاع عليه اليوم لكل من أراد ذلك.

والخبرة التي يكتسبها المرء من خلال تجاربه وتجارب غيره تساعده على التعرف على ما يمكن اختصاره وتجاوزه من مراحل الطريق، تماماً كما استفادت الشعوب التي دخلت عصر الصناعة حديثاً؛ فهي لم تحتاج أن تمر بمرحلة القطار البخاري ولا تصميم المعدات الضخمة ذات الكفاءة المنخفضة، وإنما دخلت إلى عصر (الإلكترون) وصناعة المعلومات مباشرة. وهذا أحد الأهداف الكبرى لقصن القرآن الكريم مناهج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والأساليب التي اتبعواها، والنتائج التي حصلوا عليها؛ كي نكتشف من وراء ذلك كله الطريق الأقصر، وكيفلا تروعنا ضآلة الاستجابة في بعض الأحيان... .

إن المنهج والخبرة المتراكمة يساعدان - باختصار - على أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون.

في عالمنا الإسلامي اليوم تجارب دعوية مختلفة، استخدم فيها أساليب ووسائل مختلفة، وقد مر على بعضها قرابة سبعين سنة، وهي مدة ليست قصيرة، والمأمول أن تكون حصيلة العبرة والعظة منها ضخمة؛ وقد استفادت بعض الجماعات فعلاً منها، وغيّرت في ضوئها بعض أساليبها، وقبل ذلك فناعاتها الدعوية؛ لكننا نشاهد شيئاً كثراً يغمضون أعينهم عن التاريخ بأكمله، ويجرّون إخوانهم إلى الدمار المحقق دون أدنى محاولة للاعتبار، ومن السهل عليهم أن يصفوا طابع الخصوصية على التجارب الأخرى، حتى يقولوا حالنا وظروفنا غير ظروف أولئك، وبالتالي فإن النتائج سوف تكون مختلفة. والظروف حقاً تختلف لكن تبقى هناك قواسم مشتركة وسفن عامة تضع أعمالنا وأنشطتنا في إطار أشمل، مهما تفاوتت في بعض القسمات، وبعض الجماعات نجحت في التأثير في كثير من الأفراد لكنها لم تستطع التغيير في المناخ العام شيئاً بسبب انحسار فهمها للإصلاح وتدعياته وترابطاته فأدى ذلك

إلى إصلاح أشخاص معزولين عن عصرهم فهماً وتأثيراً، ولم تستطع تلك الجماعات إلى اليوم تقويم نتائج أعمالها والاهتداء إلى الأسلوب الأمثل.

٢ - اكتشاف المنهج أسهل من اكتشاف صواب الحركة به :

لم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بلغ الرسالة، وأقام الحجة، وأرسى معاالم واضحة في كل ما يصلح شأنى الدنيا والآخرة، وفهم تلك المعاالم ليس فوق الوسع؛ لكنها من السعة والمرونة في موقع يتطلب فهمها الكامل الراقي أهلية جيدة من الدعوة؛ فهذا الدين جاء ليسع الإنسان مهما ترا مت أمداء الزمان والمكان، وفي ذلك من التنوع والثراء والخصوصيات ما يقتضي استخداماً واسعاً لأشكال من الآليات والبدائل والموازنات

ومع هذا فإننا نزعم أن الفهم الجيد للمنهج الرباني في إصلاح الخلق ودعوتهم يظل أسهل من محددات وملابسات التحرك به وتنزيله على الواقع المعيش وأحوال الناس الكثيرة التعقيد؛ ولعل ذلك يعود إلى أن الله تعالى أقام على عباده الحجة بأن بين لهم ما يريدون منهم على المستوى العام لكنه - جل شأنه - أوكل إليهم من باب الابتلاء، اكتشاف الأساليب والآليات والوسائل التي تحيل ذلك المنهج إلى واقع حي؛ تماماً على النحو الذي حكم به من حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبدل، وتکلیف الناس بفهمه وتدبره.

وأسباب صعوبة فقه الحركة بالمنهج تعود إلى تعقيد الواقع الذي تم فيه الحركة، وأول تعقيد فيه صعوبة الاستحواذ عليه واحتراقه؛ فكثير منه لا يعرف إلا أولئك الذين يساهمون في صنعه؛ وليس للدعاة الحظ الأوفر من ذلك؛ كما أن تشابك جوانبه العقدية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتفاعلها على نحو يصعب تشخيصه أو التنبؤ به، كل ذلك يفرض على الداعية موازنات وترتيب أولويات وتنازلات كثيرة ومتعددة إلى جانب التصلب في بعض المسائل؛ وهذه لا يحسنها إلا القلة القليلة من ذوي الكفاءة النادرة.

والذي نريد أن نخلص إليه هو أن اكتشاف الداعية للمنهج الرباني لا يعني بالضرورة صواب الحركة به؛ كما أن هناك من دعوة الفساد من لا يعرف

عن المنهج الأقوم شيئاً لكنه يعرف من أين تؤكل الكتف، ويحسن الدخول والخروج، فيتحقق بعض النجاح على الرغم من ضلاله. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يصح القول: إن اكتشاف المنهج الدعوي الأمثل هو نصف المطلوب، أما النصف الثاني فيتمثل في فهم الأساليب والوسائل والخطط والآليات التي يجب استخدامها في نشر الدعوة، وهذا يحتاج إلى أمور عديدة منها:

أ - الإمام الجيد بالعلوم الإنسانية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتربية والاقتصاد وبناء الرأي العام والعلوم السياسية . . .

ب - الحوار المستمر بين فصائل العمل الإسلامي ومؤسساته المختلفة من أجل تدارس الإنجازات والتجارب ومحاولة استشفاف الواقع.

ج - إيجاد آليات للحصول على الأرقام والإحصاءات التي تقرب الواقع إلى الذهن، وتحوله من مادة هلامية متفلترة إلى مادة ملموسة يمكن القبض عليها.

د - التأمل والتفكير المستمران في التداعيات والترابطات والتقاطعات القائمة بين المجالات والأوضاع المختلفة، ومحاولة الوصول إلى بعض المحکات والمقولات النهائية في طرق الدعوة والإصلاح.

إن بعض الدعاة يزكي نفسه وجماعته من خلال اعتقاده أنه على المنهج الصحيح؛ غير متتبه إلى أنه قد يسيء إلى هذا الدين، وإلى القضية التي يعيش من أجلها من خلال جهله بأصول التحرك بالمنهج القويم، وعجزه عن تحويل المبادئ إلى سياسات وبرامج وأهداف محددة تمكن مباشرتها والعمل عليها.

٣ - سلفية المنهج وعصيرية المواجهة^(١) :

السلفية المنشودة، هي سلفية المنهج، أي العودة بأصول الفهم إلى الكتاب والسنة وقواعد تفسير النصوص لدى القرون الثلاثة الأولى، إلى جانب روح العطاء المجانية وشفافية البصيرة التي كان يتحلى بها السلف الصالح.

(١) انظر الثوابت والمتغيرات: ٣١١

ونقصد بعصرية المواجهة أن ندرك محاور المعارك القائمة بين الإسلام وأهله من جهة، وبين الفلسفات والنظم العلمانية والمادية من جهة أخرى؛ وأن ندرك إلى جانب ذلك القضايا الأكثر إلحاحاً والأشد حاجة إلى أن تستثمر جهودنا الدعوية فيها. ولا شك أن هذه القضايا تختلف من بلد إلى آخر، وبين عصر وعصر. وتعني المعاصرة أيضاً أن نستخدم الأساليب والوسائل المعاصرة في خدمة المنهج الذي نؤمن به، ومعالجة القضايا التي تتصدى لمواجهتها؛ فليس من المبشرات بالنجاح أن ينتقل الداعية على دابة، وينتقل منافسه المبشر في (حِوَامَة)! وليس من المعاصرة أن نواجه المعامل والمخبرات الموجودة لدى المنافسين بالمدارس والكتاتيب التي تقام تحت ظلال الأشجار، وليس من المعاصرة أن نواجه الغزو الإعلامي الرهيب بالشجب والاستنكار دون أن نمتلك القنوات والشبكات الإعلامية التي تنشر الهدي الرباني في أنحاء المعمورة.

إن كثيراً من الدعاة يجاهد في غير عدو، وينشغل بمحاجمة فرق ومذاهب ومعتقدات لا يوجد أدنى رصيد لها على الساحة، ولا يملك أية خبرة في الأفكار الهدامة التي تستأصل أمة الإسلام، وتجهض حيويتها، وتحرفها عن طريقها؛ فضلاً عن أن يمتلك الوسائل لمقاومتها. وقد رأيت في المدة الأخيرة عدداً من الكتب التي تتحدث عن اليهود في الكتاب والسنة، ولم نشاهد كتاباً قيمة تبحث عن بنية التنظيم اليهودي العالمي المعاصر، ولا في الآليات المستخدمة لديهم في اختراق الدول والمؤسسات، ولا في الأفكار السائدة لديهم أو المشكلات التي تواجههم؛ أي تجري الكتابة في كل ما هو معلوم مشهور، ويجري الإعراض عن بيان ما تحتاج إليه في مواجهتنا المعاصرة معهم! وعلينا بعد هذا وذاك أن ندرك أن امتلاك المعاصرة في ماهية المواجهة ليس بالأمر اليسير؛ فذاك متوقف على درجة مناسبة من المرونة الذهنية، وعلى توفر إمكانات معينة إلى جانب شيء من الشفافية والحساسية الراقية، وكل ذلك يحتاج إلى تدعيم وتعزيز في الشخصية الإسلامية المعاصرة؛ لكن الاستعداد لكل ذلك موجود؛ وبسائر التقدم تلوح.

٤ - خطوات إلى الأمام وخطوة إلى الخلف:

الداعية رجل يمتلك رؤية خاصة للأوضاع المحيطة به، وهذه الرؤية ستجعله تارة مع التيار، وتارة ضدّه، ولكن بعض الدعاة يقرر أن يجعلها معركة حامية الوطيس مهما كانت النتائج، وربما يخسر علاقات ومكاسب دعوية، وربما أعطى انطباعاً خطأً عنه، وربما أدت مواصلة السير إلى انتكاسات خطيرة للدعوة لا تتعافى منها إلا بعد أمد بعيد! ويظن بعض الإخوة أن ذلك من صلابة الداعية وثباته على المبدأ، مع أن السيرة العطرة مليئة بالأدلة العملية التي تدل على أن المطلوب من الداعية ليس تسجيل المواقف ولا البرهنة على الغيرة على الدعوة وإنما استهداف مصلحة الدعوة وتحقيق المكاسب لها. إن المطلوب هو نوع من المراوحة بين (الاستراتيجية) و(الكتيك)، ولا يمكن لخطة بعيدة المدى أن تحقق أهدافها ما لم تشتمل على مناطق فراغ يتحرك فيها الداعية على خلاف توجّه تلك الخطة لكن بما يخدمها من وجه خفي... وإن (الكتيك) الجيد لا يتأتى إلا إذا كان في إطار (استراتيجية) جيدة، وهكذا فإن الخطوة التي نخطوها إلى الوراء هي في الحقيقة خطوة إلى الأمام وإن ظهر خلاف ذلك.

٥ - لا بد من التنوع، ولا بد من دفع ضريبيته:

التماثيل يفضي إلى الرتابة، في حين يؤدي التنوع إلى التبادل والشراء، وليس هذا في شأن الدعوة، وإنما في كل شأن، إن القاعدة الذهبية في الاقتصاد، كما في (البيئة) هي قاعدة التنوع والاستغلال المتزامن لعدد من الإمكانيات، واتباع عدد من الإجراءات التي يتم اختيار كل منها تبعاً لـ(الاستراتيجية) المطبقة.

في الاقتصاد - مثلاً - يُعد المنتج الوحيد في الصناعة أو الزراعة أو التعدين أمارة على التخلف، ويسبب في الوقت نفسه إرباكاً ضخماً للدولة، ويضعها تحت رحمة تقلبات الأسواق العالمية^(١).

(١) انظر عودة الوفاق: ٢٢٢

وتجمح في نفوس الناس في بعض الأحيان رغبة في التخصص المفرط، فيندفعون إلى الإغراء في لون من ألوان الدعوة أو النشاط أو الحركة؛ ومع أننا لا نغض الطرف عن فضيلة الإتقان الذي يتتيحه التخصص إلا أن مجال الأعمال الدعوية يخضع في وجوده وتفاعلاته لعدد من الأنظمة المفتوحة؛ مما يجعل التنفس بمستقبل أي نشاط دعوي أمراً في غاية الصعوبة؟ ومن ثم فإن تلوين الأنشطة الدعوية وتعديها على كل جوانب الحياة يعد أفضل صمام أمان لاستمرارها واقتدارها على التكيف، واستفادتها من مختلف الفرص والظروف الكثيرة والمتنقلة، وما لم يتوجه الدعاة إلى تنوع استثمار جهودهم الدعوية في عدد واسع من الأنشطة وال المجالات فربما يجد الداعية نفسه - في لمحة عين - وقد ضاقت عليه الأرض بما رحب، وصار محروماً من الحركة في المجال الذي تخصص فيه... ويقال مثل هذا في حركات التحرر الوطني التي تكافح من أجل إخراج المستعمر من بلادها؛ فإن بعضها ركز على الجهد العسكري، وأهمل سواه، ونتيجة لقرار دولي أو ظروف داخلية حرجة وجدت نفسها أمام طريق مسدود، فتمزقت إرياً، وصار ثوارها يبحثون عن لقمة العيش، أو تحولوا إلى مستثمرين لجهادهم الطويل في مسائل ليست من jihad ولا التحرر في شيء!!.

لكن لـ(الشمول) دائماً ضريبيته التي لا بد من دفعها عن طيب خاطر⁽¹⁾؛ حيث إن هناك الذين تعودوا الاشتغال بقضايا جزئية يستحيل التقدم فيها إلا من خلال المسائل والنظم التي تتبعها، وهؤلاء يُدلون على غيرهم - عادة - بالعمق وحسن الفهم وسبر أغوار الأمور، وينظرون إلى أصحاب الاهتمامات العامة بشيء من الاستخفاف! وهناك الذين اتخذوا الدعوة مهنة لهم، يعيشون من ورائها، وهؤلاء يعدون غيرهم - في بعض الأحيان - متطفلين على الدعوة، ما داموا لم يتفرغوا لها! .

وهناك الذين اتخذوا من التنسيق والتربية الروحية سفينـة نوح - عليه

(1) انظر في هذا: المسار: ٥١.

السلام - لإنقاذ الأمة؛ فلا يرون الجهد في غير ذلك سوى نوع من العجز أو
إضاعة الوقت، وهناك وهناك ...

لكن التجربة الحضارية ستعلم الجميع - ولو بعد حين - أن وضع البيوض
في سلة واحدة، ليس من الحكمة، ولا مما يُفاخر به! .

٦ - لدينا مشكلات لا يحلها إلا الزمن :

البطء هو قانون التغيير، وأكثر ما يتجلّى ذلك في المسائل النفسية
والاجتماعية والثقافية والفكرية، ولا تتحقق محاولات التسريع وحرق المراحل
في شيءٍ كإخفاقها في هذه القضايا، والسبب في ذلك أن لكل واحد من
الناس وضعية خاصة متفردة، في كل شيءٍ، ومن ثم فإن استجابته للمثيرات
ستكون أيضاً فريدة ومميزة؛ ولذا فإن علينا أن نتذرع بالكثير من الصبر حتى
نلمس التغيير المرغوب، وكثيراً ما أظهرنا البرَّ من أحوال أمتنا وأوضاعها التي
لا تسر صديقاً، ولا تغطي عدواً، لكن ذلك لم يغير من واقع الحال شيئاً؛
فيكون الموقف السديد إذن هو المصابرة، وامتلاك قوة الانتظار؛ فضيق الأفق
الموجود لدى كثير من الناس لا يمكن أن ينتهي بقراءة عشرة كتب تتحدث
عن الشمولية والكون الرحب وتعقد المؤشرات؛ لأن في داخلنا آلية لرد أو
تأويل كل ما يفدي علينا مما يخالف بنائنا الفكرية والثقافية العميقة، ومن ثم
فإن نزول الأفكار من أعلى النظر لتتختَّم في بؤر الشعور وأغوار (اللاشعور)
يحتاج إلى زمن، والزمن وحده هو (الشارارة) التي ستلهب تفاعلات الجديد
مع قدیمنا الراسخ.

وقلّ نحواً من ذلك في عجز كثيرين منا عن التخلص من الشعور بالتأمر
الذي غرس في أعماقنا الاتكالية، وتعليق أخطائنا وخطايانا على شمامات
الآخرين ..

وقل مثله في ضعف الفاعلية لدى المسلم وضعف المبادرة الفردية
والثقة بالنفس ..

إن مما يدعونا إلى الصبر في طريق الخلاص أن هذه الأدواء لم توجد

في يوم وليلة، وإنما نتيجة تراكم بطيء وغير منظور؛ وحين يتأنى للأمة الشفاء منها فإنها ستمتلك وضعية مشرقة ربما تستمر معها قرونًا من الزمان.

٧ - نصف نجاحنا من وراء جهودنا والنصف الثاني من أخطاء الآخرين:

لا تعيش الدعوة إلى الإسلام وقيمه ومبادئه في فراغ عقائدي، كما قد يتوهم، فعصر الاتصال الكوني لم يترك شبراً من الأرض لا تزدحم فيه العقائد والأفكار والرؤى والخطط الإصلاحية المختلفة، وهذه المزدحمنات مرتبطة بعضها ببعض بعلاقات توازنية وسيطرة متبادلة، وهي تتنازع جمیعاً على احتلال مساحة واحدة، وكسب بشرٍ معینین إلى صفوفها؛ وهذا يعني أن إخفاق أحد المتنافسين، سوف يصب مباشرة في رصيد الآخرين الذين يتنازعون معه؛ ولذا فإننا نعتقد أن الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها التيارات العلمانية والقومية والاشتراكية قد دفعت بأعداد ضخمة من الناس نحو الاعتقاد بأن الإسلام هو الملاذ الأخير؛ وهذا يعني من جهة ثانية أنه إذا ما ارتكب الدعوة أخطاء فادحة في أساليب طرحهم لدعوتهم، ومعالجة مشكلات بلادهم فإن كثيراً من الكسب الشعبي سوف يتحول إلى غيرهم بصورة بطيئة؛ ليكسب الآخرون أتباعاً وأنصاراً لم يتبعوا في جمعهم، وربما لم يخاطبوهم! هذه الحقيقة تفتح أعيننا على أمرتين، الأولى: عدم الفرح بانتصارات لم نخوض معاركها، وإنما هي نتائج لمعارك خاسرة خاضها غيرنا. والثانية: اليقظة الشديدة تجاه أحاسيس (رجل الشارع) وتقويمه للأنشطة الدعوية المتاحة؛ إذ إن حكمه السلبي سوف يعني على الأمد بعيد انحسار تأثير الجهد الدعوي، واتجاه الناس نحو دعوات أخرى أكثر جاذبية.

٨ - إذا قمنا بالواجب لم نكن مسؤولين عن النتائج^(١):

يمكن القول إن المطلوب من الداعية أن يخلص في دعوته الله - جل وعلا -، فلا يقصد من ورائها عَرَضاً زائلاً ولا مصلحة خاصة، وأن يبذل

(١) أصول الدعوة: ٤١٦

جهده في اتباع الأسلوب المناسب، واستخدام الوسيلة التي تخدم الأسلوب بشكل صحيح، إلى جانب الاستعانة بكل خبرته الدعوية... فإذا ما فعل الداعية كل ذلك في الإطار الشرعي والعرفي، ولم يحصل على النتائج المرجوة فإن عليه أن يكون راضي النفس مطمئناً إلى ما قسمه الله - تعالى - من توفيق وتسهيل ونجاح؛ فالله تعالى يقول: ﴿فَلَنَفَّوْا اللَّهُ مَا أَسْتَطَعُمُ﴾^(١)، وقد بذلك هو ما في وسعه ومكتبه. ومن المعلوم أن الأعمال الدعوية تخضع لعدد من الأنظمة المفتوحة، واستجابة الناس للدعوة - على كل المستويات وفي كل الصور - تخضع لاعتبارات خارجة عن إرادة الداعية، وتارة عن إرادة المدعو... إن نتائج الأنشطة الدعوية أشبه ما تكون بنتائج معركة حربية، مهما بلغ الاستعداد الجيد لها فإنه يظل في حسابات القادة حدوث الهزيمة أو الانسحاب أو الخسائر الفادحة... علينا بعد هذا وذلك أن نفرق بين خسائر نتجت من جراء عقبات الطريق وتکاليفه الطبيعية، ومن جراء اجتهاد مؤصل قام به من يسوغ له الاجتهاد، وبين خسائر حدثت نتيجة مغامرات غير محسوبة، أو نتيجة ضعف في المعلومات الالزمة أو نتيجة اجتهاد لا يستند إلى آية حجة من شرع أو علم أو خبرة، أو من جراء فتاوى من أشخاص هم أبعد شيء عن المجال الذي اجتهدوا فيه..

وقد حدث في حالات عديدة أن خطط لمعارك كبرى قاده لم يمسكوا بأيديهم قطعة سلاح في يوم من الأيام، كما حدث أن اشتغل بالسياسة، ودخل لججها دعاة لم يقرءوا يوماً كتاباً واحداً في العلوم السياسية وهكذا... ثم يأتي من يقول لك: قد اجتهدنا، وهذا حظنا، أو هكذا أراد الله - تعالى - !!.

ومن العجيب أننا نسلم بوجوب لا يجري عملية جراحية إلا طبيب، ولا يخطط لنفق أو جسر إلا مهندس، لكننا لا نرى مثل ذلك في الأعمال الدعوية، وكأن العمل الدعوي كلاماً مباح يرتع فيه من شاء دون أدنى قيد أو شرط !!.

(١) سورة التغابن: الآية ١٦.

وعلى كل حال فإن من الممكن جبر الكسر وتلافي الخسائر إذا كان ثمة بعض الأصول والقواعد المعتمدة في عمليتي المراجعة والمحاسبة؛ وحين لا يكون ثمة منهج ولا أهداف واضحة ولا آليات لإيقاف الخطأ عند الحدود الخطيرة، ولا شيء اسمه ميزانية أو حساب ربح وخسارة، ولا شيء اسمه خبرة حضارية أو اعتبار بسنن الله في الدعوات الماضية، فإن النتائج سوف تكون مرؤعة، وهذا ما يحدث لبعض الدعاة والدعوات اليوم !! .

٩ - التوازن بين الواقع والمثال :

المنهج الرباني منهج وسط، وأمة الإسلام كذلك أمة وسط. ومكمن أكثر الفضائل هو الوسط وليس الأطراف، ومهمة الداعية أن يكون في نقطة التوازن في أمور أكثر من أن تحصى، لعل من أهمها التوازن المنهجي بين المثالية المجنحة والواقعية العاجزة، ومهما حاولنا وضع الضوابط والمؤشرات لتحديد كل منهما، فإن الحصيلة ستكون نسبة تختلف بين مسألة وأخرى، ومن شخص إلى آخر، لكن المهم على كل حال أن يجمع المنهج الدعوي بين الواقعية والمثالية في آن واحد؛ ويمكن القول: إن الواقعية تمثل في فهم ما ينبغي إنجازه، وفهم الإمكانيات المتاحة لذلك مع تصور صحيح للعقبات التي تحول دون ذلك من غير شطط، ولا إفراط أو تفريط، مع حساب نسبة معقولة للمفاجآت والأخطاء التي قد تقع.

أما المثالية فتكمن بصورة أساسية في حجم الأهداف التي يسعى الداعية إلى تحقيقها، وفي كفاءة الأساليب والوسائل التي سوف يستخدمها، والخدمات المجانية غير المنظورة التي سوف يقدمها المتعاطفون مع الدعوة، وفي مدى السيولة والسهولة التي ستكتنف خطة التنفيذ. أو بعبارة أخرى تكمن المثالية في المسافة الفاصلة بين الإمكانيات والأهداف.

ولا بد لنا من الواقعية في كل ما يتصل بالدعوة، وإن كانت خطط الدعوة كلها كمن يرسم في فراغ، وكان المنظرون كمن استغرق في أحلام اليقظة !

لا بد للدعوة من شيء من المثالية، أي تجاوز الآفاق التي ترسمها الإمكانيات المتاحة، وهذا التجاوز ضروري لبث الأمل وبعث البشري في نفوس العاملين وشباب الصحوة، وهذا أو ذاك منهج قرآني ونبي معمور، أدلته أكثر من أن تحصى، وهو إلى جانب ذلك منهج منطقي واقعي؛ فحساب النتائج بدقة مستحيل في مجال الدعوة - كما أسلفنا - وانتظار التوفيق والعون والتسليد والبركة من الله تعالى متوقع ومأمول، حيث جرت عوائد الله الحسنى لعباده المتقين بأن يمدhem باللون من النجاح والتقدم، لم يكونوا يتوقعونها، ولا يعرفون مداها. والمهم بعد هذا أن تبني الخطط على المحسوس والملموس الكائن من الإمكانيات، وأن تشبع روح المسلم ونفسه بالأمل والتشوف إلى رحمة الله - تعالى - وعونه.

ومما يساعد في إحداث هذا التوازن فهم الواقع بشكل جيد، ومعرفة مجموعة التوجهات والارتباطات والقوى الفاعلة في المجتمع، إلى جانب استشراف حجم ما يمكن أن يضعه المحيط العالمي من عقبات، أو يقدمه من تسهيلات - بحسب نوعية النشاط الدعوي -، ويضاف إلى هذا الإيمان المطلق بصحة المبادئ التي ندعو إليها وضخامة رصيدها في فطرة الإنسان إلى جانب كونها أصح أساس موجود على وجه الأرض لإصلاح حال البشرية وتحسين مستقبلها وعواقب أمرها.

وتظل الشفافية والخبرة الحضارية التوأم الذي لا يفترق على صعيد فقه الخطوة المناسبة.

١٠ - بين النظرية والتطبيق مفارقة أبدية:

المنهج الرباني الذي شرفنا الله - تعالى - بحمله ينتمي إلى دائرة المطلق؛ فهو فوق الزمان وفوق المكان، ومن تلك الدائرة يستمد خلوده وثباته، وحين نضع الخطط، ونبذل الجهد في سبيل تجسيده في الواقع الحياة المعاش تكون قد نقلناه من تلك الدائرة إلى دائرة الإمكانيات البشرية التي مهما كانت عظيمة فإنها في النهاية محدودة وضئيلة، ثم إن المجالات التي سيهيم

فيها المنهج ليست شاغرة ولا فارغة، وإنما هي مملوءة برواسب ومصالح وأفكار وعقائد وتوجهات وشهوات، لا تنسجم في أكثر الأحوال مع ذلك المنهج؛ مما يعني أن إحالة النظرية إلى واقع تحتاج إلى اجتهاد وجهود وكفاح طويل، وخلال ذلك سيلجاً الداعية إلى شيء من الموازنات وترتيب الأولويات وغض الطرف عن بعض الجزئيات، وكل ذلك يمثل في التحليل النهائي نوعاً من المفارقة بين النظرية والتطبيق. ومن هنا نفهم السر الأكبر لما قضى الله - تعالى - به من اتصف الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بالعصمة حيث يكون سلوكهم ترجمة أمينة لرسالتهم، أي من أجل لا يقع أي نوع من المفارقة بين سلوكهم وبين ما يدعون إليه.

وإنما نقول هذا حتى لا يرتاع الداعية مما يشاهده من مفارقات بين حال الدعاة وأقوالهم؛ فشيء من ذلك على صعيد السنن والمكرمات وصغار الذنوب مألهوف الحدوث، وما يسر تقاديه لدى كثير من الخيرين؛ ونعد مطالبة الدعاة بالتماثل التام بين ما يدعون إليه وبين ما يتجسد في حياتهم - نوعاً من التعتن والمثالية الزائدة؛ وقد رأينا كثيراً من الدعاة ينعون على إخوانهم ألواناً من التوسع في متع الدنيا، ثم إذا بهم يقعون فيما أخذوه على غيرهم ! .

ويضاف إلى هذا أن كثيراً من طلاب العلم وأبناء الدعوات ينظرون إلى أنفسهم بعين الاتهام بالتقسير، ولا يشعرون بأنهم دعاة؛ ثم يأتي من ينظر إليهم نظرة مثالية؛ ويحملهم على أساسها أعباء سلوكية إضافية كتلك التي تطلب من الصديقين وكبار العلماء والدعاة؛ وفي هذا نوع من الإجحاف!. إن نبينا صلوات الله عليه هو المربي الأعظم، وقد خالطه، وقبس من هديه أعداد كبيرة من الصحابة؛ لكن درجات انتفاعهم بذلك متفاوتة إلى حد بعيد؛ وذلك يجسّد بوضوح الحالة التي يمكن أن تنتج عن تنزيل المنهج الرباني على واقع الناس ذي التنوع والتعقيد الشديدين.

١١ - القدرة على تقديم البديل هي محك النجاح :

لا شيء أسهل من النقد والكشف عن العيوب والمثالب؛ فالتنوع

الضخم في الرؤى والأفهام والمعايير... . يتيح لكل واحد منا وجهة نظر خاصة حيال أشياء كثيرة، لا حصر لها؛ فالحسناً لا تعدم ذاماً، وإذا كان الواحد منا يؤلف الكتاب، ولا يخرجه للناس إلا بعد أن يرضي عنه تمام الرضا، ثم إذا أعاد النظر فيه بعد سنة غير ويدل، وقدم وأخر، فماذا تكون الحال إذا نظر فيه غير مؤلفه؟!

لكن المهم في كل الأحوال هو تقديم البديل الأصلح والأنفع الذي يخدم مقاصد الشريعة الكبرى، ويكون إلى جانب ذلك خالياً من النقود التي نوجهاها للأوضاع السيئة الموجودة في أكثر من مجال من مجالات الحياة؛ ليس من العسير أن نوجه النقد إلى نظام التعليم القائم الآن، وليس من العسير أن ندعو إلى إعادة نظام تعليم الإجازات والكتابات؛ لكن المهم دائماً هو صلاحية ذلك لعصرنا ووفاؤه بمتطلبات الحياة الحضرية التي يعيش فيها الناس.

من السهل أن ندعو إلى تطبيق (الديمقراطية) أو نقدّها والتشنيع عليها، وكل من هذين موجود الآن عند بعض الجماعات الإسلامية، وعند الداعين إليها شيء من الصواب، وعند الرافضين لها أيضاً، لكن الحيوي والمهم هو بلورة نظام يحقق مبادئ الشريعة ويصلح أحوال الناس، ويتمتع بالشفافية، وتكون السيادة فيه للدستور الإسلامي، دون أن تكون فيه المعائب التي تؤخذ على الديمقراطية في الشرق والغرب، وإن الملاحظ أن كثيراً من الدعاة يعرفون المبادئ الإسلامية بصورة ممتازة، لكن المشكلة تكمن في اكتفاء كثير منهم بالمبادئ عن النظم؛ ومن ثم فإن ما تبلور منها إلى الآن ليس كافياً؛ بل هو أقل من القليل؛ مع أن مضمار الاختبار الحقيقي لأصحاب الدعوات هو تحويل المبادئ التي يدعون إليها إلى سياسات ونظم وإجراءات ملموسة وعملية...

إنني أشعر أن مطالبنا - في بعض الأحيان - متناقضة، كما أن أساليبنا وخططنا تفتقر إلى التناسق والانسجام؛ وكل ذلك بسبب ضعف الخبرة العملية في الإصلاح والبناء الحضاري.

١٢ - من القلق إلى السكينة:

في عصر يسود فيه الخوف من المستقبل والخوف من الموت ومن المرض، وحب السيطرة على كل شيء وامتلاكه - ولو بدون مؤهلات - اكتسبت مسألة (الأمن النفسي) للمدعون أهمية خاصة؛ إذ إن هاجس الخوف من كل شيء يحول دون اهتمام الناس بما نقوله لهم؛ ولعلنا نقول بصدق: إن سمة (اللامبالاة) هي السمة الأكثر انتشاراً في عالم اليوم نتيجة الفوضوية والعدمية والشك وفقدان الإطار المرجعي... فكثير من الناس يدفعه الخوف إلى مزيد من الاهتمام بالمادة والتشبث بها، وتحمله (اللامبالاة) على الزهد في كل النصائح والمواعظ التي تلقى على سمعه^(١).

ومن هنا فإن من أهم أساسيات المنهج استهداف إشاعة السكينة والطمأنينة في نفوس الناس، وذلك لا يتم من خلال نصحهم بالتنازل عن حقوقهم ونسيان آلامهم، وإنما من خلال أمور عده:

أ - تدعيم الجانب الروحي وإفساح مجال واسع له في الخطاب الإسلامي؛ وذلك بالبحث على الإكثار من العبادات ومراقبة الله - تعالى - والتزه عن المخالفات الشرعية، القراءة في سير بعض السلف الذين عرف عنهم الورع والتنسك، مع الحذر الشديد من الجنوح نحو الخرافية، والتفلت من القيود الشرعية، وإغفال جانب الفكر والعقل؛ وذلك لأن التجربة علمتنا أن انجداب الإنسان نحو الروحانيات قد لا يقف عند أية حدود، وبذلك يحدث الإجحاف بقضايا كثيرة مهمة.

ب - مساعدة الناس على الوصول إلى حقوقهم؛ فعلى خلاف ما يُظن فإن الحاجات ستظل ملحة ومسطورة على المشاعر ما لم تُشبّع، وثُرُوى؛ فالذى يتطلع إلى أن يكون له دور في النقد أو الإصلاح سيظل مشغوفاً بذلك حتى يتاح له ما يريد، والشعوب التي تطالب بشيء من الحكم الذاتي أو

(١) عدم اهتمام (الياباني) بما وراء المادة هو السبب الأساسي في ضعف انتشار الإسلام في اليابان بصورة قلّ نظيرها.

الحكم اللامركزي ستظل تطالب بذلك وتقاتل من أجله حتى تحصل عليه؛ لكن هؤلاء جميعاً حين يحصلون على ما يريدون سوف يشعرون أن الشغف بذلك لم يكن يخلو من مبالغة، بل ربما شعروا أن ذلك كان ورطة، وكانت مغارمه أكبر من مغانيه، لكن ما العمل إذا كانت طبيعة الناس تميل إلى التعليق بالأوهام والجري وراء السراب! . فنيل الناس لحقوقهم المشروعة أو ما يظنونه كذلك عامل مهم من عوامل الطمأنينة.

جـ- الترابط الاجتماعي عامل مهم في سكينة النفوس؛ إذ من الحيوي لكل واحد فينا أن يشعر أنه لا يواجه لأداء الحياة بشكل منفرد، وأنه سيظل في حياة الناس أشياء كثيرة أجمل من المادة والمكاسب الشخصية؛ وهذا يحتاج إلى شيء من التضحية بالوقت والمال والجهد، ومن غير الدعاة أولى بكل ذلك؟! .

١٣ - بناء الإيجابية ضرورة عصرية^(١) :

لا يستطيع المسلم اليوم أن يعيش عصره بكفاءة وفاعلية ما لم يتحلّ بصفة مهمة هي (الإيجابية)؛ فعصر الاتصال الكوني فرض مواصفات خاصة ودرجة من الإنتاجية عالية لكل أولئك الذين يريدون قيادة الركب فيه وأولئك الذين لا يرضون العيش على حواشيه وهوامشه. وظاهر كلمة (الإيجابية) أنها مقابلة لكلمة (سلبية)، وهي كذلك، لكننا نريد منها هنا أكثر من مجرد الاستجابة أو المبادرة؛ ولعلنا نختزل ما نريد منها في النقاط التالية:

أـ- مسلم اليوم بحاجة إلى الشعور بقدرته على التغيير، تغيير نفسه وتغيير محیطه ورؤيته للأشياء، وهذا الشعور هو الشعور الذي يضار الإحساس بالعجز والاستسلام والتصلب الفكري والحركي. وقد علمنا القرآن الكريم أن شرط تغيير العالم هو أن نغير ما بداخلنا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يُغَيِّرُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يُنفِسُهُمْ»^(٢). وينطلق الشعور بإمكانية التغيير من إدراك أن الله - جل

(١) انظر كتاب الإنسان والتفكير الإيجابي؛ ففيه بعض الأفكار الجيدة في هذا.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

جلاله - قضى على هذا الكون من حولنا أن يتقلب في أحوال مختلفة، وأن يظل في حالة من الصيرورة المستمرة؛ كما ينطلق أيضاً من مبدأ الاستفادة من التجارب السابقة التي خضناها، أو رأيناها، ومن مبدأ ضرورة انتقال الإنسان من الخصوص للغرائز إلى مرحلة استلهام الحق والخير والفضيلة وتمثلها في السلوك من جديد.

لا بد أن نزرع في نفس كل مسلم أن الرتابة نوع من العدم، وأن الاستسلام للأخطاء والقنوع بالحالة الحاضرة نوع من الخروج من المحيط الحي إلى محيط الجماد! ولا يستطيع الدعاة بث هذه الفكرة ما لم يلمسوا فيهم روح التجديد، والقدرة على مغالبة الذات والعادات والتقوّف عليها، وتحديث أساليب الدعوة والخطاب بصورة مستمرة.

ب - من الإيجابية أن يحاول المسلم تحسين صورته الذاتية أمام نفسه، إذ ليس المهم - في جوهر الأمر - نظري للعالم، ولا نظر الناس لي، لكن المهم هو كيف أرى أنا نفسي، وهذا ما نلمحه في قوله سبحانه: «بِكُلِّ لِّسْنٍ عَلَىٰ فَتَقِيهِ بَعِيشَةٌ ۝ ۱۴ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ۝ ۱۵»^(۱). فالمعنى ليس ما نقنع الناس به عنا، لكن المهم ما نعرفه نحن عن أنفسنا. إن الصورة الذاتية لكل منا هي محصلة المواقف المتنوعة التي يتخذها كل فرد انطلاقاً من قدراته وخبراته في كل المجالات التي يتعرض لها. وعلى مقدار إشراق تلك الصورة، وما تتحققه من رضا نفسي يكون امتداد تأثيرنا في الآخرين الذي هو المجال الربح لاستخدام إمكاناتنا الحقيقة^(۲).

ومما لا يحتاج إلى بيان أن صورتنا عن أنفسنا لا يمكن أن تتحسن من خلال رؤى كاذبة أو نجاحات لم نحققها، أو إيحاءات، مصدرها بعض الذين يحترفون الثناء.... وإنما من خلال ما يتراكم من أعمال صالحات ومواقف مشرفة وفعالية عالية، وهذا ما يرشدنا إليه الكتاب العزيز في غير موضع منه،

(۱) سورة القيمة: الآياتان ۱۴، ۱۵.

(۲) انظر السابق: ۶۹.

كما في قوله - سبحانه - : ﴿وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِي نَعْمَلِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سَبِيلًا﴾^(١) وقوله : ﴿وَالَّذِينَ أَهَدَوْا زَادُهُمْ هُدًى وَمَنْتَهُمْ تَفْوِيْتُهُ﴾^(٢).

ويقال من وجه آخر إن اكتشاف الذات قد يتوقف على اكتشاف الآخر في مواضع كثيرة؛ فأصحاب اليمين يقيّمون أنفسهم من خلال معرفتهم بالسابقين وأصحاب الشمال، والجيد يعرف نفسه من خلال معرفته بالممتاز والضعف. لكن المهم على كل حال أن نملك العزيمة على الترقى والكدح المستمر بغية مزيد من الثقة بالنفس والرضا عن وضعيتها.

ج - من الحيوي في أي منهج دعوي أن يوجه الناس إلى استثمار طاقاتهم الداخلية بطريقة طوعية؛ وإن دفع الناس للعمل عن طريق التهديد كان مستخدماً منذ انشاق أول مجتمع منظم، ولقد استخدمت (الجندية) هذا الأسلوب قروناً متطاولة، وثبت عقمه؛ فالعمل الذي يتم إنجازه تحت ظروف الضغط والإكراه لا يبلغ أبداً ذروته، ولا يبذل فيه أبداً أقصى جهد ممكن، وإنما يبذل ما يكفي فقط لاستمرار العمل ! .

وبالإضافة إلى هذا فإن الضغط على الناس في سبيل مزيد من العمل يرفع من درجة التوتر النفسي، ويولد الحقد والكراهية والإحجام عن العطاء وتحطيم المعنويات وكسر شوكة النفس . . .

والطريق الآخر لتججير الطاقات الكامنة ورفع الكفاءة هو جذب الناس إلى العمل الجاد من خلال القدوة الحسنة، وتحث الآخرين على أن يرسموا أهدافهم بأنفسهم، ثم يبحثوا عن الوسائل التي تتحققها، كما أن توسيع مساحة الراحة النفسية تتيح للطاقات والإمكانات أن تتفتح، وتأخذ طريقها إلى التحقق .

وإن للخيال فضيلة كبرى في تخفيف التوتر، وبعث الإنسان نحو العمل والإنجاز، إن علينا أن نعلم أن الفاعلية قيمة، وأن القيمة لا تفرض ولكنها

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة محمد: الآية ١٧.

تجذب، ولذا كان لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وإن أحوال الدعاة هي التي يمكن أن تكون مصدر إلهام لكثير من الناس.

د - الصحة النفسية شرط أساسي لولادة الإيجابية، فلا يمكن أن يكون المرء إيجابياً، وهو يشعر بنوع من (القرف الوجودي) أو الحسد أو الغيرة أو الخمول النفسي أو الحقد على الناس.. ومن ثم كان للتزكية وتنقية السرائر المكانة العظمى في الإسلام، إنه (القلب السليم) الذي على المسلم أن يحمله بين جوانحه في تعامله مع ربه والناس من حوله. وحين يقع المسلم في الخطيئة فإن شعوره بذلك يعد علامة على أن قلبه ما زال حياً لم تجهز عليه سهام المعاishi، لكن استمرار الشعور بذلك قد يحطم الإنسان، ومن ثم فإن الله - تعالى - شرع التوبية لغسل ذلك الشعور، والإحساس بالتطهر والتجدد واستئناف حياة الطاعة، والعودة إلى طريق الرشاد والسداد.

إن المداومة على ذكر الله - تعالى - ومناجاته هي التي تخفف من أمراض النفوس الكثيرة التي تتولد من ضياع الأهداف تارة، ومن الحرص على الدنيا تارة أخرى.

ه - من مفردات الإيجابية الجاهزية للعطاء وتعدى النفع للآخرين، الذي يمثل من وجه آخر مصدرأً ثرياً للراحة والاطمئنان النفسي والسعادة الذاتية. وحين تكون الأمة في حالة (سواء) فكري وحضاري فإن احترامها وتقديرها لا ينصرف أبداً إلى أولئك الذين يملكون ما لا يملك غيرهم، ويتصرفون بما يعجز عنه سواهم، وإنما ينصرف إلى أولئك الذين استطاعوا تجاوز عقبة (نفسي نفسي)، وصارت هموم الآخرين هي همهم الأكبر، فأياديهم دائماً مبوسطة بالخير والنفع، وإذا لم يسمح الظرف بذلك؛ فأبدانهم ممتنة في خدمة إخوانهم، ووجوههم تتلألأ دائماً بالبشر والتبسيم والبشاشة؛ فذاك من القربات والصدقات أيضاً، كما في قوله ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»^(١) قوله: «كل سلامي من الناس عليه صدقة

(١) أخرجه مسلم.

كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها مtauعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١).

و - المبادرة الفردية هي سفينة النجاة في حالة انحطاط الأمة، وتربيتها لدى الناس جزء من منهجهتنا في بناء الإيجابية. وتعني المبادرة ترفع أفراد من الأمة على مستواها وسقف حيويتها، واندفعهم نحو ما يتنى الناس حصوله، لكنهم يفقدون العزم والإرادة للبدء به. قد علمتنا التجربة أن معظم الناس يحبون الخير، ويقدرون فاعليه، وهم على استعداد للمشاركة في مشاريعه، لكن المشكلة الكبرى هي أن المستعددين فيهم لخطو الخطوة الأولى، ووضع أول لبنة قلة قليلة، وهذه القلة هي ملح المجتمع وبركته، إنهم أناس يحبون الخير، ويثقون في أنفسهم، ويحبون خدمة جماعتهم، وهم إلى جانب ذلك مستعدون لتحمل نتائج مبادراتهم، وما قد تجره عليهم من مشكلات ومتاعب. إن علينا أن نعرف أن حرصنا على أن يكون كل شيء وفق نظام محدد، واحتياطاتنا الشديدة لكل شيء، والتعليم التقليدي، والحرص على أن يكون لكل شيء نموذج سالف - إن كل ذلك أدى إلى خشية المسلم من أن يكون في الطبيعة، وصار كل واحد منا يقول في داخله: «اليبداً غيري» و«عليها أن ننتظر لنرى النتائج»!! وهذا أدى إلى المؤاخذة الشديدة لكل من يبادر إلى خير، ثم يخفق فيه، أو تكون عواقبه على غير ما يريد، مع أن هذا المبادر لو لم يكن له سوى فضل الانتصار بين الأموات لكفى !.

ز - الصمود والاستمرار، وعدم الخوف من الإلتحاق بأعمدة أساسية في خلق الإيجابية، وعبادات الإسلام وتکاليفه تصب جميعها في تنمية إرادة الصمود، حيث يظل المسلم يلاحق هدفاً واحداً طول حياته بفعل الخبرات، وترك المنكرات، وهذا الهدف هو نيل رضوان الله - تعالى - والفوز بالجنة.

إن ما نراه من نجاحات في عالم الواقع ليس وليد المحاولة الأولى، بل

(١) متفق عليه.

إن هناك مئات بل ألف التجارب المخفرة التي سبقت النجاح الكبير، وهم يذكرون أن (أديسون) واجه في بحثه الدؤوب عن (سلك الملف) المناسب لصناعة المصباح الكهربائي ثلاثة آلاف حالة إخفاق - وهي بالطبع ثلاثة آلاف عقبة مؤقتة - قبل أن يتوصل إلى المادة المناسبة! بعد ثلاثة آلاف محاولة يمكن لأي رجل عادي أن يعترف بالهزيمة، إن كان لا يتمتع بخاصية الصبر والإصرار على الظفر غير المحدود!^(١).

إن علينا أن نشجع من غير ملل كل أولئك الذين يصررون على عملية (المحاولة - والخطأ) وأولئك الذين يملكون الإرادة الحديدية للاستمرار في طريق البناء والإصلاح والخير إلى آخره مهما كانت التكاليف.

ح - من مفردات الإيجابية القدرة على التحكم في عواطفنا، وهومنا، وهذا في الحقيقة ليس إيجابية فقط، وإنما هو نوع من تجاوز الغريزة؛ وهذا التجاوز يعبر في اتساعه عن مدى المسافة الفاصلة بين إنسان ما، وبين الحيوان؛ فالحيوان لا يستطيع السيطرة على غرائزه، ولا تأخير رغباته، كما أنه لا يقوى على المخاطرة... ونعني بالسيطرة هنا أن يلبس المسلم لكل حالة لبوسها؛ فليس من الإيجابية أن يحمل الموظف هموم بيته وأولاده ومشكلاته الخاصة إلى مكتبه أو مدرسته أو مصنعه. فاللأداء الكفاء يتطلب موظفاً في أحسن أحواله، وفي أعلى درجات لياقته النفسية والجسمية، والناس لا يعذرون الموظف الذي ينام على مكتبه، ولا الأستاذ الذي لم يحضر درسه... كذلك ليس من الإيجابية أن يزعج المسلم أهل بيته بمشاكلاته مع طلابه أو زملائه أو مراجعيه، ولا يمكن للمرء أن يحصل على هذا الخلق الكريم - الذي هو تعبير عن العطاء في أسمى صوره - إلا من خلال تنظيم شؤون البيت وشؤون العمل، وإلا من خلال تدريب العاطفة وآلية الضبط الداخلي لديه، وإنما فسوف يشعر أهل العمل وأهل البيت معاً بنقص مقدراته وضآلة كفاءته...

(١) الإنسان والتفكير الإيجابي: ١٦١

هذه القضية التي تحدثنا عنها لا يمكن جعلها حية في حياة الناس إلا من خلال تبني الدعاة والمناهج الدعوية لها وجعلها جزءاً من الخطاب الدعوي، وجزءاً مهماً من اهتمامات الدعاة.

١٤ - من الهموم إلى المفاهيم ثم الآليات:

هذه قضية مهمة في بناء الداعية وبناء المنهج معاً، وتتبع أهميتها من طبيعة ترابطها ومنظفتها، وكون كل مرحلة منها تقضي إلى الأخرى، وهي من بعد ذلك مراحل ضرورية لا بد أن يعبرها كل منهج من المناهج.

تعبر المرحلة الأولى عن إدراك واضعي المنهج الدعوي لطبيعة الإصابات والمشكلات التي تعاني منها أمة الإسلام في واقعنا المعاصر، وهذا الإدراك سوف يشير - ولا ريب - الهموم والشجون لدى أهل الغيرة على المصلحة العامة. ولا يشترط لحدوث ذلك أن يكون واقع الأمة سيناً؛ إذ ما من مجتمع ولا أمة ولا حضارة تخلو من معاناة ومشكلات - وإن كانت طبيعتها ودرجتها تختلف - وهي بالتالي بحاجة إلى من يفكر وينصب من أجلها، وأعتقد أن نسبة الذين يحملون الهم العام لدينا لا بأس بها، لكن مدى إدراكهم لحجم المشكلة متفاوت إلى حد بعيد جداً؛ وذلك لقلة الأرقام والإحصاءات التي تصور واقعنا في جوانبه المختلفة، ولضعف حركة التثقيف ووسائله، ولعدم القدرة على صياغة (إشكاليات) متقاربة (نلم لم) من خلالها الواقع بصورة جيدة، ولأسباب أخرى عديدة... .

ويمكن القول بكلمة واحدة: إن التخلف على الصعد المادية الذي يحيط بأمة الإسلام هو الذي يحول دون فهم جيد للواقع، وتكوين صور ذهنية واضحة عنه. ولذا فإن كثيراً من همومنا لا يعود أن يكون عبارة عن جار بشكوى مبهمة من سوء الأحوال والظروف ليس أكثر... .

وحين يتم إدراك الواقع بشكل جيد فإن المرحلة الثانية التي ينبغي أن تُسلم إليها المرحلة الأولى هي مرحلة صياغة (المفاهيم)، والمفاهيم عبارة عن أفكار كبرى تتسم بنسبة عالية من الاستقرار والثبات. وهي في جوهرها

عبارة عن رموز تبدي في مجموعة من المقولات العامة التي تشكل في النهاية
أطراً للتواصل والممارسة والتقويم . . .

وهذه المفاهيم نوعان: نوع يتصل بطبعية أمراض الأمة ومشكلاتها، وهي تعبير حي عن سيطرة واضعيتها على القضايا التي تصدوا لاستيعابها وتمثلها، كما أنها تعبير نشط عن جملة الحالات الذهنية والشعورية التي انتهى إليها واضعو المنهج خلال محاولاتهم سبر أغوار الواقع واحتراقه.

أما النوع الثاني من المفاهيم فيتصل بصنوف العلاج الذي يراه أطباء المجتمع في الصعد الحياتية كافة. ويمكن القول: إن العلاج الناجع لا يكون إلا بعد تشخيص جيد، وإن نصف الحل لأي مشكلة يمكن في تشخيصها، وكل مشكلة تشخيص تشخيصاً جيداً هي مشكلة محلولة جزئياً.

وأهم ما ينبغي صياغته في مفاهيم محددة أمران:

الأول: في ترتيب أولويات الحل؛ إذ من المعروف أن هناك نوعاً من الارتباط المتسلسل بين العلل المختلفة؛ فالتفكير الاجتماعي والتآزم الاقتصادي والانهيار الأخلاقي والسياسي كل ذلك عبارة عن مشكلات مرتبطة بعضها بعض ارتباطاً وثيقاً، ولا بد من معرفة رأس الخيط فيها، ومعرفة مدى تبعية كل منها للأخرى، وتحديد المشكلة التي إذا حلّت حلّ معها تلقائياً عدد من المشكلات الأخرى، وتحديد المشكلة التي يتوقف حلها على غيرها، تماماً كما في ترابط علل الجسم البشري فقد لا يتم حل مشكلات أمراض المفاصل وضعط الدم والسكر والقلب إلا عن طريق تخفيف الوزن، فيكون ذلك هو المفتاح لحلها أو التخفيف منها بشكل شبه تلقائي.

والثاني: هو مقدار الجهد الذي تحتاجه كل مشكلة من المشكلات أو قل كل مجال من المجالات، وتحقيق ذلك يعني أننا أدركنا مدى العطوب الذي أصاب ذلك المجال، ومدى المسافة الفاصلة بينه وبين الحالة الطبيعية المنشودة، وما يتطلبه ذلك من إمكانات وطاقة واستثمارات . . . والناظر في أحوال العالم الإسلامي يجد أن معاناة بعضه تتركز في التآزم الاقتصادي

ومعاناً أجزاء أخرى في الانحباس السياسي أو التحلل الأخلاقي وهكذا...
كما أنه لا يوجد بلد في الدنيا - مسلم وغير مسلم - لا يعاني من جميع
المشكلات التي تخطر على البال لكن بحسب ومقادير متفاوتة؛ والإدراك الجيد
يحاول تحديد المركزي منها وفصله عن الحدودي والهامشي.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة (الآليات)، وتعني بها تنزيل
المفاهيم العلاجية في خطط وأساليب ووسائل وإجراءات محددة، أي في كل
ما يمكن من قطع المسافة الفاصلة بين الواقع والمأمول.

ويمكن القول: إن كسبنا في المرحلة الثانية والثالثة ما زال متواضعاً،
وذلك لأن المرحلة الأولى لم تنضج بعد النضج المطلوب للانتقال إلى
المرحلة الثانية والثالثة، ويتم التعامل الآن مع المراحل الثلاث بصورة مندغمة
ومتداخلة، وفي هذا خلل كبير! والواجب هو صب كل الجهود والإمكانات
المتاحة في بلورة المرحلة الأولى، مرحلة الفهم العميق لواقع الأمة بكل
امتداداته وترابطاته وإحالاته حتى إذا شعرنا بالتشييع التام انتقلنا إلى
المرحلة الثانية وهكذا... .

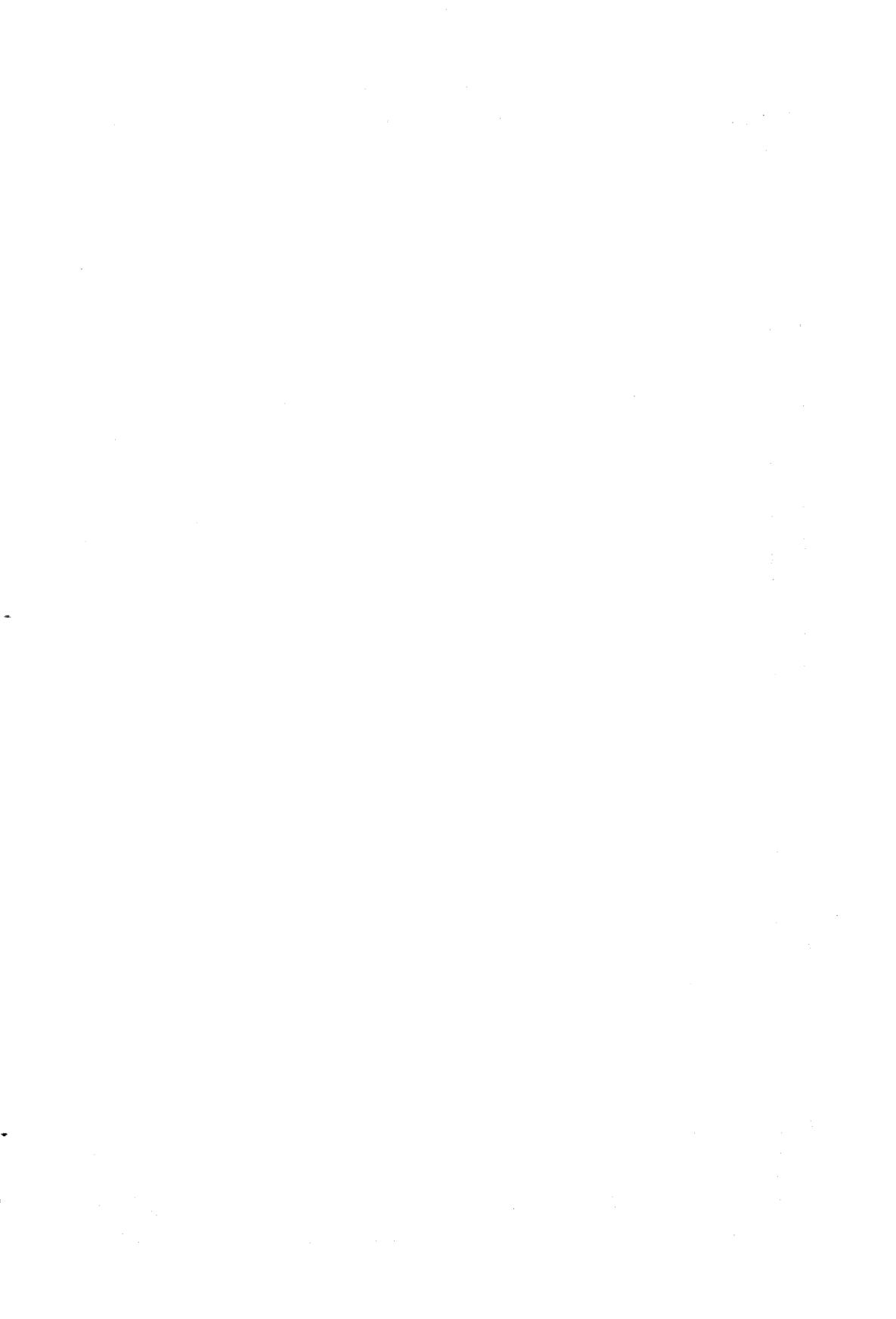
وهذا التقسيم فني من أجل الدراسة والبحث، ولا يعني به إيقاف
الجهود الإصلاحية وتجميدها، حتى يتم إنضاج المرحلة الأولى، فذاك غير
ممكن وطلبه غير منطقي، لكن المراد أن تتجه الجهود العلمية والبحثية بشكل
مكثف نحو ذلك، وعندنا اليوم ألف المدارس والجامعات الإسلامية التي
يمكنها أن تقوم بجهد واسع ومشكور في هذا المضمار... أما طريقة البحث
الجاربة الآن فإنها قد وسعت رقعة المعالجة إلى درجة أنه ما عاد معها
بالإمكان بحث شيء من ذلك إلا بصورة سطحية وبمتسرّة وعامة.

إن النقلة المطلوبة في بحوث المنهج تمثل في نقل أولويات البحث من
المبادئ إلى البرامج، ومن (يجب) إلى (كيف)؛ والله المستعان.

المقدمة الثامنة

مفاهيم على طريق للإصلاح

- ١ - الإصلاح.
- ٢ - مفاهيم على طريق الإصلاح.



(١) الإصلاح

قضية الإصلاح أكبر قضية في حياة البشرية، وهي المهمة الكبرى للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وخلفائهم من العلماء وذوي الاهتمام بالشأن العام؛ ذلك أن طبيعة الإنسان وطبيعة الاجتماع البشري، وما يتولد عنهما من عقابيل بالإضافة إلى حاجة الإنسان إلى الإطار التوجيهي. كل ذلك وأسباب أخرى يوجب على البشرية أن تظل في حالة من التوتر الدائم لعلاج أخطائها وتقويم مسيرتها، ومقاربة منهج الفطرة والاستجابة لأمر الله والاهتداء بهديه.

قضية الإصلاح هذه إلى جانب أنها أهم قضية في حياة الناس هي أعقد قضية أيضاً، ويتجلّى الابتلاء فيها في أتم صوره ومعاناته بسبب أن الإنسان عاجز عن القبض على الحقيقة دفعة واحدة، كما أنه عاجز عن الإلمام بالشأن الإنساني كله من جميع جوانبه وأبعاده؛ فهو حين يظن أنه أصلح جانباً من جوانب الحياة لا يدرى بالتحديد مدى الفساد والضرر الذي يمكن أن يلحقه بالجوانب الأخرى، وقد لا يظهر له ذلك إلا بعد مدة طويلة. أضف إلى ذلك تفاوت الخلفية العقائدية والثقافية والمزاجية لدى المصلحين، واختلاف زاوية الرؤية.... كل ذلك يجعل الجهود الإصلاحية مشتّتة، وأحياناً متصادمة، يُجهض بعضها بعضاً.

والإصلاح نوعان: نوع بسيط؛ لأنّه يعالج قضية محدودة، كالإصلاح بين متخصصين، أو استئصال الفساد من مدرسة أو مؤسسة... وهذا يمكن لكثيرين القيام به، فهو عملية جراحية صغرى ومحدودة.

ونوع معقد، وهو ذلك الطرح الفكري والمنهج الحركي اللذان يستهدفان إصلاح الحياة العامة في المجالات الفكرية والتربوية والتعليمية

والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية.... وهذا النوع هو المراد عند الإطلاق، وهو الداء الذي أعيانا الأطباء، وحيث الحكماء...

ولا ينبغي أن يطلق لقب (مصلحة) إلا على من اتسم بسمتين:

الأولى: امتلاكه رؤية شاملة لحال المجتمع الذي يهتم بشأنه على صعيد الإمكانيات والمشكلات ومداخل الحلول والعقبات التي تعيشها وتتأثر بها وتأثيرات المحيط الخارجي في الوضع الداخلي، والقوى المحلية المنافسة التي تطرح وجهة نظر أخرى . . .

الثانية: امتلاك منهج للحركة تتجسد فيه رؤية الإصلاحية، ويتابع جهوده على هديه... ولا يشترط بالطبع أن يكون منهج الحركة لدليه أو الإطار النظري للإصلاح صحيحاً، فاعتقاده ناتج عن اجتهاد، وليس عن أدلة قطعية، وهو بذلك يفارق المفكر الذي يمتلك الرؤية لكنه لا يباشر عملية التغيير والتقويم التي يمتلك قواعدها، كما أنه يفارق الداعية الذي يقوم بالدعوة إلى الخير دون أن يمتلك رؤية شاملة لما ينبغي أن تكون عليه الحال.

لذلك كانت الكلمة (مصلحة) كلمة كبيرة لا تطلق في كل بلد إلا على الرجل والرجلين، وإن كنا نعتقد أن المفكرين والمصلحين درجات عديدة. لا نريد هنا أن نعرض لسمات المصلحين والمجددين - فذاك تناقض لا حاجة له - وإنما نريد أن نقول إن المصلح لا يوجد إلا عندما يتحلى بصفتين:

الأولى: تشعّب بالرجاء والأمل في إمكانية حدوث الإصلاح والقضاء على الفساد والانحراف، أما اليائسون فإنهم يرون عملية الإصلاح أشبه بالقيام بطلاء سفينة آخذة في طريقها نحو القاع !!.

والثانية: هي امتلاك حساسية عالية نحو بعض ضرورات التغيير؛ فحين ينذر المصلح ويحذر من أخطار الواقع المعيش يكون غيره غارقاً في المللادات، أو مشغولاً بالتوافق، أو لا يكون هنا ولا هناك !!

و سنعرض في الصفحات التالية لبعض المفاهيم التي تبلورت لدينا في
مسائل الإصلاح مع الاعتراف بالقصور والتقصير، وكون ما نقوله لا يعدو أن
يكون اجتهاداً يحتمل الخطأ والصواب، إنما المراد أن نشي الساحة الدعوية
بالأفكار الإيجابية؛ والتجربة سوف تثبت إلى أي مدى يمكن أن يستفاد منها؛
وعلى الله قصد السبيل.



(٢) مفاهيم على طريق الإصلاح

١ - السلام والنظام شرطان أساسيان لوضع الأمة في الوضع المتجزء :

تعاليم الشريعة السمحنة توفر الإطار العام للسلام الفردي والاجتماعي، كما توفر الكثير من المبادئ والمفردات التي تشكل النظم الحياتية كافة. وأولى درجات السلام سلام المسلم مع نفسه، وقبل ذلك مع ربه ثم مع مجتمعه الذي يعيش فيه؛ ولا يتحقق هذا السلام إلا من خلال الاستقامة أولاً ثم تنمية الشعور الإيجابي بين أفراد المجتمع كل تجاه الآخر، وتقوم الدولة بدور فاعل في تحقيق التناسق والتناغم الاجتماعي إلى جانب تنظيم حقول التبادل والتعاون.... وحين يوجد السلام يمكن للنظام أن يقوم^(١)، أما في حالات الحرب الأهلية، أو حالات الانهيار الاجتماعي فإن النظام وسيادة القانون ومبادئ الحقوق والواجبات تصبح جمیعاً في مهب الريح!

إن الشريعة الغراء بأحكامها وأدبياتها، وبما تفرد به من قداسة وتقدير في نفوس المسلمين هي النظام الأصلح والأقوم لتأمين المصالح الكبرى للناس، وإلى أن تنعم جميع الشعوب الإسلامية بذلك فإن من مصلحة الدعوة ومصلحة الناس عامة أن يكون هناك نوع من الانضباط العام والامتثال لقوانين وتنظيمات محددة؛ لأن هذا أحد المداخل المهمة للقيام بالإصلاحات الالزامية. إن القانون مهما كان غير عادل يظل خيراً من حالة لا يحكم فيها أي قانون؛ حيث يأكل القوي الضعيف، وتسود المخاوف على النفس والعرض والمال. ولنا في العالم الغربي عبرة؛ فالنظم التي تحكمهم بعيدة عن هدي

(١) انظر نقد السياسة: ١٨٣.

الإسلام، لكن الضعيف - في أكثر الأحيان - يستطيع الوصول إلى حقه، والمظلوم يجد مرجعاً لرفع ظلامته، والمصالح العامة للناس مصونة إلى حد بعيد. ولذلك أن تقارن هذا مع بعض الدول التي عممتها الفوضى مثل الصومال وأفغانستان مع أنها مسلمة، لكن انعدام النظام جعل كل القيم توارى، وجعل كل الوحش تسرح وتمر !!.

لا تستطيع أمة أن تتقدم قيد أنملة، بل ولا تستطيع أن تحافظ على إنجازاتها الموجودة ما لم يعم السلام الداخلي والأمن، وهم المذان يوفران لسلطة العرف والقانون المناخ اللازم لرسوخهما وحمايتهما ل المجتمع من النكوص على عقيبه .

٢ - إنجازات خارج نطاق الأمة :

لا تملك (العامة) وجمahir الناس خطاباً منمقاً، ولا مشاعر منظمة، لكنهم يملكون المشاعر الصادقة والحدس الذي لا يكذب، وهم حين يظهرون نوعاً من (الحرون) الثقافي والبرود العاطفي يكونون غالباً على حق .

ومهما حاولت الحكومات أو حاول مثقفو الصفة إطلاق الشعارات ورسم الخطط وتسييق التنظيرات، فإن مآل ذلك إلى الجمود والبورار ما لم يستطع كسب قاعدة شعبية جيدة إلى جانبه؛ فالجمahir الواسعة هي التي ستتولى التنفيذ، وهي التي تستطيع تعطيله، وتجربتنا الحضارية العريضة شاهد على ذلك؛ فقضية الجهاد والفتح كانت أخطر القضايا التي تمس الأمة كلها في صدر الإسلام، وقد انفعل بها ولها الناس انفعالاً منقطع النظير، الشيوخ والشباب والنساء والأطفال الأصحاء والمرضى، الجميع يريد أن يكون له شرف المشاركة وشرف الشهادة، ولذلك كانت الإنجازات أقرب إلى الخيال، حيث فتح المسلمون في أقل من نصف قرن ما يزيد على أربعين ألفاً من المدن والقرى والقلاع والمحصون !.

وفي أيامنا هذه طرحت قضايا كثيرة، واستنهضت الأمة لخوض معارك مصيرية، لكنها قابلت ذلك ببرود شديد؛ لأن الخبر المروج له ليس من

قمحها؛ ولأن صرخات الإهابة والاستغاثة ليس فيها شيء من رنين صوت
بلال!

وكأنهم بذلك يقولون: كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو حمل
كاذب! فهل يعي المنظرون المهتمون بالشأن العام هذه الحقيقة أو أنهم
سيظلون في حرب لا هوادة فيها ضد جنودهم وأهليهم؟!

٣- التستر على الأخطاء يشجع على تكريرها:

نظر دائماً إلى مجتمع الصحابة - رضوان الله عليهم - على أنه مجتمع
مثالي، وهذه نظرة في محلها، لكن المصادر الموثوقة تدلنا على أنه وقع في
ذلك المجتمع بعض المآثم والمخالفات، وهذا أيضاً لا ريب فيه؛ فالصحابة
لا يدعون العصمة، ولا تُدعى لهم، وإذا كان هذا صحيحاً فإن وجود أخطاء
ومخالفات لدى الجماعات والمجتمعات والهيئات أمر طبيعي وملموس، والله
تعالى - يفرح بأوبة عبده إليه، مع أن التوبة دليل خطأ سابق من صاحبها؛
لأن التوبة لا تكون إلا بعد صحوة، ومن وراء سمو، أما الذنب فإنه خضع
للغرائز؛ وفي الحديث: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بيته وقد
أضله في أرض فلاة»^(١).

بعض الجماعات ارتكبت أخطاء فادحة في حق نفسها ودعوتها وأمتها،
لكنها لا تملك أية شجاعة أدبية لوضع النقاط على الحروف، وبيان أوجه
القصور التي أدت إلى تلك الأخطاء فضلاً عن أن تحاسب الذين تسببوا في
ذلك！.

وفي كثير من الأحيان تكون الحجة: أنا لا نريد كشف أوراقنا أمام
أعداء الخارج، ولا تقديم مادة دسمة مكشوفة لمنافسي الداخل!. وهذا
مخالف للمنهج القرآني؛ فقد عتب القرآن الكريم على النبي ﷺ ببعضاً مما
فعل، أو حدث نفسه به - كما في قصة زينب - وقال للصفوة الخيرة من هذه

(١) متفق عليه.

الأمة: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(١).

ولست أدرى كيف يمكن لنا أن نبحث في العلاج أوتناول الدواء،
ونحن ما زلنا ننكر أننا نعاني من آية متاعب !!.

إن التستر على الأخطاء لا يلغيها، لكنه يساعد على نموها وتكريرها؛
وتتمثل النتائج بعد ذلك في نوع من الانفجار الذي يذهب بالصالح والطالع،
وفي حالات تشبه الكشف المتأخر لما يدمره السرطان من بنية شخص من
الناس ! .

يقول أحد جنرالات الحرب العالمية الثانية: «إن الحرب نفسها لم تكن
خطأ لكنها كانت نتيجة لتراكم ثلاثين سنة من الأخطاء»! .

صحيح أننا قد نستر فضائح مجتمعنا عن أعين مجتمعات أخرى لبعض
الوقت، لكن العاقبة سوف تكون سقوطنا في أعين أنفسنا، وانهيارنا من
الداخل، والانهيار من الداخل دائماً هو أنكى أنواع الانهيار! .

٤ - ليس التحضر سوى قشرة، والطبيعة البدائية دائماً في الأعماق :

يختلف الإنسان المتحضر عن الإنسان البدائي بذلك القدر الهائل من
المعرفة والعادات التي اكتسبها، غير أن الإنسان الطبيعي ما يزال يرقد تحت
تلك الطباع المكتسبة، ولم يصبه تغيير من الناحية العملية. إن الخصال
المكتسبة أبعد من أن تلقيح، أو أن تنقل نفسها بالوراثة كما يظن بعض الناس
عادة... إن الطبيعة البدائية وإن تبدلت خامدة مكبوبة - تبقى في أعماق
الشعور... إنها تظل تنبض بالحياة في أرقى المجتمعات حضارة^(٢). هذه
البدائية الكامنة تظل مستعدة للوثوب والطفو على السطح في الوقت الذي تجد
فيه الفرصة المواتية، والفرصة المناسبة تمثل في ضعف القيم وخلخلة النظام
وانتشار الظلم، والعداوان على المجال الحيوي للفرد أو الجماعة وفي حالات

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

(٢) مختصر دراسة التاريخ ١٩٢:٣.

القصور الاجتماعي، وحالات الرفاه الزائد والمعيشة السهلة... وإن شئت أن تقول: في حالات التراخي في الكفاح من أجل الوجود.

ما نشاهده اليوم من تصرفات (الصرب) مواطني يوغسلافيا السابقة شاهد حي على ما نقول، والفضائح التي جرت في (رواندا) دليل ملموس على أن تورط الإنسان في الوحشية ونكرهه إلى أخلاق الغابة شيء في متناول يده بصورة دائمة! هذا كله يعني أن الخيار الوحيد أمام الأمة حتى تحافظ على مكتسباتها المادية والمدنية هو أن تعطي للصحة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية الأولوية العليا، وأن تشجع كل الأفكار والمبادرات التي بإمكانها أن تؤدي إلى نوع من التقدم في هذه الأصعدة. علينا أن نشجع كل أولئك الذين تجاوزوا همومهم الشخصية لينشغلوا بهموم الآخرين، وأن نضع الجوائز والحوافز، وأن نسمى الشوارع باسماء أولئك الذين يقدمون أفكاراً أصيلة تساعد الأمة على النهوض من كبوتها، كما أن علينا أن نحجب أولئك الجهلة وذوي الأطماع الذين يتعيشون على مصائب الأمة، ويترعرعون في المال الحرام، كما ترعرع الجرذان في مياه المجاري !!.

٥ - فقد الأفكار زخمها حين يشك أنها لأغراض سياسية :

إذا ألقينا بنظرنا على الساحات العالمية في الغرب والشرق والشمال والجنوب وجدنا المناداة بالإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد - قائمة على قدم وساق؛ والإصلاح - لا شك - مطلب شعبي عام، وكثير من الناس يجري خلف ما يقال إلى آخر الطريق؛ لكن إحساس الناس بأن ما يقال، وما يُطالب به من إصلاحات - يندرج ضمن المناورات والمزايدات السياسية - كاف لفقد ذلك الكثير من البريق والجاذبية، وفي تاريخنا الإسلامي اشتغلت فرق إسلامية بالسياسة، فكان ذلك على حساب فتوحاتها الروحية.

من المهم جداً لا نجعل المصالح العامة مطية للحصول على مكاسب سياسية أو منافع شخصية، فذاك قادر في الإخلاص وفي المصداقية، وهو بالتالي لا يؤدي إلى الإصلاح، لكنه يؤدي إلى نوع من انحباس السبل،

والزهادة في كلمة الخير. لا يعني هذا بالطبع عدم مشروعية السعي إلى الوصول إلى مواضع اتخاذ القرار، لكنه يعني ضرورة عدم خلط الأوراق وإلباس الأشياء غير لبوسها الحقيقي.

٦ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانة كافية لتهميشه ثقافة الانحراف:

لأمة الإسلام أن تفاخر بأشياء كثيرة، من جملتها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا المبدأ العظيم الذي تتسع دلالاته لمعانٍ نبيلة كثيرة، ليس أهمها أن الأمة التي تتوافق بالخير، وتتناهى عن الشر أمة متضامنة متلاحمّة يقظة، تعرف الخطأ من الصواب، وتحاول تشجيع الخير ومحاصرة الشر، وهي إلى جانب ذلك تقف مع الحق ومع الضعيف والمظلوم، وتأخذ على يد الباغي والجاني حتى ترده إلى جادة الصواب.

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل واضح على التفاف الأمة حول أمر الله؛ فالحسن ما حسنَهُ الشرع، والقبيح ما قبّحه؛ ووظيفة الأمة أن تمثل لأمر الله، وتصوغ أعرافها وتقاليدها وموافقتها على مقتضاه.

وقد دلت الخبرة الحضارية على أن الثقافة تظل مهيّمة وجانبية ما لم تتحول إلى سلوك، أي ما لم تعمم وتتجسد في الحياة المعاشرة؛ وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحول دون نشر الأفكار الشاذة والخاطئة في أرجاء المجتمع، وتلجمّها إلى أضيق الطرق. كما أن الأخطاء تظل قابلة للتكرار والتّوسيع ما لم يجر التنبية عليها بصورة دائمة، وهذه الحسبة العظيمة هي التي تؤدي هذا الدور الخطير.

إن انعدام التناهي عن الشر يؤدي بالمجتمع إلى التفكك والانحلال، حيث يتصرف فيه كل فرد وفق هواه ووفق مصلحته؛ والمجتمع الذي يفعل فيه كل فرد ما يحلو له ليس مجتمعاً - كما يقول مالك بن نبي - وإنما هو مجتمع في طريقه إلى التكوين، أو بقايا مجتمع آخذ في الانسحاب ليصبح من (خردوات) التاريخ !

ولا بد من أداء هذا المبدأ العظيم على وجه الحكمة ووفق الشروط والآداب التي ذكرها أهل العلم، وإنما فقد يجهض، ويتحول إلى أداة هدم وتحلل واقتتال داخلي. لكن الممارسة الخاطئة له من قبل بعض الناس لا يمكن أن تكون مسوغاً للتضييق والتشنيع على الآمرین بالمعروف والناهيین عن المنکر؛ وإنما المطلوب هو إشاعة ثقافة وأداب هذا العمل الجليل، وإيجاد الأطر الفنية والإدارية التي ترعاه وتتجسد مفاهيمه بشرط ألا تحوله إلى أعمال شكلية تفقد الروح والمضمون.

٧ - العمل الشعبي الخيري لا يغنى عن النظم الصالحة، لكنه يكمّلها:

حين يحكم الناس بغير ما أنزل الله، ويجري إبعاد أحكام الشريعة عن واقع الحياة فإن أعمال الخير لا توقف، وتتجه القوى الخيرة في المجتمع إلى استثمار خبراتها وطاقتها في الأعمال الخيرية الشعبية، من نحو بناء المساجد وكفالات الأيتام وإطعام الفقراء وبناء المدارس الشرعية... وهذه - ولا شك - أعمال مطلوبة في كل مكان وفي كل ظرف، لكن علينا أن نذكر أن هذه الأعمال لا يمكن أن تكون أساسية في حياة الأمة، ولا يمكن أن تسد الفراغ الذي يتركه تعطيل أحكام الشريعة الغراء، بل هي أعمال تكميلية إضافية وموازنة للجهد الأكبر الذي تبذله الدولة المسلمة في الميادين الاجتماعية المختلفة، وهذا واضح جداً في أوروبا وأمريكا إذ إن الجاليات الإسلامية هناك لا تستطيع إلا توفير جزء يسير من حاجاتها من المدارس والمساجد بسبب أن الدول هناك لا تقوم بأي جهد لتلبية تلك الحاجات.

ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك بالقول: إن ثقافة (أعمال الخير) تتهمنش وتضرم لدى كثير من الناس ما لم توجد النظم والقوانين التي تدعمها وتتجسد بها، وتحميها من غول (المادة) الذي يتبع اليوم كل شيء.

٨ - بطالة شبابنا أخطر من المؤامرة علينا:

أن يتآمر علينا الشرق والغرب فذاك هو الطبيعي، ما دمنا في عالم تنازع البقاء، وما دامت الحيتان تتغذى بالأسماك، والأسماك بالديدان. والحل ليس

يأقنان الغرب بمعاملتنا برفق وعطف؛ فذاك غير ممكناً، لكن الحل يكمن في أن تكبر السمكة الصغيرة؛ لتصبح أكبر من فم الحوت وأسرع حركة منه، وأن تغدو أمة الإسلام رقماً صعباً في الموازين الدولية، تجاهله مشكلة ومواجهته مشكلة أكبر! وهذا لن يأتي من خلال الجار بالشکوى، وإنما من خلال العمل الدؤوب، ومن خلال الأعمال الصغيرة التي يقوم بها كل واحد منا.

إن ما يروع الغيور أن كثيراً من شبابنا يقضون أوقاتاً طويلاً في الحديث عن حقد الغرب ونذالته ومؤامراته على أمة الإسلام، وهم في الوقت نفسه عاطلون عن أي عمل نافع. لدينا مرضى يحتاجون إلى رعاية، وجهلة يحتاجون إلى تعليم، وشباب يحتاجون إلى تدريب، وشوارع تحتاج إلى رصف، وأشجار تحتاج إلى سقاية، وأراضي بور تحتاج إلى زراعة وفرص اقتصادية ضخمة تحتاج إلى من يستفيد منها، وطلاب ضعاف في دروسهم يحتاجون إلى من يقويهم، ولدينا ولدينا

شباب عاجز عن كسب لقمة عشه، وعن إتقان مهنته، وعن القيام بأية مخاطرة، ثم يحدثونك عن فتح روما وإنشاء حضارة إسلامية على أنقاض حضارة الغرب !!.

إن وعد الله - تعالى - بالتمكين لا يختلف، لكنه لن يتحقق أبداً على أيدي أقوام لا يستحقونه، ولا يفهمون سنته، ولا يضطرون من أجله!

٩ - المنهج الإصلاحي مجموعة متكاملة من الأنظمة :

الإنسان كل معقد، وحين نقسم شخصيته إلى جوانب متعددة فإننا لا نعني أن كل جانب يستقل في فاعليته وصحته ومرضه عن الجانب الآخر، وإنما ذلك من أجل تسهيل الدراسة والفهم؛ والملفت للنظر أن المنهج الرياني في إصلاح حياة البشر هو كذلك مجموعة من النظم التي يكمل بعضها بعضاً، ولا يعمل أي منها بكفاءة إلا من خلال علاقتها التكاملية مع غيره، بحيث يتأثر كل نظام بالقصور الذي يعترى تطبيق باقي الأنظمة. وهذا ليس خاصاً بالمنهج الرياني بل إنه عام في كل الأنظمة التي تحكم حياة البشر، و(الديموقرatie) الموجودة في الغرب ليست وليدة تطور ثقافي وتداعي تاريخي

فحسب، وإنما هي نتاج وجود عتبة معينة من الرخاء الاقتصادي؛ والدول التي أخذت بالديمقراطية في ظل فقر شديد أصبحت بخيبة أمل؛ لأن أصوات الناخبين كانت تباع لمن يدفع أكثر؛ أي أن أرباب الشروات الطائلة هم الذين ينبحون، وذلك من أجل تعزيز نفوذهم الاقتصادي وكسب مزيد من الشروات. وقد كان أحد الخبراء الأسبان يقول: إن إسبانيا ستكون مهيئة للديمقراطية حين يصل متوسط دخل الفرد إلى ألفي دولار؛ وقد كان هذا، فعند عشية وفاة فرانكو عام ١٩٧٤ كان متوسط دخل الفرد ٢٤٢٦ دولاراً^(١).

أما على صعيد المنهج الرباني فيمكن أن نذكر مثلاً واحداً لتوضيع ما نقول: الزكاة جزء من النظام الاقتصادي الإسلامي، وعدم القيام بهذه الشعيرة يؤدي إلى ضعف كفاءة النظام الاقتصادي الإسلامي كله، كما يؤدي إلى إلحاق الضرر بالنظام الأخلاقي والاجتماعي أيضاً. فالقدر المفروض من الزكاة في الأموال وعروض التجارة هو ٢,٥٪، وهذا القدر كاف لسد العديد من حاجات المجتمع الإسلامي على مقتضى الحكمة الإلهية البالغة، لكن ذلك سيكون في الأحوال العادلة والطبيعية، وفي غير الأحوال الطارئة، كما في حالات الزلازل والفيضانات، وذلك أيضاً فيما إذا التزم أغنياء المسلمين بإخراجها، وإذا استمر ذلك الالتزام حقبة مناسبة من الزمن، فلو قدرنا أن ١٠٪ من الأغنياء أخرجوا الزكوة، وأن التزامهم بأدائها - في مجتمع ما - لم يمض عليه سوى سنتين، فإن الزكوة آنذاك لا تقوم بمهامها على الوجه المطلوب، حيث إن الحالتين اللتين ذكرناهما يجعلان الفقر يتراكم، ويتفاقم إلى الحد الذي لا تفي أموال الزكوة بالتخلص منه.

ثم إن نظام الزكوة يؤدي مهامه في ظل فعالية الأنظمة الأخرى، فإذا كانت موارد القطر شحيحة جداً، أو كان النظام السياسي فيه مختلاً، وأدى ذلك إلى انتشار البطالة والعطالة عن العمل، فإن نظام الزكوة وبالتالي لا يوصلنا إلى الأهداف المنشودة منه.

(١) نهاية التاريخ: ١٠٨.

وباعتبار الزكاة جزءاً من النظام الاقتصادي الإسلامي فإنها أيضاً لا تؤدي وظائفها إلا بفاعلية النظام الذي تنتهي إليه، فمثلاً (القرض الحسن) جزء من ذلك النظام، وإعراض الدولة أو الشعب عنه يؤدي إلى نوع من تعطيل حركة المال وتداوله، وبالتالي إلى ضعف حركة التنمية والاستثمار؛ مما يفضي أيضاً إلى قلة فرص العمل وكثرة الفقراء والمعوزين.

ومرة أخرى فإن فاعلية نظام الزكاة ترتبط جزئياً بقيام الدولة بواجباتها في ضمان الحد الأدنى من المعيشة للفقير بالقدر الذي يحفظ عليه كرامته؛ ويجعله في وضع منتج مثمر، فإذا عجزت الدولة عن ذلك، أو قصرت فيه فإن آلية (نظام السوق) ستوجد شريحة واسعة من المحتججين الذين لا يمكن أن تقوم بهم أموال الزكوات والنذور والكافارات... . وينفع كل ذلك ويتأثر بقوة النظام القيمي وفاعليته، فإذا كان نشطاً اندفع الناس إلى التعطوه بالكثير من الأعمال الخدمية، واندفع كثير من الفقراء إلى العمل والحركة مع حسن التدبير والتغفف عن أموال الآخرين؛ مما يخفف من غلواء الحاجة.

هذا كله يدل على شيء واحد، هو أنه لا مناص للمصلح من الرؤية الشاملة وإدراك العلاقات التبادلية بين جوانب الحياة كافة، إنه بعبارة أخرى الأخذ بالكتاب كله على نحو ما قاله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْهَلُوا فِي الْسِّلْمِ كَافَةً وَلَا تَئِمُّوا حُطُوتَ الشَّيْطَنِ إِنَّمَا لَكُمْ عَذَّبُ مُؤْمِنٍ﴾^(١).

١٠ - لا يمكن تحقيق المصالح الجزئية إلا في إطار المصالح الكلية:

من أهم مظاهر الفساد والانحلال شعور الأفراد أن مصالحهم لا تتحقق إلا بتدمير مصالح مجتمعهم الذي يعيشون فيه؛ فذلك دليل بين أن البناء الاجتماعي كله مؤسس على زعل، وأن تعايش الناس بعضهم مع بعض لم يعد يحقق سوى ما يحتاجه استمرار الوجود من التعاون والتناصر. الإسلام

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٨، وانظر مقالاً لنا حول هذا في مجلة البيان العدد ٧٥ ص: ٨.

في أحکامه وتقريراته يرسی قاعدة: «أنا لمجتمعي، ومجتمعي لي»، وحديث السفينة المشهور دليل واضح على ما نقول: فالمسلم يحقق مصالحه الخاصة، ويتنازل عن بعضها، ويأخذ من مجتمعه بعض حاجاته، لكن ذلك كله يتم في إطار تحقيق مصلحة المجموع. في حالات الانهيار يفقد المجتمع وحدته العضوية، فلا يتالم الكل لألم الجزء، ولا يعمل الجزء لخدمة الكل، لكن فطرة الله - تعالى - التي فطر عليها الكيانات الاجتماعية تشير إلى أن الفرد لا يستطيع أن ينمو، وأن يجسّد إرادته، وأن يتقلّل من الغريزة إلى الإلهام إلا من خلال العيش في مجتمع، وفي مجموع الحالات العقلية والشعورية لكل واحد منا ما يوحى إلينا بضرورة تجاوز خصوصياتنا نحو الشأن الكلّي، وأن تلك الخصوصيات لا يمكن تحقيقها إلا من خلال تحقيق المصالح الكلية.

وبال مقابل فإنه لا معنى للمشاعر والمصالح الجمعية إذا لم تؤمن للفرد ما يقنعه ويرضيه.. وهذا الأمر لا يتمان من خلال تراكم الإرادات الذاتية والمصالح الخاصة بطريقة عشوائية ساذجة، وإنما عن طريق القدوة. والدولة والمصلحون الآخرين يعلمون الناس فنون التوفيق بين الخاص والعام، وكيفية خدمة الجزئي للكلي، والكلي للجزئي، وذلك من خلال سيرتهم وسلوكهم وتصرحياتهم وإرشاداتهم.

والدولة ذات أهمية قصوى في هذا فهي مركز التوازن الذي تتلاقى فيه كل المعايير الاجتماعية، وهي من خلال تنظيماتها وتشريعاتها تعظم الحسن الجماعي، وتبني المصالح المشتركة، وتشذب الزوائد المصلحية، وتسد الفجوات، وتبلور الأهداف المستقبلية المشتركة للمجتمع...

إن الذي يريد أن ينمو على حساب أضمحلال مجتمعه أشبه ما يكون بالسرطان) الذي ينمو على حساب تدمير الجسم الذي يعيش فيه، وهو حين يدمر ذلك الجسم يدمر نفسه في النهاية!

وان أفراد المجتمع الذي يشيعون في مجتمعهم الظلم وأكل الحقوق وإدمان المخدرات والبطالة... - إن هؤلاء إن لم يدمروا أنفسهم دمروا أبناءهم وأحفادهم، وإن انتعاشهم الظاهري أشبه بانتعاش (خضراء الدمن)،

فهي مهما بدت زاهية إلا أنها تحمل في النهاية كل خصائص (الروث) الذي تترعرع فيه !!.

وقيمة الدولة وعزتها وتقدمها، هي في البداية والنهاية من قيمة شعوبها، ونجاحها وأمنها لا ينفكان أبداً عن نجاح شعوبها وأمنهم، بل إن العالم اليوم أشبه ما يكون ببحيرة صغيرة، لا بد لتحرير الماء في أحد جوانبها من أن يحدث اضطراباً في باقي الجوانب، وإن على الدول الكبرى التي تتبع سياسات إقصار الشعوب المستضعفة أن تعلم أنها ليست بعيدة عن خضراء الدمن، وأنه قد أتى اليوم الذي لن تجد فيه ما تذهب، ولا ما تصدره؛ لأن الشعوب الفقيرة ما عاد لديها ما تشتري به !!.

١١ - الزحام يبعث على العدوانية:

ليست مهمة الدعاة والمصلحين أن يرشدوا الناس إلى ما ينبغي عليهم أن يفعلوه فحسب، بل إن عليهم أن يساعدوا الناس من خلال الطرح الفكري، ومن خلال الحركة الاجتماعية على أن يعيشوا في ظروف تؤمن لهم الراحة النفسية ووضعاً أمثل للإنتاج والعطاء. ومن البدهي أن كل واحد منا يرسم مجاله الخاص به سواء في السكن أو المكتب أو المدرسة، وحتى الشارع، وإن أي عدوان على ذلك المجال يثير مشاعر الضيق، وأحياناً العداون، وهي مشاعر خاصة لا توجد إلا مع الاعتداء على المواطن^(١).

الكثافة السكانية الهائلة في المدن - ولا سيما في الأحياء الفقيرة -
والزحام في صفوف الانتظار أمام دائرة حكومية أو على مخبز أو وسيلة نقل -

(١) ظاهرة التضائق من العداون على المواطن موجودة لدى كثير من أنواع الحيوان؛ فأسماء المرجان - مثلاً - تثبت قوة ارتباطها بموطنهما من خلال التلون بلون صارخ على غرار ما يفعله الإنسان عندما يرفع رأيه للدلالة على حدود أرضه. ويزداد هذا الارتباط حدة في موسم الإخصاب لأنه وقت تأسيس العش، فظهور فرد من الجنس نفسه للنزاع على هذا المكان كفيل بأن يثير على الفور أزمة عداون عنيفة. انظر عودة الرفاق: ١٠٦ وما بعدها.

كل ذلك وأشباهه يثير لدى الناس مشاعر البرم والتآلف، ويؤدي إلى ما لا يحصى من الصدامات والنزاعات.. . ويؤدي علاوة على ذلك إلى سوء الأخلاق واللجوء إلى (الوساطة) والرشوة بغية الحصول على شيء أو خدمة نادرة من غير وجه مشروع.

والأمر يتجاوز ذلك في الحقيقة إلى عملية التربية نفسها، إذ إن اكتظاظ الأبناء في حجرة واحدة^(١) يؤدي إلى صعوبة دراستهم ومذاكرتهم وصعوبة الفصل بين الذكور والإناث، وإلى شعور كل واحد منهم بأنه متضرر بسبب وجود الآخر، وينتتج عن ذلك من الطباع والعادات والأخلاق ما لا يمكن وصف أي شيء منه بأنه حميد.

أحد الحلول الرئيسية للزحام (الهجرة) في الأرض وتبع مواطن الرزق - وإن كان لكل شيء ثمن - وما أجمل قول الله - سبحانه - في هذا السياق: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّقَوْنَ مِنْ قَضْلِ اللَّهِ﴾^(٢) قوله: ﴿فَالَّذِي أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ اللَّهُ وَاسِعٌ فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾^(٣) قوله: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعْةً﴾^(٤).

إن أكبر مشكلة تواجه الشباب اليوم عند انتهاء دراسته هي (السكن)، وفي أكثر بلدان العالم الإسلامي لا يفي الدخل الشهري للشاب بأجرة السكن الذي يسكنه، فهل آن نعيد النظر في أساليب إعدادنا أبناءنا للحياة وأساليب تعليمهم وتدريبهم، وكيفيات حصولهم على عمل، ومعالجة المشكلات الضخمة التي تطعن الجيل الجديد؟!

(١) في بلدان عديدة من عالمنا الإسلامي أسر كثيرة تعيش في حجرة واحدة، والمرافق مشتركة بين أهل العمارة كلها! وفي الهند تغلق بعض الشوارع في (دلهي) لتحول إلى فنادق حيث تعيش أسر كثيرة فيها!!.

(٢) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٤) سورة النساء: الآية ١٠٠.

١٢ - حياة الحاضرة هُوَّت من شأن المحرّمات:

تشهد أكثر بلدان العالم الإسلامي هجرة واسعة من القرى إلى المدن، حيث فرص العمل، والخدمات أحسن حالاً، وحيث الانعتاق من كثير من صور الرقابة الاجتماعية^(١). ويعتمد الإسلام في استقامة السلوك ونظافة الشارع على ما يتواتأ عليه الناس من أعراف حميدة، وفي المدن الصغيرة والقرى تتكشف الرقابة الاجتماعية، ويحسب الناس حساب النقد الذي يمكن أن يوجه إليهم؛ مما يعني نوعاً من الالتزام بالسلوك الإسلامي. ويلاحظ أن مبدأ «كل ما هو كبير جميل»، قد فعل فعله في مدننا الإسلامية، فصار كثير منها يتتجاوز سكانها المليون نسمة، وهذا أدى إلى نوع من التهجين للأعراف والثقافات، وأشاع نوعاً من التهاون تجاه المحرمات الثقافية والأخلاقية، وصار كل واحد يقول: أنا حر فيما آتي وأذر، وأنا آخذ ما يناسبني، وأترك ما عداه^(٢) ..

ونظراً لما تفرضه حياة المدن من نفقات باهظة صار الواحد يعمل الساعات الطويلة دون أن يجد وقتاً لأي شيء آخر، كما أن البيوت الفخمة الموجودة في كثير من الأحياء أوجدت نوعاً من العزلة الاجتماعية، بل إن سكان المدينة الواحدة صاروا ذوي ثقافتين متباينتين: ثقافة الأحياء الشعبية وثقافة الأحياء الراقية، وينظر كل منهما إلى الآخر نظرة عدم ارتياح!!.

الخلاصة التي أفرزتها حياة الحاضرة هي (القصور الاجتماعي) وضعف التبادل أو انعدامه، وهذا وذاك يؤديان إلى توسيع نفوذ الأقوياء وزيادة تهميش الضعفاء والفقراء، وهذا من أكبر المعوقات التي تقف في طريق التغيير والإصلاح، وهل هناك أشد ضرراً من أن يفقد مجتمع ما اللغة المشتركة التي يتحدث بها؛ ليتصرف كل حسب هواه ومصالحه الضيق؟!!.

(١) تشهد (ماليزيا) حركة تصنيع واسعة، وقد أدى هذا إلى تحول البلد من زراعي إلى صناعي؛ مما أدى إلى هجرة الشباب إلى المدينة، وقد أدى ذلك إلى حالة من التفتل والتسيب لدى كثير منهم بسبب انعدام رقابة الأهل والحي.

(٢) السابق: ١٠٥.

١٣ - لا بد لكل قطر إسلامي من بلورة مشروعه الوطني :

متطلبات الحياة كثيرة، وتفاصيل الإسلام والمنهج الرباني أيضاً كثيرة، وعلى الرغم من أن الدول الإسلامية مصنفة مع ما كان يسمى بالعالم الثالث، ولا توجد فيها أية دولة صناعية أو متقدمة علمياً إلا أن لكل بلد ظرفه الخاص وأولوياته الخاصة وتجربته التنموية الخاصة، ومن ثم فإن على المصلحين في كل بلد أن يبلوروا ملامح (المشروع الوطني) الذي يمكن لهم أن يتبعوا منه إطاراً لجهودهم الإصلاحية والحضارية. ويمكن تعريف المشروع الوطني بأنه: «الخطوط العامة لما يتراضى على إنجازه أهل قطر في مرحلة تاريخية معينة». ونرى أن من الخطوط العريضة لأي مشروع وطني ما يلي:

أ - استقلال الذات الحضارية بما هو مكون عقدي ونفسي وفكري وثقافي وتاريخي، وبلورة قسماتها وخصوصياتها، وتدعمها من خلال سلسلة من الرموز التاريخية - والتي هي إسلامية صرفة بطبيعة الحال - ومن خلال سلسلة من المعارك التعليمية والتنموية الناجحة. ولا بد من القول: إن شروط وسمات الاستقلال الذاتي تختلف من عصر إلى آخر، ففي بعض العصور يكون محور الاستقلال هو التماسك الاجتماعي، وفي بعضها القدرة العسكرية، أما في زماننا فإننا أكبر ضمان للاستقلال هو القدرة الاقتصادية المتميزة، فالاقتصاد الجيد هو الأداة الفعالة التي يمكن استخدامها في التقدم العلمي وفي بناء القوة العسكرية، وفي حل المشكلات الخانقة التي تفتت المجتمع، وتعود على النظام الثقافي فيه بأفده الأخطار. ولذلك أن تقارن وضع اليابان وألمانيا بوضع روسيا حيث الأخيرة قوة عسكرية كبيرة، لكنها مفلسة اقتصادياً على حين تحتل الأوليان الوضعية المعاكسة، فقد أصبح اليوم بالإمكان تجاوز أهمية السلاح من خلال الوضع الاقتصادي المتميز. وشعار العصر الذي نعيش فيه هو (السياسة في خدمة الاقتصاد) ويمكن أن يقال: كل شيء اليوم في خدمة التجارة والاقتصاد.

لا يمكن اليوم لأمة مفلسة مدينة تجتاحها المجاعة أن تحافظ على استقلالها السياسي أو الوطني أو الثقافي؛ فالذي يمد يده للاستجداء يظل

مستعداً لقبول كل الشروط التي تفرض عليه من المانحين وأشياعهم.

ب - تعزيز التلامم الاجتماعي، وذلك من خلال جعل عقيدة التوحيد المحور الذي تدور في فلكه كل الرؤى والتصورات والتوجهات والتفرعات الفكرية، وإشاعة الالتزام والخلق القويم والمعروف والإحسان وصلة الأرحام . . . ، وامتصاص التوترات المذهبية والعرقية واللغوية التي قد يأتي بها التنوع الثقافي، وذلك من خلال إشاعة العدل، وتجاوز هذه الخصوصيات بأخذ الدولة مسافة عنها جميماً.

ولا بد حتى يحدث التناغم الاجتماعي من دعم الطبقة الوسطى ومساعدة الفقير والضعيف ومحاصرة ذوي الدخل غير المشروع الذين يعدون المسؤول الأول عن تهميش الطبقة الوسطى.

ج - تأمين السلام الداخلي من خلال التعاون بين الدولة والشعب في تحقيق الأهداف العليا، وإشادة المرافق العامة، وتحقيق تحالف خفي في وجه العدو الخارجي الطامع في خيرات البلاد؛ ولن يتم ذلك إلا من خلال نشاط التبادل الاجتماعي وشفافية الدولة وإيصال الحقوق إلى أصحابها وإيجاد تكافؤ الفرص بين الناس، وإصغاء كل الأطراف للاحظات بعضها بعضاً، ومحاسبة المفترطين ومحاربة الفساد والمحافظة على مقدرات الوطن، وبر الناس بأوطانهم ومكافحة المحسن وتشجيع المبادرات الفردية . . .

د - الاستغلال الأمثل للموقع الجغرافي والإمكانات البشرية والمادية على الوجه الأكمل، فبعض البلدان الإسلامية تحتل موقعاً جغرافياً هاماً يؤهلها لأن تكون مركزاً تجارياً ضخماً، وببعضها يملك أراضي خصبة شاسعة، تؤهلها إلى أن تكون رقماً صعباً في الغذاء العالمي، وببعضها وببعضها . . .

والدولة التي ليس لها موارد جيدة بإمكانها أن تقوم بتوظيف الطاقة البشرية لديها في صناعات لا تتطلب أموالاً ضخمة مثل (صناعة المعلومات) مثلاً.

هـ - تعظيم الانتماء لأمة الإسلام؛ فهذا الزمان زمان الكبار، وزمان

الكتل السياسية والاقتصادية، ومهما بلغت قدرات أي بلد إسلامي فإنه سيظل صغيراً جداً، وسيظل بحاجة ماسة إلى التعاون والتكامل مع البلدان الإسلامية الأخرى.

إن خدمة الأوطان وتنمية المعطيات المحلية لا يسُوغ في حال من الأحوال إيجاد انتماء ضيق بديل عن الانتماء الإسلامي أو مضاد له؛ فالآباء يعاملوننا على أننا شيء واحد، وينبغي أن تكون كذلك.

و - المبادرة إلى تطوير النظم التربوية والتعليمية، وتدعم مجالات البحث العلمي، وتعزيز التدريب الفني وتأهيل الكفاءات العلمية والمهنية وتغيير العادات والتقاليد التي تحول دون التوجه التخصصي المناسب في بعض الحرف والمهن، وتوفير الإمكانيات الالزمة لإشاعة الثقافة الراقية ومحو أمية الأميين والمثقفين.

ز - كل مشروع وطني إسلامي بحاجة إلى الامتداد نحو الآفاق الخارجية، ورسم المجالات الحيوية التي تمثل نوعاً من النفوذ الأدبي والمادي في أرض الآخرين، والإمكانية الأهم التي يمتلكها المسلمون في هذا المجال هي رسالة الإسلام بما تحويه من مبادئ وقيم ونظم رياضية هادبة، فينبغي أن يكون من الاهتمامات الأصلية لكل مشروع وطني نشر رسالة الإسلام في الدول غير الإسلامية المجاورة والبعيدة؛ فذاك لا يخدم مصالحنا فحسب، لكنه قبل ذلك جزء من مسوّغات وجودنا على هذه الأرض؛ وإننا لنشعر أن أمّة الإسلام فقدت هييتها في العالم لما تخلت عن مهمتها في البلاغ المبين وحمل أعلام الهدایة للعالمين !.

٤ - المسافة بين المبادئ والعقيدة الاجتماعية هي المسافة بين الصحة والمرض :

المبادئ النظرية هي مجموعة القيم والمثل التي يؤمن بها شعب من الشعوب، مثل الصدق والأمانة ومساعدة الفقير وإحقاق الحق والإحسان إلى الجار... وهذه المبادئ وغيرها من القيم الفاضلة موضع إجماع بين أكثر أمم

الأرض. وهذه المبادئ النظرية تدخل محنـة حقيقة حين تدخل معركـة الحياة العملية، ويـسعـى الناس إلى تجسيـدـها في واقعـهمـ المعيشـ؛ فالناس دائمـاً يـحاـولـونـ التوفـيقـ بـيـنـ مـبـادـئـهـ وـمـصـالـحـهـ، وـهـمـ يـجـدـونـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ أـحـيـانـ كـثـيرـةـ مـضـطـرـينـ إـلـىـ التـضـحـيـةـ بـشـيءـ مـنـ هـذـهـ أوـ تـلـكـ، وـذـاكـ مـنـ جـوـهـرـ الـابتـلاءـ لـنـاـ. وـمـنـ ثـمـ فـيـانـ (ـالـعـقـيـدةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ)ـ تـفـرـزـ نـوـعاـ مـنـ السـلـوكـ تـتـجـسـدـ فـيـهـ الـمـبـادـئـ وـالـمـصـالـحـ مـعـاـ؛ لـأـنـ (ـالـعـقـيـدةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ)ـ هيـ جـمـاعـ الـمـبـادـأـ وـالـمـصـلـحةـ مـعـاـ. وـالـمـجـتمـعـ الصـحـيـحـ الـمـلـتـزـمـ الـذـيـ نـجـحـ فـيـ التـوفـيقـ -ـ إـلـىـ حدـ مـقـبـولـ بـيـنـ قـيمـهـ وـمـصـالـحـهـ تـكـوـنـ الـمـسـافـةـ بـيـنـ قـيمـهـ وـمـصـالـحـهـ مـحـدـودـةـ جـداـ وـعـنـدـ بـعـضـ أـفـرـادـهـ مـعـدـوـمـةـ، فـأـكـثـرـ النـاسـ لـاـ يـجـدـونـ مـنـ أـجـلـ الـوـصـولـ إـلـىـ حـقـوقـهـمـ وـأـخـذـ فـرـصـهـمـ وـاحـتـلـالـ كـيـنـوـنـتـهـمـ لـكـلـ الـأـبعـادـ الطـبـيـعـيـةـ الـتـيـ تـحـتـاجـهـ حـاجـةـ إـلـىـ الـقـفـزـ عـلـىـ مـبـادـئـهـ وـتـجـاـزـهـاـ. أـمـاـ الـمـجـتمـعـ (ـالـمـرـيـضـ)ـ فـإـنـهـ يـنـشـأـ بـيـنـ مـصـالـحـهـ وـمـبـادـئـهـ نـوـعـ مـنـ التـضـادـ وـالتـنـافـيـ؛ فـالـصـدـقـ يـفـوـتـ مـصـلـحةـ، وـتـحـقـيقـ مـصـلـحةـ يـقـتـضـيـ الـكـذـبـ. وـالـلـتـزـامـ بـأـكـلـ لـقـمـةـ الـحـلـالـ يـؤـدـيـ إـلـىـ الـفـقـرـ وـشـظـفـ الـعـيشـ،ـ وـالـعـيـشـ الـمـرـيـضـ لـاـ يـأـتـيـ إـلـاـ مـنـ وـرـاءـ الـرـتـوعـ فـيـ الـحـرـامـ...ـ وـذـلـكـ لـأـنـ الـصـدـقـ فـيـ مـجـتمـعـ يـسـوـدـهـ الـكـذـبـ يـصـبـحـ عـقـوبـةـ لـصـاحـبـهـ الـذـيـ يـظـهـرـ بـمـظـهـرـ (ـالـمـجـرمـ الـوـحـيدـ)ـ وـهـكـذاـ...ـ

ولـذـاـ يـمـكـنـ القـوـلـ إـنـ الـمـجـتمـعـ الـمـتـوـحـشـ أوـ الـمـتـخـلـفـ لـاـ يـخلـوـ مـنـ قـيمـ وـمـثـلـ عـلـيـاـ،ـ لـكـنـ الـمـسـافـةـ الـتـيـ تـفـصـلـ بـيـنـ مـثـلـهـ وـوـاقـعـهـ مـسـافـةـ شـاسـعـةـ وـاسـعـةـ حـتـىـ كـأـنـ كـلـاـ مـنـهـمـ يـتـمـيـ إـلـىـ عـالـمـ مـخـتـلـفـ...ـ

ويـسـتـطـيـعـ الـمـصـلـحـونـ مـنـ وـرـاءـ تـفـحـصـ (ـالـعـقـيـدةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ)ـ وـفـكـ رـمـوزـهـاـ وـالـوـقـوفـ عـلـىـ جـذـورـهـاـ وـامـتـدـادـاتـهـاـ أـنـ يـتـعـرـفـواـ عـلـىـ مـدـىـ صـحـةـ مجـتمـعـهـمـ وـعـلـىـ مـدـىـ التـدـاخـلـ الـجـراـحيـ الـذـيـ يـحـتـاجـهـ حـتـىـ يـتـمـتـعـ بـالـعـافـيـةـ.

١٥ - لا بد من فلسفة جديدة للإنتاج والاستهلاك :

ثـمـةـ دـوـاعـ كـثـيرـةـ تـحـتـمـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـعـيـدـ النـظـرـ فـيـ أـسـالـيـبـ عـيـشـنـاـ جـمـيـعـاـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ طـرـقـ الـإـنـتـاجـ،ـ وـعـادـاتـ الـاستـهـلاـكـ؛ـ فـالـمـسـلـمـ مـأـمـورـ بـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ

الأرض التي يعيش عليها والانتفاع بها بقدر حاجته وتركها غنية صالحة لانتفاع الجيل الذي بعده^(١)، كما أن ابتكار أساليب جديدة في الاستثمار البناء للطاقة المتوفرة وأساليب جديدة للمحافظة على الموارد المتاحة، كل ذلك مطلوب من أجل تلبية حاجات الإنسان المسلم الضرورية التي تجعله في وسط مريع ومنتج، يساعده على القيام بواجبات (الاستخلاف) بكفاءة وفاعلية.

لن يتحقق شيء مما نطمئن إليه ما لم يعلم الفقير فيينا أن البوس والحرمان الذي يعيش فيه يأتي بفيض من الأدواء والعلل الخلقية والنفسية، وأن كثيراً من مشكلاته سوف يحل إذا استطاع أن يغير من أسلوب تفكيره وأسلوب عيشه. كما أن على الشري أن يعلم أن الشراء لا يدوم، وأن فكرة (البقرات العجاف) بعد (البقرات السمان) شيء ثابت في التراث الثقافي للبشرية.. هناك قضايا معقدة وملحّة، على عالمنا الإسلامي أن يواجهها بجرأة واتخاذ قرارات جذرية وشجاعة، ومن تلك القضايا الغذاء والماء والطاقة، وهذا الثالوث يشكل أكثر من ٨٠٪ من مشكلات المسلمين المادية، وهو مصدر لأكثر من ٦٠٪ من مشكلاتهم التربوية والثقافية والأخلاقية!

في مجال الغذاء لا بد من إقامة مراكز أبحاث متطرفة تتعاون في إقامتها مجموعة من الدول الإسلامية، وتنفق عليها بسخاء من أجل إجراء الدراسات حول (الهندسة الجينية) في مجال الحيوان والنبات ومجال استنبات أنواع جديدة من المحاصيل والحرجيات التي ترتوي من المياه المالحة، حيث إنها متوفرة في العالم الإسلامي بكثرة كاثرة. كما أنه لا بد من تعليم الناس كيفية استغلال أسطح المنازل وأفنيتها في إنتاج الأسماك والخضروات والفاكهه وحفز وتشجيع كل الأفكار الجديدة في هذا المجال، كما أن من الواجب ترشيد استهلاك الأطعمة، وتعليم الناس طبخها بطريقة اقتصادية، حتى لا يلقى منها شيء...

(١) شبه بعضهم الأرض بمكتبة نعتني بها، ونعنيها بالجديد، ونتركها للأبناء والأحفاد لي فعلوا مثلنا!.

في مجال المياه فإن على العالم الإسلامي أن يتسع في دراسات تحلية مياه البحار واستنباط طرق جديدة في المحافظة على المياه العذبة؛ فالكثير الكثير منها يهدى بطريقة مزعجة على حين أن بعض الدول اخترعت طرقاً حديثة للري، مثل الري بالرش والتنقيط، ومثل صب طبقة من (البلاستيك) تحت التربة حتى لا تصل مياه السقي في الحقول إلى الأرض السابعة دون فائدة كما هو حاصل اليوم!!.

وأما مجال الطاقة فإنه قد يكون أكثر المجالات الثلاثة أهمية؛ لأن توفرها سيحل مشكلات كثيرة على جميع الأصعدة الإنتاجية. وفي هذا المقام نجد أن العالم الإسلامي بطوله وعرضه لم يبذل أية جهود متميزة ومشرمة في استنباط واستخدام مصادر الطاقة المتتجددة مثل مساقط المياه وهبوب الرياح والطاقة الشمسية والاستفادة من حرارة باطن الأرض والاستفادة من الطاقة الشمسية عن طريق الإنتاج النباتي والتمثيل الضوئي وكذلك تحويل المواد الأولية النباتية إلى وقود غازي بالتخمير البكتيري.... كل هذه المجالات وأخرى غيرها لم يحدث لدينا في استثمارها أي تقدم يذكر.

أما على صعيد الاستهلاك للطاقة فإن (العزل الحراري) ما زال معدوم الاستخدام في كثير من بلدان العالم الإسلامي! وماذا علينا لو حدثنا سرعة السيارات والطائرات في سبيل الاقتصاد في استهلاك الوقود، وماذا علينا لو وضعنا من الإجراءات ونشرنا من الثقافات التي تحبذ استخدام السيارات الصغيرة أو وسائل النقل العامة أو الاعتماد على الدراجات العادية أو المشي أو... إن هناك إمكانات كثيرة لم تستخدم بعد لا في مجال الطاقة ولا في غيره!.

إن تجاوز المشكلات الحرجة التي يعاني منها العالم الإسلامي يحتاج - فيما يحتاج إليه - إلى سيناتين متوازيتين:

الأولى: أن تتيح الدولة للناس كل فرص الرقي والتعليم والتدريب؛ لينهض أهل الطموحات والآفونس الكبيرة، وليدفع الكسالي والفوضويون ثمن قصورهم وتفريطهم.

وتقوم الثانية: على أنه لكل واحد أن يأكل ما يشاء، ويركب ما يشاء، ويسكن من المباني الفخمة ما يشاء، لكن عليه أن يدفع ثمناً لكل ذلك لتعود به الدولة على بناء المرافق العامة، وعلى المعوزين الذين لا يجدون الضروريات: (مارس حرثتك وادفع الثمن).

هذه القضايا هي من الأهمية بمكان يجعلها تستحق تصدر اهتمامات السياسيين والمربيين والمصلحين، وإهمالها إهمال لقطاع واسع وهام، ضرب فيه القصور كل أطناه وأوتاده !.

١٦ - فقدان تقرير المصير قاعدة الانهيار^(١) .

في خضم التغيرات الضخمة التي يشهدها العالم يتحتم علينا - معاشر المسلمين - أن ننظر بعين مفتوحة إلى النتائج الكبرى التي تتخض عنها التطورات الراهنة المتتسارعة؛ فالناس في الأحوال العادية يقومون بأعمال يعتقدون أنها تساعدهم على الوصول إلى أهداف معينة، وكل الأهداف التي تتحقق تنطق بلغة واحدة، هي أن من يحقق أهدافه يكون أقدر على تقرير مصيره، وأقرب إلى البقاء في الاتجاه الصحيح ..

يمكن أن نشبه الحركة الاجتماعية الموجهة والمنضبطة بسيارة يقودها سائق رشيد، يعرف أين يتوقف، وأين يسرع أما فقدان تقرير المصير فهو لا يبتعد في نتائجه عن حالة أقوام ركعوا سيارة، وجهوها نحو منحدر، ثم تركوا لها حرية الحركة!! لا ريب أن النتيجة ستكون مأساوية! .

لا يوجد مجتمع يتمنى التمزق، لكن كثيراً من المجتمعات يقدم في النهاية الذرائع التي تقوده إلى مصيره المحتمم! .

والسؤال الآن ما العوامل التي تساعد على انفلات الحركة الاجتماعية، وضعف التوجّه نحو المصير المرغوب؟

في تصوري أن (الشقاق الاجتماعي) هو أكبر العوامل المؤثرة في هذه

(١) انظر في هذا: مختصر دراسة التاريخ ٢:٨.

المسألة، فحين تفقد قيادات المجتمع الجاذبية فإن العامة تكتف عن التقليد، تكون النتيجة نوعاً من الانفصام بين الصفة والقوى الشعبية التي تقوم عادة بدور التنفيذ، وكثيراً ما تلجم القوى المتنفذة إلى فرض هيبتها بالقوة؛ مما يؤدي إلى نوع من التناحر الداخلي، وأنذاك فإن من العسير جداً للمجتمع أن يسيطر على مصيره؛ بل إن القوى الخارجية تتدخل لاستثمار ذلك الشقاق في تسريع المجتمع نحو نهايته المؤكدة! .

وأنذاك فلا يوجد رابع، حيث يغرق ركاب الدرجة الممتازة مع ركاب الدرجة الثالثة؛ لأنهم جميعاً عجزوا عن توجيه سفيتهم إلى بر الأمان! ولا ينبغي لنا أن نهون من شأن التخلف والشعور بالدونية والفقر والجهل وما إلى هنالك من ألفاظ يفيض بها معجم الانحطاط - في الخصوص لإرادات الأعداء ومخططاتهم؛ فأول شرط من شروط تقرير المصير امتلاك الإرادة الحرة، والحرية ليست شعاراً، وإنما هي القدرة على الاختيار، والاختيار لا يكون إلا عند وجود بدائل، ولا بدائل أمام المعوز؛ فهو لا يجد الضروري فضلاً عن أن يجد بديلاً له! .

إن علينا أن نتذكر أن (تقرير المصير) ليس أمنية تتحقق بها الأفئدة، ولا هي كلمات ترددتها الشفاه، وإنما هي في النهاية الثمار اليائعة التي تقطفها أمة ما مكافأة لها على مجموع المعارك الحضارية الظافرة التي تخوضها على صعيدها الوطني! .

١٧ - النقلة الصناعية خطوة مهمة على طريق الإصلاح:

حين ينظر مسلم إلى كثير مما يلبسه وإلى أكثر ما يستخدمه من آلات ومصنوعات دقيقة... ثم يجد أنها صنعت بأيدٍ غير إسلامية يترسخ في حسنه وأعماق كيانه أننا أمة دون الأمم الأخرى، وأن هناك - ولا بد - أموراً ثقافية وحضارية معينة أدت بنا إلى عدم القدرة على تصنيع ما لدينا من مواد خام، وإلى العيش تحت وطأة شروط قاسية يضعها عدو لا يرحم! .

لا يستطيع المرء أن يشعر بالتأنيق والرفاه والكرامة إذا لم يجد نفسه

مكافأةً للآخرين فيما ينتجونه، ويقدمونه للبشرية؛ ولا ريب أن مدى التقدم الصناعي (خاصة) هو المعيار الدقيق لقدرة شعب من الشعوب على استثمار موارده، وتدريب أبنائه، بل إنه معيار للتقدم العلمي والمعرفي وسنظل نُستغل أسوأ استغلال ما لم نتمكن من إحداث نقلة صناعية نوعية، نوفر من خلالها فرص العمل لملايين الأفواه الجائعة، ونفرض من خلالها احترامنا على الصعيد الدولي، ونداوي قبل ذلك بها جرحاً غائراً في كبراء مسلم اليوم. إن طناً من الحديد الخام قد يباع بـألف دولار، فإذا حولناه إلى ساعات يدوية أمكن بيعه بـمليون دولار. وإن (برميلاً) من النفط إذا أمكن استخدامه في صناعة ثياب فاخرة كان عائداته مئة ضعف وهكذا... .

إن عمليات الإصلاح لا يجوز أن تقتصر على معالجة بعض القيم والمثل، وإنما يجب أن تشمل جوانب الحياة كافة.

١٨ - الإرادة العرة تكشف الإمكانيات الحضاري وتضنه:

حين نتأمل في الفوارق بين قدرات الناس العقلية والجسمية نجد أنها ضئيلة في أكثر الأمر، لكن الفارق الضخم بين الناس يمكن في إرادتهم، فكل واحد منا يستطيع أن يجلس ساعتين متواصلتين منكباً على كتاب، يتشرب ما فيه من معرفة منظمة؛ لكن الذين يملكون الإرادة اللازمـة لفعل ذلك قلة؛ فالله - جل جلالـه - منـع القدرة، وابتلاـنا بمـجاهدة نفوسـنا لنـحصل نـحن على الإرادة التي هي أول شروط الإنجاز. وبالإمكان القول: إن الإمـكـانـاتـ الحـضـارـيـةـ المتـاحـةـ أمـامـناـ هـائـلـةـ،ـ والـشـرـطـ الـوـحـيدـ لـاكتـشـافـهاـ هوـ أنـ نـعـيـدـ اـكتـشـافـ أنـفـسـنـاـ،ـ وـمـنـ ثـمـ فإنـ الشـعـوبـ الـمـتـخـلـفـةـ هيـ شـعـوبـ لمـ تـكـتـشـفـ أنـفـسـهـاـ!ـ كـانـ الطـبـ فيـ كـورـياـ يـدـرـسـ بـالـلـغـةـ الإـنـجـلـيزـيـةـ،ـ ثـمـ أـصـدـرـ رـئـيـسـ الدـوـلـةـ قـرـارـاـ بـتـدـرـيـسـ بـالـلـغـةـ الـكـوـرـيـةـ،ـ فـهـاجـ الأـسـاتـذـةـ،ـ وـمـاجـواـ مـحـتـجـينـ بـأنـ أـصـرـارـاـ بـالـلـغـةـ سـوـفـ تـلـحقـ بـالـطـلـابـ إـذـاـ تـمـ ذـلـكـ،ـ فـالـكـوـرـيـةـ لـيـسـ لـغـةـ حـيـةـ،ـ وـالـمـرـاجـعـ الـطـبـيـةـ الـمـكـتـوـبـةـ بـهـاـ عـدـمـ...ـ وـكـانـ مـوـقـفـ رـئـيـسـ الدـوـلـةـ هوـ أـنـهـ بـعـدـ عـامـ سـوـفـ يـكـونـ التـدـرـيـسـ بـالـكـوـرـيـةـ إـلـاـ فـإـنـ الدـوـلـةـ سـوـفـ تـغـلـقـ الـكـلـيـةـ إـلـىـ أـنـ يـجـدـ الأـسـاتـذـةـ فـيـ أـنـفـسـهـمـ الـكـفـاءـةـ لـذـلـكـ!ـ وـخـلـالـ عـامـ تـهـيـأـ الـأـسـاتـذـةـ لـذـلـكـ وـفـتـحـتـ الـكـلـيـةـ أـبـوـابـهـاـ،ـ وـسـارـ

كل شيء على ما يرام، وانتهى تدريس الطب هناك بالإنجليزية إلى غير رجعة... فهل إمكانات الكورية في استيعاب العلوم أكبر من إمكانات العربية؟ الجواب: لا أحد يقول بذلك. إذن كيف حصل ذلك عندهم ولم يحصل في السواد الأعظم من جامعاتنا؟ الجواب: أن الإرادة الحرة هناك اكتشفت الإمكانيات الحضاري، ووظفته ونمته، أما نحن فسوف يحصل ذلك عندنا حين نشعر بضرورة احترامنا لأنفسنا!!.

فهل نقول بعد هذا إن الأمة بحاجة إلى معاهد ودورات وبرامج تتعلم فيها كيف تكتشف نفسها، وكيف تُصلب إراداتها على طريق استغلالها للإمكانات الهائلة الموضوعة بين يديها؟ ذاك بالطبع ضروري إذا اقتتنا!

١٩ - كلما تعقدت مصالح الإنسان شعر أن ما هو فطري لديه لم يعد كافياً:

زَوْدُ اللَّهِ - تَعَالَى - الْإِنْسَانُ وَالْحَيْوَانُ بِمَجْمُوعَةِ مِنَ الْغَرَائِزِ الَّتِي تَدْفَعُ إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى وُجُودِهِ، وَقُنْعَنُ الْحَيْوَانِ بِتِلْكَ الْغَرَائِزِ، وَظَلَّ يَعِيشُ فِي ظَلَالِ الْأَمْنِ النِّسْبِيِّ الَّذِي تَوْفِرُهُ لَهُ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ - الْخَلِيفَةُ وَالْقَادِيُّ وَالْمُفَكِّرُ - لَمْ يَرِضْ أَنْ يَظْلِمْ عَبْدًا لِغَرَائِزِهِ، فَأَخْذَ يَتَجَازُّهَا نَحْوَ تَنْمِيَةِ الْإِمْكَانَاتِ وَالْقَابِلِيَّاتِ الْمَزْوَدَ بِهَا، وَاسْتَطَاعَ مِنْ خَلَالِ ذَلِكَ السُّيُطْرَةِ عَلَى الْحَيْوَانِ، وَكَثِيرٌ مِنْ جَوَابِ الْطَّبِيعَةِ، وَذَاكَ أَدَى إِلَى رُقْيِ حَاجَاتِهِ وَمَرْفَهَاتِهِ، إِلَى أَنْ أَصْبَحَتِ الْآلاتُ تَخْدِيمَهُ بِمَجْرِدِ لَمْسَةٍ أَوْ هَمْسَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ «وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ». إِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِعُ أَنْ يَجْرِي بِدَافِعِ غَرِيزَتِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَقُودْ طَائِرَةً؛ لَأَنَّ أَفْقَ الغَرِيزَةِ لَا يَلْمَسُ تِلْكَ الْمَهَارَةِ الرَّاقِيَّةِ وَالْمَعْقُدَةِ، وَمِنْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَطِعَ أَنْ يَعِيشَ عَصْرَهُ أَنْ يَتَجَازُّ حَدُودَ غَرَائِزِهِ نَحْوَ تَنْمِيَةِ اسْتِعْدَادِهِ مِنْ خَلَالِ الْمَعْرِفَةِ وَالْخَبِيرَةِ وَالتَّدْرِيبِ وَالْمَرَانِ وَالنَّقْدِ وَالتَّطْوِيرِ... وَإِنْ تَحرَرَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْخَوْفِ، كَمَا أَنْ يَإِغَالِهِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مُتَوْقَفًا عَلَى مَا يَمْكُنُ أَنْ يَصْفِلَ بِهِ ذَاتَهُ وَمَعَارِفَهُ وَتَجَارِيَّهُ. وَهَذَا الصَّقْلُ أَوِ التَّدْرِيبُ مَكْلُفٌ جَدًا إِذَا مَا قَوَرَنَ بِالْتَّعْلِيمِ النَّظَرِيِّ، وَمِنْ ثُمَّ إِنَّ الدُّولَ الْفَقِيرَةَ لَمْ تَحْقِقْ نِجَاحَاتٍ تَذَكَّرُ فِي التَّعْلِيمِ الْفَنِيِّ مَقَارِنَةً بِنِجَاحَاتِهَا فِي التَّعْلِيمِ النَّظَرِيِّ؛ وَتَرَبَّ عَلَى ذَلِكَ وَجُودُ كَمِ هَائلٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نَسْتَخْدِمُهَا، وَلَا نَعْرِفُ مَاذَا نَصْنَعُ بِهَا!.

وظل الإنسان لدينا مثل مواردنا الاقتصادية (خامماً)، أي إنساناً بالقوة لا بالفعل، - كما يقول المناطقة -، وسيظل الواحد منا فاغراً فاه أمام ما تعرضه وسائل الإعلام من مهارات نادرة أبرزها التدريب والمران. فهل تساعد الشركات والمؤسسات والأئمـاء لدينا على فتح مراكز ومعاهد لتدريب الشباب الذين لا يحسن الواحد منهم شيئاً؟ .

٢٠ - النقد البناء أهم وسائل الإصلاح:

يمكن القول إن النقد أسهل أنواع الإنجاز الفكري، وهو في جوهره ناتج عن مطابقة يسيرة بين ما هو كائن، وبين ما ينبغي أن يكون؛ ونحن حين نحجد النقد فإنما نحجد النقد البناء الموضوعي الذي لا يعتمد على الشائعات، ولا يستهدف الإساءة للأشخاص، ولا التشهير بهم، ولا نشر الفضائح، وإنما النقد الذي يساعد الأمة على البقاء في المسار الصحيح مشدودة نحو أهدافها الكبرى.

إن النقد يبلور معرفتنا بذواتنا وأصولنا، وإن كثيراً من الأفكار تظل غائمة ومحظمة ما لم تتعرض للنقد والحوار، وتلكها السنة المنشورة. ثم إن النقد يوفر لنا بيانات كثيرة، نحن بأمس الحاجة إليها، إذ إن الإنسان يحب الوضوح، ويحب العمل في أجراه، والنقد من المصادر المهمة لذلك. والنقد يؤسس نوعاً من السلطة الأدبية التي يحتاج الإنسان إلى من يمارسها عليه ليعرض بذلك ما لديه من ضعف في الحواجز على العمل، أو ليحرجه عن الكسل، وسوء استغلال الوظيفة.

وبالإضافة إلى هذا وذلك فإن النقد دليل على يقظة الوعي وانتباه المجتمع لواجباته ومسؤولياته، كما أن وجوده يقاوم القصور الاجتماعي الذي يصيب الأمم في أيام التدهور والانحطاط.

نحن نضيق بالنقد؛ لأنـه يتطلب منـا أن نرفع وتيرة جهـداـ، أو تغيـير عـاداتـ الفـنـاهـ، وأحيـاناـ لأنـه يقطع علينا طـرقـ المـنـافـعـ غيرـ المـشـروعـةـ . . .

لـكتـناـ نـقولـ بـأـمـانـةـ إـنـ هـامـشـ المـناـورـةـ أـمـامـناـ مـحـدـودـ فـلـمـاـ أـنـ نـقـبـلـ بـالـنـقـدـ -

المشروع - وإنما أن نصيّر إلى التأسن والركود أو الانهيار من الداخل، وليس القبول بالنقـد أسوأها قطعاً على كل حال.

٢١ - إثراء البعد الروحي أولوية إصلاحية:

الأولويات الإصلاحية تختلف بين الحضارات والشعوب، لكن التمكين للروح والمعنى والمضمون والتفتح والتحرر الداخلي... كل ذلك ليس موضع جدال بين الحضارات، وإن كان هناك بعض الخلط بين ما هو روحي، وما هو ليس روحياً...

الذي ينظر في أحوال العالم النامي - ومنه عالمنا الإسلامي - يجد أن هناك نوعاً من الشكوى الدائمة من سوء الأحوال، ويجد إلى جانب ذلك فيضاً هائلاً من الحلول والتنظيرات والمواعظ التي لا تلقى أذناً صاغية، ولا تجد من يمثل لها! والسبب في ظاهرة العجز عن التغيير والتخلّي عن الأشياء الضارة هو الإفلات الروحي والخراب الداخلي الذي يعاني منه إنسان العصر الحديث. ومن الأسباب الجوهرية لهذا الخواء أن فكرة الروح اختفت منذ مئة سنة، وغادرت مركزها المحوري الذي احتلته على مدار آلاف السنين، وصار ينظر إليها اليوم على أنها وهم وخرافة من خرافات الماضي، وصار يعبر عن الحديث عنها بأنه رجعي ولا علمي وما ورائي، وصار الإنسان في القرن العشرين يقبل دون جدل بأنه لا شيء في هذا الكون إلا الطاقة والمادة المعروفةتان، وصار يعبر عن الروح في كثير من الكتب بمعنى: الوعي أو الصورة الذهنية للمدركات، أو المعنى أو المعنيات^(١)...

صحيح أن المسلم لم يصل إلى هذه الحافة، لكن الخطط التنموية لدينا لا تختلف في موقفها من هذه القضية عن خطط الشعوب التي تنكر الروح وكل ما يتعلّق بها. وقد قدمت الحضارة المادية الحديثة للإنتاج الصناعي والرقي المادي كل رهاناتها، وحين تتناقص إمكانات النمو المادي - وهذا

(١) نظرية الروح: ٢٢.

شيء قادم لا محالة - فإن الإنسان سوف يلجم إلى الروح مرة أخرى، ليستمد منها طاقة الإبداع والتكييف مع الظروف الجديدة، لكنه سوف يجد أنه قد ردم كل المنابع الثرية التي يمكن أن يرثوي منها؛ فيجد نفسه مفلساً من الروح والمادة معاً!

إن صناعة المعلومات التي ستغدو عام (٢٠٠٠) أضخم صناعة في التاريخ تقوم في جوهرها على المنطق الصوري، والمنطق الصوري يدفع دائماً نحو (الشكلية)، وهي حين تنمو لا تكون إلا على حساب الاهتمام بالتحقق الروحي. صحيح أن (صناعة المعلومات) أعادت للعنصر البشري دوره من جديد لكنها أعادت دور (المخ) لا الروح. وحين يبدأ شيء ما بالتراجع والانحسار، فإن آخر ما يبقى منه هو الشكل؛ لأنه ملموس، ولأن الرقابة الاجتماعية والبشرية تحرسه، وتتصونه، أما أول ما ينسحب فهو الروح والمضمون والمعنى! في كل مرة تنسحب فيها الروح كنا نسير إلى تعزيز الأنظمة والقوانين والتأكيد على إنقاذ الشكليات، لكن التجربة الثرية أظهرت للبشر عقم النظم في إنقاذ النفوس المتمردة من زوج نفسها - وبعضها بعضاً - في غمار الأسى، لأن كل أسباب الانهيار الظاهرية ما كانت في الحقيقة سوى أعراض للقسم الروحي الذي يعاني منه مجتمع منهار! إن إنقاذ مستقبل البشرية سوف يتوقف - كما يقول توينبي - بدرجة أساسية على علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وقبل ذلك على علاقته بربه، جل وعلا^(١).

لا بد لمصلحتنا من التأكيد على أمور مهمة في هذا الصدد، منها:

- تعزيز علاقة المسلم بربه - سبحانه وتعالى -، وإعطاء ذلك أولوية في برامج التثقيف.
- تعزيز الشعور بالكرامة وإعطاؤه الأولوية على الرغبة في الحصول على المركز الأقوى أو الرغبة في تكديس الأشياء.

(١) مختصر دراسة التاريخ .١٢٧: ٤

- تنمية روح الإبداع والوصول إلى أشياء جديدة؛ ذلك لأن مما يجهض الروح التطابق مع النماذج الموضوعة والمستقرة.
- إيهار الدائم على الزائل والقادم على الآني والشخصي على المتعاري.
- نشر الروح الإيجابية والتعاون مع الآخرين وتحجيم الروح الأنانية.
- تشجيع المبادرة الفردية لدى المسلم ومكافأة الذين يطلقون أكبر عدد ممكن من المبادرات الجديدة.
- الانحياز التام للمعنى والمضمون والفحوى والطلقة والتدفق الداخلي واحترام المشاعر والأحساس واللمسات الشخصية.
- أن نمرن أنفسنا على الاستسلام والتسليم لله - جل وعلا - في قصائه وقدره بعد الأخذ بالأسباب واستنفاد الوسائل، وتربيه الإرادة على الخضوع للحكمة الإلهية المطلقة؛ فنحن نحرر إرادتنا من سلطان البشر لا للتوجه إلى حيث تشاء، ولكن إلى حيث يشاء.

٢٢ - الإنسان الحر المندمج بغيتنا:

لا بد لأعمال الإصلاح أن تستهدف تحسين وضع الإنسان لدينا هذا الإنسان الذي استهدفته الشريعة الغراء، وسخر الله - تعالى - له كل ما حوله، وأوجد له الإسلام من ضمادات العزة والكرامة ما لا يوجد له مثيل في أي دستور من الدساتير، لكن ضرورة الاجتماع الإنساني تحتم نوعاً من التنظيم لسلوك الناس وعلاقاتهم بعضهم مع بعض، وحين كان المسلمون يعيشون في مجتمعات بسيطة كان كل واحد منهم يمارس حريته على نحو ممتاز، لكن حين دخلت الأمة في متاهات الجمود والانحطاط صارت تمييل إلى القيود والانغلاق وتخشى من الانفتاح والتجدد والطلقة، وكان ذلك في الحقيقة من النتائج السيئة لارتكاك وعي المسلمين تجاه التوفيق بين مجموعات

المتقابلات، ذلك التوفيق الذي لا يمكن أن نحوزه أبداً من خلال التنظير والتأمل، وإنما من خلال وهج الانطلاق الحضاري؛ والحركة الثقافية المواردة المتتجددة. لا يخفى أن ضرورات العيش وتداعيات الفاقة قد جعلت من المسلم إنساناً ذليلاً يحتمل الآلام والعذابات إلى ما لا نهاية، وصار السكوت عن الحقوق المغتصبة شيئاً شائعاً لدى السود الأعظم منها! الخوف من العداون الخارجي، والحرص على تمسك الجبهة الداخلية كان عاملاً حافزاً على كبت حق التعبير الذي لم يبحه الإسلام للMuslim، ولكن أمره به. هاجس الخوف من الفتنة والوقوع في الفوضى والتلوّح ظل يسيطر على أهل السنة والجماعة على مدار التاريخ، وقد أسرهم كذلك في خنق عدد من الحرفيات العامة التي يتيح الإسلام للمسلم ممارستها، ولهذا الهاجس وجاهته، لكن الشيء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده، ومن ثم فإن الأمة وقعت في فتن ليس منها الفوضى والفراغ السياسي أو الإداري، وإنما وقعت في فتن الجمود وتراكم الأخطاء والانحباس الاجتماعي وإنغلاق بباب الاجتهد والتدبر الثقافي . . .

ولا ريب أن التركيز الزائد على حرية الفرد قد يؤدي إلى نتائج مدمرة، ولا سيما في حالات الجمود واختلال التوازن وانقسام الوعي، ومن ثم فإن هناك سياستين لا بد من اتباعهما على هذا الصعيد:

أ - سياسة البناء النفسي للفرد ببث الشجاعة الأدبية فيه، وتسهيل نيل الوصول إلى حقوقه، ودفعه إلى ممارسة حرفياته المشروعة.

ب - سياسيات تسعى إلى دمج الفرد في مجتمعه، وتعظيم الشعور بالمسؤولية لديه، وتنمية روح التعاونية الإيجابية . . .

وفي ظني أن الإنسان الذي يحمل نفسية (العبد) لا يمكن له أبداً أن يندمج اندماجاً إيجابياً في الجماعة التي يعيش فيها، حتى لو كانت جماعة عبيد، لكنه يختلط بها، ويعايشها؛ لأن الرق الشعوري والفكري لا يسمح لشيء من الطلاقة والتدفق الداخلي بالتفتح والاندفاع، وهو شرطان أساسيان للاندماج المجتمعي السوي.

إن كثيراً من الإسلاميين يخافون من كلمة (حرية)، وذلك خوف لا مبرر له؛ فالحرية تعطي فكر الأمة ومبادئها مناعة وبلورة وفرصاً للتحقق لا يمكن أن توجد في أجواء الانغلاق والقهر... وإذا قارنا وضع الإسلام والمسلمين في الغرب مع الأوضاع التي كانت سائدة في المعسكر الشيوعي، لوجدنا صدق ما نقول.

٢٣ - فريضة التمييز بين الحضارة والمدنية:

لا يستطيع أحد اليوم أن يتتجاهل فتنـة (الحداثة) وجاذبية المنتجات المادية الحديثة، ومن ذا الذي يبحث اليوم عن وسيلة نقل أو رـي أو تصنيع قديمة إعراضـاً عن الجديدة؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يفطم أهل بيته عن التمتع بالآلات والأجهزة الحديثة التي سهـلت كثيرـاً من الأعمال المتزـلية... بل إن السؤـال يتمـحور: هل الإعراضـ عن ذلك يحقق للمسلم أية مصلحةـ، أو يدفع عنه آية مضرـة؟.

لكن من الضروري على كل حال أن نفرقـ اليوم بينـ الحضارة وبينـ المـدنـية حتى نـستطيعـ أن نـرسـيـ قوـاعدـ الاستـيعـابـ السـويـ والـصـحـيحـ لـمنـجزـاتـ العـصـرـ وـعـطـاءـاتـهـ الـوـفـيرـةـ. وـحتـىـ تـحدـثـ النـقلـةـ الـحـضـارـيـةـ الـمـطـلـوـبـةـ فإنـ منـ الـواـجـبـ عـلـىـ الشـعـوبـ الـإـسـلامـيـةـ أـنـ تـقـومـ بـجـهـودـ مـتـضـافـرـةـ فـيـ توـظـيفـ كـلـ ماـ لـدـيـهاـ وـلـدـىـ الـإـنـسـانـيـةـ مـنـ رـأـسـمـالـ حـيـ وـرـمـزـيـ وـمـادـيـ، لـكـنـ هـذـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ أـدـقـ الـمـعـايـيرـ الـتـيـ يـمـكـنـ أـنـ تـوجـهـ مـسـيرـتـناـ. وـيمـكـنـ أـنـ نـقـولـ: إـنـ الـحـضـارـةـ فـيـ هـذـاـ المـقـامـ هـيـ كـلـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـعـتـبـرـ مـنـ الـمـكـتـسـبـ الـإـنـسـانـيـ الشـامـلـ الـذـيـ يـمـكـنـ تـعمـيمـهـ عـلـىـ جـمـيعـ الثـقـافـاتـ وـالـأـمـمـ، وـالـذـيـ لـاـ يـشـكـلـ أـيـةـ خـصـوصـيـةـ لـأـمـةـ بـعـينـهاـ.

أما المـدنـيةـ فـهـيـ الطـرـيقـ الـتـيـ تـسلـكـهاـ الجـمـاعـاتـ التـارـيـخـيـةـ الـحـيـةـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ تـلـكـ الـمـكـتـسـبـاتـ الـكـوـنـيـةـ الـحـضـارـيـةـ.

وهـذـهـ الـطـرـيقـ لـاـ يـمـكـنـ تـعمـيمـهـ؛ لـأـنـهـ مـسـتمـلـةـ مـنـ خـصـائـصـ الـجـمـاعـةـ وـعـقـرـيـتهاـ الـخـاصـةـ وـظـرـوفـهاـ الـمـحلـيـةـ وـتـارـيـخـيـتهاـ الـمـتـمـيـزةـ وـثقـافـتهاـ وـحـسـاسـيـتهاـ الـحـمـيمـةـ.

إن رمزية العدل والحرية والمساواة أمام القانون لا يمكن أن يأخذها العربي من تاريخ فرنسا أو أمريكا أو اليابان، وإنما يأخذها من رموزه ومعاركه وإنجازاته التاريخية، فهي وحدتها التي تتيح له التجديد دون الوقوع في أزمة التبعية.

وفي غياب التمييز بين الحضارة والمدنية يصبح الفارق بين التغريب والتجديد الحضاري معدوماً. إن التغريب نمط من أنماط التحديث الذي يتميز بالتقليد الأعمى للنموذج الغربي، والذي يهتم بالشكل والقشور، أكثر مما يقوم بنقل الوظائف الجوهرية في عملية التحديث. أو أنه لا يميز بين الخصوصية الغربية والمكتسب العالمي في نمط الحضارة المعاصرة؛ مما يحرمه من التمييز بين الجوهر والعرضي في هذه الحضارة، أو بالأحرى بين السيرورات التاريخية التي لا تعاد وبين المكتسبات النهائية التي يمكن أن تُستملّك. ولن يست المعاصرة نقلأً لتجربة، وإنما هي إيجاد (دينامية) لإبداع وتجديد ذاتين، إنها ليست مراكمة لتقنيات، كما هو الحال اليوم، وإنما هي تركيب لمنهج إيجاد التقنيات وتصميمها^(١).

ولا نماري أن اكتشاف الخاص من العام يحتاج إلى نوع من التناظير والتأصيل، لكن الذي سوف يساعدنا على إنشاء الحساسية الكافية للتفريق بينهما، ليس الفكر، وإنما الممارسة والتجربة الحية والانغماس في الجهد الوعي الذي يستهدف تحقيق كينونتنا الذاتية وأهدافنا الخاصة.

وبالإضافة إلى هذا فإن مما سوف يساعدنا على ذلك التمييز المنشود قدرتنا على توظيف تراثنا الحضاري والاجتماعي في حياتنا المعاصرة، وهذا التوظيف هو الذي سيمزج بين القديم والجديد في كل متناغم، كما أنه سيجعل صلتنا بأصولنا النفسية والتاريخية أكثر تألقاً ومتانة. والأمم التي دخلت في أطوار الانهيار والتراجع عجزت عن توظيف تراثها، فنسيته، وحاولت استملاك تراث الآخرين لتوظفه، فكان الإخفاق أشد!

(١) نقد السياسة: ٤٧٦ وما بعدها.

٢٤ - لا بد من إحداث انتفاضة نفسية :

المعالجة العقلية والفكرية لقضاياها شيء لا بد منه، ولا يغني عنه أي شيء آخر، لكن علينا أن نعترف أن مشكلاتنا ليست فكرية وحضارية فحسب، وإنما هي نفسية أيضاً، بل إننا نقول إن كل أشكال الهزائم التي يمكن أن تصيب أمة ما تظل محدودة التأثير ما لم يتولد عنها هزائم نفسية تزعزع ثقتها بنفسها ومبادئها، وتسد آفاق النصر والتقدم في وجهها.

ولا يدعى أحد أن روحنا لم تحتل، وأن نفوسنا لم تنكسر، وكيف لا يكون الأمر كذلك، ونحن نتلقى أصوات الهزائم في كل يوم، وعلى كل صعيد، بل إننا نقول إن الذي لا يرتاب للحالة المأساوية التي صارت لها الأمة يكون قد اكتسب مناعة ضد آلام النكبات والنكسات، وقد الإحساس بالزمان والمكان والأحداث، وهو كمن يترنم في المقابر !! .

في مواجهة الهزيمة النفسية سيكون إحداث انتفاضة نفسية جزءاً مهماً من الحل؛ فالتنظير العقلاً منفرداً قد يؤدي إلى الإحباط، ومن ثم فإن بث روح (الاستعلاء) بالإيمان والخصوصية الرسالية والمنجزات التاريخية - يظل مهماً لتجديد الروح ونفض اليأس والقنوط عن نفوس المسلمين، هذه الانتفاضة المطلوبة تحتاج إلى تعزيز الانتماء من خلال التضحية والقدوة الحسنة، وتحتاج كذلك إلى نوع من إبراز الإيجابيات التاريخية والحاضرة، كما تحتاج كذلك إلى التأكيد على إمكانية تحسن الأحوال؛ فإن خسارة جولة أو جولات لا تعني خسارة المعركة، ما دام الإصرار على كسب الفوز موجوداً ..

إننا نعتقد أننا نتمتع بخاصية حضارية فريدة، هي أننا نصدر في رؤيتنا للحياة عن منهجية مطلقة ومعصومة ولا بشرية، ومن ثم فإننا قادرون على محاكمة التاريخ والواقع ومنجزات الآخرين، ونحن - بحول الله - قادرون على الإفادة بعد الكبوة من خلال رجوعنا إليها واسترشادنا بها. أما الحضارة الغربية فإنها تفتقر إلى ذلك، فمراجعاتها معطيات تبلورت بفعل حركة التاريخ؛ فهي بشرية ممحضة، ولذا فإن الانهيار إذا وقع فإن القيام بعده سيحتاج إلى

بلورة مرجعية جديدة، وهذه قد تحدث، وقد لا تحدث، ولذا فإنه سيكون من الخطل تصور وضعيتهم الحالية شيئاً نهائياً ممكناً الاستمرار ..

لا يعني بهذا أننا ننتظر انهيار الآخرين لنشيد على أنقاضهم كياننا الجديد، وإنما المراد هو إدراك إمكانات التبدل التي يمكن أن تقع لدينا ولدى غيرنا.

إن الصلة بالله - تعالى - ستظل شيئاً أساسياً في ترميم بنائنا النفسي حيث يتصل المسلم بمصدر للطاقة والصبر والكافح لا ينضب أبداً، بل لا يزداد على الإلحاح إلا كرماً!!.

٢٥ - القيم المسيطرة في المجتمع هي مقاييس رقيه:

ليس هناك مجتمع بلا مقاييس، كما أنه لا يوجد مجتمع من غير قيم، ومبادئ تحكم حركته حتى المجتمعات المنهارة تؤمن بمجموعة من القيم، لكن المسافات بين قيمها وواقعها شاسعة. كل مجتمع - كما الفرد - يضع قيمة المختلفة ضمن سلم متدرج، أي يرمّز قيمة، ويرقّمها بحسب أهميتها في نظره.

ومن خلال سلم القيم ذاك تظهر القيم المركزية من القيم الهامشية، والقيم المسيطرة من القيم التزيئية ..

في زمان النبي ﷺ كانت القيم المسيطرة قيماً روحية، يتربع على رأسها الحرص على (رضوان الله) - تعالى - والاستشهاد في سبيل ذلك، كما كانت قيمة (الأخوة الإسلامية) وما تمليه من تعاون وإثارة متوجهة في القلوب والسلوك.

ونستطيع أن نتعرف على سلم القيم المسيطر من خلال أحاديث الناس، ومن خلال سلوكهم؛ فإذا كانت المجالس تعج بذكر العقار والبناء والأسماء وأرباح التجارة وخسائرها على حين لا يذكر الله فيها إلا قليلاً، ولا يمتد البصر فيها إلى ما وراء الدنيايات علمنا أن القيم المسيطرة هي قيم مادية.

وإذا رأينا الموظف لا يتأخر عن دائرته أبداً، على حين أنه لا يزور

المسجد إلا لماماً، أو لا يأتني إلا متأخراً علمنا أن قيمة العمل للدنيا هي المسسيطرة، أما قيمة العمل للأخرة فهي هامشية وهكذا... .

هذا المعيار مهم في الكشف عن بعض الأدواء والعلل التي تعاني منها مجتمعاتنا، كما أنه مهم في قياس درجة التزام المجتمع بقيم الإسلام، ومهم كذلك في تحديد أولويات العلاج.

جهاد المصلحين إذن سوف يتركز في جعل قيم الإسلام الكبرى من أداء الفرائض والبعد عن الكبائر وقيم التعاون والتآخي والتضحية والعمل... . تتبوا أعلى السلم القيمي، وهذا لا يتم إلا من خلال التثقيف النشط والقدوة الحسنة، وإلا من خلال إيجاد الظروف التي تساعده على ذلك؛ فالبعد عن (الزنا) قيمة كبرى في الإسلام لكن حتى تأخذ هذه القيمة مكانها الصحيح على صعيد الممارسة العملية فإنه ينبغي أن يكون أمر الزواج ميسراً من اعتدال المهرور والنفقات ووجود المساكن المناسبة.. إلخ... .

وهذا الكلام يقودنا إلى معيار آخر، هو أن مثالية كل مجتمع تقاس بما يمكن أن يتحققه من شروط نفسية وزمانية لرقي كل فرد من أفراده، فعمل المصلحين إذن لا ينصب على تبديل سلم القيم ولا على توفير شروط الرقي، وإنما على بث روح الإصلاح الاجتماعي؛ ليقوم المجتمع بنفسه وبطريقته الخاصة بفرضه ونواتله... .

وهذا الكلام كله يعيينا إلى تصوير شمولية الإصلاح وعدم تجزئته، حيث إن كل تقدم إيجابي على أي صعيد سوف يعود بالنفع على باقي الأصعدة، فترتبط العلل والمشكلات سيقضي حتماً بترتبط الأدوية والحلول.

٢٦ - من المحال أن نصلح بالقوانين ما ينبغي أن نصلحه بالأداب^(١):
من مقاييس وعي المجتمع بذاته خبرته بأدواء علاجه؛ فيستخدم لكل مشكلة علاجها المناسب، وهو يدرك إلى جانب ذلك الحدود القصوى

(١) تاريخ الفكر السياسي: ٣١٣.

لاستخدام كل وسيلة من الوسائل الإصلاحية. إن أسهل شيء يمكن أن يلجأ إليه المجتمع في إيقاف تدهوره وتفسخه شيئاً: القوة والقوانين. وبينما أن هذا ما تم استخدامه في تاريخنا الإسلامي في أكثر الأمر - فقد كان التوسع في القمع والتشريعات المحددة والضابطة هو أقرب الحلول تناولاً، على حين أن اللجوء إلى الإصلاح عن طريق الدعوة والتربية وترسيخ الفضائل كان يتم بطريقة فردية وعشوانية، وقد كان قول عمر بن عبد العزيز - رحمة الله - دليلاً حين صور طبيعة المواجهة بقوله: «يحدث للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور». فالانحلال كان يقابل دائمًا بالتوسع في القوانين والتشريعات.

ونحن نقول إن شيئاً من التوسع في التشريعات الرادعة لا بد أن يحدث في كل زمان ومكان، لكن الجزاءات والعقوبات هي أشبه بالتدخل الجراحي في العلاج الطبي، فهو آخر الحلول، وكذلك العقوبات، هي الحلول الرادعة لمن فاتتهم التنشئة الاجتماعية الجيدة؛ فالعقوبات دائمًا وأبداً لا تشنّ مجتمعاً، لكنها تحميه؛ وهذه رؤية إسلامية جلية، فآيات الحدود والعقوبات، بل والأحكام جميعاً لا تشكل أكثر من عشر آيات القرآن الكريم، أما الباقي فكان يستهدف بناء الإنسان من الداخل؛ ليقوم هو بنفسه بمراقبة ذاته وتقويم سلوكه.

يمكن أن يقال بعد هذا: إن من أعظم فضائل الدول والمجتمعات اقتصادها في سن النظمة والتشريعات إلى أبعد حد ممكن، واللجوء إلى التثقيف والتربية وجذب الناس نحو الصلاح والاستقامة عن طريق القدوة والمثل الطيب.

وإنما نقول كل هذا لأننا نعتقد أن المجتمع الفاضل المعافي هو المجتمع الذي يستغني عن تدخل الدولة في شئونه بما يحويه من وعي وقيم ومؤسسات وسيطة، ويترك للدولة الفرصة للقيام بواجباتها الخارجية والداخلية الخدمية، وفي هذا السياق يقول أحد المفكرين: «إن المجتمع وليد فضائلنا وإن الدولة وليدة عيوبنا»، فالدولة تتضخم على مقدار فساد المجتمع. فهل أن الأولي لإعطاء الجاذبية الأخلاقية والقيمية مكانتها الصحيحة ودورها الأصيل

في خططنا التنموية ومشاريعنا الإصلاحية، أم نريد أن نظل تبعاً للغرب نقطئن حيث قطن، ونطعن متى ظعن! .

٢٧ - على الداعية أن يصوغ خطابه الإصلاحي على مستويين متنوعين :

أمام المصلح والداعية ساحتان: ساحة ترفرف عليها أعلام الهدایة، ويؤمن أصحابها بالإسلام عقيدة وشريعة، ويلتزمون به سلوكاً؛ وساحة بعيدة عن الإسلام كل البعد، فهي لم تسمع به أبداً - كما هو الحال خارج المجتمعات الإسلامية - أو سمعت به، ولكنه انطبع في أذهانها صورة مشوهة عنه. وربما كان هناك من سمع عن الإسلام الصواب والخطأ، لكن انطباعاتهم عن المسلمين والدعاة وأهل الخير سلبية، فهو يعرفهم من خلال أعدائهم ليس أكثر.

ويمكن القول: إن كلتا الصورتين أو الصور موجودة في كل ساحة من ساحات العمل الإصلاحي، وهذا في الحقيقة يفرض على المصلح أن يتمرس بصوغ خطابين متنوعين، خطاب يتوجه إلى الساحة الإسلامية، وخطاب يتوجه إلى الساحة غير المسلمة أو المشوهة. ولا يجوز أن يكون بين الخطابين أي نوع من التناقض، وإنما هما أشبه بتأثيرتين متداخلتين تتباينان في أمور، وتتنوعان في أمور أخرى.

في خطاب الساحة الإسلامية يجب أن يُركز على ضرورة الالتزام والتمسك بتعاليم الإسلام والسمو في آفاقه الرحبة، وعلى ضرورة المبادرة إلى الإحسان ونفع الناس والانفتاح على الخصوم وال الحوار معهم، والتحلي بالإيجابية والتفتح، والقدرة على مراجعة الأخطاء وتصحيح المسيرة الدعوية وإتقان وتجويد التخصصات والأعمال الدعوية كافة

ويركز في الخطاب الثاني على بيان محسن الإسلام، ورد الشبه التي تثار حوله إلى جانب بيان عالمية الإسلام، وتشجيعه على الاجتهاد وضمان حقوق الإنسان ومساعدة الضعيف، وعلى ضرورة التعاون الإنساني في سبيل تكوين إطار عام يحاصر الشر والفساد، مما اتفقت الشرائع السماوية على

تجريمه، ويؤدي في الوقت نفسه إلى تعاون أمريكي في بناء قيم مشتركة تكون الأساس لتحقيق الحد الأدنى من التفاهم العالمي . . .

وينبغي أن تكون العناصر العقلانية في الخطاب الثاني أقوى، أما الخطاب الأول فيشتمل على كل العناصر، لكن يكون العنصر العاطفي فيه ظاهراً.

هذه المهارة في صوغ نوعين من الخطاب لا يمكن للمصلح أن يكتسبها إلا من خلال ثقافة عالمية تؤهله لفهم ما يجري خارج ديار الإسلام، وتساعده على فتح مجالات اللغة العالمية التي يفهمها الناس في المحيط الخارجي.

كما أنه بحاجة إلى فهم دقيق لواقع المجتمع المحلي واهتمامه وتطلعاته ورموز استجاباته . . .

٢٨ - تعزيز التقويمات المشتركة :

حتى يستطيع مجتمع ما السير نحو أهدافه فإن عليه أن يحاول توحيد رؤيته لماضيه وحاضرها ومستقبله، وذلك من خلال حركة ثقافية نشطة يسودها الحوار والنقاش والإصلاح المتبادل، ومحاولة الوصول إلى مركبات فكرية ومنهجية وثقافية تشكل العمود الفقري لرؤية شاملة لما حدث، ولما يحدث، ولما ينبغي أن يحدث. والمشكل أن كثيراً قد كُونَ في ذهنه صوراً جامدة عن كل ذلك؛ فهو لذلك يعرف الأشياء قبل أن يراها، أو يسمع عنها، مع أن أصل المحاكمة العقلية الراسخة أن تستند إلى الرؤية أولاً، ثم تكون المحاكمة ثم المعرفة.

وقد رأينا وسمعنا من يضفي على الماضي نوعاً من القداسة؛ فهو يقبل من حوادثه كل ما كان فيه تزكية له، ويزيف كل ما فيه دلاله على السقوط أو الخطأ الفادح! ورأينا من عمد إلى نفایات التاريخ؛ ليستخرج منها حوادث وحكايات، ثم يجعلها نماذج للتاريخ كله!

ورأينا من يبسط أمر الواقع إلى أبعد الحدود، ومن ينظر إليه نظرة كلها تفاؤل، ومن يصور واقع المسلمين على أنه الأسوأ على وجه هذه الأرض!

إذاً كنا سنظل في تقويمنا للأمور على هذه الصورة، فإن هذا يعني أننا لن نستطيع التخطيط لأي شيء في المستقبل؛ لأن المركبات الأساسية للجهد الجماعي مفقودة؛ وفي ظني أن أول شروط تعزيز وتوحيد تقويماتنا المشتركة يمكن في امتلاك فضيلة (المرونة الذهنية)، وعلينا في سبيل امتلاكها أن نلقى على أنفسنا عدداً كبيراً من الأسئلة حول الأسباب والجذور التي أدت إلى هبوط أمتنا من القمة إلى القاع، أو ما يقرب منه، ثم نحاول الإجابة على تلك الأسئلة، ثم نجري حوارات متواصلة حول تلك الأجوية لتزيف الرائق، ونذكر المنطقي والوجيه.

وثاني تلك الشروط توسيع إطار معرفتنا بأحوال العالم؛ فإن الله - تعالى - سنتاً عامة تتطبق على المسلم وغير المسلم، ومن خلال الثقافة العالمية والرؤى العالمية للأشياء يمكن أن ننظر إلى واقعنا وماضينا ومستقبلنا على أنها جزء من نظام أشمل على مستوى الإدراك وعلى مستوى النوميس والسنن وعلى مستوى الحركة والتأثير والتاثير، وبهذا سنكتشف خصوصياتنا من خلال النسق العام الذي ننتظم فيه.

وثالث تلك الشروط أن نعلم أن ما توصلنا إليه من رؤى وتحليلات ومقولات يظل، قابلاً للخطأ والصواب، وبالتالي فإنه يظل قابلاً للتعديل والتبدل؛ وذلك لأن التعامل مع الأشياء شديدة التعقيد والأشياء غير المحسوسة - لا يتم إلا عن طريق تشكيل صورة ذهنية عنها، وهذه الصورة لا يشترط أن تكون دائماً صادقة ودقيقة فتكونها من عناصر عقدية ومعرفية مختلفة سيؤدي قطعاً إلى تفاوتها، وإن ما يثبت بالاجتهاد يمكن أن يُنقض باجتهاد مماثل.

٢٩ - لا صلاح للفرد إذا لم نصلح الوسط الذي يعيش فيه:
إن الإنسان يولد مزوداً باستعدادات كثيرة، لكن هذه الاستعدادات

ستظل عبارة عن إمكانات غير مرئية، والمجتمع الذي يعيش فيه هو الذي سيخرج تلك الإمكانيات إلى حيز الوجود والتحقيق، وسوف يمنحك المجتمع لأعضائه الجدد أكثر خصائصه، وسوف يجعلهم يعانون - بمقدار ما - من كل أشكال المعاناة التي يلاقيها؛ ودرجة الفاعلية والرقي التي يتمتع بها المجتمع هي التي ستحدد ما سيتحقق من تلك الملكات، وما سيظل حبيساً....

ولعلنا نستجلِّي في هذه المسألة الهامة الأفكار التالية:

أ - نستطيع القول: إن ما نتمتع به من خصائص وإمكانات يتوقف في أدائه على الوسط الذي تعمل فيه؛ فهذا الوسط هو الذي سيُعلي من أهميتها وقيمتها، أو سيحكم عليها بالضآل وعدم الكفاية، تماماً كما يحدث لمن معه نقود، ويريد التسوق، فإن أسعار السوق هي التي ستتحكم على قيمة ما معه، فرب مبلغ ضئيل تشتري به في بلد فقير أشياء كثيرة، فإذا ذهبت به إلى بلد آخر لم يكفلك لتناول وجبة طعام! .

والوسط الصالح لفاعلية المرء وحركته هو ذلك الوسط المثالي الذي لا يُعُد العيش فيه سهلاً، ولا عسيراً إلى درجة شلل إمكانات الإنسان وإعاقة حركته. حين يكون الوسط سهلاً فإن الإنسان يتراهل، ويفقد حواجز الارتفاع، وقد يكون من أسباب تخلف السواد الأعظم من دول أفريقيا أن مقومات البقاء ظلت - إلى زمن قريب - متوفرة فيها بأدنى جهد ممكن؛ مما شكل داعياً إلى الكسل والتراخي.

ويذكر في مقابل هذا المناخ والوسط الذي يعيش فيه (الأسكيمو)، فإن الصعوبة البالغة التي يواجهها من يعيش في المناطق الجليدية قد استهلكت كل طاقاتهم في سبيل المحافظة على البقاء، وحالت دون تمكنهم من تطوير أي نظام ثقافي أو اجتماعي أو سياسي، فالضروريات تحول دون الوصول إلى الكماليات ما لم يتم إشباعها وتلبيتها.

ب - إذا كان المناخ العام على هذه الدرجة من الأهمية وجب علينا أن نوْفَنَ أن مجرد دعوة الناس للاستقامة والعمل والتمسك بأهداب الفضيلة

سيكون محدود الفائدة ما لم تتجه الجهود لتهيئة الظروف المحيطة بالفرد المسلم. لقد طرحت أفكار إصلاحية كثيرة خلال القرنين الماضيين، وألقيت مواعظ أيضاً كثيرة، لكن الأفكار الإصلاحية كانت تفتقر دائماً إلى السياسات والآليات والبرامج التي تحيلها إلى واقع معاش، ومن ثم فإننا ما زلنا نشعر أننا ما فتحنا نردد ما قيل قبل قرنين عن الداء والدواء والمشكلات والحلول . . .

والوسط المثالي أو الذهبي - كما يقول تويني - لا يشهد تحسناً في أكثر بلدان العالم الإسلامي، بل يشهد في بعضها نوعاً من التراجع؛ فتكاليف التعليم والتدريب والمعيشة والصحة في ازدياد مستمر، وينسب عالية لا تتواءم مع ارتفاع الأجور، كما أن فرص العمل تتراجع، وأجور المساكن وأثمانها في ارتفاع مستمر؛ مما أوجد حالة من الإحباط الشديد في نفوس الأجيال الجديدة.

التعاطف والتبادل والشفافية الاجتماعية والسياسية، لا تشهد التحسن المأمول ، وهذا عمق الشعور بالاغتراب والتآزم .

في هذه الأجواء ينتشر الجهل والفساد والعنف والشعور باليأس، وتصبح الأرض التي تُذر فيها بذور الخير غير صالحة للإنبات؛ ومن ثم فإنه لا مناص من الرؤية الشاملة، والعمل على الأصعدة كافة من أجل تحسين المناخ العام إذا ما أريد للجهود الدعوية أن تؤتي ثمارها .

ج - حين تبذل جهود مباركة في تحسين الوسط المعيشي والاجتماعي؛ وتصيب تلك الجهود شيئاً من النجاح، فإن الجماعات الدعوية سوف تستفيد من ذلك في الرقي بأعضائها وأحوالها المختلفة؛ فقد أثبتت التجربة أن أية جماعة لا تستطيع أن تتجاوز كثيراً السقف الحضاري الذي يحدده المجتمع الذي تعيش فيه، ومن ثم فإننا نرى كثيراً من الأمراض الاجتماعية موجوداً لدى الجماعات الإسلامية، وهذا أمر طبيعي ومفهوم . إن الذين يستطيعون تجاوز وضعية مجتمعاتهم إلى الحد الأقصى أnder من النادر، وهم بمثابة الشذوذ الذي يؤكّد القاعدة . وإذا استطاع أولئك النوابغ توليد بعض الأفكار

الفدفة فإن مجتمعهم يظل عاجزاً عن الاستفادة منها؛ لأن المجتمع يحتاج إلى نوع من الأهلية والاستعداد لفهم الفكر الجديد وتمثيله؛ وقد لاحظ الأستاذ مالك بن نبي - رحمة الله - أن أفكار ابن خلدون لم تؤد إلى أي تقدم اجتماعي في عصره؛ لأن صلتها بالوسط الاجتماعي معروفة^(١). فتحسين المناخ العام، هو تحسين مباشر لأحوال الجماعات الدعوية، وتدهوره لا بد أن ينعكس عليها بصورة من الصور.

د - إن هناك ميادين كثيرة ما زالت بكرأ، ولم تبذل فيها جهود إصلاحية ذات قيمة، مثل مجالات البحث العلمي والاجتماعي والتدريب الفني والدراسات التي تتعلق بالبيئة والتلوث والمرافق العامة والموارد الأولية والاقتصاد في الاستهلاك والبطالة وضمان حقوق المواطن والدفاع عن الضعيف والمسكين

هذه القضايا وأخرى غيرها تشكل ركائز هامة في تشكيل المُناخ الحضاري؛ ونحن ما زلنا نشاهد نوعاً من العزوف عن خوض غمارها، فهل نحن لا نعرف ماذا نريد؟!

وأكبر دليل على صدق ما نقول أن المجتمعات الإسلامية من أفقر مجتمعات الأرض بالهيئات والمنظمات والمؤسسات التي تُعنى بهذه القضايا، مع أن بعضها لا يحتاج إلى أية إمكانات، إنما يحتاج إلى معرفة الأهمية ثم المبادرة

٣٠ - توسيع الشريحة الوسطى مهمة إصلاحية كبرى:

الترابط الاجتماعي، هو الذي يميز المجتمع عن حشد الأجساد، وحشد الأجساد عبارة عن ركم غير ذي معنى ولا هدف يؤطر عدداً كبيراً من الأفراد. أما المجتمع فهو عبارة عن مجموعة العقائد وال العلاقات والتوجهات والأفكار والأعراف والمصالح والأهداف التي تربط بين أقوام يعيشون في ظل دولة واحدة.

(١) مشكلة الثقافة: ٦٣

إن الفارق بين الحجر وقبضة الرمل هو في العلاقة الصلبة الموجودة بين ذرات الحجر، والفارق بين مجتمع متخلل، ومجتمع متماسك ليس في المكونات، وإنما في نوعية الروابط وال العلاقات السائدة في كل منها.

هذه العلاقات لا يمكن أن توجد بطريقة عفوية؛ لأن التفاوت في المصالح، والتنافس على الأشياء النادرة بالإضافة إلى الخصوصيات الفكرية والنفسية، كل ذلك يجعل من العدوان والطغيان شيئاً كامناً خلف الباب بمجرد حصول قصور أو انحباس اجتماعي؛ لذا فإن الترابط الاجتماعي ليس هو الأصل، ولا هو الأمر الذي يحدث نتيجة التقاء الناس، وإنما التفكك هو ذاك الذي يحدث تلقائياً دون أي جهد، ولذا فإن تعاليم الإسلام في مجال العلاقات بين الأهل والأصدقاء والجوار والشركاء، والحكام والمحكمين والمتعاملين مع بعضهم عامة... إن تلك التعاليم تسعى إلى شيء واحد، هو الشد من أزر الأواصر الاجتماعية، وإيجاد المناخ الصالح الودود الذي يمارس فيه الفرد أنشطته المختلفة...

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فإنه بالإمكان القول: إن التناجم الاجتماعي لا يتم إلا من خلال علاقات التكافؤ والتشابه، على الصعيد المعنوي، وعلى الصعيد المادي. والله - جل وعلا - جعل ظروف الناس وإمكاناتهم واستعداداتهم والمشكلات التي تعترضهم - مختلفة، ومن ثم فإنه لا بد من اختلاف نتائج كسبهم وتحصيلهم ونشاطهم... وقد صورت الحكمة من ذلك الآية الكريمة: «وَرَقَّنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَتِ لِسْخَدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا»^(١).

لكن يقال إلى جانب هذا: إذا كان كل واحد منا سيواجه مصيره الاجتماعي دون مساعدة من أحد، مهما كان شيئاً ومجعاً، وإذا كان الأقوياء في المجتمع سوف يتمتعون بالخيرات التي جلبتها القوة، مما يعني العيش في مجتمع واحد، وما يعني الدفاع عنه، وما يعني العمل المشترك...!.

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

ولذا فإن كل مجتمعات الأرض قد أقامت نظماً تفضل حقوق المواطن وواجباته، وتشرف الدولة عادة - باعتبارها مركز التوازن الاجتماعي - على تنفيذ تلك النظم، كما أن الرقابة الاجتماعية تقوم بدور مهم في ذلك. والفارق بين مجتمع وأخر، ليس في وجود التشريعات، ولكن في تجسيدها على أرض الواقع.

وتقوم الدولة والأنظمة المختلفة فيها على إحداث أكبر قدر ممكن من التوازن الاجتماعي من خلال مساعدة الفقير والضعيف، وضمان الحد الأدنى من العيش الكريم لهما، إلى جانب ضمان حقوق التعليم والصحة، وبناء المرافق الأساسية التي يرتفق بها مجموع السكان.

وقد أعطى الإسلام للحاكم المسلم الحق في تدبير الأموال والنفقات التي يحتاجها ذلك التوازن بوسائل مختلفة . . .

ومهما بذلت الجهد لإحداث التوازن المنشود فإنه سيظل هناك فئة من الناس لا تجد بعض الضروريات، كما أنه ستظل هناك فئة تحصل على كل الكماليات والمرفهات التي تتشوف إليها. أما الفئة الثالثة، وهي ما اصطلح عليها بالطبقة أو الشريحة الوسطى فهي تلك الجماعات من الناس التي تقف على الحد الأوسط، فهي تجد كل الضروريات، وبعض الكماليات والتحسينيات.

ونقول بحق: إن حجم هذه الشريحة في أي مجتمع من المجتمعات يقرر صحة ذلك المجتمع من مرضه، ورقيه من انحطاطه، فعلى مقدار اتساعها يكون رقي المجتمع، وعلى قدر تضاؤلها يكون تخلفه، والسبب في ذلك أن الطبقة الوسطى ظلت على مدار التاريخ مركز الإبداع في الأمة، كما أن الدراسات أثبتت أن أبناء الطبقة الوسطى هم - في الغالب - أحسن أبناء المجتمع أخلاقاً وسلوكاً، وأكثراهم دأباً وجدية. فاتساع مساحتها دليل على كثرة المبدعين وكثرة ذوي السلوك القويم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المجتمع الذي تسوده الشريحة الوسطى مجتمع ناجح منضبط مسيطر على النزعات المدمرة لأعضائه، فالشريحة الوسطى لا تتسع إلا في ظل سيادة

النظام والقانون، وفي ظل الظروف الصحية المواتية للإبداع والإنتاج.

لا معنى للرخاء الاجتماعي إذا لم ينعم به أكثر الناس، ولا معنى لوجود الثقافة الجيدة في مجتمع إذا لم يتثقف بها أكثر الناس...

وقد حدث في تاريخنا وتاريخ غيرنا - كما في الواقع - أن همشت بعض الشرائح الاجتماعية، فتوجهت جهودها إلى هدم الدولة وهدم المجتمع، وصارت عامل قلائل واضطراب..

إذا كان الأمر على هذه الصورة فإن من واجب الدول والمفكرين والمصلحين، وكل من يهتم بالشأن العام أن يسلكوا كل السبل، وأن يستروا كل التشريعات، ويبذلوا كل الجهود التي من شأنها توسيع الشريحة الوسطى وتدعيمها؛ لأنها تشكل (متن) المجتمع وصلبه، ولا بد للصلب أن يكون أقوى شيء فيما حوله.

إن كثيراً من تخاذل الناس في الدفاع عن مجتمعاتهم - يعود إلى أن شعورهم أن مجتمعاتهم لم تقدم لهم شيئاً، وقد قال أحدهم: لماذا أدفع عن مجتمع لم يطعني من جوع، ولم يؤمني من خوف؟!!.

وإن اقتصاد السوق (الاقتصاد الحر) يحتاج إلى تدابير اجتماعية وقانونية كثيرة حتى لا يمزق أوصال المجتمع؛ حيث إنه - بطبيعته - يزيد القوي قوة والضعيف ضعفاً، ويزيد في التباعد بين الناس...

ونحن نعتقد أن الجهود الإصلاحية ما لم تفلح في تقوية الترابط الإنساني، وإحداث التناغم الاجتماعي، فإن الأحوال سوف تزداد سوءاً، على الرغم مما يتوهم من وجود تقدم وتحسن في حياة المسلمين!.

٣١ - التعانف مدمر، والعنف لا يصلح وسيلة للإصلاح:

الحياة الاجتماعية قائمة على قاعدة معقدة من التوازنات، وكل واحد منا يرغب في أن يندمج في مجتمعه، لكنه يخشى في الوقت نفسه من ذوبان شخصيته فيه، وهذا هو أول المؤشرات على أن التصافي الاجتماعي لا يمكن

أبداً أن يكون كاملاً، ونخطو خطوة إلى الأمام حين نقول: إن التباين في الأفكار والمعتقدات، والتنافس على الأشياء النادرة، وسوء التصرف من بعض الأعضاء إلى جانب العدوان على المجال الخاص والمجال الحيوي الذي يرسمه كل منا، إن كل ذلك سيؤدي إلى التوتر الاجتماعي الذي قد يتتطور إلى حرب أهلية!.

كل المجتمعات تبذل جهوداً مضنية؛ حتى لا تصل إلى الطريق المسدود، فلا أحد يرضى بأن يرى مجتمعه يذوب بين يديه، لكن الموازنة الخاطئة هي التي تدفع إلى الكوارث.

إن التعانف والاحتراب أسوأ ما يمكن أن يلجم إلية مجتمع ما في تسوية مشكلاته، وإصلاح أوضاعه، وقد دلت التجارب التاريخية والمعاصرة على فداحة المصائب التي يحصدها الناس من وراء اللجوء إلى القوة لتقويم ما بهم من اعوجاج، وكيف سيربحون معركة هم جنودها وضحاياها في آن واحد؟!.

ويمكن أن نعدد مساوىٍ كثيرة جداً لاستخدام السلاح وسيلة للإصلاح، لكننا هنا سوف نقتصر على أهمها، ومنه:

أ - إذا كان المقصود من (العنف) حمل الدول والشعوب على تطبيق الشريعة الغراء فإن ذلك وهم من الأوهام؛ لأن طبيعة (الدين) تأبى ذلك، وتجافيـه، فالدين الحنيف مجموعة من القيم والمبادئ السامية، ومن طبيعة القيم أنها ترفض الإملاء والإجبار؛ فاعتنت بها دائماً يتم عن طريق الجاذبية من خلال القدوة الحسنة والمثل الطيب. وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَ الرَّشُدُ مِنَ النَّقِيرِ﴾^(١). وحين كان المسلمون يفتحون بلداً من البلدان لم يكونوا يلزمون أحداً باعتماق الإسلام، صحيح أن السيادة تكون فيه للنظام الإسلامي، لكن كل شخص حر في اختيار المعتقد الذي يناسبه ما دام في سلوكه العام لا يعكر صفو الحياة العامة.... .

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

ونحن نعلم أن استخدام القوة والسلاح داخل المجتمع الإسلامي يظل مثقلًا بالقيود والشروط التي قد لا تكون موجودة مع استخدامها في جهاد الأعداء؛ وذلك لتجنب تمزيق المجتمع الإسلامي وتدميره من الداخل.

ب - الجماعات التي جعلت بنيتها العقلية والثقافية والتنظيمية تمحور حول العنف تواجه مشكلة كبرى عند انعدام من توجه العنف إليه؛ فهي إن لم تجد من تقاتلها - لسبب من الأسباب - وتفرغ طاقتها فيه ووجهت تلك الطاقة إلى داخلها؛ لتهضم نفسها بنفسها، والذي يستسهل تكفير الآخرين يستسهل تكفير بعض جماعته إذا خالقه، وخرج عن وجهة نظره، وهكذا فقد صار ملوفاً أن الثورات تأكل أبناءها! .

ولا يخفى على أحد الوضع المحزن الذي صار إليه إخواننا (الأفغان) بعد خروج روسيا وسقوط كابل؛ حيث تحولت كل الطاقات القتالية إلى الداخل؛ لتحدث كوارث فواجع داخلية كبيرة... إن الحطينة الشاعر الذي تعود هجاء الناس - امتد هجاؤه إلى نفسه حين لم يجد من يهجوه! .

ج - إن من مساوى العنف أنه يختنق كل الأنشطة الدعوية الأخرى إذ إن استخدام القوة بشكل واسع سيفرز روح التوجس والتخوف، كما أن الأعصاب ستكون مشدودة إلى أبعد حد، وتكون الاستعدادات لقبول التغيير الثقافي شبه معقدة، كما أن الفريق المعادي يجد من العار أن يتقبل أفكار الذين يقاتلونه، وربما كان هذا المعنى وراء قبول النبي ﷺ لشروط صلح الحديبية، كما أنه ربما كان وراء المعاملة السمححة الكريمة التي عامل بها منافقي المدينة. ولذا فإن الإصلاح القائم في جوهره على التسوية والتراضي والتنازل المتبادل لا يمكن أبداً أن يحدث من وراء استخدام القوة الغاشمة.

د - قد ينجح الذين يستخدمون العنف في إسقاط حكومة متحللة مدبرة، لكن عليهم أن يعلموا أن آليات إسقاط دولة غير آليات إقامة دولة، فإسقاط الدول لا يحتاج لأكثر من القوة - كالهدم تماماً - لكن إقامة نظام إسلامي صالح يحتاج إلى أشياء كثيرة جداً، لا يملكتها غالباً الذين تسيطر عليهم روح الثورة والانقلاب؛ وهذا أحد أهم عوامل (سرقة الثورات) التي

يشكوا منها بعض المسلمين. وقد يقول بعضهم إننا نستخدم القوة بمقدار، وإن لنا قوانا السياسية ورجالاتنا المحنكين؛ لكن التجربة تدلنا على أنه حين يحين قطف الشمار فإن الانشقاق يحدث بين الساسة والعسكريين، ويؤول الأمر إلى أهل القوة؛ ليديروا البلاد بدون أدنى خبرة أو أهلية.

هـ - يظن الذين يستخدمون العنف وسيلة للتغيير أن في الحكم شفاء لكل عللهم وأدواتهم، وأن كل ما ينبغي إنجازه سوف يتحقق بمجرد (الوصول إلى السلطة)، وهذا لهم كبير؛ فالحكم السيئ يعكس سيئات المجتمع الذي يقوم فيه، وحين يصلون إلى الحكم فسيجدون من يثور عليهم - ما داموا أشعروا في مجتمعهم روح الثورة - مهما كان عدتهم وإنصافهم ونشاطهم^(١).. ثم إن التدمير الذي يحدثه استخدام العنف ستحول إلى أعباء ثقيلة عليهم حين يريدون النهوض بمجتمعهم، وسوف يجدون أن الناس لن يمنحوهم الفرصة، ولا الوقت الكافي لحل المشكلات المتأسنة، بل سيطالبونهم بتحقيق الشعارات التي أزهقوا الأرواح من أجلها.

و - دلت التجربة على أن الذين يستخدمون القوة وسيلة للإصلاح لا يستطيعون الحفاظ على أهدافهم، ولا ضبط وتيرة تحركهم، فمن خلال المحاصرة والمطاردة لهم، يسرّعون حركة المقاومة؛ لتخرج عن الخطة السياسية، كما أنهم يقومون بأعمال يائسة لا تدل إلا على الإفلات، وبالإضافة إلى ذلك فإن أعمالهم القتالية تتحول من استهداف إقامة الدين ومحاربة الفساد إلى المحافظة على وجودها واستمرارها ليس أكثر، أي تصبح بلا هدف، ومن ثم فإن دائرة القتل تتسع؛ لتشمل بعض الأبرياء، كما أن أعمالاً من قبل السلب والنهب قد تقع في سبيل تمويل الجهد العسكري، ويحدث نوع من التوسع في الفتوى لإنصاف الشرعية على كل ذلك! وهذا كله يفرغ الحركة القتالية من مضامينها بالتدرج، ويزرع في داخلها أزمة الشرعية والافتقار إلى الرؤية الراسدة.

(١) في النقد الذاتي: ١٧٦.

ثم إنك حين تستخدم السلاح ضد غيرك، فإنك تكون قد أسيست سابقة خطيرة، وأبحثت لغيرك استخدامه ضدك متى ما أراد ذلك، وهكذا تدخل الأمة في (دوره ردية)، وينحدر المجتمع برمته إلى الهمجية، وقد كان القصد إصلاحه ورقيه! .

إن الخطط الإصلاحية المتصلبة تفضي دائمًا إلى كوارث، والذين يسعون إلى الصدام دائمًا يخسرون؛ والعاقل من اعتير بغيره.

أسباب انتشار العنف:

مع أن العنف شيء مبرمج في التراث الجيني والثقافي للبشرية، إلا أن كل من يمارسه، يدخل نفسه في موازنة حرج، هي الوصول إلى الهدف مع المحافظة على نفسه ومكاسبه، ولذا فإن الناس - في الغالب - لا يستخدمونه إلا إذا حصل نوع من اليأس من الوسائل الأخرى، حتى اللصوص وقطاع الطرق فإنهم لا يقومون بالقتل إذا حصلوا على ما يريدون دون اللجوء إليه. وإذا نظرنا في أحوال من يستخدم السلاح وسيلة للإصلاح في عالمنا الإسلامي اليوم وجدنا أن أكثرهم من الشباب، وهم لا يكونون أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن المطامع السياسية؛ وما هو المنصب الذي يتسلمه ابن السابعة عشرة إذا استطاعت جماعته الوصول إلى الحكم؟!

إن السود الأعظم منهم من المثقفين والطلاب الناجحين في دراستهم، وهذا يدل على أنهم لم يحترفوا الإرهاب. ثم إن السود الأعظم منهم من ذوي السيرة الحميدة، وعلاقاته مع أهله طيبة وحميمة، وهذا يدل على أنهم لا يحملون نفسية المجرم والمنحرف.

إذن ما هي الأسباب التي دفعت هذا الصنف من الناس إلى القيام بما يقومون به؟

في تصوري أن بالإمكان أن نضع أيدينا على الأسباب التالية:

أ - حين دخلت القوانين الوضعية، وجَّرَت محاولات تطبيقها في

مجتمعات، تعتقد أن الحكم والعبودية لله وحده - حصل نوع من الانقسام في الوعي لدى الشعوب الإسلامية، ووقع أكثرهم في حيرة من أمره، كيف يحترم قوانين بعيدة عن هدي القرآن الذي يتلوه صباح مساء، ويجد فيه من نحو قوله - سبحانه : «وَمَنْ لَئِنْ يَخْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ»^(١) و«فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» و«فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». لكن حقبة الاستعمار البغيض لم تسمح للوعي الإسلامي بالتبليور، كما أن الناس كانوا مشغولين بإخراج المستعمر من بلادهم.

لكن حين خرج المستعمر أوكل قيادة الشعوب التي كان يستعمرها إلى صفة رياها على عينه، وتركها لتنفيذ قوانينه ورعاية مصالحه، وتلك الصفة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنها تفتقر إلى الكفاءة والتزاهة معاً، علاوة على أن القوانين التي حاولت تطبيقها ثم تشويهها بصورة رهيبة، لم يجد فيها الناس أدنى شروط القبول؛ لأنها لم تحقق العدل ولا الأمان ولا العزة والكرامة ولا شيئاً من الاستقلال الوطني أو التنمية الجيدة.

ولم تقف تلك الصفة يوماً ما موقف مراجعة ومحاسبة لنفسها؛ مما جعل الناس تحاول إيقافهم عند حدود معينة ومحاسبتهم.

ب - التوتر أصل في مجتمعاتنا - مع الأسف الشديد - فالمناظرات والحوارات لدينا شبه معدومة، ونستعيض عنها بالدسائس والتآمر الخفي، وإذا وجد شيء من ذلك فإنه لا يكون حواراً ولكن مباريات حامية يتخللها الشتم والكذب والاتهام والمحاسبة على النيات، وتقويل المحاور ما لم يقله...

وفي بعض مجتمعاتنا ضربت الحزبية السياسية أطباقها، فصار أعضاء الحزب الواحد أعداء للأ الآخرين أحسنوا أم أساءوا... ونحن نؤثر دائماً التستر على العيوب، ونخاف من الفضائح، لكن مجالسنا تظل مشغولة بها، وهكذا فلكل واحد سلوكان ورأيان ومقدان...

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٤ و٤٥، و٤٧.

هذه الحالة منبع كبير للعنف؛ والعبارات الجارحة هي المرحلة الأولى نحو استخدام القوة؛ فكثير من أدب الخطاب مفقود، والحرص على مشاعر بعضنا بعضاً ضعيف جداً.

لم نتعود بعد الابتعاد بأفكارنا عن عواطفنا وذواتنا؛ فمن خالف فكرتي فقد أساء إلى شخصي، وربما تأمر عليّ.

ج - فقر الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية سبب كبير من أسباب العنف؛ إذ إن الحياة حين تكون مواردة بالحركة والنشاط والإنتاج والتبادل تتبع لكل الطاقات أن توظف، ولكل الملوك أن تفتح، ويوجد ذلك عدداً ضخماً من الفرص التي يتحقق الناس من خلالها وجودهم، على حين أن الفقر في الجوانب المختلفة يجعل الطلب يستند على جانب واحد، هو المال وحيازة المتعة، ولا يمكن للمال مهما كثُر أن يحل إشكال التنافس عليه - لأن ابن آدم لا يشبع منه -، وهذا يؤدي إلى إشعال ما لا يحصى من العداوات والخصومات، كما أنه يساعد على نمو الفساد الذي يؤدي من جهة إلى ازدياد موجات العنف حيث إن التسلق الاجتماعي وحب التقليد والاتجاه نحو العناية بالمؤشر، كل ذلك يحتاج إلى المال الموجود أصلاً لدى فئة قليلة^(١).

د - إن العقيدة لا تكفي - في العادة - لتأسيس حركات استخدام القوة أو الاحتجاج الاجتماعي، وإن كانت تقدم السند الروحي والشرعى لها، لكن الذي يؤسس ذلك هو الخلل في علاقات المجتمع وبنياته الأساسية؛ فالظلم وعدم تكافؤ الفرص والكبت والفقير والخذلان أمام الأعداء كل ذلك يساعد على فوران المجتمع وهياجه^(٢). ولذا فإن المجتمعات الإسلامية التي توفر فيها الحد الأدنى من الصحة الاجتماعية لم يحدث فيها قتل ولا تدمير، وتمضي فيها الأعمال الدعوية والإصلاحية بشكل سلمي ومنتج. فإذا أردنا تحجيم العنف والخلاص من مصائبها وعقابيله فإن علينا أن نصلح أحوال

(١) آفاق المستقبل: ٦٥.

(٢) نقد السياسة: ٢٨٦.

مجتمعاتنا بما يوفر لها الصحة، وبما يوفر للمواطن الحد الأدنى من العيش الكريم.

هـ - كانت مواجهة أحداث العنف - في كثير من الأحيان - بعنف مماثل، وحين يخرج أفراد على القانون؛ فإن ذلك يفسر بأنهم مرضى أو منحرفون، وأنهم يحتاجون إلى علاج وتأديب. لكن ما العيلة حين تخرج الدولة التي ترعى القانون، وتحميه من التجاوز على دستورها وقانونها وتعليماتها....

إن ذلك يجعل الدولة تفقد مصداقيتها، ويضعف شعور الناس بأنها ترعى المجتمع بأكمله، وإنما تصبح طرفاً وخصماً مباشراً.

الخلاصة :

إن استخدام العنف وسيلة للإصلاح خطأ فادح، وضرره أضعاف نفعه، لكن هذه الموعظة لن تجعله يختفي من شوارعنا وحياتنا العامة، ما لم نقم ببحث أسبابه وجذوره وتحسين مستوى جوانب حياتنا كافة. وإن فقر الخيال لدى بعض الشباب هو السبب في جهل كل البدائل الإصلاحية المتاحة التي استخدمتها شعوب الأرض بشكل مثمر وناجح. ومع هذا فإن من واجبنا أن نحافظ على ترابطنا الاجتماعي، مهما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، وإن ذلك الترابط مرهف الحساسية، ومن ثم فإنه إذا أمكن أن نحل مشكلة بالنظر لم نلجم إلى الكلام، وإذا استطعنا حلها بالكلام لم نرفع الصوت، وإذا أمكن حلها بالصياغ والصرارخ لم نلجم إلى الاشتباك بالأيدي؛ ويجب أن نضع دون حمل السلاح داخل المجتمع الإسلامي خطوطاً حمراً لا يصح تجاوزها إلا في ظروف استثنائية، ووفق شروط شرعية وفنية وموضوعية، لا أرى أكثرها متوفراً في أي مجتمع إسلامي اليوم.



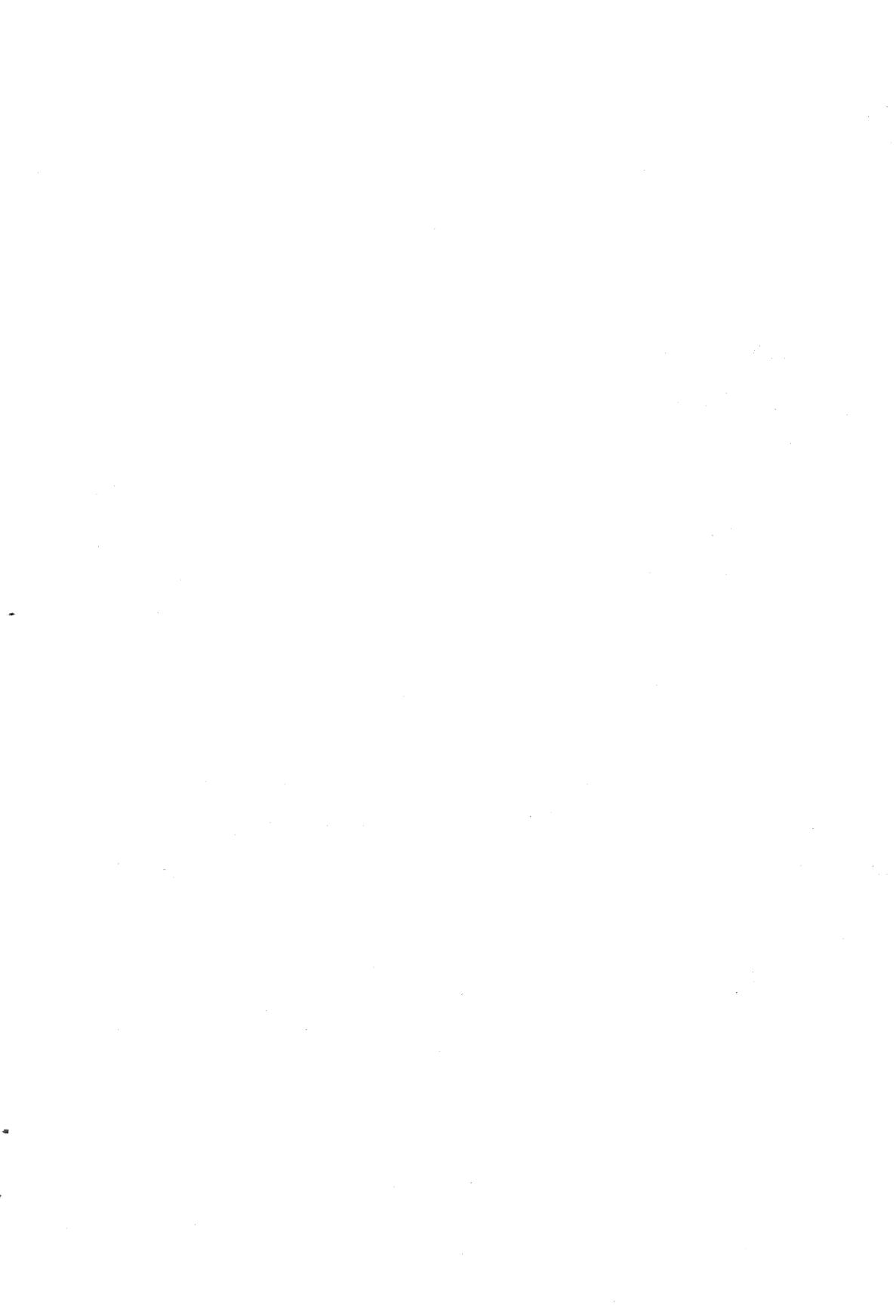
الخاتمة

إن النقد الذي وجهناه في هذا الكتاب إلى بعض الجماعات أو الأنشطة الدعوية، ليس له من دافع سوى الحرص على السمو بالأعمال الدعوية، ودفعها نحو الفاعلية والنمو ومزيد من العطاء. وإنني لأنظر نظرة إكبار لكل أولئك الذين يكفون أذاهم عن المجتمع الإسلامي، فكيف تكون نظرتي إذن إلى أولئك الشيوخ والكهول والشباب الذين يبذلون أعمارهم وأموالهم وجهودهم في سبيل الله والتمكين لدینه ورفعه أمة الإسلام والرقي بمجتمعاتهم ومساعدة الفقير والضعيف والمحروم؟

إنني أعتقد أنه مهما ذكرتُ من الثناء عليهم فلن أوفيهم شيئاً من حقوقهم علينا؛ فهم عطر المجتمع وماه ورواؤه، وبهم فخره واعتزازه، وعلى مقدار وفترتهم وسموهم يكون عزه وفخاره وصلاحه، ومن ثم فإنني أدعوا الله - جل وعلا - أن يبارك على كل شفة تهمس باسم الله، وعلى كل خطوة ترسم في سبيل الله، وعلى كل يد تمر على الورق لطبع اسم الله على هذا الوجود.

والحمد لله أولاً وأخراً؛ وصلى الله على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.





الفَهْلَك

- ١ - فهرس المراجع.
- ٢ - فهرس الأفكار والمقولات العامة.
- ٣ - فهرس الموضوعات.

(١) فهرس المراجع

- ١ - آفاق المستقبل: تأليف جاك أتالي، ترجمة د. محمد زكريا إسماعيل، بيروت، دار العلم للملائين، ط١، ١٩٩٢ م.
- ٢ - الاتصال والسلوك الإنساني: تأليف برنت روين، ترجمة عدد من الأساتذة، نشر معهد الإدارة العامة بالرياض، عام ١٤١٢ هـ.
- ٣ - إحياء علوم الدين: للإمام الغزالى، بيروت، دار الندوة الجديدة.
- ٤ - الأخلاق النظرية: د. عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط٢، ١٩٧٦ م.
- ٥ - الأزمة الفكرية المعاصرة: د. طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام ١٤١٤ هـ.
- ٦ - الإسلام كبديل: تأليف د. مراد هوفمان، نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا، ١٩٩٣ م.
- ٧ - أصول الدعوة: تأليف د. عبد الكريم زيدان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٣ م.
- ٨ - الإعلام في العصر الحديث ودوره في تبلیغ الدعوة الإسلامية: تأليف د. محمد متولي، الكويت، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٦ هـ.
- ٩ - الإعلام والاتصال بالجماهير: تأليف د. سمير حسين، القاهرة، عالم الكتب، عام ١٩٨٤ م.
- ١٠ - اغتيال العقل: تأليف د. برهان غليون، بيروت، دار التنوير، ط٢، ١٩٨٧ م.
- ١١ - الإنسان والتفكير الإيجابي: تأليف د. عيسى الملا، ط١، ١٤١٤ هـ.
- ١٢ - البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وزملائه، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥ هـ.
- ١٣ - تاريخ الطبرى: تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، دار سويدان، ط٢، ١٣٨٧ هـ.

- ١٤ - تاريخ الفكر السياسي الغربي: بقلم عدد من كتاب الغرب، ترجمة علي مقلد، بيروت، الدار العالمية للنشر، ١٩٨٧ م.
- ١٥ - التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام: تأليف د.الحبيب الجنhani، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، ط١، ١٩٨٥ م.
- ١٦ - تعليم التفكير: تأليف إدوارد دي بونو، ترجمة د.عادل ياسين وزميليه، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط أولى، عام ١٩٨٩ م.
- ١٧ - الثوابt والمترغيرات في مسيرة العمل الإسلامي: تأليف د.صلاح الصاوي، المنتدى الإسلامي ، ط١، ١٤١٤ هـ.
- ١٨ - حلية الأولياء: لأبي نعيم، بيروت، دار الكتاب العربي ، ط٥، ١٤٠٧ هـ.
- ١٩ - الخلافة أو الملك: تأليف الشيخ أبي الأعلى المودودي، تعریف احمد ادريس، الكويت، دار القلم ، ط١، ١٣٩٨ هـ.
- ٢٠ - ديناميات الجماعات: تأليف جان ميز ونوف، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت، دار عويدات ، ط٣، ١٩٨٣ م.
- ٢١ - سيكولوجية الرأي العام: تأليف د.رؤوف شلبي، الكويت، دار القلم ، ط٣، ١٤٠٢ هـ.
- ٢٢ - الصورة الذهنية: تأليف فهد العسكر، الرياض، دار طريق ، ط١، ١٤١٤ هـ.
- ٢٣ - علم اجتماع السياسة: تأليف موريس دوفرجيه، ترجمة د.سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ط١، ١٤١١ هـ.
- ٢٤ - علم النفس الاجتماعي: تأليف د.حامد زهران، القاهرة، عالم الكتب ، ط٥، ١٩٨٤ م.
- ٢٥ - عندما تغير العالم: تأليف جيمس بيرك، ترجمة ليلي الجبالي ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة ، ١٤١٤ هـ.
- ٢٦ - عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة: تأليف جان ماري بلت، ترجمة السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعرفة ، عام ١٩٩٤ م.
- ٢٧ - فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: الرباط، مكتبة المعارف.
- ٢٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني ، بيروت، دار الفكر.
- ٢٩ - في النقد الذاتي: تأليف د. خالص جلبي ، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ط٢، ١٤٠٥ هـ.
- ٣٠ - قواعد الدعوة إلى الله: تأليف د. همام سعيد، المنصورة، دار الوفاء ، ط١، ١٤١٠ هـ.
- ٣١ - قيمة الكلمة ومسؤوليتها: د. عبد الله الطريقي ، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة، قدم إلى الملتقى الأول للخطباء في الرياض .

- ٣٢ - مختصر دراسة التاريخ: تأليف أرنولد تويني، ترجمة فؤاد محمد شبل، جامعة الدول العربية، ط١، عام ١٩٦٠ م.
- ٣٣ - المدخل إلى علم الدعوة: تأليف د. محمد أبو الفتح البيانوني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢ هـ.
- ٣٤ - المسار: تأليف محمد أحمد الراشد، دبي، دار المنطلق، ط٣، ١٤١٢ هـ.
- ٣٥ - مشكلة الثقافة: تأليف مالك بن نبي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر.
- ٣٦ - المعجم الوسيط: القاهرة، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثانية.
- ٣٧ - مفاهيم علم الاجتماع الثقافي: تأليف د. محمد السويدي، تونس، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٤١١ هـ.
- ٣٨ - مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي: بقلم نخبة من الكتاب، قطر، سلسلة كتاب الأمة عام ١٤١١ هـ.
- ٣٩ - مقدمة في التاريخ للتربية: تأليف د. سعيد إسماعيل، القاهرة، عالم الكتب عام ١٩٩٥ م.
- ٤٠ - مقدمة في علم الاستغراب: تأليف د. حسن حنفي، القاهرة، الدار الفنية، عام ١٤١١ هـ.
- ٤١ - مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي السياسي: د. حسن وجيه، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عام ١٩٩٤ م.
- ٤٢ - مناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي، تحقيق د. عبد الله التركي ود. علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٣٩٩ هـ.
- ٤٣ - مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: تأليف فاروق السامرائي، جدة، مكتبة الوفاء.
- ٤٤ - المنهج الرباني في الدعوة: تأليف وحيد الدين خان، تونس، مكتبة الجديد.
- ٤٥ - الموسوعة الفلسفية: تأليف د. عبد المنعم الحفني، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١.
- ٤٦ - النظرية الروحية: تأليف د. راتب السمان، الرياض، ط١.
- ٤٧ - نقد السياسة، الدين والدولة: تأليف د. برهان غليون، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩٣ م.
- ٤٨ - نهاية التاريخ وخاتم البشر: تأليف فرانسيس فوكو ياما، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، نشر مركز الأهرام، ط١، ١٤١٣ هـ.
- ٤٩ - الوعي الذاتي: تأليف د. برهان غليون، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٩٢ م.
- ٥٠ - مجلة البيان الصادرة في لندن: العدد ٧٥، عام ١٤١٤ هـ.

(٢) فهرس الأفكار والمقولات العامة

الصفحة	الموضوع
١٤	- أثبتت التجربة أن (الفكرة) الأصلية لا تضيع أبداً؛ فهي إن لم تورق اليوم أورقت غداً.
١٤	- نحن نتخلى عن الأفكار التي نجحت، كما نتخلى عن الأفكار التي أخفقت؛ وذلك إذا أدرت مهمتها.....
١٥	- إن استقامة الفكر ليست بديلة عن التربية ولا السلوك ولا الحركة النشطة؛ لكنها شرط لصواب كل ذلك.....
١٦	- إذا كان نملك قوة الحق؛ فإن الآخر يملك حق القرء، ويطالب بدفع استحقاقاتها.
١٧	- تتخلل الأساليب والوسائل المتاحة محدودة الفاعلية ما لم ترتكز إلى قاعدة فكرية صحيحة.
١٧	- توسيع آفاق الفكر يوسع المجال الحيوي، ويقلل من حتميات الحركة.....
٢٠	- إن من ضرائب التخلف فقد الحسن والحدس التاريخي.....
٢١	- الحفاظ على الهرمية لا يتم من خلال الانغلاق، وإنما من خلال الافتتاح والتبادل الوعي والمتكافئ.....
٢٢	- استيعاب التراث بطريقة واعية شرط لفهم العصر.....
٢٣	- مثالية المؤرخين شوشت رؤيتنا لتراثنا، وأعطت انطباعاً باستحالة تكرار التجربة الحضارية.
٢٣	- حين يتعرض كيان أمة للاستئصال تستخدم كل أسلحتها، وتتغلص مساحة المحرمات في تصرفاتها.....
٢٤	- من خلال الوعي يتتجاوز الإنسان الدوافع الغريزية والاحتمالات الجينية، ويكتسب القدرة على المخاطرة.....
٢٥	- إن الثراء في الفكر والثقافة والطبيعة لا يأتي من خلال التطابق، وإنما من خلال التزع.....
٢٦	- القصور الاجتماعي والثقافي يطمس المسؤولية، ومن الشعور بالمسؤولية تولد الشخصية.
٢٧	- إن فهم الماضي لا يتم عبر معادلات رياضية، وإنما من خلال الشفافية، وقبل ذلك الخيال. ولو لا الخيال لكان الإنسان بهيمة!
٢٨	- لا يعادل سوء التهensis والعزلة سوى سوء الاندماج في ثقافة أجنبية مغایرة.....
٢٨	- دراسة تاريخ الأمة على أنه كتل ممزقة يسهل الطريق أمام توظيفه توظيفاً سيناً.....
٣١	- نقد الذات صعب جداً؛ لأن المرء يقوم آنذاك بدور الحجر والنحات في آن واحد.

- ٣١ - العمل الدعوي يخضع لعدد من الأنظمة المفتوحة؛ ومن ثم فإن نتائجه تظل غير معروفة.
- ٣١ - يظل المهم هو التفوق على الذات والشعور بالتحسن المطرد.....
- ٣٢ - في حالات التدهور يسهل تعداد السلبيات، لكن الشاق والمفید حقاً هو استخراج الإيجابيات ومحاذير الصلاح والإصلاح.....
- ٣٣ - على مدار التاريخ كان انداد المسلم نحو فكرة الجماعة؛ لكن فقه الحركة الاجتماعية ظل ضحلاً وضئلاً.....
- ٣٥ - إن الفرد مهما كان مستواه لا يستطيع أن يتجاوز كثيراً السقف الذي يحدده مجتمعه.....
- ٣٧ - كنا في كثير من الأحيان بين فجعيتين: الاستسلام للأزمة، وطريقة الخلاص منها.....
- ٣٨ - حين يتعد الفكر عن الواقع فإنه يأتي بتصنيفات وفرضيات تطرح معرفة شكلية.....
- ٤٠ - المنطق اليوناني الذي يدرس في مدارسنا الشرعية يكرّس كمال الشكل، على مقدار ما يضيّع من فاعلية التفكير ونوعية مطارحاته.....
- ٤١ - معاناتنا الأساسية في (الكيف) لا في (الكم) والغثاء يغطي وجه الماء، لكنه لا وزن له ولا تجانس ولا ترابط؛ ولذا فهو عاجز عن تقرير مصيره.....
- ٤٢ - انطبع في الحسن الإسلامي اليوم أن كل ما هو كبير جميل، مع أن عصرنا عصر الأشياء الدقيقة الفعالة!.....
- ٤٤ - تجاهل تشوّق السود الأعظم من المسلمين إلى أن يعيشوا عصرهم سيكون بمثابة دافع لهم نحو مجافاة دينهم.....
- ٤٥ - إن التاريخ الذي يُسمّى في تكوين الوعي يظل قابلاً لتغيير فروضه ومقولاته على يد الوعي الذي قام هو بتكونيه.....
- ٤٨ - إن التوظيف الواسع للتاريخ يؤدي بنا إلى الشرذمة والانقسام.....
- ٤٩ - المتفق الحق من يملك رؤية نقدية وإصلاحية ووعياً خاصاً بمجتمعه والعالم من حوله.....
- ٥٣ - كل الأفكار التي لا يمكن تحويلها إلى سلوك تظل ضئيلة سواء أكانت خيرة أم شريرة.....
- ٥٨ - تتکيس الثقافة كما يتکيس الكائن الحي عندما تتعرض إلى تهديدات خطيرة.....
- ٦٠ - حيوية الثقافة لا تقاس دائماً بقدرتها على العطاء فحسب، وإنما بقدرتها على الأخذ والتمثل أيضاً.....
- ٦٢ - من خلال التبادل مع الثقافات الأخرى تكتشف الثقافة الأجزاء الخامدة والمعطوبة فيها، وتقوم بتجديدها.....
- ٦٢ - سنظل نشكر من الغزو الثقافي ما لم نحقق نقلة صناعية مناسبة.....
- ٦٦ - روح الثقافة شيء لا يُنقل، وإنما يُدعى إبداعاً.....
- ٦٦ - يتم اختراق الثقافة العليا بغير المنطقية والمنهجية التي تكونت بها.....
- ٦٧ - حينما يتقدم الإنسان في السن يفقد من مرونته الذهنية على مقدار ما يفقد من مرونته الحركية.....

٧١ - إن الاستجابة للتحدي تحددها طبيعة الظروف المحيطة بمن يوجه إليهم التحدي. .

٧٤ - إن مشكلة النسبية أنها تؤدي إلى ترهل القيم والمعايير، والجوع إلى شيء من صلابة اليقين.

- يصعب على العقل البشري أن يعمل بدون وجود إطار مرجعي يمكنه شيئاً من الثوابت والأسس الصارمة.

٧٥ - نظرية دارون كانت عبارة عن محضر لعملية (إعادة حيونة) الإنسان.

٧٦ - إذا لم يكن للمرء روح عصر كان له أسباب شفائه.

٧٦ - حين انهار الإطار المرجعي (الدين) لدى الغرب صار الوعي الأوروبي يشعر بالتيه.

- قانون التعديدة لم يخرج إلى قيد الحياة إلا على أنفاس قانون الهوية؛ لكن ذلك لا يظهر إلا بعد زمن.

٧٧ - التعديدة خير من علمانية تفرض فرضاً على الشعوب المسلمة.

٧٨ - على مدار التاريخ كان الإنتاج من أجل الاستهلاك، لكن الرأسمالية الغربية جعلت المعادلة اليوم: الاستهلاك من أجل الإنتاج.

٨٠ - المبادئ لا تعمل في فراغ، وعليها أن توفر الشروط لجعلها فاعلة.

٨٥ - يعتمد الغرب اليوم مع الشعوب الضعيفة سياسة الفتح السلمي.

٨٥ - من خلال سياسة (التذرع) يحاول الغرب استغلال الآخرين دون أن يخدش قيمه الأساسية التي ينال على أساسها أصوات الناخبيين.

٨٥ - مما أدى إلى انفصال العلوم عن الواقع المعاش التعلق بأذى منطق أرسسطو الذي يسعى إلى (الصدق الشكلي) دون اعتبار للمضمن.

٨٧ - حين تلتقي ثقافتان متبaitان تكون كل واحدة منها محنة للأخرى.

٨٧ - خير رد على الغزو الثقافي هو العمل المتواصل لإيجاد نوع من التكافو مع الآخر.

٨٨ - القصور البشري لا يمكن أبداً من رؤية الحقائق دفعة واحدة.

٩٠ - في ظل التواصل الكوني ما عاد ممكناً لكل أمة أن تضع معايير تقدمها.

٩١ - صار النظر إلى التحديات على أنها نعم ربما أدى فقدانها إلى الترهل.

٩٢ - العلاقات الجدلية تقتضي دائماً التنافس ثم التعاون.

٩٤ - كل تحد من التحديات يسبب مشكلة، لكنه في الوقت نفسه يمنح فرصة للتغيير بشرط أن تكون في الموقع الصحيح.

٩٤ - مهما كان القدر الذي كشفه العلم من الحقيقة ضخماً، فإنه لا يقدم منهجاً أو تفسيراً شاملأ لحقيقة تناسب كل الأزمان.

٩٥ - إن عملية الاكتشاف هي في الوقت ذاته عملية اختراع، والمعرفة هي صناعة الإنسان.

٩٩ - حين يفقد مجتمع ما الحسّ الجماعي يكون تكوين رأي عام عسيراً فيه.

١٠١ - هيمنة العقيدة على الوعي والرأي لا تم بصورة آلية، وإنما من خلال الفاعلية الشعرية.

- الحالة الاجتماعية العامة هي التي تؤطر القابلية لأفكار ودعوات معينة. ١٠١
- إن الصفة دائماً قلة، وكلما علت شروط الجودة لم نجد حولنا إلا أناساً من الدرجة الثانية. ١٠٦
- الصفة التي لا تملك حداً أدنى من الرجولة للدفاع عن مبادئها صفة منحطة. .. ١٠٧
- بعض مثقفينا غرقوا في قضية صغرى، وحاولوا توسيعها بشكل متغرس؛ حتى صر القول فيهم: إنهم يعرفون كل شيء عن (لا شيء)! ١٠٨
- حقن ثقافتنا بما لا تقوى على هضميه لا يختلف عن إجراء عمليات جراحية كبرى لجسد منهاك. ١٠٩
- تكون الثقافة الشعبية عن طريق لا إرادية، وتشكل خارج وعي الفرد وهذا هو سر استعصائها على الغزو الأجنبي أكثر من العالية. ١١٠
- إن العلماء الربانيين لا يقطعون حبال الرجاء من كرم الله - تعالى - مهما ادلهمت الظلمات، وساقت الأحوال، ومن ثم فهم المؤمنون للإصلاح. ١١٣
- إذا عملنا ما هو ممكناً هو مستحيل اليوم ممكناً غداً. ١١٣
- إن علينا أن نؤسس عقلية (شيء خير من لا شيء) بدل عقلية: إما كل شيء أو لا شيء. ١١٣
- حين يتجلّى المبدأ في السلوك فإنه يتغلّل في نفوس الآخرين عن طريق (اللاوعي)، وهذا ما يرفع رقاية الوعي عنه. ١١٨
- إن ما يحتاجه تجاوز السقف الاجتماعي من السمات والقدرات دائماً خاص ومتميز. ١٢٠
- إذا كان الإخلاص شرطاً أساسياً للثواب فإن الصواب شرط أساسى للنجاح. ١٢٠
- إن التواضع فوق أنه تعبر حقيقي عن العظمة، قليل التكلفة على المستوى الشعوري والعملي. ١٢٥
- يكفي الكبر سوءاً أنه يُشيع معاذلة الاحتقار المتبادل بين الناس. ١٢٦
- لا تتأتي الحكمة إلا من خلال امتزاج فضليتين: كمال المعرفة مع قوة الإرادة. .. ١٢٦
- إن الحكمة تتأبى على التنزّل في قوالب جاهزة، وهي أم الوسائل والأساليب، لكنّها أكبر من أن يحوّلها منهج معين. ١٢٧
- عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وليسوا بحاجة إلى معكرات إضافية. ١٢٨
- إن أحسن طريقة لضمان استمرار المدعو في طريق الدعوة أن نحوله نفسه إلى داعية. ١٢٨
- من المؤسف حقاً أن الإنسان لا يستطيع وضع الحدود الفاصلة بين الفضيلة وبين الطور الذي إذا انقلبت إليه صارت رذيلة. ١٣٠

- إن إشغال الناس بالجزئيات، والأمة تُجتث من جذورها من أعظم الخيانة لها
للمنهج الرباني الذي كلفنا بحمله. ١٣٥
- يتأثر الطالب بأستاذه أكثر من تأثيره بوالده؛ لأنه يرى أباً في كل أحواله، ولا يرى
أستاذ إلا في أحسن أحواله. ١٣٥
- كلما ترك الداعية مسافة بين ذاته ودعوته كان تأثيره في الناس أعظم. ١٣٦
- إن لزوم الصبر دون مراجعة للأخطاء قد يجعل المصابرة نوعاً من التغطية على
التائج السيئة واحتمال العنااء دون مبرر. ١٣٩
- على الرغم من كثرة كليات الدعوة التي أنشأناها لم نقم بتوصيف دقيق لشخصية
الطالب الذي سنعلمه، وندرجه على حمل الرسالة! ١٣٩
- إن القيام بالبلاغ المبين أكبر ضمان لصون المجتمعات من الثورات والقلائل التي
تعصف بالصالح والطالع. ١٤٤
- يثير الشخص الإعجاب حين يجتمع فيه ما تفرق في غيره. ١٤٧
- إن من أهم ألوان التحرر الفكري من أسر النمطية والطبيعة والتاريخ. ١٤٨
- مما يلحق الضرر بسمعة الداعية تشكل صورة ذهنية عنه بأنه عاطفي في خطابه أو
عقلاني أو حRFي أو جاف الأسلوب. ١٤٨
- إن من الإساءة للنظريات المعقّدة التعبير عنها بلغة هابطة وأمثلة تقترب من البداهة
والابتذال؛ فذاك يحدُّ من عطاء الفكر، ويشوه النظرية. ١٥٠
- إن اللغة المناسبة في المجال الحضاري هي تلك اللغة المعرفة الموحية التي لا
تسجن الفكرة لكنها تزجيها إز جاء. ١٥١
- البشر مخلوقات عاطفية تتجنبهم الكلمة الطيبة، وينفرهم التوبيخ والتقرير. ١٥٣
- حين تفقد الصفة جاذبيتها، وتلتجأ إلى استخدام نفوذها في التأثير في العامة، فإنها
تكون قد فقدت استحقاقها للريادة. ١٥٦
- إن المتحدث الجيد هو في الأصل مستمع جيد، وإن علينا أن نتعلم فضيلة
الصمت، كما نتعلم تنمية الكلام. ١٦٠
- حين تتناقض الرسالة اللفظية للداعية مع الرسالة غير اللفظية، فإن الناس يميلون إلى
تصديق الرسالة غير اللفظية. ١٦١
- لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل أو الأفكار الكبيرة. ١٦٢
- إن ما نطلق عليه اليوم اسم (الرأي) كان الناس منذ خمسة قرون يسمونه حقيقة. ١٦٦
- إن من تكريمنا للمخاطب إشعاره باستعدادنا لرؤية الأشياء من وجهة نظره. ١٦٧
- كلما كانت إمكانية تجريب تطبيقات فكرة أعظم، أو أمكن رؤية الآخرين
يستخدمونها كان ذلك أدعى إلى قبولها. ١٦٩

- إن مما أورث الناس السآمة أن أكثر ما يسمعونه هو باستمرار أقل أهمية مما ينبغي أن يسمعوه. ١٦٩
- مهمة الدعوة الجماعية تغيير الأفكار، ومهمة الدعوة الفردية تغيير السلوك. ١٧٥
- كفاءة آية وسيلة من الوسائل توقف على حكمة مستخدمها. ١٨٠
- إن الأمة حين تكون في حالة تخلف أو جمود فإن انتفاعها بمبادرتها وبالإمكانات المتاحة لديها، يكون ضعيفاً أو معدوماً. ١٨٥
- ثبت من بعض الدراسات أن العقل البشري لا يستطيع أن يتابع ما يلقى عليه بكفاءة أكثر من خمس عشرة دقيقة. ١٨٧
- إن العيون تقوم بمهمة تنظيم التفاعل الداخلي بين المتكلم وسامعيه. ١٨٨
- إن العلاقات هي فن التوازنات، كما أنها انعكاس لوعي المرء ومبادئه ومصالحه. ١٩٣
- حاجة الإنسان إلى تشجيع الآخرين واهتمامهم به حاجة متتجذرة في التراث الثقافي - وربما الجيني - للبشرية. ١٩٥
- على الداعية أن يرسل إلى إخوانه الدعاة رسالة طيبة كلما ستحت الفرصة. ١٩٥
- لا يوجد إنسان على هذه الأرض هو مجموعة من السينات. ١٩٧
- إن قدرة العقل البشري على اكتشاف السلبيات أكبر من قدرته على اكتشاف الإيجابيات. ١٩٧
- لا يصح إلباس التحسسات النفسية ثوب الفكر. ١٩٧
- الخلاف الشخصي إذا طال أمده تحول إلى خلاف فكري. ١٩٨
- أعقل الناس أذرهم للناس. والمعرفة الكاملة صفح كامل. ١٩٨
- إن من جملة ما يميز الإنسان عن الحيوان سيطرة وعيه على مشاعره. ١٩٩
- إن مشاعرنا مهما تكن تجاه بعضنا طيبة فإنها تظل بحاجة إلى ما ينظمها، ويجسدها وينميها. ٢٠٠
- إن من الفطنة ألا نضيئ العمر في طلب الإجماع على مسائل لا تقبل بطبعها وحدة الرؤية والطريقة والوسيلة. ٢٠١
- ثبت من خلال الخبرة التاريخية أن القادرين على التزام الدقة في نقل الأخبار وعدم مزجها بالتحليل الشخصي قلة نادرة في الناس. ٢٠٤
- إذا علم الداعية أن جزءاً من نجاحه سيتوقف على نجاح إخوانه الدعاة، فإنه سوف يسعى إلى نجاحهم. ٢٠٤
- ليس التماطل الاجتماعي التام أمارة على الصحة، ولا هو موضع غبطة لأي مجتمع من المجتمعات. ٢٠٥
- إن آية ثقافة تتعرض للتهميش، والمحن ما لم تقم دولة بتبنيها ودعمها ولو على مستوى معين. ٢٠٦

- إن من المهم أن نتجمع في إقامة تحالف وطني خفي يوسع مساحات المناورة في تعاملنا مع الأعداء ٢١٢
- إن المجتمع الفاضل هو ذلك الذي يقوم بشؤونه أو بأكثراها دون الحاجة إلى تدخل الدولة، كما كان الشأن في زمان النبي ﷺ وصاحبيه ٢١٢
- الدولة الناجحة هي التي تستطيع حل مشكلاتها الداخلية بأقل قدر ممكن من استخدام العنف والإكراه ٢١٢
- تقىد في البني العميق للسياسة أن كل ما هو فردي إذا صار جماعياً صار سياسياً ٢١٢
- إن شعور أية أمة بالتألق ينبع من تناغمها الاجتماعي وحلها لمشكلاتها بالوسائل السلمية مع بقاء شيء من طاقتها لحل مشكلات الآخرين ٢١٣
- إن التحديات الداخلية هي دائمًا مشكلات الكبار، وإن الانكفاء على الداخل لمواجهة تحديات الخارج هو دائمًا حيلة الكبار ٢١٣
- إن فكرة تشكيل التيار الواحد - على الرغم من تعدد الجماعات - ما زالت غائبة عن الساحات الدعوية ٢١٩
- مهما اتسعت الساحة الدعوية فإن شيئاً من التنسيق والتفاهم يظل أمراً ملحاً لتلافي الصدام ٢١٩
- حين تكون القضايا ذات أوساط متغيرة تدريجياً يصبح وضع الحدود الفاصلة بين الأوضاع والحالات المختلفة أمراً عسيراً ٢٢٠
- يحافظ المجتمع على توازناته العميقية من خلال وسائل عديدة، منها دوران عدد كبير من أفراده داخل أطر جماعية طوعية ٢٢٣
- عنصر الإرادة الحرة يجعل مصلحة الفرد وأهدافه ليست متطابقة دائمًا مع أهداف جماعته ومصالحها ٢٢٤
- حين تدرك أهداف جماعة من قبل أعضائها بطريقة رتبية أو مبتذلة فإن تلك الأهداف تفقد طاقتها على إثارة الحماسة ٢٢٤
- إن كثيراً من الدعاة يربدون تغيير العالم كله دون أن يكون لهم من الأسباب والوسائل ما يكفي لتغيير قرية واحدة! ٢٢٥
- إن من مشكلات ضيغامة الجماعات ضعف القدرة على التأقلم مع المتغيرات الطارئة واتخاذ القرارات الجريئة ٢٢٧
- التحديات الخارجية تبلور وعي الجماعة بذاتها، وتتنفس عنه كل ما علق به من شوائب، ركمها كر الأيام والليالي ٢٢٧
- إن من فضائل الذين يمارسون النقد لجماعتهم أنهم يدفعون عنها الغرور، ويدفعونها نحو محاولة التفوق على الذات ٢٢٨

- إن كرم العضو واندماجه ضمن جماعته دونوعي بوضعيتها قد يحوله إلى إمّة
وسلعة للمتاجرة! ٢٣٠
- تدل التجربة على أنه ما من دعوة توفر لها قدر من الدعاية المناسبة إلا استطاعت
اجتذاب أنصار لها. ٢٣٢
- التحدى الذي ظل يواجه الجماعات على مدار التاريخ هو تجسيد أفكارها ومبادئها
في حركتها اليومية ومشروعاتها الحضارية. ٢٣٢
- إن كثيراً من أدوات الجماعات الإسلامية عبارة عن مشتقات من واقع المجتمعات
التي تعيش فيها. ٢٣٣
- ليس من المصلحة العليا للأمة أن توحّي الجماعات لأعضائها بانحطاط محیطها،
حتى إذا تفكك إطارها التنظيمي ضاع أعضاؤها. ٢٣٣
- إن إصرار الجماعة على إظهار إطار معين من التوحد - ولو شكلياً - لن يعيد
الجماعة إلى وحدتها، لكنه يزيد في تمزقها. ٢٣٥
- حين لا يملك الإنسان منهجاً، فإن هذا يعني أن سبيله إلى الفهم سيكون من خلال
محاولات الخطأ والصواب، وذلك مكلف. ٢٣٩
- اكتشاف الداعية للمنهج الرياني لا يعني بالضرورة اكتشاف صواب الحركة به. ... ٤١
- إن كثيراً من الدعاة يجاهد في غير عدو، وينشغل بمهاجمة فرق ومذاهب
ومعتقدات ليس لها أي رصيد على الساحة. ٢٤٣
- إن (التكتيك) الجيد لا يتأتى إلا إذا كان في إطار (استراتيجية) جيدة. ٢٤٤
- في المجالات المختلفة للحياة يؤدي التنوع إلى التبادل والثراء. ٢٤٤
- البطء هو قانون التغيير، وأكثر ما يتجلّى ذلك في المسائل النفسية والفكرية والثقافية. ٢٤٦
- إن في داخلنا آلية لرفض كل ما يخالف بنية الفكرية والنفسية والثقافية العميقة. . ٢٤٦
- أخطاء الدعاة تجعل الآخرين يكسبون أنصاراً لم يتبعوا في جمعهم، وربما لم
ي Paxatibohem. ٢٤٧
- علينا ألا نفرح كثيراً بانتصارات لم تخوض معاركها، وإنما هي نتائج لمعارك خاسرة
خاضها غيرنا. ٢٤٧
- علينا أن نفرق بين آلام تصيبنا من وراء عقبات الطريق الطبيعية وبين خسائر حدثت
نتيجة مغامرات غير محسوبة. ٢٤٨
- علمتنا التجربة أن الانجذاب نحو الروحانيات قد لا يقف عند أية حدود، وبذلك
يحدث الإجحاف بقضايا أخرى. ٢٥٣
- لا بد أن نزرع في حسن المسلم أن القنوع بالحالة الحاضرة نوع من الخروج من
المحيط الحي إلى محيط الجماد. ٢٥٥

- ليس المهم نظري للناس، ولا نظر الناس لي، ولكن المهم هو كيف أرى أنا نفسي. ٢٥٥
- العمل الذي يتم إنجازه تحت ظروف الضغط والإكراه لا يبلغ أبداً ذروته، وإنما يُبذل فيه ما يكفي لاستمرار العمل فقط. ٢٥٦
- إن الذين يستحقون التقدير والاحترام هم أولئك الذين تجاوزوا عقبة (نفسي نفسي) إلى حمل هموم الآخرين. ٢٥٧
- لو لم يكن للمبادرين إلى الخير من الفضل سوى الانتصاف بين الأموات لكتفى!. ٢٥٨
- كل مشكلة تشخيصاً جيداً هي مشكلة محلولة جزئياً. ٢٦١
- إن النقلة المطلوبة في بحوث المنهج تمثل في نقل أولويات البحث من المبادئ إلى البرامج، ومن (يجب) إلى (كيف). ٢٦٢
- إن البائسين من التقدم يرون الجهود الإصلاحية أشبه بالقيام بطلاء سفينة آخذة في طريقها نحو القاع!. ٢٦٦
- لا تملك (العامة) خطاباً منمقأً ولا مشاعر منتظمة لكنها تملك المشاعر الصادقة والحدس الذي لا يكذب. ٢٦٩
- استنهضت الأمة في عصرنا الحاضر لخوض معارك كثيرة، لكنها قابلت ذلك ببرود شديد؛ لأن الخبز المرؤج له ليس من قمحها!. ٢٦٩
- كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو حمل كاذب!. ٢٧٠
- قد نستر فضائحنا عن غيرنا لبعض الوقت، لكن العاقبة ستكون الانهيار من الداخل، وهو أسوأ أنواع الانهيار!. ٢٧١
- إن التحضر ليس أكثر من قشرة، وإن الطبيعة البدائية تظل تنبض بالحياة في الأعمق، وهي تظل متربة للطفو على السطح متى وجدت الفرصة. ٢٧١
- حين يستغنى مجتمع عن الكفاح في سبيل الوجود، فإنه يؤهل نفسه للتحلل الذاتي. ٢٧٢
- علينا أن نحجم كل أولئك الذين يتعيشون على مصائب الأمة، ويرتعون في المال العرام كما ترتع الجرذان في مياه المجاري!. ٢٧٢
- دلت الخبرة الحضارية على أن الثقافة تظل مهتمة وجانبية ما لم تحول إلى سلوك، وإن النهي عن المنكر هو وسيلة ذلك. ٢٧٣
- إن تأثير حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يظل مفيدةً ما لم يتحولها إلى أعمال شكلية تفقد الروح والمضمون. ٢٧٤
- ليس الحل في شکوى السمكة الصغيرة من ظلم السمكة الكبيرة، ولكنه في أن تكبر السمكة الصغيرة؛ لتصبح أكبر من فم السمكة الكبيرة. ٢٧٥
- إن وعد الله بالتمكين لا يختلف، لكنه لا يتحقق أبداً على أيدي أقوام لا يستحقونه، ولا يفهمون سنته، ولا يضطجعون من أجله. ٢٧٥

- من أهم مظاهر الانحلال شعور الأفراد أن مصالحهم لا تتحقق إلا بدمير المجتمع
277
الذي يعيشون فيه.
- إن الفرد لا يستطيع أن يجسّد إرادته، ولا أن ينتقل من الغريرة إلى الإلهام إلا من
278
خلال العيش في مجتمع.
- لا معنى للمشاعر والمصالح الجمعية إذا لم تؤمن للفرد ما يقنعه، ويرضيه.
278
حياة المدن الكبرى هجّنت الأعراف، وأوجدت نوعاً من التهاون حيال المحرمات
281
الثقافية والاجتماعية.
- إن البيوت الفخمة في الأحياء الراقية أوجدت نوعاً من العزلة الاجتماعية.
281
أصبح اليوم بالإمكان تجاوز أهمية القوة العسكرية من خلال القوة الاقتصادية
282
المتميزة.
- المجتمع المريض يشعر أفراده بالتضاد بين مبادئهم ومصالحهم.
285
إن الأمة التي تحقق أهدافها تكون أقدر على تحقيق مصيرها، وأقرب إلى البقاء في
288
الاتجاه الصحيح.
- لا يوجد مجتمع يتنى التعمق، لكن كثيراً من المجتمعات يقدم في النهاية الذرائع
288
التي تقوده إلى مصيره المحظوظ!
- الفوارق بين الإنسان لا تتركز في القدرات الفطرية، وإنما في الإرادات، والمجتمع
290
هو الذي ينمّي الإرادة، أو يقتلها.
- الشرط الوحيد لاكتشاف الإمكانيات الحضارية المتاحة هو أن نعيد اكتشاف أنفسنا
290
من جديد.
- إن أفق الغريرة لا يلامس المهارات الراقية والمعقدة ومن ثم فإنه لا بد من التعلم
291
والتدريب.
- إن الأفكار تظل غائمة ومحجوبة ما لم تلتكها السنة المناظرة.
292
إن (صناعة المعلومات) أعادت للعنصر البشري أهميته من جديد لكن ذلك كان
294
للدماغ، وليس للروح.
- إن إنقاذه مستقبل البشرية سوف يتوقف على علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وقبل كل
294
ذلك على علاقته بالله - جل وعلا -.
- لا معنى لتحرير إرادتنا من سلطان البشر إذا لم نوجهها إلى حيث توجهنا إرادة الله.
295
ضرورات العيش وذل الحاجة جعلت الإنسان المسلم يتحمل عذابات الحياة إلى ما
296
لا نهاية!! ..
- إن الإنسان الذي يحمل نفسية (العبد) لا يستطيع أن يندمج اندماجاً إيجابياً في
296
الجماعة التي يعيش فيها.

- ليست المعاصرة نقلأً لتجربة، وإنما هي إيجاد (دينامية) إبداع وتجديد ذاتيين	٢٩٨
- وتركيب منهج إيجاد التقنيات وتصميمها.....	٢٩٨
- الأمة التي تعجز عن توظيف ترائها النفسي والاجتماعي ستكون أشد عجزاً عن الانتفاع بتراث الآخرين ومنجزاتهم.....	٢٩٨
- التقطير العقلي منفرداً قد يؤدي إلى الإحباط.....	٢٩٩
- مثالية كل مجتمع تقاس بما يمكن أن يوفره من شروط نفسية وزمنية لرقى كل فرد من أفراده.....	٣٠١
- على مدار التاريخ كنا نلجأ في معالجة التفسخ الاجتماعي إلى القوة ومزيد من الأنظمة.....	٣٠٢
- العقوبات لا تنسى مجتمعاً لكنها تحمي.....	٣٠٢
- اقتصاد الدولة في سن النظم والتشريعات أمارة على نجاحها وفضلها.....	٣٠٢
- الترابط الاجتماعي هو الذي يميز المجتمع عن حشد الأجساد.....	٣٠٨
- إن التناجم الاجتماعي لا يتم إلا من خلال علاقات التكافؤ على الصعيدين المعنوي والمادي.....	٣٠٩
- ظلت الطبقة الوسطى على مدار التاريخ مركز الإبداع في الأمة، كما أن أبناءها - في الغالب - أحسن أبناء المجتمع أخلاقاً.....	٣١٠
- لا أحد يرضى بأن يرى مجتمعه يذوب بين يديه، لكن سوء التقدير يؤدي دائماً إلى كوارث!.....	٣١٢
- مشكلة الذين يستخدمون السلاح وسيلة للإصلاح أنهم قد يوجهونه إلى أنفسهم عندما يندم العدو أو المنافس.....	٣١٣
- قد ينجح الذين يستخدمون العنف في إسقاط حكومة متحللة، لكن أولئك يخفقون عادة في بناء نظام إسلامي صالح.....	٣١٣
- إن الخطط الإصلاحية المتصلة تفضي دائماً إلى كوارث، والذين يسعون إلى الصدام دائماً يخسرون، والعاقل من اتعظ بغيره.....	٣١٥
- لم تتعزّ بعد الابتعاد عن عواطفنا وذواتنا، فمن خالف فكريتي، فقد أساء إلي! ..	٣١٧
- حين يصبح المال المجال الأكبر للتفضائل تتعاظم العداوات والصدامات في المجتمع، ولا يكون ذلك إلا في حالة فقر الجوانب الأخرى للحياة.....	٣١٧
- يجب أن نضع خطوطاً حمراً دون حمل السلاح في المجتمع الإسلامي، لا يصح تجاوزها إلا في ظروف استثنائية ووفق شروط شرعية وفنية لا أرى أكثرها متوفراً في أي مجتمع إسلامي اليوم.....	٣١٨

(٣) فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة الطبعة الأولى المقدمة الأولى في فكر الداعية
١٣	الفكر طبيعته وأهميته
١٥	أهمية الفكر
١٩	شيء من قوانيين الفكر:
١٩	١ - المحن الكبرى تفرق ولا تجمع
١٩	٢ - نسيان دروس الماضي بسرعة غريبة
٢٠	٣ - لا يوجد في هذه الدنيا نصر نهائي
٢٠	٤ - الهموية اكتشاف دائم
٢١	٥ - تأثير الأحداث في العقائد ضخم
٢١	٦ - البحث عن مدى عصرية إنجازاتنا دائما خطأ
٢٢	٧ - الفرق بين طبيعة الأشياء ومنظفها
٢٢	٨ - استيعاب التراث شرط لاستيعاب العصر
٢٣	٩ - مثالية المؤرخين شوشت رؤيتنا لتراثنا
٢٣	١٠ - حين يصطدم فريقان يستخدم كل منهما كل ما لديه من قوة
٢٤	١١ - لا تنبثق الإنسانية إلا من خلال الفعل الوعي
٢٤	١٢ - في حالات التخلف تشتد التزعة إلى التمايل
٢٥	١٣ - الغلبة الحضارية وحل الإشكال بين النقل والعقل
٢٦	١٤ - من الشعور بالمسؤولية تولد الشخصية
٢٦	١٥ - الرؤية تتشوه عند عزل الحالة الراهنة عن مساقها
٢٧	١٦ - الأوضاع الرديئة تكون عقيدة اجتماعية مريضة
٢٨	١٧ - التخلف ومعادلة [الاندماج أو التحلل الذاتي]
٢٨	١٨ - دراسة التاريخ على أنه كتل ممزقة ضرر كبير
٢٩	١٩ - المهم كيفية حدوث الأشياء وليس أسباب حدوثها

٢٠	الإجمال في موضع التفصيل مضلّل
٢١	الذين يقدرون على مراجعة أكتارهم قلة
٢٢	العمل الدعوي أنظمة مفتوحة؛ فيصعب تقدير نتائجه
٢٣	إن المهم هو التفوق على الذات
٢٤	فقد الإطار المرجعي أربك العقل
٢٥	يجب بث روح التفاؤل باستمرار
٣٤	بعض إصابات الفكر لدينا:
٣٥	١ - نمو في التفكير الفردي على حساب التفكير بالمجتمع
٣٧	٢ - نحن لا نفكر إلا عند وجود أزمة
٣٨	٣ - التقزّم الطوعي
٣٩	٤ - الانقصال بين الفكر والمنطق العلمي
٤١	٥ - الغرق في الجزئيات
٤٢	٦ - الافتتان (بالكم)
٤٤	٧ - لا تستطيع حماية أفكارنا في ظروف متدهورة
٤٦	٨ - خطورة التشهادات الجنينية
٤٧	٩ - المنهج الرباني لا النماذج التاريخية
	المقدمة الثانية في ثقافة الداعية

٥٣	ثقافة الداعية
٥٣	أهمية الثقافة في تكوين الداعية
٥٧	مفاهيم أساسية في بنية الثقافة:
٥٧	١ - الثقافة ضمانة أساسية لاستمرار الأمة
٥٩	٢ - الثقافة كل معقد
٦٠	٣ - تكيس الثقافة
٦١	٤ - التبادل يحمي الثقافة من الذبول
٦٢	٥ - عجز الثقافة عن تلبية حاجات المجتمع
٦٤	الانتشار الثقافي
٦٦	العناصر الثقافية الظاهرة تتنقل أولاً
٦٧	الطبقات الدنيا تسارع إلى نقل العناصر المادية
٦٧	في التغير الثقافي
٦٩	الشباب يقبل التغير أكثر من كبار السن
٧٠	عوامل التغير الثقافي معقدة

٧٢	محاور أساسية في ثقافة عصرنا:
٧٣	١ - التسيبة
٧٤	٢ - التطور
٧٦	٣ - عصر التعددية
٧٨	٤ - الاستهلاك العظيم
٨١	٥ - عصر المادة والحسن
٨٢	٦ - النفعية
٨٦	٧ - مشروعية الاختراق المتبادل
٨٨	٨ - عبادة التقدم
٩١	٩ - جدلية التحدي والاستجابة
٩٤	١٠ - العدمية والتشاؤم
٩٨	في الرأي العام
٩٨	تعريف الرأي العام
٩٩	طبيعة الرأي العام
٩٩	بناء الرأي العام:
١٠٠	العقيدة
١٠١	المرحلة العامة التي يمر بها المجتمع
١٠٢	في حالات الخطر يسهل تكوين رأي عام
١٠٢	يسر تكوين الرأي العام في المجتمعات البسيطة
١٠٣	رأي العام يتشكل حول القضايا المحورية
١٠٣	وظيفة الرأي العام
١٠٤	حاجة الدول إلى مظاهرة الرأي العام
١٠٦	ثقافة الإلقاء:
١٠٦	ثقافة الصفوة
١١٠	الثقافة الشعبية

المقدمة الثالثة في سمات الداعية وسلوكه

١١٧	السلوك - رؤية جديدة
١٢٠	السمات الأساسية للداعية:
١٢٠	١ - الإخلاص
١٢١	٢ - التجدد عن المنافع
١٢٤	٣ - الشفافية الروحية

٤ - التراضع	١٢٥
٥ - الحكمة	١٢٦
٦ - الحرصن على المدعوين	١٢٧
٧ - الشجاعة الأدبية	١٢٩
٨ - الأخذ بالعزيمة	١٣٠
سمات تكميلية في شخصية الداعية:	١٣٣
١ - إنصاف الآخرين	١٣٣
٢ - المهارة في إيجاد أجواء الوئام	١٣٤
٣ - القدرة على الموازنة بين الاختلاط والعزلة	١٣٥
٤ - البعد عن (الشخصانية) في الدعوة	١٣٦
٥ - الأنأة في التخطيط والحماسة في التنفيذ	١٣٧
٦ - المصابرة	١٣٨
٧ - النوعية العليا حاجتنا	١٣٩

المقدمة الرابعة في البلاغ المبين

البلاغ المبين	١٤٣
أهمية	١٤٤
أسلوب الداعية	١٤٦
سمات الاتصال النفطي:	١٤٧
١ - التكامل	١٤٧
٢ - التوازن	١٤٨
٣ - ترتيب الأفكار	١٥١
٤ - المشاركة	١٥٢
٥ - الرفق والكياسة	١٥٣
٦ - التعويل على المناقشة	١٥٤
٧ - الجاذبية بدل القسر	١٥٦
٨ - الاقتصاد	١٥٧
٩ - ختم الرسالة الدعوية	١٥٨
١٠ - صمت الداعية	١٥٩
أسلوب الاتصال غير النفطي:	١٦٠
١ - سمعة الداعية	١٦١
٢ - المظهر	١٦١

٣ - فضيلة الاهتمام	١٦٢
التلائم مع وضعية المدعو:	١٦٤
١ - الحديث المباشر والحديث المحملي	١٦٥
٢ - مراعاة مستوى المخاطب	١٦٥
٣ - عملية الإنقاع اليوم أكثر تعقيداً	١٦٦
٤ - إشعار المخاطب بكرامته	١٦٧
٥ - تخير الظرف المناسب خصائص خطاب الصفة	١٦٧
٦ - رفع الصدى	١٧١
٧ - مخاطبة الفرد ومخاطبة المجموعات	١٧٣
٨ - الدعوة الفردية	١٧٤
٩ - هدفها	١٧٥
١٠ - الدعوة الجماعية	١٧٦
١١ - وسائل البلاغ العبين	١٧٨
١٢ - الوسائل الإعلامية العامة	١٨٠
١٣ - خطبة الجمعة:	١٨٥
١٤ - الخطيب الجيد هو قارئ جيد	١٨٦
١٥ - الإيجاز	١٨٦
١٦ - ما بين الارتجال والقراءة	١٨٧
١٧ - الكتب المؤلفة في خطب الجمعة	١٨٨
١٨ - خطبة لمداواة الجراح	١٨٩
المقدمة الخامسة في علاقات الداعية	
١٩٣ - علاقات الداعية	
١٩٤ - علاقات الدعاة مع بعضهم بعضاً	
١٩٥ - ١ - حاول أن ترسل رسالة طيبة كلما سنت الفرصة	
١٩٦ - ٢ - لنحاول اكتشاف الإيجابيات	
١٩٧ - ٣ - لنشاور إخواننا في خصوصياتنا	
١٩٧ - ٤ - لا يجوز إلباس التحسسات الشخصية ثوب الفكر	
١٩٨ - ٥ - المعرفة الكاملة صفح كامل	
١٩٩ - ٦ - لنعزز تصرفاتنا عن مشاعرنا	
٢٠٠ - ٧ - تأسيس الأعمال المشتركة	

٨ - الهدف النهائي واحد	٢٠٠
٩ - المناصحة والمناصرة أوان الشدة	٢٠١
١٠ - لا نقف مواقف التهم ولا نسارع إلى الاتهام	٢٠٣
علاقات الدعاة مع الحكم	٢٠٥
الخلفية التاريخية	٢٠٧
بناء الأرضية المشتركة	٢١٠
المقدمة السادسة في الدعوة الفردية والجماعية	
الدعوة الفردية	٢١٧
الدعوة الجماعية	٢٢٠
في بنية الجماعة الدعوية:	٢٢٣
١ - الجماعات تعيد للمجتمع توازنه	٢٢٣
٢ - لا شيء يغنى عن وضوح الهدف المشترك	٢٢٤
٣ - التجمعات الخاصة تعرّض وحدة الجماعة للخطر	٢٢٥
٤ - ليس كبر الحجم دليلاً على النجاح دائمًا	٢٢٦
٥ - التهديد الخارجي حافز على تضامن الجماعة	٢٢٧
٦ - الثقة الزائدة بالنفس تحول دون التفوق على الذات	٢٢٨
٧ - تنضج الجماعة عندما تحول الأنظمة فيها إلى عادات	٢٢٩
٨ - الجمع بين فضيلتي الوعي والكرم ضروري في ترابط الجماعة	٢٢٩
٩ - لا جماعة بدون شورى	٢٣١
١٠ - مصداقية كل جماعة تتجسد في تحويل شعاراتها إلى واقع ملموس	٢٣٢
١١ - لماذا تقسم الجماعة الواحدة	٢٣٣
المقدمة السابعة: قواعد في المنهج الدعوي	
١ - المنهج يساعدنا على اختصار المراحل	٢٣٩
٢ - اكتشاف المنهج أسهل من اكتشاف صواب الحركة به	٢٤١
٣ - سلافية المنهج وعصرية المواجهة	٢٤٢
٤ - خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الخلف	٢٤٤
٥ - لا بد من التنوع ولا بد من دفع ضريبيته	٢٤٤
٦ - لدينا مشكلات لا يحلها إلا الزمن	٢٤٦
٧ - نصف نجاحنا بسبب جهودنا والنصف الثاني من أخطاء الآخرين	٢٤٧
٨ - إذا قمنا بالواجب لم نكن مسؤولين عن النتائج	٢٤٧
٩ - التوازن بين الواقع والمثال	٢٤٩

١٠ - بين النظرية والتطبيق مفارقة أبدية	٢٥٠
١١ - القدرة على تقديم البديل هي محل التجاج	٢٥١
١٢ - من القلق إلى السكينة	٢٥٣
١٣ - بناء الإيجابية ضرورة عصرية	٢٥٤
١٤ - من الهموم إلى المفاهيم ثم الآليات	٢٦٠
المقدمة الثامنة: مفاهيم على طريق الإصلاح	
الإصلاح	٢٦٥
مفاهيم على طريق الإصلاح:	٢٦٨
١ - السلام والنظام شرطان أساسيان لوضع الأمة في الوضع المتع ٢ - لا إنجازات خارج نطاق الأمة	٢٦٨
٣ - التستر على الأخطاء يشجع على تكريرها	٢٧٠
٤ - ليس التحضر سوى قشرة والطبيعة البدائية دائمةً في الأعمق	٢٧١
٥ - تفقد الأفكار زخمها حين يُشك أنها لأغراض سياسية	٢٧٢
٦ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتهميشه ثقافة الانحراف	٢٧٣
٧ - العمل الخيري لا يغني عن النظم لكنه يكمّلها	٢٧٤
٨ - بطالة شبابنا أخطر من المؤامرة علينا	٢٧٤
٩ - المنهج الإصلاحي مجموعة متكاملة من الأنظمة	٢٧٥
١٠ - لا يمكن تحقيق المصالح الجزئية إلا في إطار المصالح الكلية	٢٧٧
١١ - الزحام يبعث على العدواية	٢٧٩
١٢ - حياة الحاضرة هُوَّت من شأن المحرمات	٢٨١
١٣ - لا بد لكل قطر إسلامي من بلورة مشروعه الوطني	٢٨٢
١٤ - المسافة بين المبادئ والعقيدة الاجتماعية هي المسافة بين الصحة والمرض ..	٢٨٤
١٥ - لا بد من فلسفة جديدة للاستهلاك والإنتاج	٢٨٥
١٦ - فقدان تقرير المصير: قاعدة الانهيار	٢٨٨
١٧ - النقلة الصناعية خطوة مهمة على طريق الإصلاح	٢٨٩
١٨ - الإرادة الحرة تكتشف الإمكان الحضاري وتتصفح	٢٩٠
١٩ - كلما تعقدت المصلحة صار ما هو فطري غير كاف	٢٩١
٢٠ - النقد البناء أهم وسائل الإصلاح	٢٩٢
٢١ - إثراء البعد الروحي أولوية حضارية	٢٩٣
٢٢ - الإنسان الحر المندمج بغيتنا	٢٩٥
٢٣ - فريضة التمييز بين الحضارة والمدنية	٢٩٧

٢٩٩	٢٤ - لا بد من إحداث انتفاضة نفسية
٣٠٠	٢٥ - القيم المسيطرة في المجتمع هي مقاييس رقيه
٣٠١	٢٦ - من المعال أن نصلح بالقوانين ما ينبغي أن نصلحه بالأداب
٣٠٣	٢٧ - على الداعية أن يصوغ خطابه على مستويين متزعين
٣٠٤	٢٨ - تعزيز التقويمات المشتركة
٣٠٥	٢٩ - لا صلاح للفرد إذا لم نصلح الوسط الذي يعيش فيه
٣٠٨	٣٠ - توسيع الشريحة الوسطى مهمة إصلاحية كبرى
٣١١	٣١ - التعانف مدمر، والعنف لا يصلح وسيلة للإصلاح
٣١٥	أسباب انتشار العنت
٣١٩	الخاتمة
٣٢٢	فهرس المراجع
٣٢٦	فهرس الأفكار والمقولات العامة
٣٣٧	فهرس الموضوعات